

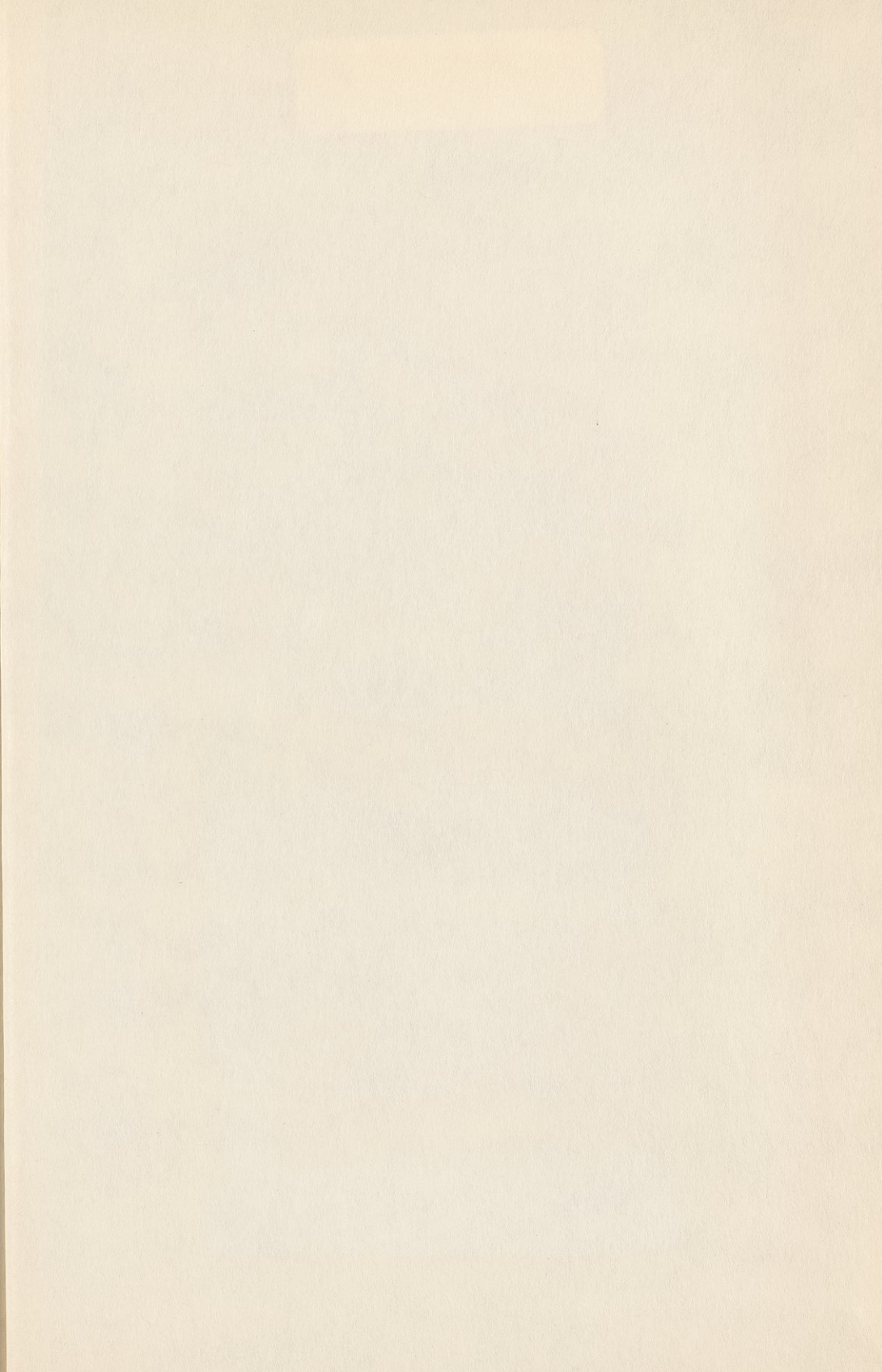
al-Jawāhir al-rūhīyah

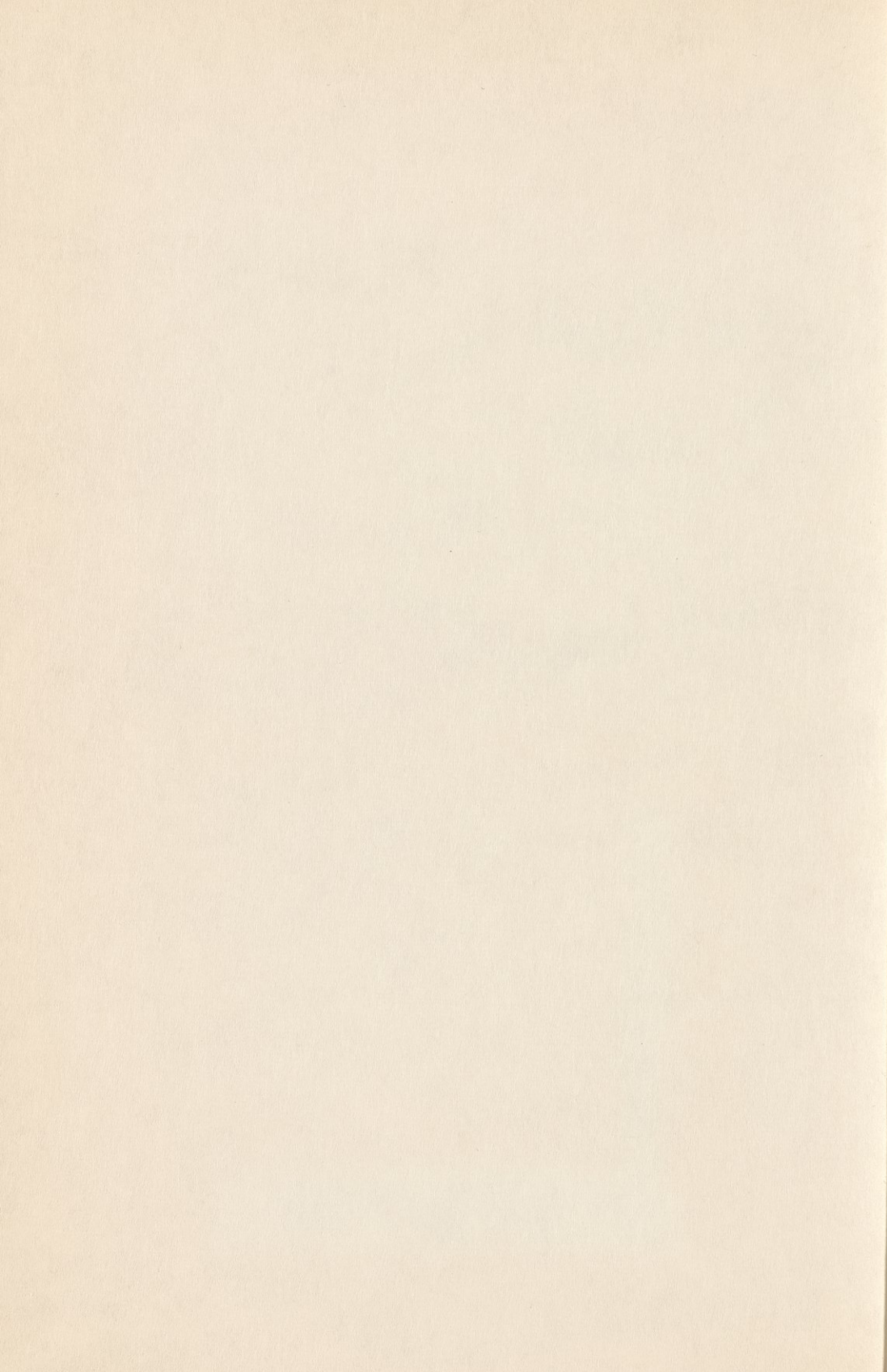
[illegible]

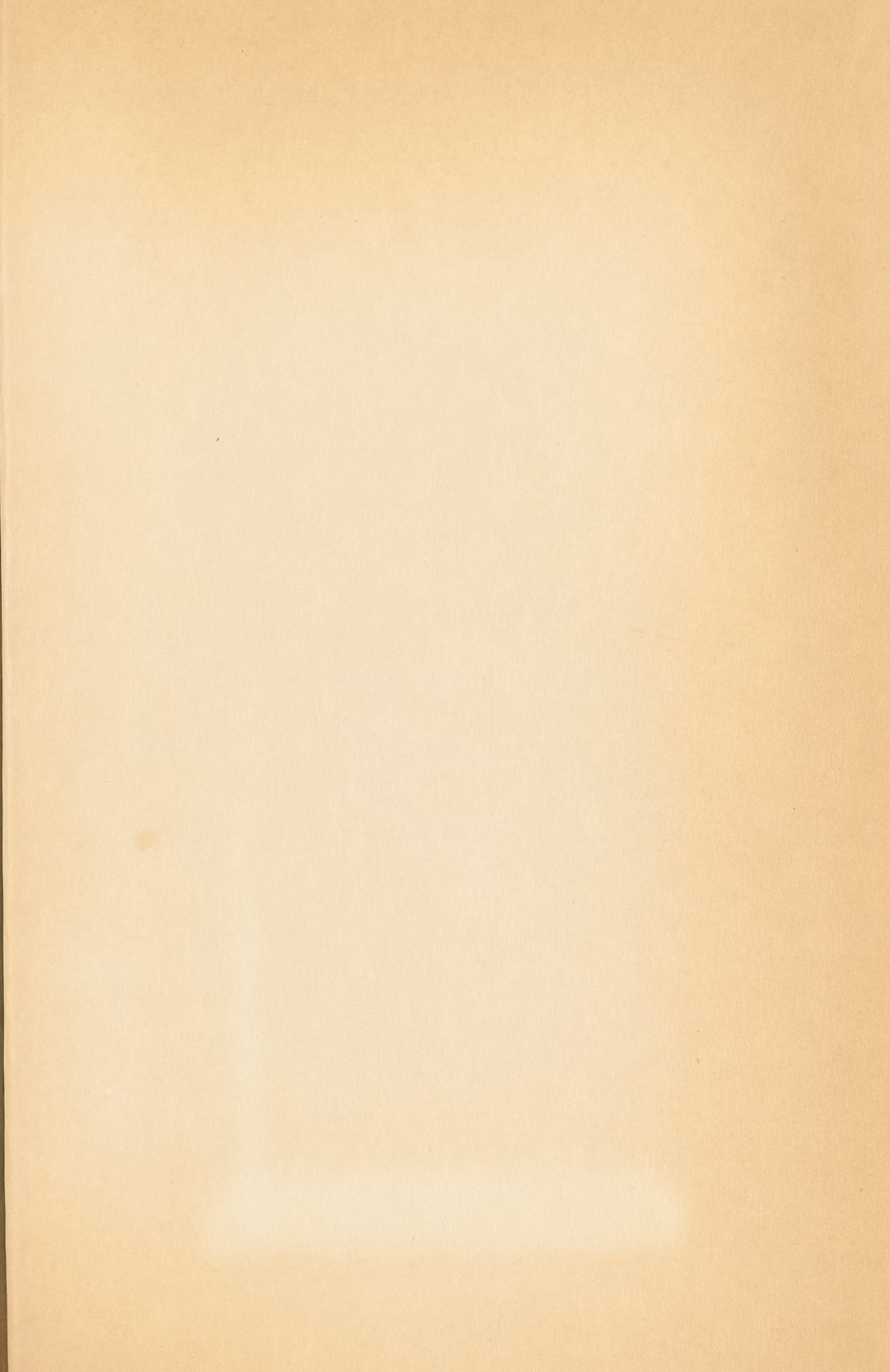
Princeton University Library



32101 074487768





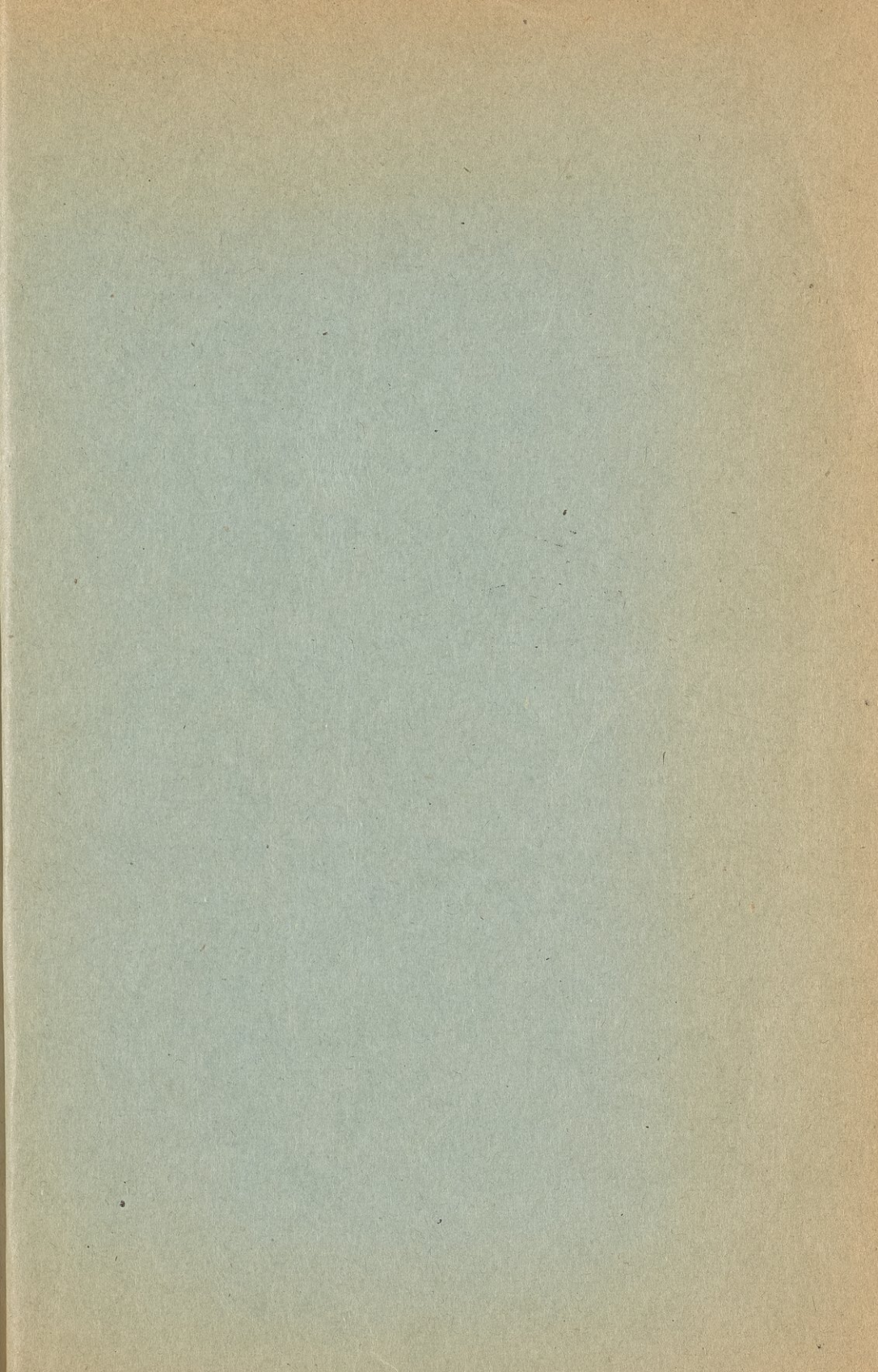


الجواهر السرية

١

طبعة النجف

في النجف



بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
١٣٧٥ هـ

al-Qabānī, Hasan Ali

الجواهر الروحية

al-Jawāhir al-rūḥiyyah

تأليف

حسن السبكي القبيشي

النجفي

الجزء الأول

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

طبعة النجف

١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م

2272

7457

.349

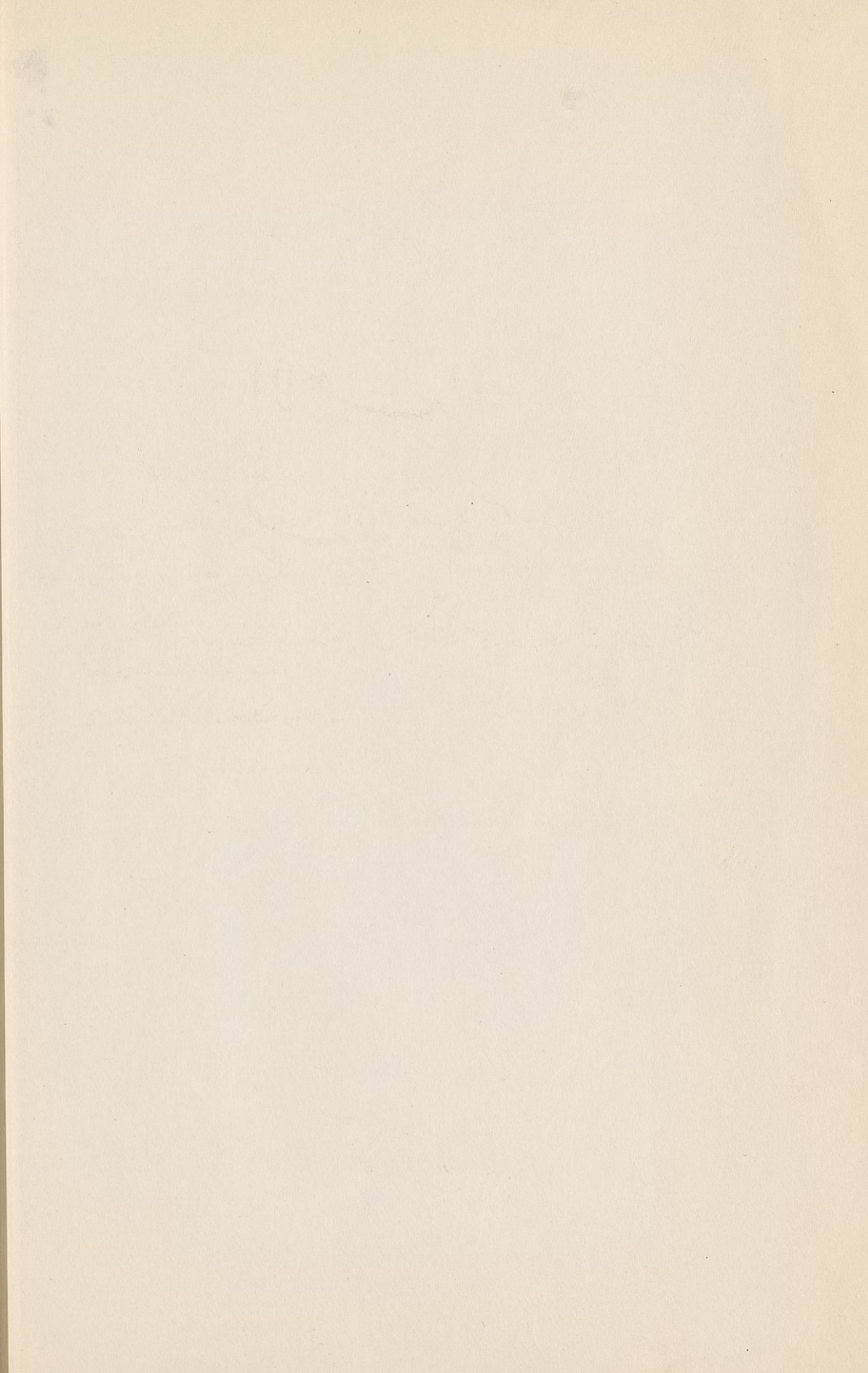
v.1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى محمد

وآله الاطهار

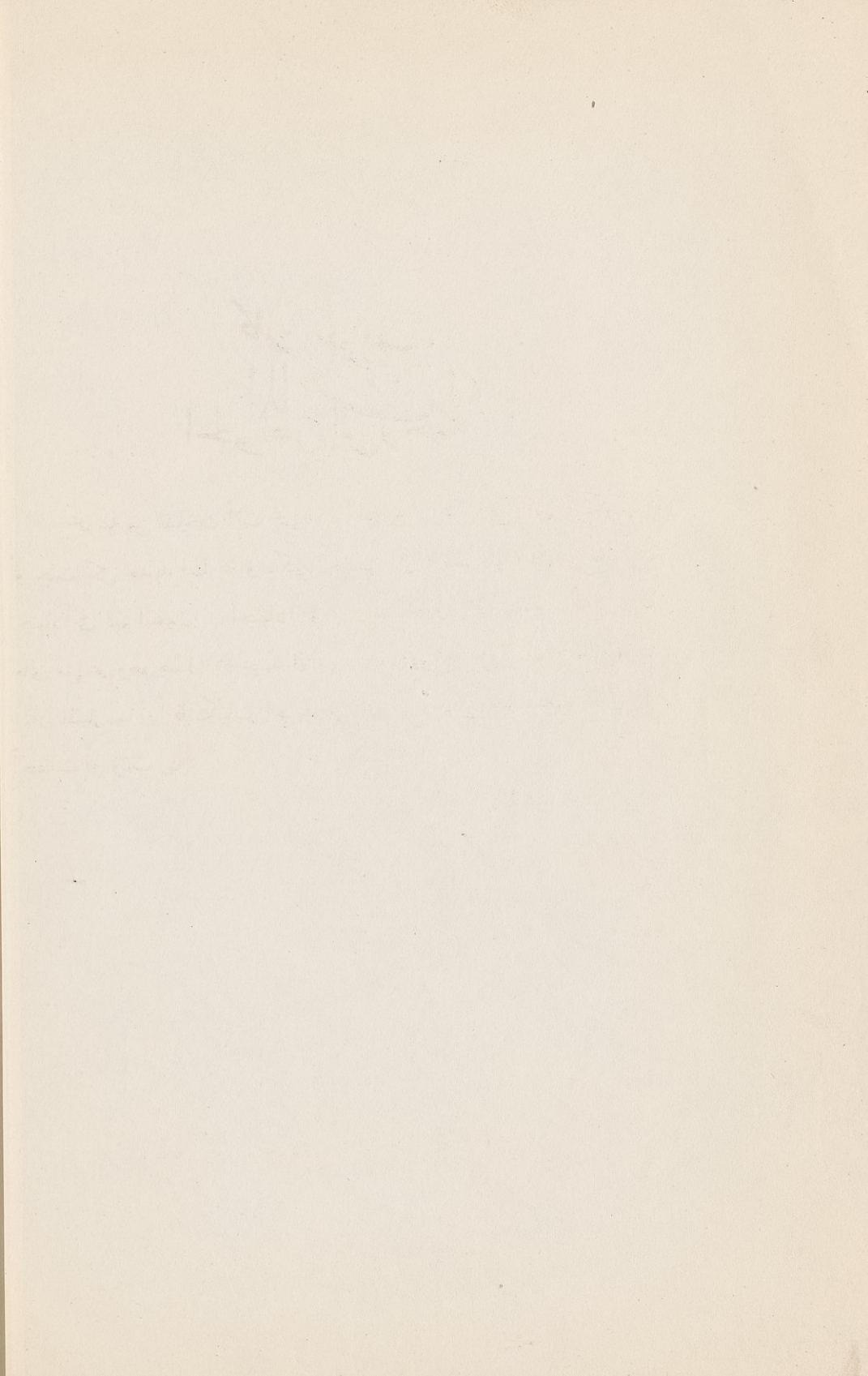
4-20-66
194



الأهتداء

الى آية الله السيد محمد جواد التبريزي
روحي فداك أيها الحجّة ، أرفع لقدسيّتك الميمونة غذاء روحك
وما ارتشفته من بحر علمك الذي لا يدرك غوره ولا يدري منتهاه
فهو منك واليك :

اهدي له ما حزت من نعمائه	اهدي لمجلسك الشريف وإنما
منّ عاينه لانه من مائه	كالبحر يطره السحاب وماله



كلمة المؤلف

الجواهر الروحانية

مجموعة من المباحث أتت على هذه الصورة ، لا أدعي أني ابتكرتها
أو جئت بكل جديد فيها ، ولكنني أحسب أني عانيت فيها اجتهداً خاصاً ،
اجتهداً في فهم المنقول ، اجتهداً في إدراك الممقول على ضوء ما آتاني الله
تعالى من علم وهو ضئيل بلا جدال ، ولكنني على أية حال جهد المقل مؤيداً
بإيمان المسلم . إذاً فالكتاب اجتهد وإيمان . وحسبي هذا وغفر الله لي إن
أخطأت أو زلت

المؤلف

المقدمة

بقلم سماحة الحجة السيد محمد جواد التبريزي دام ظله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« أفن يهدي الى الحق أحق أن يتبع امن لا يهدي إلا أن يهدي
فما لكم كيف تحكمون (١) »

اداء الواجب حتم على كل فرد لا مرد له ولا مقلت منه ، فبكما أن الناس
يختلفون فمنهم غني وفقير ، ومنهم المكفي المترف الذي لا يعمل ومنهم من يعمل
عملاً عقلياً فكرياً مجتهداً ، ومنهم ذوي المهنة العامل بيديه .

فكذلك الواجب يختلف على اختلاف طبقات الناس وأنواع هذه الطبقات .
فالواجب عند المثري غيره عند ذوي المربة ، وهو عند النبيه الصيت غيره عند الحامل
المغمور ، وإن واجب الخطيب البارع غير واجب الحكيم وهما غير واجب الطبيب ،
وواجب الطبيب الروحي غير واجب الطبيب البدني ، وواجب طبيب بدن الانسان
غير واجب طبيب البيطرة وبدن الحيوان . كذلك واجب الزارع غير واجبات
اولئك جميعاً .

لكن قيمة الواجب من حيث هو واحدة فن أدى واجبه المفروض على مثله
فقد بلغ الغاية المنشودة من كل فرد واستحق اطيب الثناء فلا يكون ممن يحبون أن
يحمدوا بما لم يفعلوا .

وانبل صورة لاداء الواجب هي صورة من يؤديه طوعية وحسبة غير

(ب)

مسوق ولا مكره ، دعاه الى تأدية واجبه داع نفسي جعله يعمل فـكره فيما يأخذ ويدع فأنبعث راشداً يلتمس السبيل الى تأدية الواجب كاملاً غير منقوص .

أما من كان يتكابر على الواجب محفوزاً برغبة مغرية او رهبة مردية فهو لم يؤد واجبه وإن أدى ؛ بل الرغبة أو الرهبة أو كلاهما معاً هما اللذان ساقاه الى ما فعل وليس ذلك اداء الواجب على اكمل وجوه الاداء ، واذا كان لكل شيء آفة فآفة المجتمع تقصير افراده أو جماعته في الواجبات ، وان المجتمع دولاب دائر لا حصر لادواته ولا منتهى لاشيائه ولن يدور الدولاب دورته الموفقة حتى تعمل ادواته واشياؤه عملها فاذا تعطل منها شيء ثم ازداد التعطل يوماً بعد يوم ، لم يلبث أن ينتقل التعطل الى كثير من ادوات الدولاب واشيائه فاذا دورته خائرة . ثم اذن بعد ذلك متعطل لا غناء فيه .

وإن ادوات المجتمع واشيائه هي واجبات افراده المختلفة باختلاف احوالهم واسباب معاشهم فاذا سرت في الافراد عدوى النكول عن اداء الواجب فقد سرت في المجتمع سارية الفساد وآذنت شمس حياته بمغيب لا عود معه .

وبأخصر عبارة ، مسالك الافراد في الامة بما منحوه من الارتباط بينهم كانصاف دائرة مركزها حياة الامة وعظمتها ، ولا يخرج ولا واحد منهم عن محيط الجنسية وانهم في جلب منافعها واستكمل فوائدها كالجداول تمتد بالبحر لتستمد منه .

ومن البديهي إنه كلما انتشرت الامراض اشتدت الحاجة الى علم الطب لمقاومتها وانقاذ الناس من فتكها ، وكذلك كلما انتشرت المفساد ازدادت الحاجة الى علم الاخلاق ومضاعفة العناية بهذيب النفوس وصقلها فهو طبها وواصف ادائها ، ولئن كان الانسان في حاجة الى العلوم فهو الى الاخلاق احوج ، لان ما يصيبه من الظلم وما يفشو بين افراده من الاجرام منشأه نقص الاخلاق اكثر من أن يكون منشأه نقص العلم ، فان العلم يخدم الفضيلة والرديلة على حد سواء .

(ج)

أما علم الاخلاق ومعرفة تهذيب النفس فظهر الفضيلة وخصيم الرذيلة ،
والفضيلة لا تكون إلا بالقيام الفعلي بالواجب ولا يكون المرء فاضلاً لمجرد انه يعلم
ما يجب عمله ، بل الفضل في أن يعمل ما يجب عمله ويترك ما يجب تركه .

ومن قام باداء واجبه وبلاغ رسالته هو صاحب هذه الموسوعة الثمينة - التي
لا غنى لاحد عنها - سيارة الخطيب البارع والمقوه اللسن والمرشد المصلح والمبلغ الفذ
علامة الخطباء وخطيب العلماء قرة عيني السيد حسن آل القباجي .

فانه ادام الله تعالى تأييده وتوفيقه لم يأل جهداً منذ نشأ وترعرع في اداء
رسالته في مدن العراق وخارجها عند صعوده الاعواد واستقراره في مراكز الخطابة
والكلام ، فان هدفه اولاً وبالذات توجيه الجمعيات البشرية الى اقتناء الفضائل
وتمحيص النفوس من الرذائل المردية لكي تسعد الامة بالاتحاد وتصون به كيانهما
من الفساد وتقيأ كوانها من الهلاك والاستيصال .

وإن احببت أن يكون الخبر عندك خبيراً فعليك بهذه الموسوعة التي اسمها
(والاسماء تنزل من السماء) « الجواهر الروحية » فانه لا أثر بمسدين وليس
الخبر كاليان أجل نظرك في صفحتها المملوءة بالحكم ، وخض في حياضها المترعة
لكي تروي ظمأك من عذب تعاليمه ولذيذ ارشاداته ، فمكماً لا غنى لك عن المواد
الغذائية لجسمك وبدنك كذلك لا تستغني عنها في تغذية نفسك وروحك . ولمثله
فليعمل العاملون ويتنافس المتنافسون .

محمد جواد الطباطبائي التبريزي

Ms. B. 1. 1. 9. 11. 12. 13.

القرآن منهاج السعادة

بسم الله الرحمن الرحيم

« ربي اشرح لي صدري ويسر لي امري واحل عقدة من لساني يفقهوا قولي » (١) .

حقيق علي أن ابدي العجز والقصور عن أداء شكر الخالق جل شأنه واطهار حمده بلساني اليراعة على صفحات هذا السفر طالبا منه تعالى أن يصلي ويسلم على أعظم حكيم هذا العالم واكبر مصلح هذا انبشراعي به خاتم الانبياء والمرسلين محمد (ص) واوصيائه البررة عليهم السلام عند شروعي بالمقصود ، ثم اتف على قمة شاخ المدنية الاسلامية الفاضلة رافعا هذه التجارير والتقارير التي هي النطق الطيار والخطاب السيار ، لأقابل بها ابناء القرآن المجيد وكافة أفراد المسلمين وجميع احزاب محمد (ص) ، ولاعرضها على جل الاصناف والطبقات من صغير وكبير وذكر واثق وما الى ذلك من النوع البشري المدرك قائلًا .

لا كتاب في هذا العصر - بل في كل العصور - يكون متكفلا باصلاح البشر واسعاده في النشأتين إلا القرآن فقط ، بل القرآن وحده هو الكفيل ونعم الكفيل ، فهو هو الجدير بالتقديس والتبجيل لا غير ، وهو هو الذي يجب اتباعه والعمل به فقط ، لانه اصل الاصول ومادة مواد كل قانون جاءت به عقلاء العالم ومفكروهم ، وكل دستور اسس لاصلاح كافة الانظمة التي رسمها المصلحون

لأراحة أفراد البشر ومجموعتهم في هذه الأرض وجرت عليها في أحكامهم وحكوماتهم ، ولا عجب فاي كتاب اخلاقي لم يكن القرآن قد ذكر خلاصته وجوهره ، ام اي قانون قضائي او حقوقي لم يتعرض هذا الكتاب السماوي للبه ولبابه ، ام اي قاعدة من القواعد الطبية او الصحية لم يحو كتابنا الحكيم اصولها ونواميسها في كلماته البليغة ام اي منهج سياسي لم يشر هذا الفرقان العظيم الى نخبته وخلاصته ، ام اي فلسفة علمية او عملية لم يجمع فيه كل غاياتها ولم تذكر منها ما لا تدركه عقول البشر بل تفوق كل غاية منها ونهاية .

أجل واي فيلسوف لم يكن عيالا عليه في آرائه وافكاره واي اخلاقي لم يكن محتجداً تعاليمه من رياضه .

فلو نظرت الى علماء هذا العصر لوجدتهم خاضعين الى هذا السفر الجليل مستمدين منه ما لا تصل اليه افكارهم السامية ولم تدركه آدمغتهم الجبارة ، ألا ترى الى (ديفونبورت) وهو يقول في كتابه (اعتذاراً الى محمد والاسلام) : (يجب أن تعرف اوربا أن العلوم التي انعشتها في القرن العاشر من فلك وفلسفة وعلوم طبيعية ورياضية كلها مقتبسة من القرآن) ، وهذا (كارليل) الانكليزي الكاتب الشهير يكتب في كتابه (الأبطال) الباحث عن رجال العالم وعظائمه عندما يصل الى ذكر محمد (ص) : (اما القرآن فانه ما برح في كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل والقانون المتبع في شئون الحياة ومسائلها والوحي المنزل من السماء هدى للناس وسراجاً منيراً يضيء لهم سبل العيش ويهديهم صراطاً مستقيماً ، وهو مصدر أحكام القضاء والدرس ، الواجب على كل مسلم حفظه والاستئارة به في غياب الحياة) ، ثم يقول فيه صفحة ١٤٢ ايضاً : (والاخلاص المحض الصراح يظهر لي ان فضيلة القرآن التي حببته الى العربي المتوحش هي أول فضائل الكتاب وآخرها ايأ كان وهي منشأ فضائل غيرها بل لا شيء غيرها) ، ثم يعود ثالثاً في كتابه فيقول :

(إذا خرجت الكلمة من اللسان لم تتجاوز الآذان ، وإذا خرجت من القلب نفذت الى القلب ، والقرآن خارج من فؤاد محمد (ص) فهو جدير أن يصل الى أفئدة سامعيه وقارئيه) .

فيا أيها الانسان تدبر تجد أن الحياة الابدية والعيش السرمدي والسعادة الدنيوية والفيوضات الاخروية كلها لم تكن ولم تحصل الا باتباع القرآن وتدبر آياته والوصول الى حقائقه وحكمه « أفلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفلها » (١) .
فاليكم يا فلاسفة هذا العالم وحكام هذه الكرة الارضية انصح قائلاً أن لا حكمة نظرية ولا فلسفة عملية إلا وهي في هذا القرآن العظيم .

وانتم أيها المرضى والمصابون بأنواع الاسقام المزمنة والعاهات المعضلة انكم لم تجدوا ولن تجدوا دواءكم بغير هذه الصيدلية الاسلامية الشافية ، « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء » والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى » (٢)
وهذا يقول معاذ بن جبل سائلاً رسول الله (ص) وقد كان في سفر بخدمة
يا رسول الله حدثنا بما لنا فيه نفع ، فقال (ص) : « إن أردتم عيش السعداء وموت الشهداء والنجاة يوم الحشر والظل يوم الحرور والهدى يوم الضلالة فادرسوا القرآن .

معاملة السلف للقرآن

بديهي ان القرآن روح الامة وحياتها ونحن المسلمون اذا ما اعرضنا عن القرآن فقد اصبحنا قلوباً بلا روح وامواتاً بصورة احياء .

(١) محمد الآية ٢٤ .

(٢) فصلت الآية ٤٤ .

وقد كان هذا القرآن الحكيم لسلفنا من المسلمين دليلهم الهادي ودستورهم الشخصي ومرشدهم العام في كافة أمورهم يتأدبون بأدابه ويرشدون بتعاليمه قد اتخذوا اتباعه فرضاً يحيون بري آياته صوادي قلوبهم ويوقظون باوعاده ومرغباته عواطفهم واحساسهم ، وبذلك تراهم قد بلغوا الشرف الباذخ ونالوا السعادة في الدارين حتى دوخوا العالم وملكوا الرقاب طوعاً وكرهاً .

ولقد كان هذا الفرقان العظيم روح الامة الاجتماعية وحافظها الرئيسي تحت ظل قوله تعالى : « ولا تهنوا في ابتغاء القوم أن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون » (١) كما كانت حياة قلب الفرد ومنبع شعوره واحساسه ، ولا أدل على تمسكهم بهذه الآلية من وقوفهم تلك الوقفة الحيرة للعقول بلا أي آلة حرب يدعون بها قبالة تلك السيوف الهندية والرماح الخطية كالليوث الضواري والسباع الجائعة الى أن فتحو تلك الفتوحات الجيارة ودوخوا تلك الممالك المظيمة الواسعة ، وحتى نالوا في طي ربع قرن لا أكثر ما جعلهم يطأون باخضهم هام الرقي والعزة بعد تلك الذلة والانحطاط ويملكون نواصي القياصرة والأكسرة فتخضع لهم بالبودية والصغار رضيت أم أبت .

قال المؤرخ (جرجي زيدان) في كتابه (التمدن الاسلامي) : (لا غرو إذا اهتم المسلمون بجمع القرآن وحفظه لان عليه يتوقف دينهم ودنياهم ، واساس الاسلام وقوامه القرآن ، ففي تأييده تأييد الاسلام ، ولما دانوا بالاسلام اصبحت هممتهم تلاوته وتفهم احكامه لانه قاعدة الدين والدنيا) . هكذا كان السلف مع انقرآن وبهذا كان يعامله ، ولكن هلم ولننظر الى انفسنا نحن اهل هذا الجيل مع القرآن ومعاملتنا إياه أترانا اتباعنا السلف في اعمالهم وعاملناهم كما عاملوه به ؟ كلا ليس الخلف كالسلف ، بل الجدير بنا أن يقال لنا : « نخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة

« راتبعوا الشهوات » (١) ولو (قلت): قد نبذ الكتاب حملته وتناساه حفظته لما عدت الصواب ولم تتجاوز الحقيقة . كيف لا ونحن بدلا من أن نتعمق في القرآن وآياته ونحمله تحليلا كيمائيا دقيقا وندرسه درساً صحيحاً ونتأمل مضايه وخصوصياته ونعرف كنهياته وإشاراتِه ونمِل مع مرعايته العلمية والعملية . (أقول) بدلا من كل ذلك فقد أصبح ويا للأسف عندنا منبوءاً في جملة كناسة المسجد أو الجامع ، أو محمولا على الأعضاء لمعوذة يتعوذ به دون العمل بما فيه ، أو أن يعلق على قبة طاق القصر تيمناً وتماؤلا أو أن يوضع على صناديق المقابر وصخورها شهوراً وسنيماً فلا يقرأ به حتى يكتسي جلدًا ثانيًا من الغبار والتراب .

فلا غرو إذاً لو ابتلينا بما ابتلينا به من البلايا والمحن والنل والصفار وكنا اذل الامم واشقاها إذ لم نتبع احكامه ولم نع تعاليمه ، ولا معنى إذاً لتذمرنا وتضجرنا من سلطة الغرب علينا وتعمدي الغربيين والاروبيين علينا ، فان كل ما منينا به هو من ايدينا وشقاء انفسنا نحن لاننا هجرنا القرآن وجعلناه وراءنا ظهريا (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم) (٢) »

لماذا يشتكي الغير فتي يجني على نفسه
كلص قد جفا الحار س مذ جاء الى رمسه

أجل ويجب أن نكون كذلك لان مواد الكائنات اجمع من اي نوع كانت اذا ما تحولت عن مركزها ومحورها الحقيقي انقلبت بلا شك الى حالة اخرى غير ملائمة ، أما الى افراط وإما الى تفريط . وبديهي أن السعادة لا تنال إلا بالمشقة ، والمعالي لا يرتقى اليها إلا بالسعي والعمل « وان ليس للانسان إلا ما سعى » (٣) .

وإن هذه اليتيمة السماوية الغالية لم نعرف قيمتها لنحتفظ بها ، ولم نتبع

(٢) الرعد الآية ١١ .

(١) مريم الآية ٥٩ .

(٣) النجم الآية ٣٩ .

تعالمها الحكيمة لثفوز بما وعدنا الله تعالى به في هذه الآية الشريفة البليغة اذ يقول : « وأكوا استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا (١) » ويقول ايضاً : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض (٢) » ونروي قلوبنا من نعيمها ونحوز على بركاتها العلوية والسفلية وخيراتنا الروحية والمادية كما حصل لاعضاء المحفل المصري اثر الخطبة التي خطبها فيهم رئيسهم العلامة الفيلسوف السيد جمال الدين الافغاني صاحب كتاب (رد الطبيين) والعروة الوثقى، حيث اخذوا يعملون باوامر القرآن ونواهيها ، ويتخذونه رائداً في اعمالهم واقوالهم طيلة شهور عديدة لا يتخلفون عن العمل بما فيه ، ولا يحيدون عن تعاليمه وارشاداته حتى رأوا بأعينهم مصداق الآية الشريفة ، وحتى اعتقدوا بصدق مغزاها وحقيقة أثرها الجليل في انفسهم بعد العمل بالقرآن واتباع ارشاداته الحققة .

وهل بعد رأي العين شك لناقد وهل بعد نور الشمس يطلب شاهد

محفل مصر

وخطبة جمال الدين الأفغاني

هو المحفل الوطني الذي شكاه العلامة السيد جمال الدين الهمداني الشهير بالأفغاني في مصر يوم كان هناك ، فكان له ذلك الأثر العظيم الذي رن صدهاء في آفاق الاسلام وسمع بتبجيله الخاص والعام .

هذا هو المحفل الذي لو تصفحت حياة رئيسه العلامة الأفغاني وتلميذه الشيخ محمد عبده مفني الديار المصرية لعرفت ماله من المكانة السامية والذكر الجليل والتقدير على صفحات المجلات وطبي الصحف ، ولبانت لك قليل من كثير من منافع وآثاره الجليلة في العالم الاسلامي ، وبالجملته فهو محفل عجيب في وضعه عجيب في نظامه عجيب في اعضاءه ، محفل لا يشبه سائر المحافل ، محفل لا يدخله سباب ولا فحاش ولا لص ولا متقلب ، محفل لا تطأه أقدام انسان مفطور على بذر رذائل الصفات وخسائس الخلال كحب الشهرة والتخلق بالاخلاق الغير الاسلامية والكذب وما الى ذلك ، محفل اشترط على اعضاءه أن تكون مرآت ذهنيهم وصفحة خيلتهم صافية غير ملوثة بدران الاخلاق الفاسدة والملكات الخبيثة لاسيما الانانية وحب الذات ، وان يكون حاضراً بماله ونفسه وروحه فداء للاسلام والمسلمين في كل مناسبة وحاجة وقد بلغ عددهم ٤٠ عضواً ، وعند ما كمل النصاب شرعوا في الكلام والبحث عما اجتمعوا لأجله ، وكان موضوع بحثهم معرفة فلسفة ترقى الاسلام ورفعته في بدء الدعوة ، والكشف عن سر انحطاطه في هذا العصر . وبديهي أن مثل هذا البحث

الدقيق لا يخوضه إلا من عركته التجارب ونظر الى الامور بعين البصيرة ونقدها نقد العارف الخبير . وهكذا كان اعضاء هذا المحفل الديني الوطني ، فانهم بعد طول البحث والتحقيق وبعد النقض والابرار والجرح والتعديل اجتمع رأيهم بعد أن اهتموا الى السر الذي كانوا يفتشون عنه في بحثهم هذا على أن الدين الاسلامي الحنيف والكتاب العزيز الحكيم كانا ولم يزالا دعامة الرقي وال عمران (١) ، ورائد الروح والجسم الى العزة والسمو والرفعة والسؤدد لهذا النوع البشري كافة ، وان اسلافنا في صدر الاسلام لم يبلغوا ذلك المقام الرفيع وتلك العزة السامية إلا بتمسكهم بمبادئ القرآن الجليلة علماً وعملاً ، ولم نصل نحن الى هذه الذلة والانحطاط إلا برفضنا تعاليمه وارشاداته الحقة « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم (٢) » .

إذا فمن الجهل بفلسفة هذا الانحطاط الذي انتابنا نحن في هذا العصر أن نتذمر من اعتداء الغربيين وتسيطر الاوربيين علينا إذ السبب هو أنفسنا نحن ووجود الاخلاط الفاسدة التي تبطننا منذ اعرضنا عن الكتاب العزيز ، وهو أمر طبيعي جار لدى كل امة في هذه البسيطة ، فما من امة تهيم عليها الاجنبي إلا للنفاق الذي يحدث فيها ، وما من بناء يهدم إلا لتضعض أسسه وانهار دعائمه وما من شجرة تصبح طعمة للنار إلا بعد تفخرها ووجود دودة تتولد منها فتفسدها وتجفف ثمرتها . وعلى هذا فماذا نستفيد من الجزع والهلع من الاجنبي وكل ما حدث فينا هو منا وعلينا ، بهذا وامثاله كانت مذاكرات تلك الهيئة واولئك الاعضاء حتى حصر لديهم الداء وعرف الدواء فكان العلاج هو العمل بنواميس الدين الاسلامي الحقيقي ، لان برء اجسام المسلمين المريضة ونشور ارواحهم

(١) جاء في المنجد العمران البنيان اسم لما يعمر به المكان وتحسن حاله من كثرة الاهالي ونجح الاعمال والتمدد .

(٢) الرعد الآية ١١ .

ليس إلا بالاعتداء بالسلف الصالح ، وان التمسك بالعروة الوثقى من تعاليم الاسلام والعمل بها هو الجبل المتين المنجي من هذا الذل والصغار والمخرج من هذا العار .

خطبة السيد الافغاني

وعندما كل نصاب المحفل في الجلسة الخامس عشرة قام السيد جمال الدين خطيباً واغتتح خطابه بقوله :

اللهم قلت وقولك الحق : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين (١) » ، اللهم اني ادعوك وهؤلاء النفوس الزكية تؤمن على دعائي بنيات صادقة خالصة لوجهك الكريم أن ترشدنا الى سبيل الهداية والرشاد .
أيها السادة :

من البديهي المعلوم ان القرآن العزيز هو المدنية الانسانية الفاضلة والصراط المستقيم الى السعادة البشرية السكاملة ، إن القرآن هو الدستور المقدس الذي تشرفت به كل الاديان الحققة في العالم ، إن القرآن هو البرهان الساطع على ان الدين الاسلامي الخفيف خاتمة كل الاديان السماوية الى يوم القيامة ، إن القرآن هو الضامن لسعادة الدارين وفوز النشأتين .

أو ليس من المؤسف أن يهجر مثل هذا الدستور المقدس الذي انارت قبسة من انواره المضيئة جميع انحاء هذا العالم عندما عمل به ، ثم هبط الى هذا الدرك من الانحطاط والضعفة عندما هجر الكتاب وغفل عن ارشاداته وتعاليمه الحكيمة المصلحة .

أو ليس من المؤسف أن نرى فوائده الجليلة ومنافعه العامة تنحصر في طرحه مع كناسة المساجد ، أو بتزيين طاق النصر معلا في المهرجانات والاعياد ، أو باستعماله معوذة في البيوت والخوانيت ، أو بشده احرازاً على ايدي الرجال لقصد طلب قوة الاعضاء ، أو في رؤس الاطفال ورقابهم للحفاظ او يكون متجراً تتجر به الكتييون والوراق واضرابهم .

أو ليس من المؤسف أن يعرض عن هذا القرآن الجليل وباصغر سورة منه وهي (العصر) التي لا تتجاوز الثلاث آيات كانت سبباً لنهضة أهل الصفه حيث تمضوا ببركة هذه السورة فجهلوا مكة بيت الاصنام ومنبع الشرك روضة من رياض الوحداية ويبتغ من بيوت الله الرفيعة .

أو ليس من المؤسف أن يكون الكتاب السماوي كلام الله العزيز ومنبع السعادة الانسانية اقل عناية واهتماماً من ديوان سعدي وشعر حافظ ورباعيات مثنوي وقصائد ابن الفارض ، فكم تليت المذسوجات الشعرية في الاندية والمحافل فارغمت لها الاسماع وانفتحت لها الافواه واستوحت منها العقول المواعظ السماوية والمعاني البديعة الارضية ، ولا كذلك القرآن الحكيم الذي أحكم كل شيء ، ثم هدى وأرشد لكل فضيلة ونهى عن كل رذيلة ، فسبحانك اللهم انت القائل وقولك الحق « نسوا الله فأنساهم أنفسهم (١) » . بلى نسيناك يا رب فخرمتنا من انعكاس حقائق ذكرك المقدس على مرآت قلوبنا ، وسبحانك اللهم انت القائل وقولك الحق : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم (٢) » ، بلى لقد اعرضت نفوسنا عن طاعتك وتمديسك فابدلت سعادتنا بالشقاء وشرفنا بالذل والهوان .

أيها السادة عليكم بذكر الله الاعظم وبرهانه الأقوم ، فانه نوره المشرق

« ١ » سورة الحشر الآية ١٨ .

« ٢ » سورة الرعد الآية ١١ .

الذي به يخرج من ظلمات الهواجس ، وبه يتخلص من عتمة الوسوس ، وهو مصباح النجاة من اهتدى به نجي ومن تخلف عنه هلك ، وهو صراط الله القويم من سلكه هدي ومن اهمله غوى . عليكم بالفوز بما انتشر من لئالء مقالات صاحبه عليه الصلاة والسلام كقوله صلوات الله على قائله : (إذا أراد الله بقوم سوء قل منهم العمل وكثر فيهم الجدل) ، وقوله عليه السلام : (ثلاث لا يغفل عليهن قلب امرء مسلم ، اخلاص العمل لله ، والنصيحة لائمة المسلمين ، والزموم لجماعتهم) وقوله (ص) : (المسلمون اخوة تتكافأ دماؤهم ، يسعى بذمتهم ادناهم وهم يد على من سواهم) ، واشباه هذه من الفرر الزاهرة التي تضمن كل واحدة منها سعادة الامم كلها والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . ولما انتهى الى هذا الموضع من الخطاب اغمى على ثلث المستمعين من اعضاء المحفل تأثراً بتلك الخطبة البليغة وارجح على الباقي فلم يتكلموا ، أما هو فجعل يبكي ويكرر قوله اي وحقك اللهم نسيناك فذسينتنا ، قالها مراراً حتى غشي عليه ، وبقي ذلك المحفل مدة ثلاث ساعات وال سكوت مخيم عليه والهيبة الدينية مهيمنة على ارجائه والخشوع على اعضاءه ، فعندها قام صهر خديو مصر (اتابك) بواجب الاسعافات اللازمة حسب ارشادات الدكاترة وبواسطة بعض المنعشات والمعطرات المنبهة حتى انتبهوا من تلك الجذبة الالهية الى جنبه اصلاح الهيئة الاسلامية ، وعاد المحفل الى صورته الرسمية السابقة واسترجعوا قواهم للمذاكرة والبحث عن كيفية علاج الحالة التي اجتمعوا لاصلاحها ونقبوا عن دوائها ، واخيراً كان الرأي المجمع عليه والحكم المقرر للعلاج هو التزام كل فرد من المسلمين وفي مقدمتهم اعضاء المحفل باتباع اوامر القرآن ونواهيه من دون أى تخلف او انحراف عنهما ، مقتدين باسلافهم في صدر الدعوة الاسلامية عاملين بها عن نية خالصة وسريرة صافية ، مبتعدين عن كل رذيلة نهى عنها القرآن العزيز كالحقد والبخل والحسد والطمع ، ملتزمين ببساطة العيش وترك المحرمات

والعمل بالواجبات وبكلما سعد به السلف الصالح وسار عليه من قول او عمل .

ولأجل ذلك فقد كان أول خطوة خطاها الأعضاء في هذا السبيل وأول

تضحية قدمتها للدين الاسلامي ولاصلاح المسلمين هي :

١ : - اذا باع كل فرد منهم ما كان لديه من التجملات الصورية والكاليات الظاهرية من الزينة والمأكول والملبس وما الى ذلك مما لا ضرورة فيه لحياة البساطة ان يأتي بثمانه الى صندوق المحفل ليجمع فيه لأجل تنفيذ غاياته السامية من الأخذ بساعد الضعيف وقضاء حوائج المحتاجين من المسلمين .

٢ : - أن يلتزم كل منهم بأكل أبسط المأكولات التي كان يأكلها قبلاً ويسلم تفاوت ألوان الأطعمة وأنواع المأكولات اللذيذة الى صندوق المحفل لتلك الغاية أيضاً

٣ : - أن يجعلوا انفسهم مسؤولين أمام القرآن المجيد فكان عليهم أن يتلو كل فرد منهم في الـ (٢٤) ساعة على الأقل ربع جزء من القرآن بتفكير وتأمل وامعان في معانيه ومراميها ، وأن يعمل بموجب المواد السبعة عشر الآتية :

(١) أداء الفرائض جماعة والنوافل مجتمعين ، (٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، (٣) الدعوة الى الدين الاسلامي الحنيف ، (٤) المجادلة مع دعاة النصرانية بالتي هي احسن ، (٥) العطف على الفقراء والاحسان اليهم ، (٦) اعانة المحتاجين وقضاء حوائجهم قدر الطاقة ، (٧) صلة الرحم ، (٨) عيادة المريض ، (٩) تفقد الغائبين ، (١٠) زيارة القادمين ، (١١) أداء حقوق الله من الأموال والأرباح ، (١٢) ارشاد الجاهل وتنبيه الغافل على الأمور الشرعية ، « ١٣ » تنزيه النفس وتقديسها من كل ملكة خبيثة لاسيما الأنانية وحب الذات والتكبر ، « ١٤ » العفوع عن المذنبين خصوصاً مع القدرة ، « ١٥ » كظم الغيظ « ١٦ » الاعراض عما لا يعني ، « ١٧ » أن يصحب كل عضو من الاعضاء دفترًا خاصاً على الدوام ليكتب فيه كلما يعمل به من هذه المواد ويحرره بنفسه كما لو

احسن الى فقير أو هدى غريباً أو زار قادماً أو تنقذ غائباً أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو عاد مريضاً أو وصل رحماً أو أُرشد جاهلاً أو نبه غافلاً أو أجاب قساً أو نصح فاسقاً فتاب ، أو أزال رذيلة أو عفى عن خطيئة أو كظم غيظاً أو أسلم على يده كافر أو أدى حقاً وماشابه ذلك ، يكتبها كلها في دفتره ليعرضها ليلاً على اعضاء المحفل فترسم في دفتر المحفل الخاص ، حيث تدون اعمال كل الأعضاء وتشخص لوقتها .

على هذا النظام الديني عمل الاعضاء ، وعلى هذه الوتيرة سار القوم في اعمالهم الدينية مع شدة المراقبة من انفسهم على انفسهم لمدة عشرة اشهر تماماً .
ويكفيك دليلاً على شدة تمسكهم بهذه المبادئ الجليلة ان دعوى ذات يوم احد الاعضاء الى حفلة عظيمة عامة أقيمت في القاهرة بمناسبة افتتاح المحجة الحديدية من القاهرة الى بور سعيد ، فحضر هو مع المدعويين ، ولما رجع سأله احد الاعضاء عن فائدة هذا الحضور لنفس المدعو أو للإسلام ، فاعترف بأنه لغو لا طائل تحته ، ولا أجل ذلك فقد فرض هذا العضو المدعو على نفسه مبلغ خمسين جنيهًا انجليزيًا لصندوق المحفل كفارة ما عمله مما لا يعنيه ولا يفيده . وجملة القول فقد كانت ذخيرة الصندوق في ظرفية شهر واحد ١٥٠٠٠ جنيه انجليزي رصدت للإصلاحات النوعية الاسلامية . كما وقد رسم من عمال الاعضاء في تلك المدة في دفتر المحفل طبقاً للنظام المفروض عليهم .

١٥٠٠ جنيهًا لعيادة المرضى ، ٢٧٠٠ لزيارة المسافر ، ٥٠٠٠ لتنفذ الغائب ، ١٢٠٠٠ للحوائج المقضية ، ٨٠٠ لتوبة شارب الخمر ، ١٣٠٠٠ لتارك الصلاة إن عاد ، ٨٠٠ لازالة الفاحشة من اربابها ، ٨٠٠ للمستخدمين من المسلمين في الدوائر الانكليزية إن ترك وظيفته بالنظر الى حرمة خدمة الكافر .

ثم انتموا الى المحفل والتزموا بالعمل بنواميسه الدينية ، كما ان ٥٠٠ شخص من اعيان البلاد واكابرهم قد تركوا الزرجات الظاهرية والتجملات الكمالية

في البيت والمطعم والمشرب واصبحوا بسيطي المعيشة لا يعبهون بلذائذ الدنيا وزخارفها المغرية .

ومن جملة اعمال هذا المحفل المدهشة في مدة هذا الشهر أن أعطوا رأسمال وافٍ الى خمس وسبعين تاجراً خسروا تجارتهم واصبحوا لا يملكون شيئاً ، ودفعوا مؤنة سنة كاملة الى ٢٠٦ من الفقراء كانوا يسألون بالكف حتى اكتفوا ، وذلك بعد تحقيق فقرهم ، وارشدوا خمساً وثلاثين نصرانياً وخمسة عشر يهودياً و٧٠ عابدين الى دين الاسلام الحق ، كما وقد رسم للاعضاء ايضاً ٤٤ مجلساً جرى فيه البحث والجدال مع مبشري النصرانية فلوردوا عليهم ١٢٠ اعتراضاً ورداً عقلياً واجتماعياً لم يجيبوا عليه وافلجوا وسلموا بعد العجز . هكذا كان عملهم ، وهكذا اثمر هذا العمل الجبار حتى لم يشعر المستشار الانكليزي وبعبارة أوضح السفير البريطاني في مصر إلا وقد أخذ النفوذ البريطاني يتضاءل وسيطرته تقل الى نحو ٤٥ في المائة عما كانت عليه ، والتجارة قد تنازلت الى ٣٥ في المائة ، والدعوة المسيحية من قبل المبشرين قد بلغ أثرها واحداً من ستة عشر في جميع نواحي افريقيا بعد عمل خمساً وثلاثين سنة من تبشيرهم الجدي المتواصل . وهذه الدوائر الرسمية قد علا ضجيجهم وكثرت شكواهم من وقوف دفة اعمالهم لخروج ثمانين مستخدم من المسلمين كانوا اهل خبرة ودراية كاملة بالاعمال ، ثم لم يقبلوا الرجوع الى الخدمة لانهم مسلمون والدين الاسلامي يمنعهم من خدمة الكافر ، وهذه الشركات الانكليزية عجت الى حكومتها من وقوف تجارتها التي كانت تسير سيراً حثيثاً الى الامام قبل افتتاح هذا المحفل الديني الوطني العجيب . كل ذلك كان بسبب هذه العدة المحدودة من اعضاء هذا المحفل الشريف ، لانهم عملوا بوظائف دينهم وواظبوا على السير بموجب أوامر القرآن ونواهيهِ .

فيا لله ما أعظم هذا الدين الخفيف ، وما أحكم هذا الفرقان العظيم ، وما

اسعد تابعيه والعاملين بموجبه ، وما أقرب الفوز في الدارين من معتقيه والسعادة في النشأتين من ذويه .

اعظم بسفر قد آتى كافلاً للخير في آياته السامية
إذ كل من يعمل فيها غداً منعا في عيشة راضية
وكل من يجرها عامداً لاشك يمسي وهو في الهاوية
فاعمل بما فيه تكن فائزاً في هذه الدنيا وفي الآتية

أما (لورد كرومر) فقد صرح في مذكرته بقوله : (إن هذه الاوضاع الغير الملائمة لم تكن مخالفة للسياسة ولا هي مضادة لاعمالها ، وليس لنا ان نتخذ احداً من هؤلاء النفر مقصراً امام العدل أو مسؤولاً عن اعماله الدينية ابدأً ، ولكني مع ذلك فاني احذر اولياء الامور من حكومتي أن هذا المحفل الوطني الديني اذا بقي الى مدة سنة واحدة اخرى مع هذه الحركة المتصلة في آسيا الغربية والمركزية وفي افريقيا الشمالية والشرقية ، وان السيد جمال الدين الهمداني صرفه الحال رغد العيش في مصر ، فان سياسة بريطانيا وتجارتها لم تنعدم من قارة افريقيا فحسب ، بل ان سيادة اروبا باجمعهما تصبح مهددة بهيمنة هذا المحفل العجيب وسيحدث في تاريخها وجوداً تاريخياً غير منتظر حتى لم يبق منها اثر محسوس على صفحة هذا العالم . وقال في مذكره له اخرى : (إن المحفل الوطني الديني المصري قد اصبح اكبر عائق دون تقدمنا في اعمالنا فالواجب الاسراع في تفريقه والاستعجال في تشتيت افراده والقضاء على هذا الدستور والعمل به .

وجاء في مذكرته الثالثة يقول : (إن هذا المحفل الوطني المصري ل احسن برهان واوضح دليل على سبب استيلاء العرب على المعمورة قبل ثلاثة عشر قرناً ، ذلك الاستيلاء المحير للعقول الذي دوخ مدة ربع قرن ثلث المعمورة مستولياً على الارواح والاجسام . وكتب احد دعاة النصرانية في القاهرة الى أحد أعضاء مجمع كنيسة (سان بول) اكبر كنائس العالم في لندن : (لم يدر في خلاي انسان

ولم يتصور اي خيال ولم يدرك اي دماغ جبار أعظم وأعجب من أن تقهر ستمائة مليون من اولاد الانجيل مع علمهم واقتدارهم امام نفر معدود وهم اربعون انساناً ، لا بل أمام روح انسان واحد وسيد درويش واحد ايراني قد تقمصت في هؤلاء العدة المعدودة فقط) . واخيراً كتب رئيس البنك الانكليزي في مصر الى أحد اصحابه في لندن قائلاً ايها الاخ العزيز :

(إن من غرائب الدهر أن نرى اروبا في مصر اليوم واروبا المستقبل في كل العالم ستكون مقهورة منحدرة امام نفر معدود لا سلاح لديهم سوى الدين ولا كفاح عندهم سوى بساطة العيش وحب النوع الانساني فقط) .

وعلى هذه الوتيرة وبهذا النسق من المذكرات كانت اولياء الامور الانجليزية تحذر حكومتها من خطر هذا المحفل الشريف العالي في لندن ، حتى اجبرت الحكومة على اتخاذ التدابير الصارمة خلاف كل ناموس من نواميس البشرية في العالم ، فاعدمت هذا المحفل الوطني الديني بصورة وحشية بهيمية حيث اعلنت المحاكم العرفية في مصر فسفرت السيد جمال الدين الى اوربا ، وبعدت الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية وتلميذ السيد لمدة ثلاث سنوات ، وفرقت جمع الأعضاء بانواع التفريق والتبعيد . وبإختتام اغلق المحفل الوطني الديني بعد أن سار ذلك السير المنتظم المشمر طيلة تسعة اشهر وأيام .

فاستيقظت اروبا بعد هذا وكادت ان تكون كلها عيناً ورصداً ، تنظر الى الاسلام من جهاته الست ، فلا تدع في أي جهة من جهات العالم الاسلامي نسمة للسعادة تهب على ابنائه ، ولم تبق بريقاً من نور الأمل بالوجود يلمع في افقهم الرحب الواسع البتة .

فيا ايها المسلمون ألم يتضح لكم الآن معنى قوله تعالى : (وألواستقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا) « ١ » . ألم تفهموا أن عمل اربعين رجلاً بقوانين

الاسلام عن صدق واخلاص - في ظرفية تسعة اشهر - كيف زلزل اركان الدولة البريطانية .

واعلموا ان الدنيا السعيدة بالعمل بالقرآن ، والآخرة المضيئة في الاعتصام بحبله المتين ، يقول جل شأنه : (من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) (١) فتعاليم القرآن الثمينة ليست روحية بحتة وأخرورية محضة ، ولم تقل ان تعاليمه المادية أكثر فليست باقل من تعاليمه الروحية .

فالقرآن يجمع بين الدنيا والآخرة ، حيث انها متلازمان ومتلاصقان ، بل الوصول الى الجنة الروحية بدون المادة من المستحيلات ، ولذا أثر عن معادن الوحي والعصمة أئمة الهدى صلوات الله عليهم قالوا : (من لا معاش له لا معاد له) ، وعن ابي جعفر الباقر (ع) قال : « إني لأبغض الرجل أن يكون كسلاناً في أمر ديناه ، ومن كسل عن أمر ديناه فهو عن أمر آخرته أكسل . والأخبار في الحث على تحصيل الدنيا واصلاح أمر المعيشة بحمد التواتر ، والقرآن نفسه ينص على ذلك بقوله : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) ، «٢» وكلما كان في الصدر الأول من الأدوات الحربية والآلات الدفاعية المناسبة لتلك العصور والملائمة للنظم العسكرية من سيف ورمح وسهم وخيل وغيرها فقد جعل القرآن تحصيلها وتقائها من الفرائض المهمة على المسلمين (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) (٣) وقد ورد في تفسيرها أن المراد من القوة هو السيف والسهم والترس ، ومن هنا كان المسلمون من أرقى الأمم في هذه الصنائع ، او لا تنظرون الى ما امتاز به الدين الاسلامي عن سائر الاديان في تشريع المعاملات حيث اوجب الارث وحلل البيع

(١) سورة النساء الآية ١٣٣ .

(٢) سورة القصص الآية ٧٦ .

(٣) سورة الانفال الآية ٥٩ .

والهبة والقرض والمزارة والمساقات والشركة وبين احكامها وشرائطها وحرم الربا والسرقة ، وشرع النفقات والصدقات وندب الى الصدقات وقسمها الى واجب كالزكاة ومنسوب كغيرها ، وسنّ العقوبات السياسية من القتل وقطع اليد والجلد والرجم والنفي من البلد وغيرها من التعزيرات التي هي مورد البحث للفقهاء والمجتهدين . ولا ريب في ان كل هذه الأمور لأجل حفظ النظم الاصلاحية للبشر في دنياهم ، فلو لم يكن لهم مال لم يكن لتشريع المعاملات وجه ومحل ، وما كان يتصور وقوع البيع والربا والسرقة . ومن الواضح أن هذه القوانين التي شرعت من قبل العالم بالنظام الاصلاح لأجل حفظ سعادة البشر في الجنبه المادية ، ولان يتوجهوا بعد نيلهم الدنيا السعيدة بعقول فارغة وأفكار غير مشوشة الى اداء وظائفهم الروحية التي هي الدواء لداء نفوسهم المريضة ، وينمدون على الله تعالى صافين من كل درن متحلين بكل فضيلة متخلين عن كل رذيلة ، (ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) (١) .

فبملاحظة ما سردنا لك من الآيات الكريمة والآثار القطعية تعلم أن القرآن لم يمنع أحداً من الكسب الحلال وطلب المال الذي يوجب الثروة والرفاهية للبشر في دنياهم ، بل النصوص القرآنية تأمرهم بطلب الحلال وترغبهم في طيبات الدنيا وزينتها : (قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق) (٢) ولم يكتف بأية أو آيتين بل اورد سلسلة من الآيات الكريمة في الموضوع نفسه قائلاً : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) ، (٣) (لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم) (٤) ، (وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً) (٥) ، (فكلوا مما غنمتم

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٠ .

(٢) سورة الاعراف الآية ٣١ .

(٣) سورة المؤمنون الآية ٥٠ .

(٤) سورة المائدة الآية ٨٦ .

(٥) سورة المائدة الآية ٨٧ .

حلالاً طيباً) (١) ، (كلوا من طيبات ما رزقناكم) (٢) (احل لكم الطيبات) (٣) (كلوا مما في الارض حلالاً طيباً) (٤) ، وكان من دعاء النبي الأ عظم (ص) (اللهم بارك لنا في الخبز ولا تفرق بيننا وبينه ، فلولاً الخبز ما صلينا ولا صمنا ولا أدينا فرائضنا) ، وروي في الكافي عن الصادق « ع » انه قاله : (لا خير فيمن لا يحب جمع المال من حلال يكف به وجهه ويقضي به دينه ويصل به رحمه . فقد عاتب رسول الله «ص» عثمان بن مظعون على تركه الدنيا وتحليه عنها ، وذلك ان ابن مظعون لما نظر الى الدنيا وفنائها وسمع من النبي «ص» المواعظ البالغة حملة ذلك على ان لبس الثياب الخلقة ، وترك اهله ومضى الى بعض جبال المدينة ليتخلى للعبادة فجاءت امرأته يوماً الى بيت النبي «ص» فلما دخل «ص» البيت عرفها فقال هذه امرأة اخي عثمان فقالت له زوجته نعم يا رسول الله ، لكن يا رسول الله زوجها فارقتها ومال الى بعض الجبال للعبادة ، ومن هذا امراته لم تمس الطيب مدة ولم تلبس أنحر ثيابها ، فلما سمع النبي «ص» كلامها خرج غضباً ناعجاً يجر طرف رداءه على الأرض فرقى المنبر واجتمع الناس وامر باحضار عثمان فابلق الخطبة وقال : أتريدون ديناً خيراً من ديني وسنة اهدى من سنتي والله لو كان اخي موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي ، انظروا الى ما افعل اني اصوم وافطر واصلي وانام وانكح النساء وآكل واشرب ، ثم التفت الى عثمان وقال له : إن الله سبحانه غني عن ثيابك هذه الخشنة . فقم وانزعها وادخل على اهلك وخالطهم واكتسب لهم ، فترك عثمان ما كان فيه ، وهكذا عاتب علي عليه السلام عاصم بن زياد لتركه الدنيا لما دخل على اخيه العلاء بن زياد الحارثي عائداً له في مرضه ، قال له علاء : « اشكو اليك يا أمير المؤمنين أخي عاصم بن زياد قال «ع» : « وما له ؟ » قال : لبس العباءة وتخلى من

(١) سورة الانفال الآية ٦٨ .

(٢) سورة البقرة الآية ٥٦ .

(٣) سورة المائدة الآية ٤ .

(٤) سورة البقرة الآية ١٦٧ .

الدنيا ، قال علي به فاجاء قال «ع» له : يا عدي نفسه لقد استهام بك الخبيث ، أما رحمت اهلك وولدك ، أترى الله احل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها ، انت اهون على الله من ذلك ، قال يا أمير المؤمنين : هذا انت في خشونة ملابسك وجشوبة مأكلك ، قال «ع» مشيراً الى نكتة مهمة : ويحك اني لست كأنت إن الله فرض على أمة العدل ان يقدروا انفسهم بضعفة الناس كيلا يتبىخ بالفقير فقره .

دفع اعتراض

مع وصف شرح الدنيا مذمومة وممدوحة

إن قيل ان الاخبار الواردة عن الأئمة الأطهار صلوات الله عليهم في ذم الدنيا والامر بتركها للكثيرة قد تبلغ حد التواتر وهذا نهج البلاغة فانه إن لم يكن نصفه فبالقطع واليقين قد جاء ثلثه في ذم الدنيا مضافا الى سائر كتب الاخبار وفوق ذلك فان القرآن الحكيم نفسه قد بلغ الدرجة القصوى في تحذير البشر من اتباع الدنيا والركون اليها ، ومع ذلك كله فكيف يمكن ان يقال ان القرآن المجيد هو الذي يسوق الناس الى الجهات الدنيوية ويأمرهم بها .

﴿ نقول ﴾ في الجواب عين ما قاله الامام علي ﴿ع﴾ لمن سأله بقوله : والله إنا نطلب الدنيا ونحب أن نؤتيها ، فقال الامام ﴿ع﴾ : تحب ان تصنع بها ماذا ؟ قال اجود بها على نفسي وعيالي واصل بها رحمي واتصدق بها واحج واعتمر ، فقال له الامام ﴿ع﴾ : (هذا ليس بطلب الدنيا هذا طلب الآخرة) .
﴿ أقول ﴾ إن غرض الامام ﴿ع﴾ هو ان الدنيا لما كانت مقدمة للآخرة وليست هي بنفسها مورداً للمدح والذم ، بل ان ممدوحيتها ومذموميتها تابعان

لذي المقدمة أي الآخرة ، فإن كان طالبها إنما يطلبها لاتباع شهواته الحيوانية فقط ، ويرى أن الوصول الى غايته منوط بها حتى انه يصبح وهو غاض النظر عن كل الجهات الخيرية المشار اليها في الاخبار الواردة عن الامام (ع) مما يتعلق بخير امته وقومه ، كمساعدة الفقراء واغاثة الملهوف وصلة الارحام وأداء الفرائض المالية وامثالها ، بل لم ينظر ولم يقصد في الطلب إلا ما تعلق باغراضه الخسيسة الحيوانية وتكميل تلك الامور الزائلة الوقتية ، كان ذلك ولا شك نظراً لما يتصور فيها من المفساد مذموما وكان ذم مثل هذه الدنيا واضحاً بل اظهر وضوحاً من الشمس ، بل ان مثل ذلك لا يحتاج الى بيان الأئمة (ع) او برهان الهداة والمقدسين في الدين ، وليس كلامهم وبياناتهم في مثل هذا الباب إلا من باب التنبيه والتذكير ، ولقد أشار القرآن الكريم الى هذه الناحية بقوله : « فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق) ، ومنهم من يقول : (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقمنا عذاب النار أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب (١) » وإن أمير المؤمنين (ع) لم يذم الدنيا التي هي مقدمة للخير ، وان خطبته الشريفة التي خطبها بعد رجوعه من صفين والتي نذكرها ذيلاً لشاهد صدق على ذلك ، وهي التي تكفينا في دفع امثال هذه التوهّمات وغيرها .

قال (ع) وقد سمع رجلاً يذم الدنيا :

أيها الذام للدنيا المغتر بغرورها ، المخدوع باباطيلها أنتغر بالدنيا ثم تذمّها ، أنت المتجرم عليها أم هي المتجرمة عليك ؟ متى استهوتك أم متى غرتك ؟ أبمصارع آبائك من البلى ؟ أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى ؟ كم عللت بكفيك ، وكم مرضت بيديك تبغي لهم الشفاء

وتستوصف لهم الأطباء ، لم ينفع أحدهم إشفافك ولم تسعف بطلبتك ، ولم تدفع عنه بقوتك ، قد مثلت لك به الدنيا نفسك وبصره مصرعك ، إن الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار عافية لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها ، ودار موعظة لمن اعطى بها ، مسجد احياء الله ، ومصلى ملائكة الله ، ومهبط وحي الله ، ومتجر أولياء الله ، اكتسبوا فيها الرحمة وربحوا فيها الجنة . فمن ذا يذمها وقد أدنت بينها ، ونادت بفراقها ، ونعت نفسها واهلها ، فثلث لهم ببلائها البلاء ، وشوقتهم بسرورها الى السرور ، راحت بعافية وابتكرت بفجيرة ترغيباً وترهيباً وتخويفاً وتحذيراً ، فذمها رجال غداة الندامة ، وحملها آخرون يوم القيامة ذكرتهم الدنيا فتذكروا ، وحدثهم فصدقوا ، ووعظتهم فآلعتوا .

(اقول) وقد قال الله تعالى في الذين ذموا يوم الغنلة إذ قالوا : « رب ارجعوني لعلي اعمل صالحاً فيما تركت » (١) واجيبوا بجواب (كلا إنها كلمة هو قائلاً) « الذين ذل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه فخبطت اعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا (٢) » وقال تعالى ايضاً في مادحيها : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً خالدين فيها لا يبينون عنها حولا (٣) » . فأتضح مما تقدم أن القرآن

(١) سورة المؤمنون الآية ٩٨ - ٩٩ .

(٢) سورة الكهف الآية ١٠٣ - ١٠٤ .

(٣) سورة الكهف الآية ١٠٦ - ١٠٧ .

المجيد قد جاء مطابقاً للعقول البشرية فكأنه قد ذم الدنيا التي ليس الغرض منها سوى الوصول الى الشهوات النفسانية وتقوية الجنبه الحيوانية . ثم حذر البشر منها إذ يقول : « اعلّموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتماخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل غيث عجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الفرور (١) » .

أما الدنيا التي يكون الغرض من تحصيلها هو اصلاح شؤون الامة الاسلامية وحفظ بيضة الاسلام فان القرآن الحكيم قد ساق الناس الى طلبها . بل جعل تحصيلها من أهم الفرائض الاسلامية فقال تعالى : « وابتنع فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا (٢) » الى غيرها من الآيات الحكيمة الكثيرة .

(١) سورة الحديد الآية ٢٠ .

(٢) سورة القصص الآية ٧٦ .

المنيا

في نظر الانجيل الفعلي للمسيحيين

هلم معي لننظر متأملين في انجيل المسيحيين الفعلي ، ثم تقيسه بقرآنا المجيد لنرى أي التعليمين اصلح للبشر ، واي الكتابين أوفق للعقول وأقرب للتصديق ، لنحكم ببقاء الاصلح وأنه هو القابل للاتباع في دستور الحياة وغيرها جاء في انجيل متي في الاصحاح التاسع عشر عدد (٢٣) ان عيسى (ع) قال لتلاميذه : (الحق أقول لكم انه يعسر أن يدخل غني الى ملكوت السموات ، عدد (٢٤) منه واقول لكم : (ايضاً) ان مرور حمل من ثقب ابرة ايسر من أن يدخل غني الى ملكوت الله .

وفي الاصحاح العاشر عدد (٩) منه ايضاً : (لا تقفوا ذهاباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا احذية ولا عصا .

الذي يظهر من هذه التعاليم وامثالها أن الانسان يجب أن يصرف نظره عن جميع اموال الدنيا وحتى عن ضروريات حياته ، كما انه في سفره يجب أن لا يحمل معه شيئاً من الطعام والملبوس والمال . تأمل هل ترى مثل هذه التعاليم يناسب أن يأتي بها مثل عيسى (ع) ؟ أو أن يأمر بها أحد حواريه الذين رباهم وعلمهم قوانينه الحكيمة واخلاقه الفاضلة ، على انه لو فرض أن أحد متتوري هذا العصر أراد أن يصلح امته لم يأمرهم برفض الدنيا التي هي مقدمة كل خير ، ولا باتباع التعاليم التي تمنعهم من نيل المقاصد الاخرية ، واذا فعل ذلك فإن أول من يسفهه ويعتبره مختل الدماغ هم المسيحيون انفسهم .

وإذا كان الامر كذلك فكيف يمكن نسبة مثل هذه التعاليم الى المسيح ،
الذي بعث لاصلاح البشر وبيان ما ينفعهم في الدنيا والآخرة ، أو أن يقال ذلك
في حق الحواريين الذين رباهم المسيح حتى فاقوا سائر الناس في النبل ووفور
العقل والفطنة والذكاء . ثم نأتي فنقول ما هو تقصير المتمول المثرى حتى يكون
دخوله في الملكوت الآلهي محالا ؟ أو ان ولوج الجمل في سم الخياط الممتنع
عقلا اسهل من دخول نفس من النفوس في جماعة الرب . أترى أن تناول شيء
مما خلقه الله تعالى لنفع البشر حيث قال تعالى : « خلق لكم ما في الارض
جميعاً (١) » هو مما يستحيل غفران الله تعالى عن تناوله ، حتى يكون الغني المسكين
بواسطة غناه من مال الله تعالى مطروداً من باب الله تعالى بكل وجه من الوجوه
وغير قابل للدخول في الملكوت ؟ والأعجب الأنكى من هذا هو أن طالب الكمال
يجب أن ينفذ يده من كل ما يملك وينفقه على الفقراء ، وإن لم يفعل لم يكن كاملاً
كما هو صريح الأنجيل متى في الاصحاح التاسع عشر عدد (٢١) حيث يقول
عيسى (ع) : « اذا أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبيع املاكك واعط الفقراء
فيكون لك كنز في السماء » . تأمل أيها العاقل وانظر ان الرجل الحكيم المصلح
اذا أمر المتمول ببذل كل ما يملك على الفقراء بحيث يصبح هو وعائلته عالة على الناس
وحتى يمد يد الحاجة الى كل أحد يستجديه ، أترى أن مثل هذا الحكيم يعد
مصلحاً للانسانية ؟ أو ليس حد الافراط والتفريط مذمومين عقلاً ووجداناً ؟
أو لم يحكم الوجدان والقطرة ان خير الامور اوسطها بهذا الحكم
القطري صرح وأمر قرآناً المجيد ، حيث قال : « ولا تجعل يدك مغلولة الى
عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً (٢) » وقال تعالى في مدح
المعتدلين في البذل : « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك
قواماً (٣) » .

الكتاب السماوي

هو منهج الحياة وقانون الاصلاح

ليست الكتب السماوية كغيرها من الكتب التي ملأت من الابطال والمزخرفات وحشيت مما يلائم الازواق والميول الحيوانية والطباع البهيمية ، تلك الكتب التي لا تتوقف من الكذب لتجلب القراء والمطالعين وتهش اليها النفوس الواطئة ، ولا تستحي من ذكر المبهات الكبرى والمجہولات الصغرى بقواف جميلة وسجع مطرب ، لتستنتج منها جلب الافكار الساذجة والادمغة الفارغة مثل (فرائد مرزا ابى الفضل الكلبيكاني) و (ايقان مرزا حسينعلي واشباههم) .

أما الكتاب السماوي الذي هبط من السماء ونزل من شاخ مقام الربوبية لاصلاح امور الخلق معاشية ومعادية ، وليكون قانوناً اصلاحياً لمنهج حياة البشر لا يعقل أن يأتي باحكام غير الاحكام الاصلاحية للعادة والروح . إذا فكل كتاب لم يحو التعاليم المصلحة للمعاش والمعاد ولم تكن تلك التعاليم مصقلة للعقول البشرية بالمعارف الصحيحة عد من الابطال ولم يكن كتاباً سماوياً ولم يقدر البتة . والآن لو نظرنا ولا حظنا تعاليم التوراة والانجيل الحاضرين المقدسين لدى المسيحيين رأينا اغلبها إن لم نقل جلها مخالفة لصريح الوجدان . إذ هي في الحقيقة من موجبات تقهقر البشر ومن مسببات الشقاء العام كشقاء العقول وشقاء المادة وشقاء الروح ، وبعبارة اجمع شقاء المبدأ والمعاد .

ولعلنا نستعرض فيما بعد بعض تلك التعاليم ثم نعقبها تدريجاً في الفصول والعناوين الآتية تحت عنوان التعاليم المنورة للفكر من القرآن المجيد ، حتى

يتضح لك من ذلك ما حوته تلك الكتب من الشقاء على حسب ما قيل : (يعرف الشيء بضده) وستعلم بأن تسميتها بالكتب المقدسة هو من قبيل (تسمية الشيء باسم نقيضه) ، وان ساحة الكليم والمسيح مقدسة عن امثال هذه التعاليم السخيفة ، إذ لا يعقل أن هذين الكتابين هما من تعاليم تلك الدوات القدسية العالية ، أو انهما مربوطان بالتعاليم السماوية السامية ، او انهما هما الانجيل والتوراة المنزلان من الحق تعالى والمذاهبان هبطا ليكونا منهجي الاصلاح للبشرية وقانوني الكمالات والتعاليم والسكنى لما وقعا في الايدي الخائنة من اناس بعدوا عن الحقيقة ألبسوها من الاغراض النفسية والاهواء الخسيسة ما نزعوا بذلك عنها المطالب العالية حتى اخرجوها بهذا اللون البشع وهذا الوضع السخيف المؤسف .

يقول القرآن المجيد موبخاً لهم : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً (١) » . ثم نشرؤا تلك المطالب الغير المناسبة والتعاليم المغزية للبشر لا عن اساس ، وسموها الكتب الالهية والوحي السماوي كذباً وميناً . ومن له اقل تفكير ومعرفة ونظر بعين البصيرة والعقل لما رأى في هذا اليوم وقبل اليوم وبعد اليوم كتاباً مقدساً وديانة حققة تهدي النوع الانساني الى الرقي وتهذيب الاخلاق وتدلهم على خير الدنيا والآخرة وتضمن لابناء آدم النجاة والسعادة في الدارين سوى القرآن الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وسوى الدين الاسلامي الحق . وإليك ما يقوله علي أمير المؤمنين (ع) في موضوع القرآن في بعض خطبه :

ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحها ، وسراجاً لا يخبو توقده ، وبجراً لا يدرك قعره ، ومنهاجاً لا يضل نهجه ، وشعاعاً لا يظلم ضوءه ، وفرقاناً لا يخذل برهانه ، وتبيناً لا تهدم أركانه ،

وشفاءاً لا تخشى اسقامه ، وعزاً لا تهزم انصاره ، وحقاً لا تخذل أعوانه ، فهو معدن الايمان وبجوحته ، وينابيع العلم وبحوره ورياض العدل وغدرانه واثافي الاسلام وبنياته ، واودية الحق وغيطانه ، وبحر لا ينزفه المنتزفون ، وعيون لا ينضبها الماتحون ، ومناهل لا يغيضها الواردون ، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون ، واعلام لا يعمى عنها السائرون ، وآكام لا يجوز عنها القاصدون ، جعله الله رياً لعطش العلماء وربيعاً لقلوب الفقهاء ومحاج لطرق الصالحاء ، ودواءاً ليس بعده دواء ، ونوراً ليس معه ظلمة ، وحبلاً وثيقاً عروته ، ومعقلاً منيعاً ذروته ، وعزاً لمن تولاه وساماً لمن دخله ، وهدى لمن إلتزم به ، وعذراً لمن انتحل به وبرهاناً لمن تكلم به ، وشاهداً لمن خاصم به ، وفلجاً لمن حاج به ، وحاملاً لمن حمله ، ومطية لمن عمله وآية لمن توسم ، وجنة لمن استلأم ، وعلماً لمن وعى ، وحديثاً لمن روى وحكماً لمن قضى .

وقد أوصى ولديه الحسن والحسين عليهما السلام عند ما ضرب به ابن ملجم واشرف على المنية ، فقال : « الله الله في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم » وكأنه عليه السلام كان ناظراً الى هذا العصر خائفاً من الغرب أن يأخذوا تعاليم قرآنتنا وان نهملها نحن المسلمون فيكونوا وبالا علينا ويسلبونا راحة الدين والدنيا . نعم هكذا فعلوا وسيفعلون ونحن نيام لا يرجى انتباهنا ، وسكارى لا يؤمل صحونا .

أجل وهذا القرآن الكريم يأمرنا بالصدق والاخلاص والاعتدال في الاعمال

والتجارة فيقول : (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده واوفوا الكيل والميزان بالقسط واذا قلم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله اوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » (١) ولكن هل ترى شيئاً رائجاً في سوق المسلمين سوى الكذب والخيانة ؟ وسوى البخس في الكيل والميزان مما تأباه تعاليم القرآن وتنجل منه جبهة الانسانية ؟ اللهم لا ، ولكن عسى أن يستقيموا اذا ما اتبعوا القرآن الحكيم وتعاليمه القيمة .

حكاية تسمع

حدثني استاذي الأوحد فقيه الامامية المتخصص بالحكمة والفلسفة وقطب دائرتها السيد محمد جواد التبريزي دام ظله العالي ، قال نقل لي أحد الثقات انه كان في بلدنا أخوان ارمنيان وكان ابي كثير التردد عليها ، وكان كلما جلس عندهما اظهر لهما محاسن الاسلام وطلب اليهما أن يساعدا حتى قبل أحدهما الاسلام ، ولكنه طلب من أبي كتمان اسلامه عن اخيه لانه خشي أن يحتل امر تجارتهما . وبعد اسبوع من اسلامه صانف اخوه أبي فقال له : إني أراك اقنعت اخي بالاسلام فاسلم ، فقال له ابي : لم أحتمل أن أخاك يسلم مع تعصبه الشديد لمذهبه ، فقال لا ، اني لم أقل جزافاً بأن أخي أسلم ، لان لدي قرائن وشواهد تدل على اسلاميته وذلك ان أخي لم أكن أعهد منه كذباً ، ولم تكن في قاموسه لفظة كذب وان له مدة اسبوع أراه يكذب وبهذا عرفته مسلماً فاعتبروا يا اولي الأبصار .

القرآن يأمرنا بالمواصاة ومساعدة بعضنا بعضاً ويقول : (المؤمنون اخوة)

ولكننا لم نعمل بما أمر ، بل أصبح من أكثر صفاتنا شيوعاً الحقد والحسد وسحق بعضنا بعضاً وعدم مساعدة الفقير ، ولو كان يقف بذنا الأمر الى هذا الحد لكان سهلاً ولكننا اصبحنا نسعى في إتلاف اخينا المسلم .

اما الغرب فان مساعدة المحتاج والأخذ بيده واعانة الفقير عندهم من أوليات الوظائف الانسانية ، وان لم تصدق فاسئل من جاورهم ورأى سيرهم في بلادهم واطلع على أحوالهم . فاذا عرفت ذلك عرفت مغزى كلام إمام المتقين أمير المؤمنين عليه السلام لاولاده : (الله الله في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم) .

اسمعوا ولا تسمعوه خيراً

في سنة ١٣٤٨ من الهجرة جاءني أحد اخواني العاملين بالجزء الثاني من مجلة (المرشد العربي) ، التي كانت تصدر في اللاذقية للاطلاع على بعض مطالبها الدينية التي كانت تنشرها يوم ذاك ، فصادفت في اثناء مطالعتي لقسم الاجتماعيات منها نصيحة لكاتب فرنسي ينصح بها المسلمين ، فأحببت أن أذكرها بنصها العربي وبامضاء مترجمها مصطفى رزقاء الحلبي الذي كان قد ارسلها الى صاحب المجلة للنشر ، ليعلم النشء المتجدد معنى التجدد على الحقيقة ، وليعرف القصد من التمدن حسبما يشرحه لهم هذا الغربي الاروبي غير المسلم وإليك ما كتبه تحت عنوان:

القسم الاجتماعي

المتجددون الطائشون والتفريج الفاسد

الاسلام هو الجامع بين الدين الصحيح والحياة العملية

نصيحة المسيو (تونون) الى المتفريجين في الشرق :

عاد في هذا العام الى حلب صديق لنا وهو من البعثة المدرسية التي ارسلتها الحكومة الى فرنسا ، وحين مقابلتنا اياه اخبرنا في جملة حديثه انه في مدة وجوده هناك قابل المسيو (تونون) صهر مستشار معارف حلب (المسيو بالان) وهو من هيئة محكمة الاستئناف العليا بمدينة (اكس پروفانس) . كان هذا الرجل من اولئك المخنكين الذين جلبوا الدهر اشطره ، وعرفوا الاهور على حقائقها وميزوا اللباب من القشور والفضائل من الفجور ، فدارت بينهما احاديث من جملة الحديث التالي الذي فصله لنا مشافهة ونحن الآن نقله ونشره على مسامع القراء ، ليتيقظ المتفريجون ويشوبوا الى رشدهم إن كانوا يعقلون .

قال المسيو (تونون) لصديقنا الموحى اليه في جملة احاديثهم ما معناه (إنكم معاشر الشرقيين مولعون بتقليدنا ولكن اولئك الذين يقلدونا لا يقلدونا في الامور الحسنة المفيدة مادة ومعنى مما بني عليه رقي اروبا واستعدادها وتقوقها المشاهد ، بل يقلدونا في رذائل الامور وفي المفاصد والخلاعة وفي السفساف التي لا تجدي نفعا حتى وفي الاشياء التي تعد داءاً مضرّاً يفتك في جسم اروبا مما ينتقده عقلاؤهم انفسهم ، ويبذلون الجهود الخاصة والعامة لمقاومته ومحاربته

في جملة ما يحاربونه من الادواء والعلل الاخلاقية والاجتماعية . فاذا كنتم تودون الرقي الحقيقي والتقدم الصادق الذي يوصلكم الى غايتكم المنشودة فاني اسدي اليكم هذه النصيحة الصادرة من قلب مخلص وهي : أن تتمسكوا اولاً بعبادكم الدينية وتقاليدكم القديمة أشد التمسك ، ثم تقلدونا في الحسن النافع من امورنا كالعلوم والصنائع وفنون التجارة والزراعة والاقتصاد وكلما يؤدي الى التقوية والاستعداد مادة ومعنى ، وبغير ذلك لا تأملوا نجاحاً بل يكون نتيجة امركم كغيركم من الشعوب المحكومة المضطهدة التي لا تزال تنسفل وتضعف . إن للعوام عندكم كثيراً من الاخلاق المتينة الثابتة وهي مفيدة فيجب أن تجتهدوا في تمكينها من النقوس وان تحموها من العوامل المضعفة والمؤثرات المفسدة .

إن القرآن لديكم هو المرشد الاعظم وفيه القدر الكافي من التعاليم المفيدة الاخلاقية والاجتماعية والعملية وغيرها ، والاسترشاد به لا يتم إلا مع اعتقاد انه كلام الله ، فيجب أن تجتهدوا في تثبيت هذا الاعتقاد من النفوس وأن تحاذروا كل الحذر من هدمه واضعافه . هذه هي نصيحتي التي أرجو منك أن تبثها بين اخوانك وأقوامك حين عودتك انتهى .

(أقول) إن (المسيو تونون) لم يشرح تلك الرذائل بل اكتفى بالإشارة اليها لوضوحها عنده . وأنا أذكر لك بعضها روماً للايضاح .

فمن جملة شرب الخمر واستعمال سائر المشروبات الكحولية فإن جميع اطباء النطس صرحوا معلمين بانها مضرّة بالمزاج ضرراً فادحاً فتاكاً ، وقد ذكروا في كتب حفظ الصحة ، ان المسكرات جميعها مضعفة للعضلات ومؤلمة لها ، مضافاً الى انها أدوات الكسل وتجهل الابدان مستعدة لقبول الامراض المعضلة والاسقام الفتاكة كالسل وامثاله ، كما انها تزيل العقل وتسلب النوم والشاهية وتقلق النفس ، وبالاخير تحدث الجنون الخمرى الخطير . السكير يكون

عديم الارادة قليل الحافظة بذى اللسان فحاشاً مضطرب الخيال مجرماً آثماً وكثيراً ما ترى السكيرين يقتلون اولادهم وعيالهم لفرط سكرهم وزوال عقلم .

ولهذه الاضرار الناجمة وغيرها فقد منعت امريكا استعمال المسكرات مدة من الزمن في بلادها .

ومن جملة الرذائل لعب القمار (الميسر) ، وهو الرذيلة التي جعلت الكثير من مرتكبيها فقراء لا عمل لهم ولا جاه ولا اعتبار ، قد قضوا القسم المهم من عمرهم في اللعب والكسل حتى اتلفوا كلما كانوا يملكونه واصبحوا فقراء ، وحتى الجأهم هذا الفقر الى ارتكاب الرذائل الاخرى كالسرقة والسلب والنهب لشدة حاجتهم .

ومن جملة الرذائل الزنى تلك الفاحشة التي أقل ما يحدث منها الوقوع تحت براثن مرض السفلس والقروح الفرجية الرحمية ، ثم على فرض التخلص من هذا المرض الفتاك فانه لا شك يسبب قطع النسل والحرم من الحياة الزوجية وزهرة الحياة ، هذا مضافا الى انه يعدي زوجته العفيفة البريئة حتى يقطع نسلها . وعلى هذا الاساس قال رسول الله (ص) لعلي (ع) : « يا علي إن في الزنا ست خصال ثلاث منها في الدنيا وثلاث في الآخرة . أما التي في الدنيا فيذهب بالبهاء ويعجل الفناء ويقطع الرزق ، وأما التي في الآخرة فسوء الحساب وسخط الرحمن والخلود في النار . هذا مضافا الى الاضرار المالية التي تسلبها الفواحش لا سيما الاجنبيات التي تأتي من المدن القاصية وتسلب المال ثم تذهب بالنعمة الوافرة الى بلادها في حين ان الزانى يمكنه أن يتزوج بها حلالاً ثم يرتاح معها بالنعيم الدائم طبقاً للقوانين الدينية التي هو متدين بها وينجو من تلك التبعات المهلكة . عجبا للمسلمين كيف يأخذون من الغربيين هذه المساوىء التي هم اخذوا يشعرون باضرارها ، وهذا قرآنهم ينادي فيهم منذ ثلاث عشرة قرناً بقوله : « إنما الخمر والميسر رجس

من عمل الشيطان فاجتنبوه («١») وبقوله : ﴿ لا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ «٢» .

فأعرفوا قدر هذه الجوهرة الثمينة واطلبوا من العلماء والمعلمين الروحانيين أن يرغبوكم بالمرغبات العلمية والعملية ويزكروا لكم مزاياها وخصوصياتها لعلكم تقلحون .

« حقيقة التجرد ومعناه »

إن خلاصة أقوال عقلاء العالم ونتيجة آراء المفكرين منهم في معنى التجرد يرجع الى أمرين جوهريين أحدهما نظري والآخر عملي .

أما النظري فهو عبارة عن معرفة الضر من النافع ، وتمييز المصلح من المفسد . وأما العملي فهو عبارة عن استعمال القوى وتحريك الجوارح الى جلب الأمور النافعة وكفها عن الأمور الضارة . ولما كان القرآن الحكيم وهو الكتاب السماوي حاوياً لكلتا الجنبتين النظرية والعملية ، مبيناً للضر والنافع منها على النحو الأكمل الأتم ، شارحاً للأحكام والقوانين المصلحة للمعاد والمعاش في البشر على أحسن وجه ، كان لازماً على كل طالب للتجدد أو من يرى نفسه متجدداً أن يعمل بتعاليم القرآن ، وإلا لم يعد في عداد المتجددين الحقيقيين ، وكان اطلاق لفظ المتجدد عليه اطلاقاً لا معنى له . والى هذا يشير المرحوم السيد مهدي الأعرجي في أبيات له .

أرى الناس ميالين نحو التلون فكل تراه ذا وجوه والسن

«١» سورة المائدة الآية ٨٩ .

«٢» سورة الاسراء الآية ٣١ .

يقولون إنا بالتمدن نرتقي	وليس لهم إلا قشور التمدن
يريدون مثل الأجنبي ترقياً	وذاك محال منهم غير ممكن
بعاداته دون الفعال تمسكوا	وذاك طعام أكله غير مسمون
فكم نكرات بينهم بادعائها	سمت كل معروف الخصال ممنون
وكم من غبي قد دعوه مجرباً	وكم نسبوا من عاقل للتجنن
لقدر فضوا شرع التدين ضلة	كأن ترقيمهم برفض التدين

وعلى هذا فقد أصبح من أهم فرائض كل مسلم طالب للحقيقة أن يتعلم تعاليم القرآن ويجعلها من الزم ضرورياته ، وأن يخصص قسماً من ساعات ليله ونهاره لتعلمها . كما يجب على العلماء الروحانيين أن يشرحوا لهم ذلك بعبارات سهلة مفهومة حتى يرغبوا العوام على تعلم تلك الحقائق الدينية اللازمة ، لا سيما في مثل هذا العصر الذي خفيت عليهم مزايا تلك التعاليم الراقية ، وستر عنهم كثير من معانيها المقصودة بواسطة الإيجاز والاستعارات والاشارات اللفظية والتلميحات الخفية ، حتى أصبحت عندهم كالألغاز في قوالب الألفاظ المختصرة تمشيًا مع الفصاحة والبلاغة . لذلك فقد تقدمت أنا بهديتي الى اخواني في الدين ببيان تلك الحقائق الجليلة متوخياً فيها سهولة العبارة وبساطة قوالب الالفاظ ، لسرعة إفهام وإمكان تبليغهم أداءاً لقرىضتي العالمية وخدمة للدين والحقيقة والأمة ، وعملاً بقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله حيث يقول : (ما من هدية احسن من إرسال المسلم الى اخيه المسلم بكلمة حكمة تهديه الى الحق) . اللهم أرنا الحق حقاً فنقتبهه والباطل باطلاً فنجتنبه .

(التوحيد أساس الرقي)

(قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله) (« ١ ») .

إن أساس كل رقي واصل قاطبة الكمالات هو صقل العقول من كدر الخرافات وتنزيهاها من درن الاعتقادات الفاسدة الكاسدة ، وما من انسان كانت لديه ذرة من العقل أو قليل من الادراك يجعل للخرافات طريقاً الى نفسه او للوهميات مجالاً في قاموس لغاته . فان العقل الشريف المنزل في مملكة البدن من عالم اللاهوت باقتضاء الحكمة الالهية والعناية الربانية رحمة للعباد . ثم ارتوى بماء الحقيقة والمعارف ليعرف كاملاً بأن معبوده وصانعه منزهاً من الجنسية البشرية والجسم ، والجسمية مسلوبة عنه كل لوازم الامكان واعراضه وخواصه ، وانه لا بد وان يكون مطيعاً اذا أمر ذلك الصانع القادر الفعال العالم بالسر والخفيات والمدرک لجميع المكنونات والخطرات القلبية ليفوز بسلامة المعاد والمعاش ، ويفوز بالحياة المبهجة الحاصلة من أثر اتباع قوانين هذا الناموس الأکبر الممتينة القويمة .

ولو لاحظت صفحات التاريخ وتأملت جيداً في سلسلة حياة البشر لرأيت أن منشأ جميع تلك الاختلافات واسباب انقسام عرى كل هاتيك الاجتماعات القومية في جميع العصور والقرون لم تكن إلا من رسوخ عقائد الوثنية وتعدد الآلهة في عقول الناس ، مما جعلت الفتن تلتابهم من كل جانب حتى عاقتهم عن اصلاح معادهم ومعاشهم لرواج سوق الوحشية والبربرية والتباغض بينهم . ولم تكن تلك الظلمة الخالكة في جزيرة العرب قبل طلوع شمس الاسلام وبزوغ نوره ولم تشر

فيها تلك الرذائل التي سودت وجه التاريخ من سرقة ونهب وغارة وقساوة وقتل ووأد - الى غيرها من القبايح - إلا من أثر تلك الخرافات والاعتقادات الفاسدة من عبادة الأوثان والشرك بالصانع ، وجعل مالا يعقل ولا يدرك رباً من دون الله تعالى . لذلك ترى أنه بمجرد أن أزيل صدى تلك الخرافات عن لوحة عقول العرب وذلك ببركة قطب دائرة الكمال والتقدم اعني بها تلك الذات القدسية المحمدية صلى الله عليه وآله ، اخذت تضع اقدامها في مدارج الرقي والعمران ، وتبدلت تلك الظلمة الخالكة ، بل ظلمات بعضها فوق بعض الى نور شعشعاني فوق دائرة تصور البشر ومخيلته حتى نجت من ذلك النذل والاستعباد للقياصرة والأكاسرة ، واستبدلت تلك الوحشية والبربرية بحضارة عالية وترق حقيقي سامي ، لم يدر بخلد التاريخ البشري منذ بدء الخليقة حتى بروز شمس الاسلام الساطعة . وعلى هذا قال المؤرخ « جرجي زيدان » في كتابه (تاريخ التمدن الاسلامي) تحت عنوان : - « ما الذي جرّأ العرب على الفتح » حيث يقول : لنبحث أولاً في الأسباب التي جرأت العرب على مهاجمة تينك المملكتين وهم أهل بادية ما برحوا من اجيال متطاولة ينظرون الى الفرس والروم نظر الاحترام والتهيب ، ويضربون الأمثال بضخامة ملكهما ويخافون اسميهما ، فكيف تتجرأ شردمة منهم على مناوأتها ببضعة آلاف ليس على ابدانهم إلا غليظ الكساء وأكثر طعامهم الذرة والشعير وعدتهم الرماح مشدودة بقصب والسيوف معلقة بخرق ، ولم لم يفعلوا ذلك قبل الاسلام ؟

الجواب :

إن العرب أصبحوا بعد الاسلام غير ما كانوا عليه قبله ، كانوا قبائل مشتة متباغضة فأصبحوا أمة واحدة متحدة بقلب رجل واحد . وهذا وحده لا يكفي لاقدامهم على هذا الأمر العظيم وإنما ساعدتهم على ذلك اعتقادهم صدق الدعوة التي دعوا اليها . اعتقادهم انهم إنما يفتحون الدنيا في سبيل الدين ، وان الله يدعوهم

الى نشر الاسلام في الأرض ، وإن من مات منهم مات شهيداً ، وما في العالم الآتي خير وأبقى . هذا الاعتقاد هو الذي جرّأ العرب على ركوب هذا المركب الخشن .

وقال أيضاً في كتابه (طبقات الأمم ص ٤٨) : (لا تظن أمة تمدنت وارتقت مدارك أهلها إلا كان التوحيد اعتقادها) . (أقول) ولأجل عظمة هذا الأمر وشدة دخله في إصلاح المجتمع البشري ترى الانبياء والرسل لم يثفوهوا قبل دعوتهم ولم يدعوا الخلق الى شيء في بدء الدعوة سوى كلمة التوحيد فقط . وهذا النبي محمد (ص) فانه أول ما دعى اليه أخلق قبل بيان تعاليمه الإصلاحية لهم وأول أمر افتتح به الدعوة العامة فتحمل في سبيل ترويجه هو وأهله ومتعلقوه كل المشاق والصعوبات والأذى هو كلمته العظيمة : (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) على مسامع أولئك الوحوش عبادي الاوثان ومشركي قريش ومع ذلك فقد كانت هذه الكلمة من أثقل الامور وأثقل ما يقع في مسامع القوم . وهذا هو عين كتاب خاتم الانبياء الى هرقل ملك الروم إذ كتب اليه .

بسم الله الرحمن الرحيم :

من محمد بن عبد الله ورسوله الى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإني أدعوك بدعاية الاسلام اسلم تسلم يؤتاك الله أجرك مرتين فان توليت فان عليك إثم البريسيين :

(ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله) « ١ » .

فبان من ذلك أن كلمة التوحيد هي العامل الوحيد للإصلاح والنجاح والفلاح ، وهي الأساس لجميع الفضائل وسعادة البشر ، وأي أمة لم تحرز هذا الشرف الرفيع أغني (التوحيد) كانت بعد هبوطها قليلا في حضيض الذلة

والهوان ، لا بد وان تستسلم الى الفناء المحتم والعدم المحقق . والى هذا أشار الكتاب المجيد بقوله : (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير او تهوي به الريح في مكان سحيق) .

فلسفة أهمية التوحيد

من المعلوم البديهي أن المرء اذا ما اعترف بالمبدأ الواحد القوي واعتقد بانه الفاعل بالارادة ثم خضع لأوامره ونواهيه بحيث لم ير رضا أو سخطاً سوى رضا وسخطه وكان كل تخلف لقوانينه ودستوره أكبر وزر من أوزار البشرية لديه كان ولا شك متوجهاً بكل معنى كلمة التوجه الى جهة الوحدانية تحت ظل هذا الاعتقاد المتين . وكان من أثر هذا التوجه بالضرورة زوال تلك الاختلافات التي هي أقوى باعث للخزي والانحطاط الناشئين عن التوجه نحو المبادئ المشتتة .

ثم لما كان هذا الأمر من الفطريات الأوليات العقلية فان الله تعالى يقول في كتابه المجيد اشارة الى ذلك : (أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟) (١) وهو استفهام انكاري ينكر فيه قبول العقل الفطري او فطرة العقل أن تقبل الاعتقاد بالأرباب الكثيرة المتفرقة ولا يعتقد بالفطرة بالوحدانية لآله واحد قهار ، وهذه هي الفلسفة في أهمية توحيدده تعالى .

تنزيه القرآن لله

عن مشابهة الممكنات

« قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »

إن أركان الرسالة ثلاثة

« ١ » توحيد الله تعالى وتقديسه وتنزيهه من لوث صفات الممكنات .

« ٢ » تقرير الحدود العامة للأعمال وبيان الصالحة منها وازدادها ويعبر عنها اصطلاحاً بالشريعة .

« ٣ » أحوال النفس وما يترتب عليها من موت وحشر ونشر وما يصل إليها من جزاء أو عقاب أو ثواب وهو المعبر عنه اصطلاحاً بالمعاد .

وإن أهم وأعظم هذه الأركان الثلاثة هو توحيد الله تعالى وتنزيهه عن صفات الممكنات . وهذه السورة المباركة على اختصارها وإيجازها تعلمنا هذا الركن تعليماً بليغاً .

فتقول إن الله واحد لا يتعقل في ذاته الكثرة والتعدد وعليه فليس بمركب من الجواهر المختلفة اذتمتع في حقه المادية لمنافات ذلك لوجوب وجوده . وهكذا فانه تعالى لم يكن مركباً من الاصول المتعددة غير المادية أيضاً كاعتقاد بعض ذوي الاديان بانه تعالى مركب من أصلين فاعل الخير وفاعل الشر ، وآخرون بأنه مركب من ثلاثة أصول تعتبر واحداً وهي عقيدة النصارى المزخرفة غير المعقولة ، لأنهم يعتقدون بالافانيم الثلاثة المندرجة في واحد أعني انه تعالى واحد في ثلاثة كما انه هو ثلاثة في واحد ، وهو اعتقاد فاسد بالقطرة لا يحتاج الى برهان لا بطلاله فهو بنفسه يناقض نفسه . وهذه السورة الكريمة في القرآن

ثبت جميع أنحاء القداسة لذاته تعالى ، كما أنها تنزهه عن كل مزخرف غير معقول بالنسبة إليها .

« فقول » : إن الله تعالى موجد هذا العالم ذات واجبة الوجود يتمتع عليها البطالان والعدم ، وبالضرورة أن وجوب الوجود يستلزم عدم الشريك له تعالى وأنه غير مركب من أجزاء ، لأن كل وجود فرض له الوجوب لا يخلو إما أن يكون بسيطاً لا يتصور فيه شيء سوى الوجود فثبت كونه بسيطاً ، وإذا كان بسيطاً ثبت التوحيد وعدم الشريك ، لأن حقيقة الوجود الخالي من كل شوائب الامكان والعدم لا شك هو الوجود البحت وصرف الوجوب واستحالة الاثنية فيهِ والى هذا كله أشارت السورة المباركة بقوله تعالى : « هو الله أحد » .

في الأرض كل نعمة أو سنبلة تقول وحده ولا شريك له

« الله الصمد » ، الصمد لغة : هو السيد وكبير القوم الذي ترجع اليه الناس في حوائجها وتمد اليه يد الحاجة كما قال الشاعر :

لقد بكر الناعي بخير بني أسد
بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد
والله « لفظة الجلالة » مبتدأ « والصمد » خبر له ، وهذا الخبر المعروف « بأل » إشارة الى حصر الصمدية فيه كقولك : « زيد العالم » مخاطباً لمن ظن أن غيره أيضاً عالم ، وانت باضافة « أل » الى كلمة العالم رفعت عنه هذا الظن وأفهمته أن العلم محصور بزيد وليس غيره عالماً . كما أن هذه الآية أيضاً تحصر الصمدية بالله تعالى وتقول : أن جميع حاجات الخلق يجب أن تكون متوجهة اليه ولا تمد يد الحاجة إلا اليه ، وتعلمنا أن جميع المسبيات تنتهي اليه ، وأن كافة الفيوضات الوجودية في العالم هي من رشحات وجوده تعالى وتقدس .

وعلى هذا فإذا أراد انسان تحصيل سبب يجب أن يبحث ويفتش عن الطرق المرتبطة بالذات المقدسة ليعلم عن نظر وتدبر في الخلوقات أن فيض الوجود الموهوب من ذات واجب الوجود وكيف يصل في المجاري الطبيعية من الأسباب الى المسبيات

ويعرف أيضاً أن الأسباب كلها تأتي بالعرض وبالنتيجة تنتهي الى ذات واجب الوجود .

والى هذا أشار سيد الموحدين أمير المؤمنين عليه السلام في بعض فقرات دعاء كميل بن زياد (ره) حيث قال : « إلهي من لي غيرك أسأله كشف ضري والنظر في أمري » .

وقال خيام في بعض رباعياته إشارة الى هذا المعنى ما تعريبه تقريباً :
إلهي أنت الفاتح افتح لي البابا وأنت الذي تهدي أهدي نهجك الراقي
فلست لمن ينبغي يدي باسطاً يدي فمكلهم فان وما غيرك الباقي
والحاصل من هذه الآية الشريفة ان المرء لى الحاجة وطلب أي نوع من
المسائل والمشاكل يلزم ان يقدم عرائضه وطلباته الى الله تعالى بنفسه دون أي
وسيط من مكنات خلقه . وهذا التعليم الحكيم يشير الى بطلان طريقة النصارى
من غفران الذنوب بواسطة القسس والآباء .

فقد جاء في انجيل يوحنا . الاصحاح العشرون « عدد » - ٢٣ . من
تعليم عيسى «ع» لتلاميذه ما مضمونه : « إن رؤساء الدين هم ينفرون الذنوب
لمذنبينهم وذلك ان مرتكب الذنب اذا جاء الى رئيس الدين واعترف بذنبه ثم طلب
المغفرة فان عفا عنه فقد غفر ذنبه وإلا فهو باق في العذاب الأبدي كما هو صريح في
هذا الباب » واليك نص العبارة : « من غفرتم خطاياهم تغفر له ومن امسكتهم
خطاياهم امسكت ، وعلى قوله كما ورد في انجيل متى . الاصحاح ١٨ . عدد ١٨ :
« الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء ، وكل
ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء » . فقد أعطيت القسس ورؤساء
دينهم السلطة المالية بعد السلطة الربوبية وان سائر أفراد البشر وان كانوا من ذوي
النفوس السامية وكانت مرتبتهم فوق مرتبة القسيسين فيجب عليهم أن يكونوا
مكتوفى الأيدي تحت سلطة هول القسس . وبالطبع لم يتمكن ذلك المذنب المسكين

« عند النصارى » ان يستغفر ذنبه أو ان يجد غير القس واسطة يعرض ذنبه بسببه على الله ليكشف الغفران والصحة مما اقترفت يداه .
ثم إن هذه الآية الشريفة أيضاً تعلمنا أن ذاته القدسية سبحانه كما انها تنصف بالصمدية بالنسبة الى أمور الانسان الشخصية كذلك تكون تلك الصمدية بالنسبة الى تحديد الحدود العامة ووضع أصول الشرايع . فعلى الانسان ان يرجع في جميع حدود الأعمال العامة اليه ، وان يجعل أوامره تعالى هي ميزان الموازين وأصل الأصول فلا يقر لأحد شرعة سوى شرعته كما قال تعالى : « قل إن الهدى هدى الله » (١) .
(لم يلد ولم يولد) .

لما كان التوليد والتولد من لوازم الذات التي ركب مزاجها وحصل الانفعال في أجزائها بعضها في بعض كان ذلك ممتنعاً في ذات واجب الوجود وحاصل في الممكنات فقط ، لذلك فقد جاء القرآن منزهاً لله عز وجل عن صفة الممكنات ومشيراً الى فساد عقيدة المسيحيين وتبليثهم وبطلان قول المشركين بالتعدد ، أو إنه له ابن أو بنت أو غير ذلك من الأقوال الغير المعقولة كقول الله تعالى عنهم : (اتخذ الرحمن ولداً) . وكما يشير في مواضع آخر الى سخافة تلك العقيدة بقوله : (لقد جئتم شيئاً أدا تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا) (ان دعوا للرحمن ولدا وما ينبغي للرحمن ان يتخذ ولداً ان كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عدداً وكنهم آتية يوم القيامة فردا) (٢) « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرهون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » (٣) . وقال سبحانه : « فجعلوا بينه

« ١ » سورة ال عمران الآية ٧٣ .

« ٢ » سورة مريم الآية ٨٨ - ٩٥ .

« ٣ » سورة مريم الآية ٨٧ ،

وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون سبحانه الله عما يصفنون « ١ » ،
وفي آخر هذه السورة أي سورة الاخلاص جاء بالكلمة الجامعة السالبة لجميع
صفات الممكن من تعدد ومماثلة عن تلك الذات المقدسة حيث يقول : (لم يكن له
كفوواً أحد) .

حكمة معادلة سورة التوحيد

لثالث القرآن

لقد سبق أن قلنا إن الرسالة المحمدية بنيت على ثلاثة أركان وإن أعظمها
التوحيد ولما كانت هذه السورة المباركة هي المتكفلة لبيان هذا الركن العظيم
وقد أدت حق التوحيد كما هو على اختصارها وإيجازها فلا استبعاد ولا
غرابة إذا ما وردت الأخبار بمعادلتها لثالث القرآن ، ومعنى ذلك إن كل من
تلا هذه السورة متأملاً ما فيها من الحقائق عن إدراك وبصيرة معتقداً بما ورد
فيها من لوازم التوحيد كان في الحقيقة كمن أدرك ثالث الرسالة الإسلامية وهو
بلا ريب ثالث القرآن الذي هو عين مباني الرسالة ، بل هو المرسل الحقيقي
لهذا هو المعنى المقصود من الأخبار والحكمة في ذلك .

صفات الله

في نظر القرآن

(ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) « ١ » .

من البديهي ان العلم من الكمالات الوجودية وقد ثبت لكثير من الممكنات فاذا لم يثبت العلم لله تعالى لزم أن يكون الممكن أكل من الواجب وهذا مستحيل فيكون الباري تعالى متصفاً بصفة العلم بالضرورة . ثم إنا نرى أن هذا النظام التام في عالم الممكنات وهذا الاتقان والاحكام في الموجودات لا يمكن ان ينشأ عن مصدر جاهل لا شعور له . ولو لاحظنا الروابط والنسب بين النجوم الثابتة وحركات الكواكب السيارة على النهج المستقيم المقرر في مداراتها المعينة ودوران الكرات في مناطقها على نظام خاص بحيث تتولد الفصول الأربعة . ثم تأثير تلك الاجرام من حرارة وبرودة في عالم الموجودات المادية ومعرفة الثواني والدقائق والساعات والشهور والسنين من تلك الحركات المنظمة وصدور الأمور العجيبة في الكون من اقتران تلك الكواكب واقترابها وابتعادها على ذلك الوضع المتقن الذي لو حصل فيه أقل خلل وانحراف عن محالها المقررة لظهر في العالم اختلال عظيم، لعلمنا بل ويعلم كل ذي أدنى شعور واحساس أن خالق هذا العالم العجيب ومبدع هذا النظام الحكيم المتقن الذي لا يسع بيانه هذا المختصر بل ولا المطولات من الكتب لا يعقل أن يصدر عن خالق غير عالم . ومن تصوره جاهلاً فاقد الشعور فهو ولا شك سفيه مختل الدماغ او معاند مكابر عرف الحق فحاده عنه . على ان شواهد

علمه تعالى لم تقتصر على اتقان النظام العلوي الفلكي وإحكام حركات الاجرام السماوية فقط ، بل هي محسوسة موجودة في جميع الموجودات علوية وسفلية من حيوان ونبات وجماد .

وفي كل شيء له آية تدل على انه واحد

وقد فصل ذلك علماء النبات في كتبهم ، وهو غيض من فيض وقطرة من بحر مما اودع الخالق المبدع في مخلوقاته من دلائل التوحيد الظاهرة والباطنة .

قال « ميلان ادوارد » أحد علماء الحيوان : إن حيواناً يسمى (اكسيلوكوب) يعيش في فصل الربيع فقط فإذا ما باض مات من ساعته ، لذلك ولرحمة الخالق بفرخه فانه يلهم ذلك الحيوان قبل أن يبيض ويموت أن يعمل لفرخه بيتاً كبيوت قوم عاد ، غير ان قوم عاد كانوا ينونونه في الجبال وبين الأحجار وهذا الحيوان يعمل بيته بين الأخشاب والأشجار ، وكيفية بيته أن يحفر أولاً قطعة من الخشب حفراً مستطيلاً ثم يملأ مقداراً من ذلك الحفر بالأزهار والأوراق الحلوة الطعم السكرية ، ثم يسقف ذلك الحفر المملوء بالأزهار والأوراق بمسحوق الخشب ممزوجاً مع الرطوبات اللعابية حتى يكون سقفاً محكمًا ، وهكذا يعمل عدة مخازن على هذا المنوال ثم يبيض فيموت وقد خلف لفرخه منزلاً جيداً وغذاءً كافياً حتى يكبر . والسرف في عمل هذا الحيوان مفهوم حيث اذا ما فقسست البيضة وخرج الفرخ رأى عيشه حاضراً لمدة سنة حتى يمكنه الطيران ، فإذا صار في فصل الربيع عمل كما عمل أبوه أو أمه لفرخه فيموت ، وهكذا دواليك .

قال الكاتب : (إنني شاهدت هذا الحيوان بنفسني إذ كانت لدي مروحة يدها من سعف النخل وقد كنت احياناً أسمع في داخل مقبضها الخشبي صوتاً خفيفاً لم أعرف مصدره حتى كنت ذات مرة أتروح بها وإذا بظهور ثقب صغير في مقبضها وإذا بشيء أسود يظهر في الثقب لذلك فاني وسعت ذلك الثقب فرأيت

حيواناً صغيراً بقدر الزنبور (النحل) له أجنحة وريش خرج من الثقب وأخذ يتحرك ويمشي . ثم نظرت الى حفرة الثقب وإذا مستطيلة فعاتت إن ذلك الصوت الذي كنت أسمعه منها تلك المدة كان من هذا الحيوان .

فانظر وتأمل في هذا الحيوان الصغير وما لديه من المهارة والعلم في صنعه ، كيف رتب حفرة بهذا الاتقان وكيف جمع لفرخه ما يكفيه مدة سنة حتى يقوى على الحركة دون زيادة أو نقصان . أتري من العقل أو الإدراك أن يتصور ذوشمور في خالق هذا الكون العظيم بهذا الاتقان والنظام والحكمة انه عديم الشعور كالجمادات ؟ (فتباً لمن تفوه به) .

وإشارة الى هذا فقد قال تعالى : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) (١) :

ومن جملة العجائب خلق النحلة ، ذلك الحيوان العجيب الذي قال علماء الحيوان فيه : (انه إذا امتص في أول النهار وردة منمتحة فلا يمتص إلا أمثالها من الأزهار ولا يمتص غيرها أبداً . والحكمة في ذلك الإلهام .

(أولاً) أن المواد العسلية التي تتولد في الزهرة قد تتولد في بعضها في مدة ثانية واحدة وقد تتكون في أكثر وفي أقل فإذا ما اختلف على النحل امتصاص الأزهار أوجب تعب ذلك الحيوان أولاً ، وقد تختلف المواد العسلية فلا يحسن عسلها فكان ذلك الاستمرار على الزهور المفتحة أول النهار سبباً لتحسين عسلها وقلة تعبها .

(ثانياً) انه لما كان من المعلوم ان الأزهار كغيرها من النباتات فيها ذكور وأنثى تلتقح من الذكور ، فإذا ما جلست النحلة على الزهرة الذكر تعلق بأرجلها من تلك الزهرة أجزاء صغار ثم جلست على الزهرة الأنثى وألقت ما في

أرجلها عليها سببت تلقيحها بتلك الأجزاء من الذكر ، خلاف ما اذا جلست على غير جنسها التي لم تلقح بتلك الأجزاء ، وهذا أيضاً من الحكم الخفية الدالة على عظمة الخالق والخلق (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) .

ولأجل هذا فقد سأل الفتح بن يزيد الجرجاني الامام السابع موسى الكاظم عليه السلام وقال يا بن رسول الله : إني وان كنت أعلم أن لطف الله تعالى خلاف لطف العباد ولكنني أحببت أن تشرح لي لطف الله سبحانه وتعالى .

فقال له الامام عليه السلام : إن الله لطيف بالخلق يعلم الأشياء اللطيفة ، ألم تر لطف صنعه في النباتات اللطيفة وغيرها من الحيوانات الصغيرة كالذباب والبق وغيرها من الحيوانات الصغيرة التي لا تراها العين المجردة والتي لا يميز ذكرها من أنثاها وجديدة الولادة منها مع قديمها ؟ ومع ذلك فإنها تتميز هي الضار لها والنافع وتهرب من المهلكات خوفاً على حياتها وتجلب النافع لصلاحها ويعرف بعضها لغات بعضها ثم تفهم أفرادها وتتفاهم معها وتنقل غذاءها الى غير ذلك من لوازم الحياة ، فسبحانه من حكيم لطيف خبير .

الله قديم أبدي

هو الأول والآخر

إن القدم والأزلية من أحكام واجب الوجود وإلا لكان حادثاً والحادث هو ما سبق بالعدم ، وكل مسبوق بالعدم يحتاج في تحقق وجوده الى علة وإلا لزم ترجيح المرجح بلا سبب وهذا محال . فإذا لم يكن واجب الوجود قديماً احتاج في وجوده الى موجد . وقد سبق في عنوان التوحيد أن واجب الوجود واجب لذاته ، فإذا فرض أنه حادث وفرض أيضاً أنه واجب حصل التناقض وهذا محال . ومن أحكام واجب الوجود دوام عدم طرو العدم على ذاته وإلا لزم انفكاك ذات واجب الوجود عن ذاته وهذا يستلزم سلب الشيء عن نفسه وهو بالبدهة محال . وإن هذه الآية المباركة (هو الأول والآخر) لتثبت قدمه وبقائه وتنفي طرو البطلان والعدم عليه بهاتين الكلمتين .

الله محي

« الله لا إله إلا هو الحي القيوم »

إن معنى الوجود وإن كان من البديهيات العقلية غير أنه قد يعبر عنه بالظهور والثبات والاستقرار ، ومن المعلوم أن كمال الوجود وقوته بكمال هذا المعنى وقوته . وعليه فكل مرتبة من مراتب الوجود يجب بالضرورة أن يستتبع أموراً من الصفات الوجودية بأمور التي هي من كمال تلك المرتبة في الوجود وإلا فلا تكون تلك المرتبة ، فلو وجدت عقلاً مرتبة من مراتب الوجود هي مصدر كل نظام ومنشأ قاطبة المراتب الوجودية كانت بالضرورة أكمل وأعلى وأقوى وأرفع من جميع المراتب . ولما كان واجب الوجود هو مصدر كل وجود ممكن وكانت كل مرتبة من مراتب الوجود والكمالات الوجودية المتشعبة المتفرقة في الممكنات هي في تلك الذات الواجبة موجودة على نحو الجمع والبساطة ، لزم أن يكون أقوى وأعلى وأرفع ، ووجب أن يكون بمرتبة مستتبعاً من الصفات والكمالات الوجودية ما يناسب تلك المرتبة العليا . وعليه فكل صفة يتصورها العقل هي من كمالات الوجود ويعلم أنها ممكنة الثبوت للوجود من حيث هو وجود يلزم أن يثبتها لمرتبة الوجود الواجب بنحو البت واللزم .

ومن تلك الصفات الواجبة الثبوت على الذات القدسية الواجبة هي : الحياة ، لأن الحياة وما يلزمها من الإرادة والعلم هي مصدر النظام وناموس الحكمة العالية ، وفي أي مرتبة كانت فهي مبدأ ظهور كمال تلك المرتبة . إذاً فالكمال وجود يلزم لذات الواجب أن تتصف به وإلا لزم أن يكون في الوجودات الممكنة وجود هو أكمل من الواجب ، والحال أن الواجب هو أكمل جميع الوجودات وهو معطي الوجود والكمالات الوجودية وكيف يكون معطي الشيء فاقده .

الله هو المرید

(إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)

إن من الأحكام اللازمة الثبوت لواجب الوجود هي الإرادة ، والإرادة هي : مبدأ تخصص فعل الفاعل بأحد الوجوه الممكنة ، ومن البديهي المعلوم أن كل موجود لا بد وأن يكون له قدر مخصوص وصفة معينة وزمان ومكان خاص ، وهذا مسرح الأمور الممكنة في كل موجود وهو المسمى بالتخصص . ثم إنا بعد أن أثبتنا أن ذات واجب الوجود عالم ، وأن كل ممكن خرج من خفايا العدم إلى عرصة الوجود لا بد وأن يكون وفق علمه تعالى فإن الإرادة تثبت حينئذ بالضرورة . لأن هذه التخصصات التي تنطوي تحت نظام واحد غير قابل التشويش والاختلال بالبداهة كاشفة عن مبدأ تلك التخصصات ولا نغني من الإرادة إلا هذا .

الله قادر

« وكان الله على كل شيء قديرًا » « ١ »

من الأمور التي هي واجبة الثبوت على ذات الباري تعالى القدرة وهي عبارة عن تمكن الفاعل من الإيجاد والعدم .

ولما كان واجب الوجود هو مبدع الكائنات وموجد قاطبة الموجودات الممكنة من كتم العدم الى عرصة الوجود على طبق علمه وإرادته كان ولا شك قادراً ، إذ لا يعقل ان يصدر العالم المريد معلومه ومراده بلا قدرة وتمكن وسلطة منه على ذلك ، وليس معنى القدرة إلا هذا السلطان . وهذه التعاليم القرآنية الموافقة لجميع العقول السليمة البشرية تثبت لذات واجب الوجود تلك الأمور الضرورية الثبوت ، وتسلب عنه كل أوصاف الوجودات الامكانية الممتعة الثبوت بالنسبة اليها . ثم تنزهه ذاتاً وصفة عن لوث لوازم الجسم والجسمية وتقديسه عن كل نواقص الامكان بكل معنى الكلمة .

يقول القرآن المجيد بكلمة موجزة : (ليس كمثله شيء) ، : (ولم يكن له كفواً أحد) . والآن فلننقس هذه التعاليم بتعاليم العهدين لدى المسيحيين في هذا الموضوع .

« فنقول »

مقايسة تعاليم القرآن المجيد

في ذات الله وصفاته

مع تعاليم المهديين عند المسيحيين

في الاصحاح الثاني والثلاثين من سفر التكوين عدد ، (٢٢) فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ، ولما رأى انه لا يقدر عليه ضرب حُـقْ نخذه فأنخلم حُـقْ فخذ يعقوب في مصارعته معه وقال له : أطلقني لأنه قد طلع الفجر فقال : لا أطلقك إن لم تباركني . فقال له ما اسمك فقال يعقوب ، فقال لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل ، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت ، وسأل يعقوب وقال : « اخبرني باسمك فقال لما ذا تسأل عن اسمي وباركه هناك ، فدعا يعقوب اسم المكان فنييل قائلاً لأنني نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسي . ولما جاوز فنييل طلعت عليه الشمس وهو يجمع على فخذه ، ولأجل هذا فإن بني إسرائيل حتى اليوم لا يأكلون عرق النسا الذي في الفخذ الأيمن ذلك لأن عرق النسا من فخذ يعقوب كان قد مُـلِسَ ، انتهى مضمونه .

وحاصل تعليم هذا الفصل في التوراة : هو أن الرب كان مصارعاً عاجزاً لأنه صارع أحد مخلوقاته الى الصبح فلم يفز عليه في صراعه ، ثم التمس منه أن يتركه فلم يدعه حتى باركه له ، وبالأخير باركه له مجبوراً ليخزي عنه .

هكذا ورد في هذا السفر العجيب على أن من البديهي المسلم أن الغرض الأصلي والمقصد الأهم من بعث الرسل وإنزال الكتب ليس إلا تكميل النفوس البشرية في جنبتي الحكمة النظرية والعملية ، ومن اللازم العقلي والواجب على النبي

المرسل من قبل الله أن يبدل جل مساعيه في تقوية هاتين الجنبتين بكل معنى الكلمة وأن يقيم البراهين المنطقية المعقولة لاثباتها في النفوس الغافصة المستعدة ذاتاً للتدرج بمدرج الكمالات واكتساب الأخلاق الفاضلة .

ومن هذا يلزمنا عقلاً أن نقول : إن الكتاب الإلهامي المنزل على هذا الرسول من الله تعالى لا بد وأن يكون حاوياً للتعاليم المصلحة للبشر وللقوانين الصحيحة المنورة للفكر والحفاظة لمدينة الجامعة الانسانية . وأن تذكر من صفات الباري عز وجل تعالماً يؤبدها العقل السليم في تنزيه ذاته المقدسة من لوث الجسم والجسمية وعن مشابهة الموجودات الممكنة البتة .

وبالجملة فإن الكتاب الإلهي السماوي يجب أن يكون معدن الأخلاق والكمالات ليستفيد الناس وتستفيض من إرشاداته وأوامره ونواهيه وأن تتأدب بأدابه الحسنة ، لا أن يكون مشتملاً على أمور غير معقولة وخرافات تزل العقول البشرية عن الجادة المستقيمة ، وتوقع النفوس في بحر الضلالة وتضلها في بيداء الحيرة والهمجية .

فلو وجد هكذا كتاب مشتملاً على خرافات ومن خرافات غير معقولة لا بد وأن لا يكون كتاباً سماوياً ولا وحياً إلهامياً نازلاً عن الله تعالى ، وإذا سمي بهذا الاسم أي قيل له كتاب سماوي فذلك غلط في غلط وجناية على العقول لا تغفر .

تعباً لتلك العقول الآسنة والنفوس الساقطة التي تعد أمثال هذه الخرافات والترهات المجمولة - التي ما أنزل الله بها من سلطان - كتاباً مقدساً ، وتعتبرها منزلة من الله تعالى ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

الله في نظر التوراة

مع ملكين ظهرا لابراهيم

يأكل الخبز والزبد والعجل المشوي

في الاصحاح الثامن عشر من سفر التكوين ﴿ أن ابراهيم بينا كان جالسا في يوم حار على باب خيمة إذ ظهر له ممر ولما رفع طرفه إذا بثلاثة رجال أمامه فأسرع لمقابلتهم وأجلسهم على الأرض ﴾ ثم قال : « أي مولاي الآن وقد صرت منظورك فأعف عن عبدك وليأتوا لك بالماء لتغسل رجليك ثم تستريحوا تحت الشجرة ولنقدم لقمه خبز لتقوى قلوبكم ثم تذهبوا حيث لهذا الأمر صار مروركم على عبدكم » فقالوا له : « افعل ما قلت » .

فأسرع ابراهيم الى الخيمة الى زوجته سارة وقال لها : « لتحضري لنا ثلاثة أكياس من الطحين بكل سرعة ثم اعجنيهما واخبزيها ، ثم ركض نحو البقرة وأخذ عجلا رخصاً وجيداً وأعطاء للغلام فأسرع ليعمله ، ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم ، ووقف هو قبالتهم تحت الشجرة الى أن فرغوا من الاكل ثم يقول في ذلك السفر أيضاً : « ثم ذهب ملكان وبقي ابراهيم في حضرة الرب واقفاً » .

ثم يذكر في الباب التاسع عشر منه ما حدث بين الرب وابراهيم من الكلام والرد والنقض والابرام . وفي أول الباب المذكور يكتب : « وعند العصر ورد ذانك الملكان الى السدوم » .

وفي الباب السابع عشر يقول : ﴿ وإن الرب ظهر لابراهيم وقال له :

« أنا الله القدير سر أُمّامي وكن كاملاً » . وهكذا يذكر مطالباً كثيرة وأموراً زائدة حتى كتب في الفقرة الثانية والثلاثين : « إن الرب لما فرغ من كلامه مع ابراهيم صعد الى السماء » .

وبالجملة فإن أمثال هذه الكلمات في التوراة كثيرة ، ولا يشك كل إنسان عاقل منور الفسّر أن هذه الفقرات وأشباهها دليل واضح على ان التوراة الأصلي لا وجود لها ، وأن مافي أيدي الناس مما يسمونها توراة موسى أو انجيل عيسى ليست إلا كتب مجمولة لا ربط لها بعالم الربوبية ، وما هي إلا موضوعات لنفر من طالبي الشهرة والرياسة الدنيوية والأغراض الشخصية ، لذلك تراهم لا يتوقفون عن السكذب ، ولا يتحرجون من كل ما ينسبونونه الى ذات الباري المقدسة .

اعتراض مسيحي

قال المسيحي معترضاً : إذا كانت أمثال هذه الكلمات في التوراة أو في أي كتاب آخر دليلاً على أن ذلك الكتاب مجعول موضوع وانها كاشفة عن أن ذلك ليس بكتاب سماوي فإن وقوع أمثالها في قرآن المسلمين كثيرة كآية « الرحمن على العرش استوى » « ١ » وآية « يد الله فوق أيديهم » « ٢ » « وجاء ربك والملك صفاً » « ٣ » ، وغيرها مما تثبت جسمية الله ووجود حيز لذاته تعالى لدليل واضح كاشف عن أن هذا القرآن أيضاً موضوع مجعول مثل غيره .

« ١ » سورة طه الآية ٤ .

« ٢ » سورة الفتح الآية ٩ .

« ٣ » سورة الفجر الآية ٢٠ ،

جواب محمدي

قال المحمدي مجيباً : إن القرآن المجيد كما ذكرناه مفصلاً ليثبت لله تعالى أموراً ضرورية الثبوت ويقدسه وينزه ذاته عن كل صفة من صفات الممكنات من جسم وجسمية وما الى ذلك ، بل لا توجد آية في سورة من سور القرآن يحتمل فيها الإشارة الى التلميح الى ما يشينه تعالى أو تنسب الى ذاته القدسية ما ينافي الربوبية المقدسة . وليس اعتراض هذا المعترض مستشهداً بالآيات الثلاثة التي ذكرها إلا عن جهل المعترض باللغة العربية وعدم اطلاع بمغازي الألفاظ ومراميها كما يريدنا القرآن وتفهمه العرب .

ونحن لدفع اعتراضه ورفع الشبهة نكتفي ببيان معنى هذه الآيات الثلاثة لغة وعرفاً إذ لا حاجة لنا بعد ذلك في رده الى دليل آخر أو برهان ثان .
أما الآية الأولى فانا إذا فسرنا مفرداتها عرفنا معنى الجملة المركبة منها بكل وضوح ، وليس في مفرداتها ما يحتاج الى تفسير سوى كلمتي « عرش » و « استواء » أما العرش فهو يطلق على الجسم المحيط بالأجسام كلها وهو أحد مخلوقات الله العظيمة كما يشير الى ذلك في آية أخرى وهي قوله : « رب العرش العظيم » وأهل المعقول يدعونه : « بفلك الأطلس » و « محدد الجهات » . أما الاستواء فهو لازم ، متعدد بأحدى حروف الجر ، فإذا تعدى « بعلی » كان له معان متعددة : منها الاستيلاء والتملك ، كما ذكر ذلك « الأب لويس » المسيحي في كتابه (المنجد) في الطبعة الخامسة في مادة « سوى » حيث يقول استوى عليه أي استولى وظهر ، واستوى على سرير الملك كناية عن التملك ، فيكون معنى الآية على هذا .

أن الله المتعال مستول ومالك لجميع العوالم الجسمانية ، وكل عالم صغير وكبير

هو مخلوقه لا فرق بين الجميع في شمول الفيض الرحماني والنفوذ الآلهي ، قد عمت سلطنته وقدرته الصغير والكبير دون أي خلل أو فساد في النظام الأصحح من فيض الوجود كما تشير إليه الآية المباركة وهو قوله تعالى : « ما ترى في خلق الله من تفاوت » (١) .

وقد روي عن الامام السابع موسى بن جعفر عليه السلام عن معنى كلمات الآية اللغوية كما في الصافي قوله تعالى : (استولى على مارق وجل) وكما قيل عن أمير المؤمنين (ع) : (استولى تديره وعلا أمره) .

والخلاصة أن هذه الآية الحكيمة تعلمنا أن ذات واجب الوجود لها القدرة الكاملة التي لا تفرق بين أي خلق من مخلوقاته ، ولا حد لها كقدرة الممكنات التي تختلف باختلاف الأسباب والمسببات صغراً وكبراً .

أما الآية الثانية وهي قوله تعالى : (يد الله فوق أيديهم) فإن لليد في لغة العرب معان متعددة : منها العضو المعروف في بدن الانسان ، ومنها القدرة والسلطة كما في كتاب (المنجد) (للأب لويس) يقول في مادة (يد) اليد أيضاً : القدرة والسلطان يقال (مالك عليه يد) أي ولاية .

فعلى هذا يكون معنى الآية أن قدرة الله وسلطانه فوق كل قدرة وسلطنة ، وأن قدرة جميع الممكنات وقوتها هي عدم ولا شيء في جنب قدرته وقوته .

أما الآية الثالثة وهي قوله تعالى : (وجاء ربك والملك صفا) فإن مرسوم العرف ومتعارف الناس إذا ما رأوا جند الملك وعساكره وظهرت لهم آثار قدرته وغلبته أن يقولوا جاء السلطان ، وكذلك هذه الآية المباركة . (فإن الله عز وجل إذا ما جمع الأولين والآخرين يوم القيامة في صعيد واحد وحشر الخلق لانجاز وعده ووعيده كما قال تعالى : (ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (٢))

(١) سورة الملك الآية ٢٠ .

(٢) سورة الزلزلة الآية ٦-٧ .

ثم جعل قضاء ذلك اليوم وحكمه بالعدل لنفسه وحده وصفت ملائكة الرحمة وملائكة الغضب بأمره . هذا وقد عم الجميع آثار القهر والغلبة والغضب كما يقول عز من قائل : (وجيء يومئذ بجهنم) وكانت آثار الهيبة والآلية والجلال الربوبي ظاهر ومتجل للعالم أجمع .

كل هذه الأمور إذا كانت ظاهرة ، وجميع هذه الآثار إذا تجلت بادية ظن وتخيّل أن الله ظاهر . فمكأن هذه الآية لوحظ فيها المعنى العرفي الذي يصطلحون عليه عند ما يشاهدون عساكر السلطان وتظهر لهم قدرته وغلبته ، فيقولون : جاء السلطان وجلس في المكان الفلاني .

ولا غرابة فإن أمثال هذه الكنايات العرفية ومصطلحات المحاورات العامة كثيرة تفوق حد الحصر كما في قوله تعالى في غير هذا المحل : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها » (١) على أن الداخل هم جنودهم والمفسدون هم عساكرهم لا شخص السلطان أو الملك ، لكن لما كانت تلك الحركات والأفعال بإرادة السلطان وأوامره نسب ذلك الفعل والفساد إليه .

هذه التفسيرات التي ذكرناها هنا لدفع تلك الشبهات وذلك الاعتراض لم تكن إلا معنى كلمات تلك الآيات ، وليست هي توجيه وتأويل لها ، حتى يمكن للمعارض أن يقول نحن أيضاً نؤول أعداد توراتنا وأنجيلنا ، وعلى فرض أنه يمكن للمعارض أن يؤول أعداد كتابه فاللازم أن يكون هناك مناسبة معقولة بين المؤول والمؤول إليه . والآن فاحكم أنت بينك وبين وجدانك كيف تؤول قولهم : (إن الله تعالى

يأكل العجل المشوي والحليب والزبد والخبز ، وإن إبراهيم يغسل رجل الله وإن الله يجلس تحت الشجرة ثم يصعد إلى السماء بعد أن يفرغ من حديثه وكلامه مع إبراهيم .

وهل يحتمل من عنده أقل شعور أن يصدق ذلك عقلاً أو وجداناً أو عرفاً ؟

أو ليس هذا يدل على أن توراة هؤلاء المعارضين يقول بان الله جسم وهو أحد

الممكنات ، أو ليس هذا هو أحد المخالفات الصريحة للعقول ؟ ! وهل يمكن أن ترى كتاباً يقول بهذه المقالة ثم تعترف بأنه سماوي من الله ؟ ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

وإذا بلغنا الى هذا الحد فلنذكر لك بعض صفات الله تعالى في العهدين ثم نطبقها ونقيسها بالآلهة في هذا الموضوع .

الله في توراة مسيحي لهذا العصر

جاهل كذاب خائف من العباد

في الباب الثالث من سفر التكوين في قصة ظهور ترك الأولى من آدم وحواء ومفارقتها للجنة مكتوبة هذه الكلمات الآتية :

﴿ ١ ﴾ الحية التي هي أذكى جميع حيوانات الصحراء التي خلقها الله تعالى قالت للمرأة حواء : ﴿ أحقاً أن الله قال : ﴿ لا تأكلوا من كل شجر الجنة ؟ ﴾ .

﴿ ٢ ﴾ قالت المرأة للحية : نحن نأكل من ثمار أشجار الجنة .

﴿ ٣ ﴾ لكن الله قال : ﴿ لا تأكلوا من ثمرة الشجرة التي في الوسط ولا تلمسوها لئلا تموتوا ﴾ .

﴿ ٤ ﴾ قالت الحية للمرأة : انكم لا تموتون .

﴿ ٥ ﴾ بل إن الله يعلم انكم في اليوم الذي تأكلون منها تفتح أعينكم فتكونون كالله عارفين بالخير والشر .

﴿ ٦ ﴾ ولما رأت المرأة أن تلك الشجرة جيدة للأكل وجميلة في نظرها ، وكانت الشجرة جاذبة للقلب منعشة للنفس أخذت من ثمرها وأكلت ثم أعطت زوجها فأكل

﴿ ٧ ﴾ وفي الحين فتحت عينها كلاهما وعرفا أنفسهم عريانين فأخذا من ورق التين وخاطاه سترأ ولباساً لهما .

﴿ ٨ ﴾ وسمعا صوت الرب عندهبوب نسيم الريح في البستان فتواريا بين الاشجار

﴿ ٩ ﴾ فنادى الرب آدم وقال : « أين أنت ؟ » .

(١٠) لما سمعت صوتك في الجنة خفت لأنني عريان فتواريت عنك .

﴿ ١١ ﴾ من أطلعك انك عريان ؟ أهل أكلت من تلك الشجرة التي نهيتهك عن الأكل منها ؟ .

﴿ ١٢ ﴾ إن هذه المرأة التي خلقتها قرينة لي هي التي أعطتني من ثمرة الشجرة فأكلت .

﴿ ١٣ ﴾ فقال الله للمرأة : « ما هذا الذي فعلته ؟ قالت : الحية أغوتني فأكلت ، انتهى .

وفي عدد (٢٢) من هذا الفصل يذكر هذه الكلمات : إن الرب قال : « إن الانسان أصبح مثلنا يعرف الحسن والقيبح إذآ فلا ينبغي أن يمد يده فيأكل من شجرة الحياة أيضاً فيبقى حياً الى الأبد .

﴿ ٢٣ ﴾ ثم إن الرب أخرجه من جنة عدن ليعمل في الأرض ذلك العمل الذي أخذ عليه ، ثم أخرج آدم وأسكن الكرويان في الطرف الشرقي من عدن ، ثم كان السيف المشتعل يطوف في كل الجهات ليحافظ على طريق شجرة الحياة . إن صريح هذه الكلمات لتنسب إلى ذات الرب المقدسة أموراً يابأها أخس مخلوقاته الممكنة ، ولا يرضى بأن تنسب اليه .

﴿ ١ ﴾ « كاثبات الكذب الى ذاته المقدسة عن كل رذيلة من الصفات كقوله تعالى لآدم : (إذا أكلت من هذه الشجرة تموت) على أنه أكل ولم يموت بل إزدادت معرفته وروحانيته ، ثم تقدم من درجة البهيمية التي لم تميز بين الحسن والقيبح الى درجة الانسانية الكاملة حتى التفت الى قبيح عريه .

وعلى هذا فلا يمكن لأولئك المعترضين أن يقولوا بأن القصد من الموت الذي ذكره الله هنا الموت الروحاني لا الظاهري بعد أن علما « آدم وحواء » أنها أكلتا من تلك الشجرة أصبحتا مميزين بين الحسن والقبيح وازدادتا روحانيتهما وحياتهما .

(٢) مما نسبت تلك الكلمات الى ذات الرب تعالى هو الجهل وعدم العلم تقول إن آدم وحواء قواريا خلف الشجرة كيلا يراها الرب وهو يتمشى في الجنة .

(٣) نسبتها الخوف اليه تعالى تقول إنه خاف من آدم أن يأكل من شجرة الحياة فيصبح أحداً لأرباب الذين يخشى منهم على سلطانه ولذلك أخرجه من الجنة .

(٤) إثبات الجسمية له إذ تقول إن آدم سمع صوت الله مع نسيم الريح في الجنة وأعجب من كل هذا نسبة العشق والمغازلة اليه . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

عشق الله ومغازلة النساء

حسب كتابة التوراة

في الاصحاح الرابع من نشيد الانشاد :

(ها أنت جميلة يا حبيبتى ، ها أنت جميلة عيناك ، حمامتان من تحت نقابك ، شعرك كقطيع معز رابض على جبل جلعاد ، أسنانك كقطيع الجوائز الصادرة من الغسل اللواتي كل واحدة متم و ليس فيهن عقيم ، شفتاك كسلحمة من القرمز ، وفك حلو ، خدك كفلقة رمانة تحت نقابك ، عنقك كبرج داود المبني للأسلحة ألف مجن علق عليه كلها أنراس الجبابرة ، ثدياك كخشفتي ظبية توأمين يرعيان

بين السوسن الى أن يفيح النهار وينهزم الظلام . الى آخر الاصحاح المملوء بأمثال تلك الأحاديث والمزخرفات .

فإذا كان الله - نعوذ بالله - مغازلاً فإنه - واستغفر الله - لا يفهم التشبيه في مغازلته لأن كل شاعر صاحب ذوق لا يمكن أن يشبه شعر محبوبه بقطيع المعز ولا أسنانه بقطيع الغنم منزوع الصوف ، كما لا يوجد أي سليقي ذا ذوق من يشبه العنق بالبرج أو النهود بفرخي الغزال . أترى هل يمكن أن يقال إن أمثال هذه المزخرفات هي عن قدس الله تعالى وعدله ؟ حاشا ثم حاشا .

فإن هذه الأقوال وأمثالها لا كبر دليل على أن العهدين الجديد والقديم لا ربط لها بعالم الربوبية ، وانها منذ تأسيسها من أعمال شذمة من الرجال الذين لا علاقة لهم بالدين ولا بالمذهب قد وضعوها باسم الوحي والالهام ، ونشروها بين الناس لترويج أغراضهم الباطلة ومراميمهم الدنيوية الخسيسة . والشاهد على صدق هذا المطالب وهذه الدعوى هو وجود النشيد والفرز السليماني . وإن كتاب (استير) لم يوجد فيه مطلقاً اسم الله تعالى ولا في موضع واحد ، فكيف تذكر فيه صفات الله وأحكامه ، بل إن الثاني هو قصة الرجل اليهودي واستير ، والأول تعريف للنساء والمغازلة معهن من الأول الى الآخر . وهذا جداً عجيب أن يكون رب العالم جلت عظمته ينزل كتاباً بواسطة روح القدس على أحد أنبيائه ثم لا يذكر اسمه ولا صفاته ولا أحكامه على الاطلاق في ذلك الكتاب ولا في موضع واحد أبداً . بل إنه بدل عن ذكر القوانين المصلحة للبشر يكون كتابه مشتملاً على أمور مهيجة للباه ومنبهة للشهوات وعلى كل ما يحث المرء على القباح .

فتعسأ للرجال الذين ينسبون هذه النسب الى قدس الله عزوجل ، ثم يسمونه كتاباً مقدساً ومنزلاً من الله تعالى أجازنا الله وإياكم من الوقوع في مثل هذا الجبل الحالك .

القرآن دستور الدين الاسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد .
الزمر - ٢٢ .

يمتاز الدين الاسلامي من سائر الأديان الآلهية باستهدافه السعادة المزدوجة واستجتماعه عناصر الخلود وموجبات عموم الدعوة ، إذ أسست تعاليمه الأصلية على صرائح العقول السليمة ومقتضيات الفطرة والفرائض الانسانية الطبيعية التي تثبت في كل زمان وتصلح لكل قوم ، فهو دين عام خالد ، صالح لكل عصر ويوافق كل أمة ، ولا يقبل النسخ ما دامت الفطرة الانسانية موجودة في العالم ، وهو ناسخ ومكمل لما سبقه من الأديان ، شرعه الله تعالى للعباد بعد تهيئتهم للكمال الدائم بواسطة الشرايع السماوية السابقة عليه .

نعم ترقى الأقوام البشرية جيلاً فجيلاً وكان لها في كل مرحلة من مراحل سيرها دين يناسبها ، وأخيراً جاء الاسلام ، وقد بلغت الانسانية رشدتها فكان ديناً وسطاً عرف لكل من الجسم والروح حقه ، وبنيت أحكامه على الاعتدال من غير افراط ولا تفريط ، وكان نظاماً كاملاً شاملاً لا يقف تقفه على الأمة الاسلامية وحدها بل هو عام للمجموع البشري إذ قد أسس على قاعدة المساواة واحترام الحقوق ، ولذلك صارت الدعوة اليه عامة دائمة ، وكلف به جميع البشر على اختلاف قومياتهم الى الأبد .

فكان لا بد لهذا الدين الالهي العام الخالد من قانون إلهي ودستور سماوي يسايره في البقاء والدوام بنفسه وهو كتاب الله المعجز الخالد - أعني القرآن الكريم - الذي جاء بالناموس الأعظم لكمال الحياتين الدنيوية والأخروية ، وهو كافل لكل ما يهم البشر لسعادته في دينه ودينه ، وفي الحياة الفردية والنظم الاجتماعية من أخلاق وثقافة وعلوم وتشريع .

ففي التشريع الذي ينظم جميع أمور الدولة والأموال المدنية والجنائية والأحوال الشخصية جاء القرآن الكريم بالآيات القانونية التي يسميها الفقهاء (آيات الأحكام) وهي الأساس الأول في التشريع الاسلامي . وآيات التشريع على قلتها تعرضت الى جميع ما يصدر عن المكلف من أفعال وأعمال ، فتعرضت الى العبادات من صوم وصلاة وخمس وزكاة وحج وجهاد . وإلى الأمور المدنية كبيع وإجارة وهبة وصلح ومزارعة ومساقات ووكالة وحوالة وربما ونحوها .

وإلى الأمور الجنائية : من قتل وسرقة وزنا وقطع طريق ونحو ذلك . وإلى نظام الأسرة وعوامل التربية والأحوال الشخصية : من زواج وطلاق وميراث ونحوها . وإلى الأمور الدولية كالشرع الدولي والقتال وعلاقة المسلمين بالمحاربين وما بينهم من عهود وغنائم الحرب وما الى ذلك .

والقرآن بهذه الآيات القانونية وسائر آياته الواردة في الأخلاق ونظام الاجتماع قرر القوانين الكلية والأصول الدولية ، حتى تكون في نص القانون سعة بحيث يمكن أن يطبق على ما يوجد من حاجيات ، ويحدث من جزئيات تاركا تخرج أحكام الجزئيات لاجتهاد أهله يستنبطونها حسب الزمان والمكان .

هذا النظام المتقن الصنع لم يدع مجالاً لعلماء أوربا دون أن اعترفوا بتفوقه على غيره من سائر كتب الأديان .

إليك شهادة (المسيو ديتيه فنان) فإنه يحدثنا في كتابه (أشعة خاصة بنور الاسلام) يقول : (إن القرآن دون الكتب المقدسة الأخرى ، هو الكتاب

الوحيد الذي يأمر بالرفق والاحسان في الدين . جاء الى الرسول (ص) أحد بني سالم ابن عوف واسمه الحسين قال : يا رسول الله إن لي والدين مسيحين يأبسان الدخول في دين الله وإني لمجبرهما على ذلك ، فقال له النبي (ص) : (لا إكراه في الدين) وفي هذا الباب ما جاء في سورة الكافرين « لكم دينكم ولي دين » . وجاء في سورة العنكبوت : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن » .

ويشهد الدكتور « غوستاف لوبون » بتفوق القرآن وحسن أدبه فتراه قائلاً : « إن التعاليم الأخلاقية التي جاء بها القرآن هي صفوة الآداب العالية وخلاصة المبادئ الخلقية الكريمة ، فقد حض على الصدقة والاحسان والكرم والعفة والاعتدال ، ودعا الى الاستمسك بالميثاق والوعد والوفاء بالذمة والعهد ، وأمر بحب الجار وصلة الرحم وإيتاء ذي القربى ورعى الأراامل والقيام على اليتامى ، ووصى في عدة مواضع من آيه أن تقابل السيئة بالحسنة . تلك هي الآداب السامية التي دعا اليها القرآن وهي أسمى بكثير من آداب الانجيل » . انتهى ، .

وقال « داورار لوهارت » : « فالقرآن الذي أنزله الله على قلب نبيه ورسوله محمد (ص) الذي هدمت لعبثته الأصنام وتمزق لنبوته رداء الجهل الذي كان كغشاوة على أبصار العرب ، وأشرق بصقعه نوراً ياله من نور وهو نور حكمة القرآن الذي أنزله الله على صدر نبيه المبعوث لا محالة لارشاد البشر ، والله يعلم حيث يجعل رسالته . الى أن قال : وأبقى لهم دستوراً لن يضلوا ابداً وهو القرآن الجامع لمصالح دنياهم وخير أخراهم » .

وقال « شبلي شميل » : « إن في القرآن أصولاً اجتماعية عامة ، فيها من المرونة ما يجعلها صالحة للأخذ بها في كل زمان ومكان حتى في أمر النساء فانه كلفهن بأن يكن محجوبات عن الريب والفواحش ، وأوجب على الرجل أن يتزوج واحدة عند عدم الامكان العدل ، وإن القرآن قد فتح أمام البشر

أبواب العمل في الدنيا والآخرة ، بعد أن أغلق غيره من الأديان تلك الأبواب فقصر وظيفة البشرية والتخلي .

وقال العلامة المستشرق « ماكس ميني » : (كان محمد أميناً وأعدل رجل ، إن مرشد المسلمين هو القرآن وحده ، والقرآن ليس بكتاب دين فقط بل هو أيضاً كتاب الآداب ، وتجد به الحياة السياسية والاجتماعية ، بل هو مرشد الانسان الى وظائفه اليومية والأحكام الاسلامية التي لا توجد بالقرآن توجد بالسنة التي لا تكون واضحة لا في القرآن ولا في السنة توجد في الفقه الواسع الذي هو علم الحقوق الاسلامي) .

وقال « واشنطن » : قال « جيون » إن أوامر القرآن ليست بمحصورة في الفروض الدينية والأدبية فقط ، فإن سكان الممالك التي هي من حدود الأوقيانوس الانلا تلتقي الى الفنجنس يعتبرون إن القرآن الكريم عليه مدار الأمور الأخروية والدينية من الفقه والتوحيد والأحكام الحقوقية والجزائية وما به انتظام الكون وقمع المظالم وصيانة الحرموق وذلك أمر إلهي لامرية فيه . وبعبارة أخرى أن القرآن المجيد هو الدستور العمومي لسكافة العالم الاسلامي وهو دستور الدين الاسلامي ، وهو نظام الكون في المعاش والمعاد ، وبه النجاة الأبدية وحفظ الصحة البدنية والمصالح العمومية والشخصية وما يترتب على ذلك من الفضائل الأدبية والاجراءات الجزائية الديونية والأخروية كل ذلك منظم في القرآن المجيد .

(العلامة ارنست رينان) قال : (لغة الكتاب العزيز تنشر في أنحاء المسكونة العلوم الأدبية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية والشرعية وغيرها ، فهي الرابطة القوية والعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، بها تتقارب الأجناس المختلفة وتتشابه الأضداد بالتدرج في الأحكام والأخلاق والمبادئ ، وبها تتساوى الناس في معرفة الشريعة الغراء لا فرق في ذلك بين البيض والسود والصفير والحر ، فهي أقوى رابطة » بروح القرآن وفي ظله « وتفوق متانة كل روابط الجنسية والوطنية وغيرها .

القرآن الكريم الحامل تلك الشريعة المطهرة هو السبب في إبقاء اللغة العربية حية بين الشعوب لأنهم لا يفهمون دينهم على وجهه الصحيح من هذا الكتاب الكريم إلا بها .

قال (المسيو جول لايوم الفرنسي) : « القرآن أكثر من الوعظ والزجر والترغيب والترهيب فلم يوجه الكلام في واحدة للكبراء والقادة ولكنه وجهه للناس كافة بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » (١) « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم » (٢) . وما ذكر أولئك السادة إلا في معرض النص على الأمم في استسلامها لضلال قاداتها وأهواء كبرائها فقال : « وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » (٣) . ثم قال لا جرم إن هذا الأصل أقوى باعث لهداية الأمم الى الطرق الحقة في حصولها على سعادتها وعروجها إلى كمالها .

وقال « لوماكس الاميركاني » : « أول قبس يشع نوره من القرآن الكريم : بسم الله الرحمن الرحيم . ففي كلمة الرحمن يشعر المؤمن أن الله تعالى هو الآله الواحد الذي يسبغ على عباده النعم في الحياة الدنيا والحياة الأخرى ، الى أن قال فمن هنا ترى حقيقة لا يدانيها الشك أن هذا هو النور الأعظم وهو نور الآله إنما هو الشفقة والرحمة .

وقال « سيديو المؤرخ الافرنسي » : « ما فرط القرآن في شيء من تلك الآداب التي قوامها الحكمة وأساسها العدل والاحسان وغايتها قصد سبيل الحق ، والصد عن محجة الضلالة والخروج من ظلمات الرذائل الى أنوار الفضائل ، والتطهر من شوائب النقص والتحلي برتبة الكمال . وإن هذا لدليل على تقديس غايته الشريفة

« ١ » سورة التحريم الآية ٥ .

« ٢ » سورة النساء الآية ١٧٣ .

« ٣ » سورة الأحزاب الآية ٦٦ .

الاسلامية في حرمة مذهبها ورفعة حكمتها وموافقتها لما أنزل من قبل الرسل الكرام وبذلك يهتدي البصير الى فضل القرآن المجيد لانه جمع فأوعى بآيه أتى النيون من البينات . ومما دل على عمى بصائر هؤلاء الذين ينتقدون الاسلام وصمم آذانهم عن الحق وزلل أقدامهم في سبيل الصدق . واليك ما في القرآن الكريم من الآيات الناسخة لما ألفه العرب من الفضايح كالأخذ بالنار أو التبارز والتفاخر .

« وقال أيضاً » : « وكان أشهر معجزات محمد (ص) القرآن الكريم ، لاشتهاره بالبلاغة والفصاحة عند قريش الذين كانوا يفتخرون بحسن الكلام ويتعالبون فيه » . وقال أيضاً في القرآن : « هو كتاب مجيد واجب التعظيم لا يمسه إلا المطهرون أبان ما لله على عباده وما لهم عليه من الحقوق ، ضرب فيه من كل مثل وما فرط فيه من شيء ، جمع فأوعى فضائل وحقائق وطاعات ، ونزل على رسول الله صلى الله عليه وآله متجهاً حسب الوقائع ، فكان رابطة بين قبائل العرب مؤسماً للوحدة الدينية » .

وقال (ديسون الفرنسي) : (وفي القرآن أمثلة كثيرة على هذه الدعوة العالمية الى الاسلام ، والواقع أن القرآن يساير الفلسفة الحديثة كل المسيرة ويتفق معها كل الاتفاق ، فتعاليمه لا تعارض الحضارة الحديثة وأوامره لا تناقض المبادئ العلمية ، وقد يعجب القارئ من هذا التوافق بين الفلسفة والقرآن ، ولكن حسبك تقديرآ لآياته ، وحسبك فهم لمعنى الفلسفة الحقة لتدرك أن لا تضارب هناك ولا تناقض . فالقرآن ليس كتاب عقيدة وإيمان فحسب إذ لا يمكن أن تقرر إيماناً إلا إذا جعلته في صورة يقبلها العقل ويطمئن اليها الفكر ، ولا يمكن أن يعتقد الانسان عقيدة جديدة دون مبرر قوي وبراهين واضحة ، ولم يكن القرآن أول نزوله إلا كتاباً يتناوله العرب بالشك والريبة ويتهمون صاحبه بالجنون والسحر ، فكان من الطبيعي في القرآن أن يشفع أقواله بالبرهان الناصع ويقرنها بالدليل المقنع والقرآن ليس بكتاب تشريع وأخلاق فحسب ، فالتشريع والأخلاق لا بد لها

من فلسفة قوية يقومان عليها ، والمشرع الأخلاقي يجب أن يكون فيلسوفاً قبل كل شيء ، فلا يمكن القرآن أن يبحث على الزهد في الدنيا إن لم يتحدث عن قيمة الحياة الآخرة والخلود والبعث ، وهذه مسائل فلسفية ، كما أنه لا يمكن للقرآن أن يبشر بالتوحيد إن لم يطرق البحث للخالق وصفاته وما هيته وهذه مسائل فلسفية أيضاً ، فالقرآن قد تعرض لكل بحوث الفلاسفة فتكلم في الله وفي صفاته وعرض للروح وكنهها ، وبحث في الخلود والبعث ، وصور للانسان مثلاً أعلى يجب أن ينشده ، واختط له طريقاً يجب أن يسلكه .

قال (المستر آ . ف الانكليزي) : (لقد كان من حسن الصدف اني اطلعت على مجلة (اسلاميك ريفيو) ووقفت على موادها الخصبه وبحوثها الفياضة عن الدين الاسلامي الحنيف ، ولقد كان من جراء هذا أن ثارت في نفسي الرغبة في الاطلاع على القرآن الكريم لأستثير من آياته البينة في معرفة ذلك الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله من عند الله ، وأقف على التعاليم والمبادئ الذي اتخذ بها العالم ولم يستمتع بها إلا المسلمون وحدهم ، ولا أكتفكم اني صرت أشعر بدافع غير عادي لست أعرف سره يحفزني الى البحث عن نسخته من المصحف الشريف واقتنائه حتى أدرس ما نزل فيه من شرايع غرر وتعاليم قويمه ، قد يكون لي منها مصباح يضيء الى السبيل الموصل الى الهدى .

وقال (المستر هاري الانكليزي) : (لم يطل انتظاري حتى أسعدني الحظ بالحصول على نسخة من كتاب نبي الله محمد (ص) هو المثل الأعلى ، ذلك المؤلف القيم الذي أكاد التهمه وأنا أقرأه بشغف عظيم لما تضمنه من جليل وصف النبي الكريم ، وجميل اسلوبه وسلاسة تعبير وصدق حجة وقوة برهان لا تجعل للشك من أثر . إن محمداً هو المثل الأعلى ، وإن الدين الذي جاء به هو الدين الأسمى ، وإن القرآن الذي تنزل عليه هو الاعجاز والمعجزة الحقة ، وكم أنا مسرور إذ أنه محي كل ما كان عالقاً في ذهني من سوء فهم أوضعف عقيدة ، وبعد أن اتهمت قراءته

بامعان دقيق استعدت تلاوته ، ثم عكفت على قراءة آي من الذكر الحكيم مستضيئاً بتفسيرات (خوجه كمال الدين) ذلك فكان من أعظم أسباب هناك وسعادة أرجو الله أن تتحقق رغبتى في أن أتاح لي فرصة أؤم فيها « ووكنع » - هو مسجد في لندن - وأحضر ما يلتقى من دروس دينية عن الاسلام الحنيف وتعاليمه الغراء بغية التبصر في هذا الدين المجيد وجمع ما أستطيع جمعه من كنوز الغنية النادرة) . الى كثير من هذه الحقائق الناصعة المتجلية لدى رجال الفكر من علماء اوروبا . وإنك لتجد في كل موضع من القرآن آيات كريمة تحض على فعل الخير والميرة ، فنقتصر على نبذة يسيرة من ذلك نقبسها من مواضع شتى من آي القرآن الكريم ، لعل راغباً في الأدب يتأدب بأدبه السامي ويتخلق بخلقه الكامل .

جاء في الآية الثانية عشر من سورة البلد المكية : (وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة) .

وجاء في الآية الرابعة عشر من سورة الليل المكية : (فأذرتكم نارا تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى وسيجنبها الأتقى الذي يتركى وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى) .

وجاء في الآية الثامنة من سورة الانسان المكية : (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً) .

وجاء في الآية المائة والثلاثة والثلاثين من سورة آل عمران المدنية : (وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون أموالهم في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) .

وجاء في الآية المائة والسابعة والسبعين من سورة البقرة المدنية : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين

وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا شاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون .

وجاء في الآية الثانية من سورة المائدة المدنية : (ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب) .

وكما أوضح الاسلام رحمة المولى جل وعلا فقد نوّه بأعمال المحبة التي هي ثمرة رحمة المرم لقريبه وأظهر شديد غناية باليتيم وحماية الفقير والرضيع والمحروم من الميراث ، وجعل الاخاء والمحبة ركنين للمجتمع الاسلامي . وهذا لعمري تقدم باهر إذا قابلنا عهد الاسلام بعهد الجاهلية أيام كان أرباب الثراء والسيادة يزددون سلفهم في إطفاءهم المساكين ويسومونهم الحسف .

ومن الآيات التي تأمر بالعدل ما جاء في الآية السادسة والعشرين من سورة ص المسكية : (فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) .

وجاء في الآية السادسة والخمسين من سورة النساء المدنية : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) .

وجاء في الآية الثالثة والعشرين من سورة الاسراء المسكية : (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين احساناً أما يبلغن عندك الكبر أحدها أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) .

هذا أدب القرآن السامي الذي ظهر به للمجموعة البشرية ، وهذا هو الشرف والفخار فأروني أدب غيره من الكتب التي يزعم أهلها أنها وحي آلهي .

إقتضت حكمة الله تعالى أن لا يُنزل القرآن جملة واحدة بل منجماً مفرقاً فكانت آياته تنزل بحسب الوقائع والحوادث ومقتضيات الأحوال ، أو جواباً لأسئلة واستفتاءات ، وهذا ما يُسهل حفظه وتعليقه على ما هو دون العادي من الحواظ

والمسكات ، قال تعالى : (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً) . وكان جبرئيل «ع» يلقي على النبي (ص) ما يلقي من الآيات فينطبع في قلبه (ص) انطباعاً قسرياً ، وينقدح في نفسه انقداحاً لا يستطيع له ردأً ولا تملك له تغييراً ولا تبديلاً ، ولا يصيبها فيه اضطراب ولا خطأ ولا نسيان ولا زيادة ولا نقصان ، كما ينقل الكلام من المتكلم الى لوحة الحامي إذا نفخ في صورها بصوت تلقته كاملاً غير منقوص ثم تعيده كما نفخ فيها قال تعالى : (سنقرئك فلا تنسى) .

ولنزول القرآن منجماً أسباب .

١ : - إن نزوله جملة واحدة يغيب على المسلمين ذلك التشوق والترقب الذي هو أقوى الأسباب في سهولة حفظه عليهم ، ولا مربة إن تترقبه النفس يتمكن منها أكثر مما يفاجئها على غير ترقب وانتظار . والله يريد أن يعيه المسلمون ويحفظوه

٢ : - إنه معجز في كله وفي أجزائه وفي غالب أوقاته ينزل منه القدر المعجز ، فهو في منزلة تكرر الإعجاز بتكرار النزول ، ولا ريب أن استمرار ذلك ٢٣ سنة أبلغ فيه من حصوله مرة واحدة .

٣ : - إنه مربّب للأمة في بلاغتها وبيانها ، فهو كل يوم يلقي عليها درساً جديداً في البلاغة والبيان .

٤ : - إن العرب ليسوا سواء في البلاغة وتناول الأحكام منه ، ففي تنجيجه تيسير على متحفظيه ومستخرجي أحكامه .

٥ : - إنه كان ينزل في الغالب بحسب الحوادث التي تعن للرسول «ص» فتكون فصل الخطاب في احكام تلك الحوادث والمسائل المشككة .

كما أنه في إنزاله منجماً ما يسهل التكليف على المؤمنين وما يزيد في بصيرتهم فان تنزيله متضمناً الأخبار عن الغيوب والفصاحة التامة حسب الوقائع يزيد المبالغة

في إعجازه ، إذ التحدي بما نزل منه أول الأمر يجعل كل نجم متحدى به ، وعجزهم عن معارضة كل جزء أقطع دليل على أنهم عن معارضة جميعه أعجز وان هذا ما يزيد قوة في قلبه «ص» وخوراً في عزائمهم .

كما أنه لو أنزله تعالى جملة واحدة لكان استوائه في الفصاحة والاعجاز آية قد يجوز على العقل فهمها ، ولكنه مع طول الزمان وتغاير المكان واختلاف الأحوال ظلت طبقة في الفصاحة واحدة مستوية ، فكانت آيته فوق طوق العقل وعلامة كلام الخالق الأعلى ، إذ لو كان من نفس ذات إحساس بشري لتلونت آيته بتلون قائلها ، إذ ما يكون لبشر أن يمكث على حالة واحدة بضعاً وعشرين سنة يمنح الكلام من نفسه على وتيرة مستوية والكلام كما يعرفه القراء لونه من لون متكلمه ونزل القرآن في خلال ثلاث وعشرين سنة وخمسة أشهر ، وجملة القرآن مائة وأربع عشرة سورة ، نزل منها بمكة المكرمة قبل الهجرة - ٨٦ - سورة ونزل - ٢٨ - سورة في المدينة المنورة وأكثرها من السور الطوال . وكان أول ما نزل منه بمكة قوله تعالى :

« إقرء باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » . وذلك عند ما كان «ص» يتحنث في غار حراء يوم الاثنين - ١٧ - رمضان في السنة الحادية والأربعين من ميلاده لسته من آب سنة - ٦١٠ - ميلادية لقوله تعالى : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .

كان النبي (ص) يأتي حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ويتردد لذلك ثم يرجع الى خديجة فتزوده لمثلها حتى فاجأه الحق وهو في غار حراء فاجأه الملك فيه فقال : إقرء يا محمد ، فقال رسول الله (ص) : فقلت ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال إقرء ، فقلت ما أنا بقارىء ،

فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ ، فقلت ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد فأرسلني فقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » حتى بلغ ما لم يعلم ، فرجع بها رسول الله « ص » ترجف بوادره . ولم ينزل بعد هذه الآية شيء من القرآن الكريم لمدة ثلاث سنوات وتسمى هذه المدة زمن فترة الوحي .

ثم بعد هذه المدة أخذ القرآن ينزل منجماً لما في ذلك من التثبيت لفؤاده صلى الله عليه وآله كما قال تعالى : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً » . وكانت تنزل عليه « ص » بعض الآية كقوله تعالى : « فان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم » .

والآيات الخمس والعشر كما كانت تنزل السورة كلها ، مثل سورة الفاتحة والاخلاص . والكوثر . وتبت . ولم يكن . والعصر . والمرسلات . والمدثر . وآخر ما نزل منه قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » ، وكان نزولها في حجة الوداع يوم غدير خم .

يحدثنا الخطيب البغدادي في تاريخه ج ٨ ص ٢٩٠ ط بمصر بمطبعة السعادة سنة ١٣٤٩ هـ يوصل سلسلة السند الى أبي هريرة عن النبي « ص » إنه قال : « من صام يوم ثمان عشرة من ذي الحجة كتب له صيام ستين شهراً » . وهو يوم غدير خم لما أخذ النبي « ص » بيد علي بن أبي طالب (ع) فقال : أأنت ولي المؤمنين ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « من كنت مولاه فعلي مولاه » ، فقال عمر بن الخطاب : بخ بخ لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مسلم فأنزل الله : « اليوم أكملت لكم دينكم » .

أينسى المسلمون حديث الغدير الذي سارت به الريح الى كل سمع وكتبته

الشمس على صحيفة النهار بأنوارها والنجوم على أديم الليل البهيم بأضوائها . الحديث الذي رواه ولا احصي من رواه النسائي في الخصائص بما ينيف على عشرين طريقاً منها ما نصه : أخبرنا أحمد بن المثنى ثم أوصل السند الى زيد بن أرقم قال : لما دفع صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع ونزل غدير خم أمر بدوحات فقممن ، ثم قال : « كائني دُعيت فأجبت ، وإني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، فانظروا كيف تحلفوني فيها فانهما لن يفرقا حتى يردا علي الحوض » ، ثم قال إن الله مولاي وأنا ولي كل مؤمن ، ثم إنه أخذ بيد علي رضي الله عنه فقال : « من كنت وليه فهذا وليه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » ، فقلت لزيد سمعته من رسول الله فوضع يديه على أذنيه وقال إستكثرتا إن لم أسمعته وإني ما كان في الدوحات أحد إلا رآه بعينه وسمعه بأذنه . ثم رواه بطرق أخرى تقرب من ذلك . وقد روى مسلم حديث الغدير ولكن ببيان آخر كما تجده في صحيحه ، ورواه الحافظ بن عبد البر في الاستيعاب وهذا نصه : روى بريدة وأبو هريرة وجابر والبراء بن عازب وزيد بن أرقم كل واحد منهم عن النبي صلى الله عليه وآله إنه قال يوم غدير خم . « من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » ، ورواه الامام أحمد بن حنبل بعدة طرق وابو نعيم في الحلية والقاضي في الشفا ، وكل كبار العلم وعظماء الحديثين . ولو ذهبنا الى إحصاء رواة هذا الحديث لجمعنا أضخم كتاب وقبحنا أوسع باب .

تعليم القرآن بالأخلاق الفاضلة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويدشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً « ١ » .

الأخلاق الفاضلة هي الحياة الانسانية وروح المدنية وناموس الاجتماع ومعراج السعادة والرفق ، ولا يليق بالكتاب المنسوب الى الوحي أن يخلو من التعليم بها ، لذلك أردنا أن نذبه على شيء من تعليم القرآن بالأخلاق الفاضلة ، لتعرفوا ما تظمنه من التربية والتعليم ما لم ينظمه غيره من الكتب السماوية ، وبذلك يظهر أن القرآن كما هو معجز في النصيحة والبلاغة معجز في التربية والتعليم وحسن التهذيب . « فنقول » .

القرآن هو التعليم الجاري على الحكمة ، والداعي الى الصلاح والهادي الى الرشd والدال على باب الرحمة ، والمبين لحقيقة التوبة بتطهير النفس بالأعمال الصالحة والمبشر بالنجاة والنور ، والمعرف برحمة الله وجلاله وغناه ، والمبين لوجه العفو وحسنه وأهلية التائب له .

أنظر قوله تعالى في آية السبعين من سورة الفرقان إذ يقول جل وعلا :
« إلا من تاب وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب الى ربه متاباً » .

بيان ذلك انه من رجع عن كفره وفساده وندم على ما فرط منه ووطن نفسه وعاهد ربه على عدم التلوث بتلك الرجاسات وتطهر بالأعمال الصالحة - ومنها الخروج من عبدة حقوق الناس - فإنه يزكو ويرجع الى الله رجوعاً حقيقياً بالعبودية الصالحة ، ويندرج في زمرة الأبرار فهو الأهل للعفو عما سلف منه . والبيان يضيق عما في هذه التعاليم من كشف الحقائق وحسن الارشاد وسمو التعليم وإن نورانية هذه الآية هي التي تهدي الى كنوزها الفائقة .

وانظر قوله تعالى في الآية الثالثة والستين من هذه السورة إذ يقول جل وعلا : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » .

كيف اشترط سبحانه في الأبرار الذين يريدون السعادة بالانتساب الى عبودية الرحمن والتحرز عن عبودية الهوى والشيطان ، وأوضح أن الرقي الى فضيلة عبودية الرحمن إنما هو للذين يمشون على الأرض هوناً بحسن السلوك بالأخلاق الفاضلة وكريم الأدب مع النفس بتهذيبها ، ومع الناس بعدل المدينة وبحسن الاجتماع فيسلكون على هونهم في تحري الطريق ولزوم الجادة ، واتباع البصيرة والتوقي من عثرة الاسترسال وورطات الجهل المركب والعجب والغرور ، من دون تسرع يورطهم في هفوات الشهوات وطفرات الغضب والظلم ويدنسهم برذائل العجب والغرور فيزل بهم تسرعهم عن النهج المستقيم ويضر بسعادة أنفسهم وراحة بني نوعهم . فجمعت هذه الكلمة الواحدة للتعليم بكل خير وخلق فاضل يتكفل بالسعادة وال عمران الحقيقي وراحة المجتمع الانساني ، والتعليم باجتنب الهرولة الى بطالة التقشف البارد ومسكنة العجز المضرتين برقي النفس في الكمال والمعاونة في العمران ، وإذا تعرض الجاهلون لهؤلاء الفضلاء بكلام الجهل أجابوهم بما فيه السلام حسبما تقتضيه الظروف والأحوال من الملائقة بالارشاد والموعظة وما يصلح للجواب بالسلام .

وانظر قوله تعالى في الآية الرابعة والستين من هذه السورة إذ يقول جل وعز :
« والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم
إن عذابها كان غراماً إنها ساءت مستقراً ومقاماً » .

هذه هي المظاهرة في الرابطة الحقيقية في عبودية الله والخضوع له ، وعبادته
الخالصة وحقيقة الرهبة منه وهي الحقيقة المعقولة الجامعة بين الرغبة في طاعة الله
وعبادته لأجل عظمتهم ومعرفة أهليته للعبادة الصادقة ، وبين الرهبة بالالتفات الى
وبال المعصية وبطلب المعونة منه والتوفيق للخلاص من المعاصي واستحقاق
عقابها الأليم .

وما أجل قوله تعالى في وصف عباد الرحمن إذ يقول : « والذين يبيتون
لربهم سجداً وقياماً » فان هذا هو الاخلاص بالعبادة ، وفيه السلامة من الرياء
الذي يسري في العبادة كديب النمل ، فان بعض الناس لا تحظر المراءآت للناس
في باله عند عبادته ولكنه ينشط للعبادة بين الناس ويكسل إذا خلا بنفسه وهذا
من داء الرياء الكامن ، وأين هؤلاء من عباد الرحمن الذين يغتنمون الخلوات وظلام
الليل فيدهضون بالنشاط والاقبال الى عبادة الله ، ما أشرف هذا التعليم المحي
لروح والمنعش للنفس .

وانظر قوله تعالى في الآية السابعة والستين من هذه السورة إذ يقول تعالى :
(والذين إذا اتفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) .
يا حبذا هذا التعليم الفائق في نظام المعاش وإعانة النوع ونظم أمر العيال ،
ووضع الاتفاق مواضعه حسبما تقتضيه الحاجة ومواقع الحكمة ، وإنه يقول
إن هؤلاء الكاملين ينفقون ويكون إنفاقهم مستقيماً على الحكمة لا يميل به التقدير
الى التقصيرين اتباع رذيلة البخل والاخلال بواجبات النوع ، ولا يميل به الاسراف
الى عبث السفه المؤدي الى القصور عن الواجبات والى ارتكاب المنوعات والى
عادة تقلق على بني النوع نظام معيشتهم .

وانظر قوله تعالى في الآية الرابعة والسبعين من هذه السورة إذ يقول جل شأنه : (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين واجعلنا للمتقين إماماً) .

ما أكرم هذا التعليم لبقاء النوع الانساني ودوام الحنان العائلي ، وكف النفس عن الخيانة مع النساء الأجنبية ، والتنزّه عن رذيلة الحسد للناس ، ومن أهم ما تقرّبه العين من الأزواج والذريات هو لزومهم لجادة التقوى والصلاح ، فان من ذلك ينشأ الخير والاستراحة بهم . وزاد في تأكيد ما مضى من التعاليم الفاضلة أنه ينبغي لعباد الرحمن أن يسعوا في تكميل أنفسهم وتهذيب أخلاقهم بأن يطلبوا أن يكونوا بأقوالهم وأفعالهم وأعمالهم وأخلاقهم قدوة للمتقين وأدلاء على الخير والهدى .

هذه هي الحكم الروحية والآداب المدنية الاجتماعية والتعاليم السامية التي انفرد بها القرآن الكريم دون غيره من الكتب السماوية .

وانظر قوله تعالى في صفات السعداء وأخلاقهم الفاضلة إذ يقول جل شأنه : (الذين هم على صلاتهم دائمون) « ١ » . يريد انهم يصلونها عن رغبة في الطاعة ومعرفة بعظمة المعبود وشوق الى شرف مناجاته ، لم تكن صلاتهم عن تسكف فيقطعها الكسل ، ولا عن رياء فيهملونها في الخلوات .

وقوله تعالى : (والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) « ٢ » يعني إن اعانتهم لذوي الحاجة من الناس لم تكن بتسكف تابع للسوانح الوقتية من دواعي الهوى والخيال والرياء فتكون اتفاقية تابعة لهذه السوانح إذا غلبت على الحرص والبخل بل جعلوا في أموالهم لاعانة المحتاجين حقاً معلوماً حسب فرض

« ١ » سورة المارج الآية ٣٣ .

« ٢ » سورة المارج الآية ٢٣ .

الشريعة وفرض رحمتهم لا ينقصه الشح يعينون به السائل ومن حرمه الناس من المعروف لأجل غمته وعدم سؤاله .

وانظر قوله تعالى (والذين يصدقون بيوم الدين والذين هم من عذاب ربهم مشفقون) (١) . هؤلاء هم الذين تركز النفس الى كمالهم باطمئنان ، فان الانسان في هذه الدنيا لا يكمل له الأخلاق في السر والعلن الا اذا كانت نفسه دائماً الشوق الى رفعة ونعيم عظيم باق تستحقه دونه زخارف الدنيا الفانية ، ودائمة الرهبة من عذاب تهون دونه مصائب الدنيا المنقضية وشدائد مخالفات الهوى والغضب وحب السمعة ، وان المصدق بيوم الدين هو من لا يتغافل عنه ولا يتناساه ولا يتساهل في أمر جزائه وثوابه وعقابه . بل هو مشفق من عذاب ربه دائماً ، فهنئلاً هؤلاء الكرام .

وانظر قوله تعالى شأنه في الآية العاشرة من سورة الحجرات إذ يقول : (إنما المؤمنون أخوة فأصاحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون) . إن الإصلاح بين الناس هو قوام النظام وحياة الاجتماع ، فليتق الناس ربهم من اهمال الإصلاح ، وليطلبوا رحمة الله بالتهوض اليه .

وانظر قوله تعالى في الآية الحادي عشر من هذه السورة إذ يقول جل وعلا : (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) . أيها الساخر إن لم يكن لك تقوى يصدقك ولا شرف يردعك فاترك السخرية حذراً من أن يكون من تسخر به خيراً منك عند الله وعند الناس فتجلب الهزاء والفضيحة على نفسك . أيها العائبون للخلق لا تنبهوا الناس على عيوبكم ، فلا تلمزوا الناس بالعيب ولا تذكروهم بألقاب السوء .

وانظر قوله تعالى في الآية الثانية عشر من هذه السورة إذ يقول جلشأنه :
 « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا
 ولا يغتب بعضكم بعضاً يجب أحذكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله
 إن الله تواب رحيم » .

لا ينهى عن ظن الخير الذي تحسن به الروابط وتؤكد به علائق الألفة
 ويصفو به الاجتماع ، ولكنه ينهى عن ظن السوء المؤسس للبغضاء والنفرة والمثير
 للشمر ، فإن بعض الظن إثم وخطأ وظلم للبريء ، وسبب للتهجم بالبغضاء والأذى ،
 وإن التجسس منار الفساد ومنبع الشر والفتن ومقلق لنظم الاجتماع ومكدر لصفائه ،
 وإن الغيبة شر ما يغرس البغضاء ويقدر بالشرف ويخدش العواطف ويكشف
 عن رذيلة المغتاب إذ يغفل عن عيوب نفسه ويذكر عيوب الناس . أفلا تنظرون
 الى هذا المثل الفائق في المطابقة في التنفير والتوبيخ والاحتجاج إذ يقول أيها المغتاب
 إن الذي تغتابه أخوك ، وإن عرضه أمانة عندك وهو في غيابه كالميت لا يقدر
 أن يحمي شرفه وعرضه من لسانك ، فلماذا تملأ فمك من غيبته وتنهش عرضه بأنياب
 كلامك ، أو لست تذكره أن تأكل لحم أخيك الميت ؟ فلماذا تفعل مثل ذلك بغيبته
 لأخيك الغائب .

وفي الآية الحادية والسبعين من سورة الفرقان : (والذين لا يشهدون الزور
 وإذا مروا باللغو مروا كراماً) .

إنه ليطربني قوله : مروا كراماً ، فإنه يعلم بأداء الوظيفة الصالحة لذلك المرور
 حسبما يقتضيه الحال والمقام من الاعراض ، والموعظة ، والنصيحة ، واللين ، والشدة
 والزجر ، والتأديب ، فإن العامل بالوظيفة كريم ، والمهمل لها لئيم .

وفي الآية الحادية والثلاثين من سورة المعارج (والذين هم لأماناتهم وعهدهم
 راعون . والذين هم بشهاداتهم قائمون) . ما أكرم الراعين لأماناتهم في كل

ما يؤمنون عليه . ولهمودهم مع الله ومع الناس والقائمين بشهاداتهم على حقها وحقيقتها من دون كتمان ولا تحريف .

وانظر قوله تعالى في الآية الخامسة من سورة المؤمنين إذ يقول جل شأنه :
« والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » .

ما حال العادين على غير أزواجهم والمتعدين حدود الشريعة وشرف الانسانية أما إن الزنا أضرب شيء على المجتمع الانساني وحياة النوع والحنان العائلي ، إذ هو السبيل في هدم صرح الأمة وتقويض دعائم العائلة وإفساد سنن العقل والطبيعة مع الاخلال بالصحة وإفساد النسل ، إذ بواسطته تكون الأمراض الزهرية . وتعلمون لامعول أفتك في النفوس وفي النسل من معول الأمراض الزهرية التي تفعل في اضمحلال بنية الانسان مباشرة بالمرض الدنيء القتال ، أو بما تورثه من إسقاط الحمل أو موت الاجنة في الارحام ، أو موت الأطفال الأبرياء أو أمثالهم أو سوء نموهم وتشويه تركيبتهم مما يجعلهم عالة على الأسرة والمجتمع .

أفلا تنظرون الى خونة العفة وخيائنا الأنفس وقردة الاخلاق من الزناة كيف تلتابهم أنواع الأمراض ، فهم أشبه شيء بالكلاب التي تلغ في آنية توضع لها بالطرق فكما ولغ كلب ولغ بعده كلب آخر ، وقد بلغ فيها كلب فيه كلب أو جرب فتسري العدوى الى الصحيح بقاعدة الانتقال . كذلك الزاني يقع على مومسة قد لفتحت بالزهرى وكل داء فتاك وألم مبيد وعلل ممزقة فيتلحق الخبيث ويحمل من تلك البؤرة أنواع الجرائم ، ثم يواقع أهله أو يواكلهم أو يشاربهم فتنتقل العدوى الى نسله فيكون محلا لتلك الأدواء . وهذا هو البلاء المبرم الذي ينهدم به قوام العائلة وشرف الانسانية .

ليس بين الأمراض المعدية ما هو أشد فتكاً بالانسانية وأكثر مصائباً وآلاماً

من الأمراض الزهرية المتولدة من الزنا فهي أمراض كثيرة الانتشار ومناطقها آخذة في التوسع كلما احتكت الشعوب مع بعضها وازدادت العلاقات بين الأمم المختلفة . حتى أن السفلس وهو أحد الأمراض الزهرية يُدعى أبو الأمراض للكثرة تفشيه وعظم مصائبه التي يتجرعها المصاب . فعلى الشبان النابهين أن يأخذوا التدابير والوقاية التامة حفظاً لصحتهم المطلوبة ، فإن مراعات الصحة أفضل من استعمال الدواء . وتسمى هذه الأمراض أيضاً بالأمراض التناسلية لأنها تسري بواسطة الجماع غالباً ، وهي اليوم معروفة عند الأطباء على ثلاثة أنواع :

« ١ » الافرنجي المعروف بالسفلس .

« ٢ » السيلان المعروف بالسوسنك .

« ٣ » القرحة اللينة .

أما الافرنجي المشهور عندنا بالسفلس هو أبو الأمراض الدموية لفظاعته وشناعته ، مرض تناسلي معدي كثير الانتشار في الجنسين الذكور والأنثى ، يقتك بكل عضو من أعضاء الجسم ويهدم كل جهاز من أجهزته ويرافق المصاب حتى الموت . يتميز ويعرف هذا المرض بظهور قرحة على القضيب بعد مرور ثلاثة أسابيع على فعل الجماع على الأكثر ، أو على الشفة إن قبل المرأة المصابة . ومن سوء الحظ أن هذه القرحة الأولية لا تتقيح ولا تؤلم صاحبها . وهذا ما يدع المصاب الى عدم الالتفات اليها وإهمال معالجتها ، وربما اكتفى البعض بوضع بعض المعاجين واللبخات المستعملة في الدنا بل الاعتيادية فتختفي القرحة ويظن المصاب أن الدواء هو الذي أخفاها ، غير عارف انه من طبيعة هذه القرحة الاختفاء بعد انقضاء الدور الأول ، ثم تظهر في الدور الثاني كالدنا بل والآلام في المفاصل ، فيسبح بسببها الصوت وينتشر المرض في الجسم كله ، حتى أن المرأة الحامل المصابة لتسقط جنينها بسببه ، أو تلده مشوه الحلقة أعمى العينين أو جاحظها ، أو طس الأنف غير منتظم الاسنان

متضخم الكبد منتفخ البطن ، ولا يابث هذا الطفل أن يموت بعد أيام معدودات ، وكثيراً ما تلد الأم طفلها جثة هامدة بعد أن تعبت في حمله أشهراً عديدة . وهكذا ينقل الرجل الممرض الى إمرأته إن كان متزوجاً أو إلى أفراد عائلته نظراً لاشتراكهم معه في مأكله وملبسه ومشربه . وليت المرض وقف عند هذا الحد ولا يتجاوزه ، بل ينتقل الى القلب ويغير بعض أنسجته فتتآكل صماماته ويعجز حينئذ عن تسيير الدورة الدموية الضرورية لادامة الحياة . كل هذا من نتائج داء السفلس المتولد من جراء الزنا .

وأما السيلان المعروف بالسوسنك : مرض معد سببه الزنا في امرأة مصابة بالمرض ، حيث تنتقل الجرثومة الى ذكر الزاني فتحتقن الحشفة وتحمّر ، ويحس المصاب بحرقه بسيطة لأول وهلة أثناء تبوله ، ثم يخرج قيح أصفر يميل الى الخضرة وسرعان ما تزداد كمية هذا القيح ويشد الألم حيث يحرم المصاب من النوم . والويل كل الويل إن أهمل تداءي المرض حيث يسري المكروب الى بقية الأعضاء التناسلية أولاً فتلتهب الخصية بعضاً وتتورم حتى يضطر الرجل الى ملازمة الفراش ، أو أن المثانة تلتهب فالسكتين حيث الموت المؤكد .

اللاثم كل الاثم إن كان المصاب متزوجاً حيث ينتقل المرض الى إمرأته فيلتهب الموضع وتجري منه المواد القيحية التي تنتقل الى المثانة فالحالين فالكلى ومن سوء الحظ أن تداءي المرض في المرأة صعب بالنسبة للرجل ، فبقى هذه المسكينة متجرعة للآلام ، والآنكى من ذلك هو أن الجرثومة تنتقل الى عين الولد أثناء ولادته وأمه مصابة بالمرض فيصاب بالعمى . ومن المؤسف جداً أن ما نسمعه عن بعض العواصم الاسلامية أن عدداً طافها الذين يصابون بالعمى سنوياً لا يقل عن ١٥٠ طفلاً ، وذلك نتيجة إصابة الأمهات السيلان ، فهل هناك إثم أكبر من هذا الاثم ؟ .

يفهم مما سبق أن هذه الأدوية الزهرية من أدهم الأدوية لكثرة انتشارها ،

وخصوصاً في زهرة الشباب ، والشباب قوام الأمة وعليهم اعتمادها ، فإذا انتابتهم هذه الأمراض وسببت ما سببت من تخريب في أجسامهم وعقم في أجهزتهم التناسلية فويل للأمة التي فقدت بفقدهم عنصرها الحيوي الفعال ، ولا شك أن أهم الأسباب في سرية هذه الأدواء وانتشارها هو الزنا . فحاربة المواقير وبيوت الدعارة واجب أولي من وجائب الحكومات والهيئات الاجتماعية والأفراد ، والا فليست الوقاية الفنية والصحية والدوائية بشيء يذكر . فعلى الهيئة الاجتماعية التي يحيق بها ويل هذا الاثم الفظيع أن تنظر في علاج هذا الداء الويل الذي ما فشا في أمة إلا وضر بها الله بالهوان وأذاقها الذل والخسران .

وليس بعيد على الأمة الرشيدة أن تضع من القوانين ما يرد الفاسقين عن غيهم ويحفظ على الأسر كراماتها ، وليس بمنزلة أوعسير على رجال حكومتنا الناهضة أن تقطع دابر الفساد لتخف وطأة هذه الأمراض السارية الفتاكة ، وبودي أن أذكر رجال حكومتنا الصادقين في الخدمات العامة أن تجعل نصب أعينها الحديث النبوي المشهور : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » .

بعث النبي (ص) لاصلاح ما أعوج من المادات القديمة ولتنفيذ الآراء المغلوطة فحذف الزواج وحرّم الزنا ، وفهم الناس أن لا رهبانة في الاسلام ، إذ أن الفرد ضعيف بالطبع لا يقوى على مكافحة كل خطر إلا إذا شدّ أزره أعوانه وأصحابه ، وهذا لا يحصل إلا بالزواج . والزواج هو الوسيلة الوحيدة لتكثير النسل والمحافظة على الجنس البشري ، ولكن من المؤسف أضحي الزواج في هذا الدور مشكلة من المشاكل ، إذ أن بعض الأفراد أبوا أن يمثلوا بأقوال النبي فكثروا المهور معتقدين أنه من العار أن تزوج البنت بمهر بخس ، وجعلوا المهر مقياس الشرف ، مخالفين بذلك ما أوصانا به نبينا من التساهل في هذا الباب .

القرآن وخرافات المعارضين

بسم الله الرحمن الرحيم

(قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) « ١ » .

محور الموضوع هو إعجاز القرآن من حيث الفصاحة والبلاغة .
نضع أولاً بين يديك نموذجاً في تعريف فصاحة الكلام وبلاغته لكي
تستطيع بعد معرفته أن تقيس بين الكلام الفصيح البليغ وبين غيره .
« فنقول » : الفصاحة والبلاغة بلغك الله مراقبها إنما هي من الصفات المعنوية
التي تحس وتدرك ولا تمس ولا تمسك ، وتعرفها الطباع السليمة بفرائزها وأذواقها
لأنها مما تشهدها العيون بأحدائها ، وهي كما عرفها مهرة علم البيان ، قالوا : (لا يكون
الكلام فصيحاً إلا إذا كان خالصاً من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد ،
ولا يكون بليغاً إلا إذا كان مطابقاً لمقتضى الحال مع فصاحته ، وهي أما منحة
في الجيلة وموهبة في الذات بحسب الفطرة كما هي في العرب الأولين المتفاوتين
في ملكاتها وكلماتها بتفاوت ذواتهم المشرقة المضيئة بمقتضى ما سبق لهم من العناية
والمشيئة . وأما حصولية كسبية ومهنة تعليمية يزرعها التعلم والتعليم في باحة الطبع
المستقيم ، فلا تثمر إلا بعد الجِدِّ والتعب والسكد والطلب ، كما في سائر أساطين هذه
الصناعة من ذوي التقدم والبراعة من الشعراء وغيرهم .

فالناس إذاً صنفان لا ثالث لهما أما ذو حظ وتميز من معرفة العربية قليل أمرها أو كثيره جليله أو حقيره بالطبع والمنحة وعلى أصل الاستقامة والصحة ، أو بالكسب والتحصيل أو بالتعلم بعد الجهد الطويل كما في سائر الناس منذ الأزمنة المتأخرة من سائر طبقات الأمم ، فإن الناس من أي أمة تقرض وأي قوم منذ زمان متقدم إلى اليوم قد تلاشت عنهم تلك الصفة - أعني صفة الغريزة والمنحة - وانسلخت عن ألسنتهم وأذواقهم تلك المعرفة ، وصار الرجل لا ينال من العربية ومعرفة البلاغة حظاً - لا معنى ولا لفظاً - إلا بالكسب والطلب والتعب والنصب . فقد كان البدوي راعي الغنم يسمع القرآن فيختر له ساجداً لما عنده من رقة الاحساس ولطف الشعور فهل يقاس هذا بأي متعلم اليوم ؟

أرأيت أهل جزيرة العرب كيف انضوا إلى الاسلام بمجاذبية القرآن لما كان لهم من دقة الفهم التي كانت سبب الانجذاب إلى الحق ؟

« بلى قادرين على أن نسوي بنانه » . يقرأ هذه الآية أحد علماء الألمان في هذه السنين فيسلم فيسأل لم أسلمت ؟ فيجيب قائلاً : قرأت في القرآن المنزل على ذلك النبي العربي الأُمِّي « بلى قادرين على أن نسوي بنانه » . وقد أصبحت جميع الحكومات لا يستقر قرار الأمن فيها إلا بدراسة نظام البنان ومسامها ، ولم يجد الناس رجلين في الكرة الأرضية تتشابه أناملهما في مسامها ونظامها ، فلم يختص البنان بالذكر ؟ وعلم البنان لم يكن ليعرفه الناس إذ ذاك ، ولم تدركه الحكومات السابقة بل لو عرفوا ذلك لم يعرفه أهل الحجاز ومنهم هذا النبي الأُمِّي ، فهذا القول إنما جاء من مصدر أعلى من عقولنا التي في الأرض فلذلك آمنت به وصدقت .

جاء أعرابي إلى رسول الله (ص) من المشركين من فصحاء الأعراب وقد سمع أن الله تعالى قد أنزل عليه قرآناً عجز عن معارضته فصحاء العرب ، فقال له : يا رسول الله هل فيما أنزل عليك ربك مثل ما قلته ؟ فقال رسول الله «ص» : وما قلت ؟ فقال الأعرابي : قلت :

وحى ذوي الأضغان تسي عقولهم تحيتك القربى فقد يُدفع النغل
وإن جهروا بالقول فأغف تكمراً وإن ستروا عنك الملامة لم تبل
فإن الذي يؤذيك منك استمعه وإن الذي قد قيل خلفك لم يقل
فأنزل الله تعالى : « ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن
فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها
إلا ذو حظ عظيم » « ١ » فقال الأعرابي : هذا والله هو السحر الحلال ، والله ما تخيلت
ولا كان في علمي انه يزداد أو يؤتى بأحسن مما قلته . أشهد أنك رسول الله ، والله
ما خرج هذا إلا من ذي إل « أي عهد » .

يقول الأصمعي : كنت أقرأ « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءاً
بما كسبا نكالاً من الله والله غفور رحيم » « ٢ » وبجني أعرابي فقال : كلام من هذا ؟
فقلت كلام الله ، قال أعد فأعدت فقال ليس هذا كلام الله ، فانتبهت فقرأت والله
عزيز حكيم ، فقال أصبت هذا كلام الله فقلت أنقرأ القرآن ؟ قال : لا ، فقلت
من أين علمت ؟ فقال يا هذا عز فحكم فقطع ، ولو غفر ورحم لما قطع .
أنظروا الى البنت الأعرابية التي فطنت لاشمال الآية الآتية على أمرين
ونهيين وخبرين وبشارتين ، ومجمل الخبر أن الأصمعي قال : سمعت بنتاً من الاعراب
خامسة أو سداسية تنشد .

أستغفر الله لذنبي كله قتلت إنساناً بغير حله
مثل غزال ناعم في دله واتصف الليل ولم أصله
فقلت لها : قاتلك الله ما أفصحك ! فقالت ويحك أيعد هذا فصاحة مع

« ١ » سورة السجدة الآية ٣٣ - ٣٤ .

« ٢ » سورة المائدة الآية ٣٧ .

قوله تعالى : « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فالقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » « ١ » . فجمع سبحانه وتعالى في آية واحدة على اختصارها وإيجازها بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين وانظر قوله تعالى في آية الأربعين من سورة هود وهو موضع الإعجاز والاعجاب إذ يقول جل شأنه : (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين) . انظرها وهي في مقامها واختبرها في عقد نظامها ، ثم استقصها أثراً وتعرفها خبراً وخبراً ، ثم انظر ما ذا تسمع وما ذا ترى من مظهر القدرة القاهرة من الإيجاز والإعجاز وشرف المعاني والمباني وبلاغة التقرير والترتيب وفصاحة النظم والتركيب ، وما اشتملت عليه من أنواع البديع وغرائب الأساليب التي عجزت عن معارضتها مهرة الصناعة وحمة تلك البضاعة .

ولا تحسبن أن هذه الآية عديمة النظائر والاضراب في ذلك الكتاب ضع نظرك أني شئت من بيناته ، وسرح فكرك في أية آية أردت من محكماته تجدها لتلك شقيقة إن لم تكن بالتقدم حقيقة : « وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها » « ٢ » ، أو حاكية في الإعجاز عنها « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها » « ٣ » ، وما هي بواحدة ولا إثنين ولا ولا .

هاك انظر قوله تعالى في الآية الثالثة والسبعين من سورة الحج إذ يقول جل شأنه : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز » .

« ١ » سورة القصص الآية ٦ .

« ٢ » سورة الزخرف الآية ٤٧ .

« ٣ » سورة البقرة الآية ١٠٥ .

الله أكبر وسبحان الله ألفاً ألفاً عدد ما أنزل الله حرفاً حرفاً ما أدري ماذا أجرى قلم القدرة وماذا أنشأ لسان القوة وماذا حوى وحمل لوح العظمة والسطوة ما أدري كيف أسبغها وأساغها ، وفي أي قالب صبها وصاغها ، وإلى أي حد من البلاغة انتهى بلاغها ؟ يقول جل شأنه أليس هناك شيء عجيب وشأن غريب الذي هو بمثابة من العجب والغرابة أن ترى من ذوي العقل جماعة يخلصون بالعبادة وينقادون بالطاعة لمخلوق منهم قطعاً لا يملك لنفسه فكيف لغيره ضراً أو نفعاً ، وهو من الضعف والعجز في حال يعجز عن صنع مثل أصغر الحيوانات بل أخس الهوام والحشرات ، وانظر إلى تلك التتمة بل التكملة المهمة وهي قوله تعالى : « ولو اجتمعوا له » ، فانه بمحل ومكان لا يأتي عليه الحسن ولا الاستحسان ، ثم انظر إلى ما وراء ذلك من الترقى والمبالغة زيادة في التشنيع والتقريع لهم والتفطيع في عبادة ذلك الخالق الوضيع وهو قوله تعالى : « وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه » فانه الغاية في إهانتهم والكشف عن عجزهم ومهانتهم ، وما هو من المبالغة والاغراق الذي هو فوق الواقع بل ترقى في تصريف المعاني على نحو من البيان بديع بارع .

ثم انظر كيف عقب ذلك بما يزيد الحال في الشناعة والفضاعة وأعطى فذلّة المقام فلخص وأجل في كلمة ضربها ضرب المثل فقال عز شأنه : « ضعف الطالب والمطلوب » . وسرح نظرك إلى آخر الآية مما تاهت فيه العقول وتناهت الأبواب وعجزت الأفهام وحجزت الأوهام وكلت الألسن وأعشت الأعين وانقطعت العبارات وامتمعت الاشارات .

وانظر إلى ما هي دون ما ذكرناه في الفصاحة والبلاغة قوله جل شأنه في الآية السادسة والتسعين من سورة الانعام إذ يقول تعالى : « فالق الاصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم » . انظرها

وهي أربع كلمات كل واحدة بنفسها درة ، وفي جبين البلاغة غرة إن ضممتها الى اخواتها سطمت وإن افردتها لذاتها برعت ، فاذا الفت زادت حسناً وإحساناً وإذا أفردت شمت بنفسها إشراقاً ولعناً ، في اسلوب يريك أنه يصدر عن علو الأمر ونفاذ القهر ومتناهي الفخر ، متجل بيهجة القدرة متحل بخالص العزة ، يجمع السلاسة الى الرصانة والسلامة الى المثانة والرونق الصافي والبهاء الضافي . لا أريد انه شمل الطباق المليح والايجاز الصحيح والتعديل والتثيل والتقريب والتشكيل فانه وإن جمع ذلك وأكثر ، لكن العجب ما ذكرنا من انفراد كل كلمة بنفسها وتعاليلها في أوج سماء قدسها حتى حسن أن تكون عين رسالة أو خطبة ، وصدر مناجاة أو ندية وعنوان رسالة أو كتاب وفاتحة مقالة أو خطاب .

وما أكثر أمثال هذه الآي من معجز آياته وزبر بيناته مما لا يتسع لعدده وسعي وفراغي ، ولا يبلغ أدناه أقصى جهدي وبلاغي . وكيف لي أن أتسم أو أنسى لصعود تلك المزالق ورفي هاتيك الشواهد والوصول الى تلك الرقائق والحقائق من بيان عظمة القرآن وما فيه وإعجازه في مبانيه ومعانيه وذكر علومه وتعاليمه وشرف مناطيقه ومفاهيمه ،

وإن من العجب أن ترى الرجل في جميع المقامات من النظم والنثر والخطب كخطيب مصقع فارساً في كل حلبة ولدى كل موضع فاذا تصدى من أجل ضعف في دينه أو خور في عود يقينه أو زندقة في هواه الى مقاومة ذلك المقام ومعارضة معجز ذلك النظام احم وتبلد وأبكمت وتلد . هذا مسيلحة وسجاح وأمثالهم من الأولين والمتنبى والمعري وأضرابهم من الآخرين كل يزعمه جاء بقرآن وبينات وسور وآيات ولكن دونك فاضرب فكرك فيما يحكى عنهم من تلك المزخرفات فهل تجد إلا ما يضحك الصبيان في مكاتبها ، وتسخر منه ربات الحجال في مضاربها .

وها نحن نسوق اليك طرفاً مما جاء به هؤلاء زعموا انها كتب سماوية وسور

إلهية نزل بها الروح الأمين ، اجعله مسرحاً لفكرك واعرضه على ذوقك وفهمك ، فهل تجد فيه عظمة القرآن ومعجز ذلك البيان من سحر البلاغة وحسن النظم وجودة الأسلوب ؟ .

هاك ما جاء به مسيئة وقد أخذ أغلبه من القرآن قال معارضاً لسورة (سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى) قال (سبح اسم ربك الأعلى الذي يسر على الجبلى فأخرج منها نسمة تسعى من بين اضلاع وحشى ، فمنهم من يموت ويدس في الثرى ، ومنهم من يعيش ويبقى الى أجل ومنتهى ، والله يعلم السر وأخفى . ومنه » واذكروا نعمة الله عليكم واشكروها ، إذ جعل الشمس سراجاً والغيث مخرجاً ، وجعل لكم كباشاً ونعاجاً وفضة وزجاجاً وذهباً وديباجاً) . ومنه : (يا ضفدع بنت الضفدعين تقي فجاد ما تتقين وسحي فحسن ما تسحين ، اعلاك في الماء وأسفلك في الطين ، لا الماء تمكدرين ولا الشارب تمنعين) . ومنه (والفيل ما القيل وما أدراك ما القيل له ذنب وييل وخرطوم طويل ، إن ذلك من خلق ربنا لقليل) . ومنه معارضاً لسورة الذاريات : (والمبدرات زرعاً والحاصدات حصداً والدائسات قحاً والطاحنات طحناً والخابزات خبزاً والثاردرات ثرداً واللاقيات لقماً لحماً وسمناً . وما يناسب المقام إتماماً لهذه السورة أن نقول والخاريات خرياً .

قال الأصمعي : نزلت برجل من الأعراب فقام يصلي المغرب فقراً في الركعة الأولى « قد أفلح من هينم في صلاته وأطعم المسكين من مخلاته وحاط من بعيره وشاته ثم ركع وسجد ، وقام الى الثانية فقراً :

بنونا بنوا ابنائنا وبناتنا بنوهن ابناء الرجال الأباعد

ثم ركع وسجد وتشهد ، وقام الى الثالثة فقراً :

ويوسف إذ ولاه ابناه علة فأصبح في قعر الركبة ثاويًا

ثم ركع وسجد وتشهد فقلت له من أين هذا القول وهو ليس من القرآن

فقال : صه يا أصمعي ، أشهد الله على عمتي انها تلقتني من مسيلة رسول الله مذاربعين سنة .
واليك نبذة من قرآن أبي الطيب الممتني . الشاعر الشهير إدعى النبوة في بادية
السماء وقد تبعه خلق كثير من بني كلب وغيرهم ، زعم انه انزل عليه قرآن تصديقاً
لنبوته وتأكيده لمطلوبه ومن قرآنه (والنجم السيار والفلك الدوار والليل والنهار
إن الكافر لفي إخطار) . ومنه (امضي على سننك واقف اثر من كان قبلك من المرسلين
فان الله قامع بك ذبغ من ألحد في الدين وضل عن السبيل .
وخذ اليك جملة من قرآن المعري الذي سماه ، « الفصول والغايات في مجارة
السور والآيات » .

إذ يقول : « أقسم بخالق الخيل والريح الهابة بليل بين الاشرط ومطالع
سهيل ، ان الكافر لطويل الوليل ، وان العمر لمكفوف الذيل ، تعد مدارج السيل ،
وطالع التوبة من قبيل ، تنج وما اخالك بناج . وقوله أذلت العائدة أباه ، وأصاب
الوحدة ورباه ، والله بكرمه اجتباها ، أولاه الشرف بما حباها ، ارسل الشمال
وصباها ، ولا يخاف عقباها . فقل له ما هذا إلا جيد غير انه ليس عليه طلاوة
القرآن . فقال : انتظروه اربعمائة سنة حتى تصقله الالسن في المحاريب وعند ذلك
انظروا كيف يكون . ؟

وهاك صفحة من قرآن « علي محمد » مؤسس دعوة البابية اجعله محط نظرك
وموقع فكرك وتأمله ملياً وانظر ماذا ترى وماذا تسمع من الخرافة التي لا توصف !
يقول في قرآنه الذي سماه « البيان » مدعيًا انه معجز وحجة على صدق
الدعوى وجاء فيه بأمور . وهي انه في اكثره بل غالبه جاء بجمل القرآن وابعاض
آياته فيؤلف ما بينها تأليفاً يشوه صورتها الحسناء ويحطها من السماء الى الأرض ،
إذ يجمع فيها بين الازداد وسوء الترتيب وسخافة التركيب والغلط والالخان
في الاعراب . وإن الله قد ضرب المثل لنوره بالمشكاة والمصباح فسهلت لي حكمة

ذلك أن اضرب لك الامثال للقرآن وابتلاءه بمقابلة كتاب الباب . ومن الامثال انه اجتمع فارسيان فقال أحدهما لصاحبه ما صنعتك ؟ قال شاعر ، وانت ما صنعتك ؟ قال ماعر ، قال فأقرأ لي من شعرك ، فقال الشاعر: إني قلت في انقضاء برد الشتاء والثلج وارتياح الاطيار بطيب الربيع وبهجة الازهار : (كبك در كوه ميزند خنده) . فأقرأ لي معرك فقال الماعر : وأنا قلت (مبك در موه ميزند منده) فقال الشاعر : هذا شعري انت مسخته ، فقال الماعر : لا ، هذا معري وأنا انشأته هذا ولكن الماعر احسن الاتباع بالوزن والاسلوب والانسيجام .

وزبدة القول هاك استمع بعض الآيات من قرآنه - بعد ضرب المثل - قال في البيان ما لفظه : شئون الحمراء آثار النقطة جل وعز البيان ، في شئون الخمسة من كتاب الله عز وجل ، كتاب الفاء ، بسم الله الأبى الأبى بسم الله البهى البهى الله لا إله إلا هو الأبى الأبى ، الله لا إله إلا هو المبتهى المبتهى ، الله لا إله إلا هو المبهى المبهى ، الله لا إله إلا هو الواحد البهين ، والله بهى بهين بهاء السموات والأرض والله بهين مبهى مبهى ، قل الله أبى فوق كل ذي بهاء ، لن يقدر أن يتمتع عن ملك سلطان ابائه من احد لا في السموات ولا في الأرض ولا ما بينهما انه كان بهاء أباهياً بهياً . ثم أكثر من هذا التكرار بهذه المادة في البيان والمبتهى . الى أن قال :

إنا قد جعلناك جلالاً جليلاً للجالين وإنا قد جعلناك جمالاً جليلاً للجمالين . ثم أخذ يكرر إنا قد جعلناك وما بعدها . فلنحذف قوله إنا جعلناك ونذكر ما بعدها وهو : عظماً عظيماً للعظمين ، نوراً نوراً للناورين ، رحماً رحماً للراحمين ، تماماً للتامين ، كمالاً كميلاً للكمالين ، كبراً كبيراً للكبارين ، عزاً عزيراً للعازرين ، نصراً نصيراً للنصارين ، فتحاً فتحاً للفتاحين ، قدراً قدراً للقادرين ، ظهراً ظهراً للظاهرين ، حباً حباً للحابيين ، شرفاً شرفاً للشارفين . سلطاناً سليطاً

للسالطين . برهاناً بريهاً للبارهين . حكماً حكيماً للحاكين . جوداً جوداً جوداً
للاجادين . وزراً وزيراً للوازين . بطشاً بطشاً للباطشين ، نبلاً نبلاً للنبالين
جهراناً جهراً للجاهرين . جرداً جرداً للجاردين . سرجاناً سرجاً للسارجين .
طرزاناً طريزاً للطارزين . الى ان قال :

تبارك الله من سلط مستلط رفيع . وتبارك الله من وزر مؤثر وزير .
وكرر قوله تبارك الله في قوله جل مجمل جميل . عظم معتظم عظيم . نور متور
نوير . رحم مرتحم رحيم . شمع مشمع شمع . بذخ مبتذخ بذخ . بدء مبتدء
بدىء . نخر مفتخر نخير . ظهر مظهر ظهير . قهر مقتهر قهر . غلب مغلب غلب .
كبر مكتبر كبير . عز معتز عزيز . جود مجتود جويد . طرز متطرز طريز . جذب
مجتد جذب .

هذا كلامه واسأل الكردي المكثرد الكريد . والنحبي المنزج الزنيج .
ممن له أقل المام بالعربية ومعرفة أصولها وقل أية فقرة سالمة من الغلط المختلط الغليط
فانه يقول ليس فيها صحيح إلا قوله رحماناً رحيماً للراحمين . فاعتبروا إن كنتم
من المعتبرين . ولا أظن انك لا تستطيع معارضة هذا القرآن على زعمه مع فهمك
وصفاء ذهنك فاذا انتهيت أن تسمع المعارضة فدو نكها وشرطنا أن لا نذكر فيها
أسماء الله وصفاته الكريمة تنزيهاً لجلاله عن مثل هذا الهذر في الهاذرين . بل نصرف
الكلام الى بستان تجلت من زهيان الانشاء في البقعة الخضراء في شؤون الصفراء
ما تحت الزرقاء مهملاً مسلسلًا كما يقولون كتاب الصاد . بزهو البستان الأزهى
الأزهى . بستان لم يزدهي الا هو الزهى الزهى المزدهي المزدهي المزهى الأزهى الأزهى
الزهيان . له زهى زهيان زهء الخالص وخريسان وما بينهما . زهء زاهي زهى زهية
الخالص وخريسان وما بينهما . زهيان مزدهي مزدهاء أزهى فوق كل ذي ازدهاء
أزهى فوق كل بستان ذي زهء لا يتوصل أن يعاند عن ملكوت سلطان زهياه

من بستان لا في الخالص ولا خريسان . إنه كان زهاء زاهياً زهياً . انه كان زهياً زهياً زهياً زهياً .

قل أيها البستان إنك أنت زهيان الزهائين . إنا ملكناك بستاناً بسيتاً للباستين . إنا ملكناك جرداناً جريداً للجاردين .

« وأعتبر هذا التكرار في قولنا » سعفاناً سعيفاً للساعفين . خوصاناً خويصاً للخاوصين . كرباناً كريهاً للكارين . ليفاناً ليفاً لللايفين . « وأعتبر هذا التصريف في اللفظ بقولنا » . طلماناً . لقحاناً . بلحاناً . عذقاناً . بسراناً . رطباناً . تمراناً . قسباناً . قصاناً . كرساناً . كبساناً . دبساناً . شجراناً . نبعاناً . ورقاناً . غصناناً . ورداناً . ثمراناً . غنباناً . خوخاناً . تمحاناً . كوجاناً . نوماناً . سنداناً . إنا ملكنا فيك باسق النخل ويانع الشجر وجني الثمر مما يشتهون . فحياءك الحيا من بست مبتست بسيت (وكرر قولنا حياك الحيا من . مع قولنا) خضر مختضر خضير . عمر معتمر عمير . حيط محتيط حبيب « وأعتبر بهذا التصريف في قولنا » كبر . طول . عرض . عمل . سمد . كرب . هلز وهكذا .

وقال أيضاً . يا خليل بسم الله الأقدم الأقدم . بسم الله الواحد القدام . بسم الله المقدم المقدم . بسم الله القادم القادم . بسم الله القادم القدوم . بسم الله القادم القدامان . بسم الله المتقدم المتقدم « وكرر هذا التصريف . بقوله . القادم المتقادم . المستقدم . القيدوم . القدم . المقدم . المقادم . القادم . القدامين . القدمات القدامين . القدامين . المتقادمات . المتقدمات . المتقدمات . القدام . القدام » وجرى على القلب في هذا التصريف نحو ثلاث أوراق كما تقلب في البهتان والأبهاء .

ولنضرب لك مثلاً - بالنظر اليه - ليسهل عليك أن تعارض هذا الكلام فلا نحتاج الى التطويل في المعارضة والتبذير في القرباس . وقد أعطيناك إنموزج الكلام أما المثل فهو أنه لما تمت عمارة صحن الكاظميين عليها السلام عملوا له احتفالاً

عجب صحي چه صحي خوب صحي . عجب طيني چه طيني خوب طيني .
عجب نوره چه نوره خوب نوره . عجب آجر چه آجر خوب آجر .
عجب كاشي چه كاشي خوب كاشي . واستمر على هذا في جميع أجزاء العمارة وأسبابها
ثم التفت الى ذكر العملة على هذا المنوال ، فقال : عجب استا . عجب خلفه . عجب
صانع . عجب مهدي . عجب أحمد . عجب ناصر . وهكذا والقصيدة على طولها لم يأت
فيها بلفظ مهمل كالبيهان والمقتدوم وأشباهاها ، ثم أنه بعد مدة قدم العالم المرزا أبو
الفضل الطهراني رحمه الله من سفر الحج ، ففضى ذلك الرجل الظريف الى زيارته
وقال إني نظمت في حجبك وقدمك قصيدة غراء ، فقال له المرزا المذكور أنا أتلو
قصيدتك عليك قبل أن أسمعها منك ، ألسنت تريد أن تقول :

عجب حجي چه حجي خوب حجي عجب ناچه چه ناچه خوب ناچه
عجب محل چه محل خوب محل . وهکذا في جميع أجزاء السفر وأسماء
الأمکن ذهاباً وإياباً فقال الظريف أحسنت وانك لشاعر عالم بما في الضمير .

فقل في المعارضة للكلام السابق على شرطنا . يا حبيب بمحوضة الخُل الأعتق
الأعتق ، بمحوضة الخُل الممتاز العتاق ، بمحوضة الخُل المعتق المعتق ، بمحوضة الخُل
العتاق العتاق ، بمحوضة الخُل العتاق العتوق ، بمحوضة الخُل العتاق العتقان ، بمحوضة
الخُل المعتق المعتوق . (وكرر هذا التصريف بقولك) العتاق المتعتاق المستعتق
العتوق العتق العتق العتافة العتاق العتاقين العتقات العتوقين العتاقين المعاتيق ، المتعتقات
العتقات . المستعتقات . العتاق العتاتق (وحيث ارتفع بهمة المرزا علي محمد حرج

العقلاء وأهل اللسان في تصريف الألفاظ فزد في ذلك وقل في التكرار (العتيق العتيقي العيتق ، ونحو ذلك مما هو أشبه ببعض الألفاظ من لفظ المقتدوم .

ومن العجيب ولا عجب ممن يقرء أمثال هذا في كتب البابية ويقول مفتخراً هذه هي الحقائق لا قولهم في علم الصرف . نصرينصر نصراً : فنقول له إنا نعلم أطفالنا علم النحو والصرف لنحفظ لهم شرف أدبهم وكلمهم في معرفة الصحيح من اللغة والكلام ولميزوا بأدبهم من هو الذي يغلط ويهذر ويكفر وهو يدعي انه باب العلم ونبي مبعوث وإله جاء بكتاب معجز في اللغة العربية وقد سمعت انموذجه .

ولا غرو إذا اغتر عوام العجم بهذه المهمة والدممة وتوهموا انها ترجع الى طائل ومعنى محصل فقبلوها وهم لا يشعرون ، ولكن ما بال بعض العرب وهم يدعون الفهم والأدب قد انخدعوا لصاحب هذه الطامات والخرافات والأغلاط المضحكة ، وأعجب من هذا انه يدعي بها الاعجاز وهم يؤمنون ، ولا عجب من الهوى وخداعه سنة الذين خلوا أفلا تتفكرون .

وبعد هذا كله . فاني ملتمس سائل ولكل واحدٍ ممن عرف للبلاغة معنى قائل . ألا بذمة الانصاف عليك ألا بما أسدى الحق والحقيقة من الفضائل اليك ألا بجرمة شرف الانسانية ألا بالمرورة والتكرم ألا بشرف العلم والتعلم إلا ما طالعت وتطلعت وراجعت ما استطعت ، فها هو القرآن بين يديك ، اجمع جمعك واسع وسعك واعقد عندك محتفلاً ولجنة واجمع فيه من تراء من المهرة في البلاغة وذوي المهنة والصياغة فانهم بين يديك وما كان يخفى مقامهم عليك فان الصناعة الواحدة داعية التعارف وواسطة التسكاتف واستقبلوا من القرآن أية خطة شئتم وأي مقام أردتم مقام الدعوة الى التوحيد . مقام الوعد والوعيد ، مقام التشويق الى الجنان ، مقام التحذير من النيران ، مقام القصص والانباء ، مقام دعوة الأنبياء ، مقام تهذيب النفس الانسانية ، مقام نشوها ونموها من الجمادية الى الحيوانية ، الى غير ذلك من

الموجودات السماوية والأرضية مما يتعلق بالعلوم الطبيعية والرياضية ، كالسحاب والمطر والرعد والبرق والبرد والصواعق والزلازل وغيرها من كائنات الجو .

أعطيك نموذجاً في القول وعنواناً من البيان تقيس عليه ما شئت من غيره مما مر عليك وطرق سمعك . خذ من أوائل سورة القصص الى عشرين أو ثلاثين آية مثلاً وانظر فيما اقتض الله جل شأنه من نبأ موسى وتفاصيل أحواله وما جرى له من حين ارتضاعه وأيام صباه الى الوقت الذي كله الله فيه واجتياه مفتتحاً بقوله جل شأنه :

(نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين) .

إلى قوله تعالى بعدما اقتض من زواج كليمه بينت شعيب ثمانى حجج قال سبحانه : (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون * فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين * وأن الق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين * ثم اقتض جل شأنه خبر إرساله إلى فرعون وتفرغه بقوله تعالى : « يا أيها الملاء ما علمت لكم من إله غيري فاوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعل

أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين * واستكبر هو وجنوده
في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم ألينا لا يرجعون * فأخذناه وجنوده
فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * إلى منتهى القصة
وهو قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعدما أهلكنا القرون
الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلمهم يذكر »

انظر هذه قصة من قصصه وخبر من أخباره ولمعة من أنواره ، لا أخصها لك بعينها
ولا أعينها عليك بخصوصها ، بل أشرت لك بها الى الغرض وصيرتها منهجاً وذكرتها
مثالاً ونموذجاً خذ آياً شئت من نبأ آدم وإبليس ، وإبراهيم وعمره ، ولوط
وقومه ، وصالح ومثوده ، وهود وعاده ، ويوسف وأخوته ، وشعيب ومدينه
وداود وجالوته ، وسليمان وبلقيسه ، وزكريا وأمه ، ويحيى ورهبانيته ، وعيسى
وروحانيته ، ومحمد ونبوته ، خذ مما عددناه وما استوفيناه ولا أحصيناه أي قصص
شئت وعلى أي باب وقفت ثم تدبره جيداً ورجع النظرة والفكرة مردداً ثم اجمع
أهل ثقتك ممن تعترف لهم بالفصاحة وتدعن لهم بشأو البلاغة وقل يا هؤلاء إنا نريد
أن نسبك هذه القصة على غير ما جاء بها هذا الكتاب من سبكها ، ونبدل هذه
الدرر بامثالها ونظمها في غير ما وجدناه هناك من سلكها ، فاعينوني بقوة واسعدوني
بسطوة ، واقض في الخوض معهم ليلك ونهارك بل أيامك بل اعوامك بل عمرك
بل دهرك ، ثم خذ لك مني وعد صدق وعلى الله انجازه أن ستعرف هناك حقيقة
العجز ويستبين لك ما بلاغة القرآن وما إعجازه . هناك تجد الأفكار الراجعة
متقهقرة والألباب إلا واقفة متحيرة ، هناك يهزك الفزع ويأخذك الهلع ، هناك
تنصدع صفاتك وتخف حصانك ، هناك يخضع لجأجك ، هناك يعتدل اعوجاجك
هناك يبدو لك عذر من كان قبلك في ترك الممارسة ممن هو أشد منك في البلاغة

بأساً وأقوى منك معاناة لها ومراساً ممن بعد فيها قوته وارتفع بها صيته وصوته ،
هناك تحسن وجداناً وتجد عياناً وتعود مضطهماً خبيراً بصحة قوله تعالى : « قل لئن
اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم
لبعض ظهيراً » ١ .

صورة أخرى لاسلوب القرآن

ترتكز على العقل

تتضمن بعض معجزاته العلمية

إن القرآن لم تكن مهمته أن يتحدث الى عقول الناس عن مشكلات الكون
وحقائق الوجود العلمية ، وإنما هو كتاب هداية وإرشاد للناس في حياتهم الدينية
والدنيوية ، ولكن مع ذلك لم تخل آياته من التعبيرات الدقيقة ولا من الارشادات
الخفية الى حقائق كثيرة من المسائل الطبيعية والطبية والجغرافية مما يدل على إعجاز
القرآن وكونه وحياً من عند الله .

ومن الثابت تاريخياً أن مجداً «ص» فضلاً عن كونه أُمياً لا يقرأ ولا يكتب
قد نشأ في مكة حيث لم تكن علوم ولا معارف ولا جامعات ولا مدارس تقرأ فيها
العلوم الكونية ، كما ان مجداً كان بعيداً عن ذلك المحيط العلمي الذي كان موجوداً
في الشام والاسكندرية واثينا ورومية . ومع ذلك فإن النظريات العلمية التي أشار
اليها القرآن لم تكن معلومة في ذلك العصر في القرن السابع الميلادي ولم يكشف
العلم أسرارها إلا منذ أمد قريب .

وهذه الحقائق العلمية التي ذكرها القرآن والتي سنعرضها في هذا البحث نتركها للقارئ ليحكم بعقله بعيداً عن هوى النفس ليرى هل يعقل أن تكون هذه الآيات القرآنية من كلام محمد كما يفترون أم هي وحي إلهي أنزله الله على محمد «ص» ؟ .

قال الله تعالى : « ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً » (١) . هذه الآية سمعها العرب ، ففهم بعضهم من نسقها أن القمر نور والشمس نور ولكن اختلف اللفظان ليكون في ذلك تنويع بليغ . ثم فهم أهل العلوم الحديثة مع كل هذه الوجوه أن المراد من الآية إثبات ما كشفته هذه العلوم من أن القمر جرم مظلم وإنما يضيء بما ينعكس عليه من نور الشمس التي هي « سراجة » إذ النور لا يكون من ذات نفسه ابتداءً ولا بدّله من مصدر يبعثه . فذكر السراج بعد النور دليل على أن هذا مصدره ذاك .

فتأمل أيمن أن يكون هذا في طاقة رجل من العرب منذ ثلاثة عشر قرناً في تلك الجزيرة ؟ وهذا المعنى لم يعرفه المفسرون في عصور المدنية الإسلامية الزاهرة قال الله تعالى « أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها » (٢) إن شكل الأرض بصورة عامة مستدير كروي غير أنها غير تامة الاستدارة وغير منتظمة التكوير ، فهي مبسطة عند قطبيها ومنشفخة عند خط الاستواء وبشكلها هذا دعت بالقطع الناقص الجسم ، وحينئذٍ نقص قطرها القطبي عن قطرها الاستوائي مقدار ٦ ، ٤٣ كيلو متراً تقريباً .

وتبسيط الأرض عند قطبيها وارتفاعها عند خط الاستواء نتيجة لتأثير فعل القوة الطاردة المركزية المسببة من الحركة الدورانية للأرض حينما كانت سائلة . من أين ل محمد (ص) هذه الحقيقة عن الأرض ؟ والتي لم يُهتدى إليها إلا منذ ثلاثة قرون تقريباً ، إن في ذلك لآية على أن القرآن من عند الله .

« ١ » سورة نوح الآية ١٥ - ١٦ .

« ٢ » سورة الرعد الآية ٤١ .

قال الله تعالى : (الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها) « ١ » .
 فقد ثبت في علم الفلك أن الكواكب واقفة بقوة الجاذبية وما ثم مادة تربطها وتوقفها
 مكانها ، وقد كان الفلكيون يزعمون انها مرتبطة بفلك الأفلاك . ويقول الله تعالى
 أيضاً في هذا المعنى : (إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا) « ٢ » .
 فالله جل شأنه يمسك السماء والأرض بناموس الارتباط العام بين ذرات العالم أجمع ،
 وهو ناموس الجاذبية .

قال الله تعالى : (قل أأنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون
 له آنداداً ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها
 أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها
 وللأرض أئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين) « ٣ » .

فالقرآن يصرح أن السماء كانت دخاناً وهذا سر عجيب من اسرار خلق
 السماوات والأرض لا يعرف العلم إلا أن السماء كانت يوماً دخاناً ولا تزال كتل هائلة
 فما سماه الله دخاناً يشاهده الفلكيون بمراقبهم القوية حديثاً في السماء .

وقد قرأت أخيراً في مجلة الهلال عدد مارس سنة ١٩٥١ أن الدكتور
 (وندل لايمار) العالم الفلكي قال : « إن الأرض والكواكب الأخرى تكونت
 نتيجة لتكثف سحابة مؤلفة من جزئيات صلبة غازية يبلغ حجمها ضعف حجم
 الكرة الأرضية الحالي عشرة آلاف مرة » .

قال الله تعالى : (أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً
 ففتقناهما) « ٤ » . هذه الآية تخبرنا أن السماوات والأرض كانتا شيئاً واحداً متصل

« ١ » سورة الرعد الآية ٢ .

« ٢ » سورة فاطر الآية ٤١ .

« ٣ » سورة فصلت الآية ٩ - ١١ .

« ٤ » سورة الأنبياء الآية ٣٠ .

الأجزاء ، وهذه معجزة من معجزات القرآن ، يؤيد القرآن بها العلم الحديث في قوله : « إن العالم الشمسي كان كتلة سديمية واحدة فأنفصل بعض أجزاء الكتلة تدريجياً بطريقة ما فتكونت منها السيارات والأرض وغيرها التي أخذت تدور حول والدتها وهي الشمس » .

قال الله تعالى : « ألم تر أن الله يُزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله » « ١ » . مفتاح هذه الآية هو في قوله تعالى : « ثم يؤلف بينه » ، فقد كان الناس يعمرون بهذه الكلمات فيرونها مجازاً من المجازات البلاغية وهي حقيقة من أمهات الحقائق الكونية التي كشف أسرارها العلم ، فإن التألف بين السحاب ما هو إلا إشارة واضحة بل وصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية .

فالسحاب مكهرب من غير شك كما أثبت ذلك فرنكلن لأول مرة في عام ١٧٥٢ والمعروف أن نوعي الكهرباء يتجاذبان ، وان الموجب والموجب ، أو السالب والسالب يتنافران ، هذا التنافر من شأنه تفريق السحاب ذي النوع الواحد لكن الله سبحانه قد يجمعه برغمه بواسطة الرياح ، وعندئذ تكبر السحابة ، ثم إذا شاء الله ساق السحاب بالريح حتى يقترب السحاب الموجب من السحاب السالب قريباً كافياً فإذا اقتربا تجاذبا ، ومن شأن اقترابهما هذا أن يزيد في كهربائية مجموع السحاب بالتأثير ، ولا يزالان يتجاذبان ويتقاربان حتى لا يكون محيص من اختلاطهما واتحاد كهربائيتهما ، والمطر نتيجة لازمة لحدوث ذلك الاتحاد الكهربائي .

فالأمامل المسببة للأمطار محورها إذاً هي الكهرباء الجووية وقد أشير إليها إشارة واضحة في آية الحجر ، قال تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » « ٢ » . فالملاحظة في هذه الآية بين

« ١ » سورة النور الآية ٤٣ .

« ٢ » سورة الحجر الآية ٢٢ .

سحاب وسحاب ، والشبه تام بين هذا التلقيح والتلقيح النباتي ، لأنه في الحالين اتحاد تام بين شيئين متضادين متجاذبين يختفي به الشئان ويظهر مكانهما شيء آخر غيرهما .

قال الله تعالى : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون » (١) .
وصف الله في هذه الآية جماعة الحيوان والطير بالأمم ، وانها تشبهنا بعض الشبه أي أن لها عقلاً تدبر به أمورها .

وفي آية أخرى من القرآن نسب الله للنمل كلاماً : (قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) (٢) .
هذه حقيقة علمية اعترف بها العلم حديثاً ، فقد دل على أن جماعات الحيوان أمم يربط أحادها رباط اجتماعي وثيق العرا ، وان منها ما تعيش على صورة ممالك ذات نظم ثابتة كالنمل والنحل وغيرها ، وإن لكل جماعة منها لغة يتفاهم أحادها بها .
ينما كان العلماء الأقدمون لا يعترفون للحيوان والطير بعقل ولا بذكاء فكانوا يظنونهما مجرد آلات حية تحس وتتألم لا تحيل عقلاً ، وكل ما يشاهد منهما من آثار التفكير والتدبير يعتبرونه من ثمرات الالهام والغريزة . بقي هذا الاعتقاد الى عصور متأخرة ، فكان الفيلسوف « ديكارت » يرى أن الحيوان كآلة المعقدة المجردة من الحياة العقلية ، فهو لا يفكر كما يفهم الناس بل يعبر في سلوكه عن الغرائز . واشتهر عنه هذا التعريف وتناقله الباحثون ولم يعترف للحيوان بعقل وتفكير نسيبيين إلا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، من ذلك ما أعلنه (دارون) ان التفكير موجود في الحيوان ولكنه بدرجة أقل من الانسان .

إن هذه الحقيقة التي أعلنها القرآن هي ولا شك إحدى معجزات القرآن

« ١ » سورة الانعام الآية ٣٨ .

« ٢ » سورة النمل الآية ١٨ .

الذي قرر حقيقة أقربها العلم بعد أن استبحرت البحوث في الحيوان والطيور وقضى العلماء أعمارهم في ملاحظتها ودراستها .

قال الله تعالى : « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » (١) .

كان علماء المادة منذ زمن ليس بالبعيد يققون في الجائهم عند الذرة ويقولون إنها الجوهر الفرد الذي تتركب منه المادة ، ولا يقبل التجزئة لتناهيها في الصغر والدقة ، ولكنهم اكتشفوا حديثاً قابلية الذرة للتجزئة والتحطيم إذ حطموها فعلاً واستكشفوا ما فيها من أسرار . فكلمة « أصغر » في الآية القرآنية ليست إشارة إلى الذرة فقط بل هي تصريح جلي بإمكان تجزئتها وتحطيمها ، وهذا سر من أسرار القرآن كشف عنه العلم حديثاً .

قال الله تعالى : (ومن كل شيء خلقنا زوجين) (٢) .
فقد ثبت علمياً أن الزوجية منبثة في الممالك الثلاث الكونية : الحيوان ، والنبات ، والجماد ، حتى الكهرباء فيه قوتان سلبية وإيجابية ، ولم يكن معروفاً ذلك في عصر محمد صلى الله عليه وآله ، وإنما كانوا يعرفونه في المملكة الحيوانية وشيء من المملكة النباتية ، والحال أن القرآن جعل هذا المبدأ عاملاً إذ قال : (ومن كل شيء) كما أن القرآن أثبت الزوجية للحيوان (وإنه خلق الزوجين الذكر والأنثى) (٣) .

قال الله تعالى : (فمن يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يُرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء) (٤) . فالآية صريحة

« ١ » سورة يونس الآية ٦١ .

« ٢ » سورة الذاريات الآية ٤٩ .

« ٣ » سورة النجم الآية ٤٥ .

« ٤ » سورة الانعام الآية ١٢٥ .

بأنه من يرتفع في السماء يشعر بعوارض الاختناق ، والعلم أثبت من قريب أن
أوكسجين الهواء ينقص في طبقات الجو ، وأنه كلما ارتفع الصاعد في أعماق الجو
يشعر بعوارض الاختناق من صعوبة التنفس ، ولذا يستعمل الطيارون الذين يصعدون
إلى الأعالي آلات التنفس الصناعي الذي يحتوي على مادة الاوكسجين حتى يتفادوا الاختناق
قال الله تعالى : (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل
شيء موزون) « ١ » . الشاهد في هذه الآية هو كلمة (موزون) فإن علماء الكون
الأخصائيين في علوم الكيمياء والنبات أثبتوا أن العناصر التي يتكون منها النبات
مؤلفة من مقادير معينة من كل نوع من أنواعه بدقة غريبة لا يمكن ضبطها إلا بأدق
الموازين ، وكذلك تختلف نسبة بعضها إلى بعض في كل نبات ، وهذه مسألة لم يكن
شيء منها يخطر ببال بشر قبل هذا العصر .

قال الله تعالى : (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر
معلوم) « ٢ » . فقد أثبت العلماء في العصر الحديث أن أوكسجين الهواء لو زاد
عن المقدار الذي هو فيه لهلك كل كائن يتنفس ، وذلك لأن حاجة الكائنات الحية إلى
الاوكسجين لا تتعدى الكمية الموجودة حالياً ، فكما أن قلة الاوكسجين تسبب
الموت اختناقاً فكذلك كثرتها تضر بالرتين وتؤدي إلى الموت . أجل ! كل شيء
في هذا الكون بمقدار بحيث لو زاد لفسد نظام الكون ، فلو زاد الماء في الكرة
الأرضية لغرقت ولو انعدم لمات من عليها ، ولو زادت كمية الملح في البحر لهلك
الأسماك . . . الخ

قال الله تعالى : (لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة أيحسب
الإنسان أن لن نجعل عظامه . بل قادرين على أن نسوي بنانه) (٣) .

« ١ » سورة الحجر الآية ١٩ .

« ٢ » سورة الحجر الآية ٢١ .

(٣) سورة القيامة الآية ١ - ٤ .

معنى هذه الآيات أن الله تعالى يقول : أياظن الانسان اننا لن نجمع عظامه ؟ بل نحن قادرون على أن نرتب أصابعه عند الحشر ونرجعها الى ما كانت عليه في الدنيا . هنا المعجزة ويدت القصيد . فلماذا اختار الله سبحانه بنان الانسان ولم يختار عضواً آخر من أعضاء الجسم الكثيرة ؟

نعم تتشابه أعضاء الجسم في الانسان كالعين والأنف والأذن وغيرها من إنسان لانسان ، ولكن الأصابع لها مميزات خاصة لا تتشابه ولا تتقارب ، وهذه المميزات لم تعرف لأول مرة إلا في القرن الماضي أي بعد نزول القرآن بأثني عشر قرناً ونصف القرن تقريباً . ففي سنة ١٨٨٤ م استعملت رسمياً في انكلترا طريقة الاستعراف والتعرف بواسطة بصمات الأصابع ، إذ أن بشرة الأصابع لدى الناس جميعاً مغطاة بخطوط على ثلاثة أنواع : أقواس ، او عراو ، او دوامات بمعنى دوائر متحدة المركز ، وكذلك يوجد نوع رابع يشمل جميع الاشكال التي لم توصف في الثلاثة السالفة الذكر وتسمى المركبات . وهذه الخطوط لا تتغير مدى الحياة وتتميز بين شخص وآخر . فالقرآن ليس هو مجرد ألفاظ ، فكل لفظ له مدلوله وكل آية لها مغزاها .

قال الله تعالى : (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق) (١) أثبت الطب أن مني الانسان ما هو إلا سائل يحوي حيوانات صغيرة لا ترى بالعين المجردة ، وترى به (الميكروسكوب) وكل حيوان منها له رأس ورقبة وذيل يشبه في شكله دودة العلق في شكلها ورسمها . فيقول الله سبحانه : (خلق الانسان من علق) أي أنه خلقه من هذه الحيوانات التي تشبه العلق شكلاً وليقرّبها الى عقول البشر بهذا التشبيه .

وهذه الآية معجزة بليغة من معجزات القرآن لم تظهر وقت نزولها ولا بعده

بمئات السنين ، الى أن اكتشف (الميكروسكوب) وعُرف كيف يتكون الانسان من هذه الحيوانات .

قال الله تعالى : (يَخْلُقْكُمْ فِي بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك) « ١ » . (ففي هذه الآية معجزة علمية للقرآن ، فقد أخبر أن الجنين له ثلاثة أغشية سماها ظلمات وهي الآن يطلق عليها الغشاء المنبري ، والخوريون ، والغشاء اللفائي . والجدير بالذكر أن هذه الأغشية لا تظهر إلا بالتشريح الدقيق وتظهر كما أنها غشاء واحد بالعين المجردة » .

قال الله تعالى : (ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) « ٢ » .
إذا أمعنا النظر في هذه الآية وجدنا انها دلت بوضوح لما دل العلم بعدها على أن الانسان خلق من طين . فإن النطفة في كل من الذكر والأنثى التي يتكون منها الجنين هي وليدة عملية التغذية التي يتغذى بها الانسان ، وأصل هذه التغذية ومنشؤها التراب .

والمراد بالنطفة في الآية هي الحيوان المنوي للذكر والبويضة للأنثى ، فخلق الانسان لا يتم إلا باجتماع هاتين النطقتين والتلقيح بينهما . والقرار المكين : هو الرحم ، وفي وصف القرآن بانه (مكين) إعجاز يفهم الأطباء الذين درسوا التشريح . فقد ثبت أن الرحم مجهز في تكوينه وفي خصائصه بما يمكن أشد التمكن للجراثيم التي يكون منها اللقاح ، ففيه مخابىء عجيبة خلقت لذلك خلقاً ، وفيه مواد يفرزها لوقاية الجرثومة وحفظ الحياة عليها والدفاع عنها وذلك كله تجده في تشريح كلمة مكين .

« ١ » سورة الزمر الآية ٦ .

« ٢ » سورة المؤمنون الآية ١٣ - ١٤ .

ثم يخبر الله تعالى بأنه يصير علقه وصحيح أن شكله يكون مثل علقه الماء تماماً ويستمر كذلك في الأربعة الأسابيع الأولى تقريباً . وإذا عرفنا أن طوله حينئذ لا يزيد على خمس السنتيمتر الواحد ، وأنه لا يميز بالعين المجردة تماماً ، وان أول (ميكروسكوب) عملت في سنة ١٦٨٣ م أي بعد ألف سنة تقريباً من نزول القرآن عرفنا أنه كلام الله تعالى . هذا بينما فسر العلماء المسلمون قديماً قبل اختراع « الميكروسكوب » العلقه : بالدم المتجمد الغليظ على أن الجنين يصير بعد ذلك مستديراً بغير انتظام ومكوراً ، ويبقى كذلك بضعة أسابيع . وقد سماه الله « مضغة » لكثرة الشبه بينه وبين قطعة اللحم الممضوغة وهي في الاصطلاح الطبي عبارة عن نمو العلقه وتنوع خلاياها وتميز بعض أجزائها عن البعض الآخر ، وهنا يبدأ طور التكوين وتظهر آثار العظام في المضغة . وبعد أن تتكون العظام يبدأ اللحم في التكوين بظهور العضلات وذلك بتنوع الخلايا التي تحيط بالعظام ، وبينما تظهر العظام والعضلات تتكون بقية أعضاء الجسم .

وفي قوله تعالى : ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ معجزة دقيقة من معجزات القرآن ، فقد ثبت أن الجنين أول تخلقه يكون في الانسان والحيوان على شكل واحد فتحوله الى الصورة الانسانية بعد ذلك انشأوه خلقاً آخر . ومن هذا كله يتبين لنا بوضوح أن أطوار الجنين المذكورة في القرآن هي نفس الحقائق التي نقب عنها العلم الحديث حتى اكتشفها ، أيكون ذلك في مقدور أيّ في جزيرة العرب منذ أربعة عشر قرناً أن يأتي بها من عنده إلا أن تكون وحياً أوحاه الله اليه ؟ .

هذه هي بعض معجزات القرآن العلمية ، وهناك معجزات أخرى طيبة أوردناها في بحث ﴿ صحة الأبدان ﴾ هذه المعجزات تدحض كل شبهة تتبادر الى الذهن في الشك فيما يرويه محمد عن ربه والتي هي من أقوى الوسائل الاتقاعية بصدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الوجهة الإسلامية

في تعرف الأحوال النفسية

تنتاب النفوس علل وأمراض يتفاوت وقعها وتختلف أعراضها ، ولا شفاء لهذه الأمراض ولا برء للنفوس منها الا بتعرف علاجها والاهتداء الى دوائها فيما شرع الله اللطيف الخبير في كتبه السماوية وأجرى على السنة أنبيائه وأصفيائه من آيات الحكمة وفصل الخطاب وأودع سيرتهم من ضروب الإصلاح ومظاهر التقوى . ووصف الأمراض النفسية وأحوالها لا يتاح إلا لكل نفاذ البصر قوي البصيرة رقيق الحجاب مؤيد من عند الله بتوفيق ، له في طب النفوس جولات وبالفراسة الروحية واسع دراية ، ينظر بنور الله ويسمع ويحس ويصوب ويسعى تكلؤه رعاية الله .

وقد تخادع الأحوال الجسمية أطباء الاشباح ويحارون في وصف أمراضها وربما يرون دم الاحتقان دماً يمت الى السلامة بأسباب ويستسمنون ذا ورم وتغرم المظاهر فتغيب عنهم العلل .

والمدعون معرفة أحوال النفوس من العلماء والزهاد والفلاسفة والصوفية كثيراً ما يعزب عنهم التوفيق في تعرف أسرار النفوس . وما النفس إلا الروح في بعض ماهياتها وتعريفها : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) « ١ » .

ليس في الاسلام مقاييس مادية تقاس بها أحوال النفوس ، ولا مساير تسبر بها اغوارها ، ولا كيفيات تستخدم فيها الحواس والجوارح ويؤخذ فيها الناس على غرة ويجس حينئذ نبضهم وتقرأ الأسرار من أحوالهم .

برىء الاسلام من ذلك التخمين والأخذ بالظن وترتيب النتائج على هذه المقدمات الفاسدة لأن الاسلام يخاطب العقول ويناجي اليقين ولا يعرف الحدس فهو ابن الفطرة ليله كنهاره ، وقد كدم في غير مكدم وأجهد نفسه وأركبها الشطط ذلك الذي ظن أن تعرف الأحوال النفسية يرجع الى هذه القواعد والكيفيات وما دروا أن الله يتولى السرائر . حقاً قد اهتدى العارفون لكثرة ما عاجلوا من أحوال المريدين والسالكين الى مظاهر وعلامات تعتبر أقيسة عامة لتمييز الاخلاص من الرياء وبواطن النفوس وظواهرها ، وتهيء لهم من ذلك شيء كثير أبصروه على نور من الله ومعرفة واسعة بالحلال والحرام واستيعاب لعلوم الكتاب والسنة ولم يلجأوا في ذلك الى ضروب من الحيل وإنما هي فراسة دينية ومن رحمانية ، وقد صاغوا تلك الاختبارات في قوالب من الوعظ والحكمة على محاكها بين الزيف من السليم والصحيح من السقيم والنفوس المزكاة من المندسة . وإنا لذا كرون لك طرفاً منها نتعرف به أحوال بعض النفوس .

١ - ينبغي للعاقل أن ينظر الى الاصول فيمن يخالطه ويعاشره ويشاركه ويصادقه ثم لينظر بعد ذلك في الصور فإن صلاحها دليل على صلاح الباطن ، واما الصور فانه متى صحت البنية ولم يكن فيها عيب فالغالب صحة الباطن وحسن الخلق ، ومتى كان فيها عيب فالعيب في الباطن أيضاً ، فاحذر من بهم عاهة فان بواطنهم في الغالب ردية . ثم مع معرفة أصول المخالط وكال صورته لا بد من التجربة قبل المخالطة واستعمال الحذر لازم .

٢ - قال عمر بن عبد العزيز لرجل : أشرف علي فيمن استعمل ، فقال : أما أرباب

الدين فلا يريدونك وأما أرباب الدنيا فلا تردهم ولكن عليك بالأشراف فانهم يصونون شرفهم عمالاً يصلح . وكان يحيى بن خالد يقول لولده لا بد لكم من كتاب وعمال وأعوان فاستعينوا بالأشراف وإياكم وسفلة الناس ، فان النعمة على الأشراف أبقى وهي بهم أحسن ، والمعروف عندهم أشهر والشكر منهم أكثر . يحدث الحسن بن يحيى عن أبي اسحاق قال دعاني المعتمد يوماً فأدخلني معه الحمام ثم خرج فخلاً بي وقال : يا أبا اسحاق في نفسي شيء أريد أن أسألك عنه إن أخي المأمون اصطنع قوماً فأنجبوا واصطفيت أنا مثله فلم ينجبوا قلت : ومن هم ؟ قال اصطنع طاهراً وابنه اسحاق وآل سهل ، فقد رأيت كيف هم ، واصطنعت أنا (الافشين) فقد رأيت الى ما آل أمره و (اساش) فلم أجده شيئاً وكذلك « ايتاخ » « ورصيف » ، قلت : يا أمير المؤمنين هاهنا جواب على أمان من الغضب ؟ قال : لك ذاك ، قلت : نظر أخوك الى الأصول فاستعملها فأنجيت فروعها ، واستعملت فروعاً لا أصول لها فلم تنجب ، فقال : يا أبا اسحاق مقاساة ما مرّ بي طول هذه المدة أهون علي من هذا الجواب .

٣ - قال أمير المؤمنين (ع) : بنيت الفتنة على ثلاث : النساء وهن فخر إبليس المنصوب ، والشراب وهو سيفه المرفف ، والدينار والدرهم وهما سهمان مسمومان فمن مال الى النساء لم يصف له عيش ، ومن أحب الشراب لم يمتع بعقله ، ومن أحب الدينار والدرهم كان عبداً لهما ما عاش .

٤ - من عرف الشرع كما ينبغي وعلم حالة الرسول « ص » وأحوال الصحابة وأكابر العلماء علم أن أكثر الناس على غير الجادة وإنما يمشون مع العادات ، يتزاورون فيعتاب بعضهم بعضاً ويطلب كل واحد منهم معائب أخيه ، ويحسده إن كانت نعمة ويشمت به إن كانت مصيبة ، ويتكبر عليه إن نصحه له ويخادعه لتحصيل شيء من الدنيا ويأخذ عليه العثرات إن أمكنه ، فمن كان فيه ذلك كان مظلم النفس دنيء الطبع .

٥ - الكمال عزيز والكمال قليل الوجود ، فأول أسباب الكمال تناسب أعضاء

البدن وحسن صورة الباطن ، فصورة البدن تسمى خلقاً وصورة الباطن تسمى مُخلقاً . ودليل كمال صورة البدن حسن الصمت واستعمال الأدب ، ودليل صورة الباطن حسن الطبائع والأخلاق .

فالطبائع : العفة . والنزاهة . والأمانة من الجهل . ومباعدة الشر .
والأخلاق : الكرم . والايثار . وستر العيوب . وابتداء المعروف .
والحلم . فمن رزق هذه الأشياء رفته الى الكمال وظهر عنه أشرف الحلال .
٦ - ومن حسن التدبير التلطف بالأعداء فان ذلك يحول حالهم أو يكون سبباً في كف أذاهم قال الله تعالى : (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) «١» . وقد كان الحسن بن علي (ع) إذا بلغه أن رجلاً قد شتمه أهدى اليه وأعطاه فهو بالعاجل يكف شره ويحتال في قلب قلبه
٧ - قال رسول الله «ص» : « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » . ولقد دخل المتزهدون في طرق لم يسلكها الرسول «ص» ولا أصحابه من إظهار التشعشع الزائد على الحد والتنوق في تخشين الملبس ، وأكثرهم في خلوته على غير حاله في جلوته وأنفع العلوم النظر في سير الرسول «ص» وأصحابه « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » «٢» .

٨ - من العفة ألا تجد فهناك أقوام لا يقترفون الذنوب لبعدهم عنها لأنهم آلفوا الترك ، ومقياس عقبتهم ان يختبروا بادناء مواضع الفتن منهم فإذا ثبتوا على ورعهم وتجاؤا عن الآثام فأولئك قويت نفوسهم وطهر سرهم وجهرهم .

٩ - من المتصوفين من لا يستوحشون من ظلم الناس ثم يتصدقون على الفقراء

«١» سورة السجدة الآية ٣٣ .

«٢» سورة الانعام الآية ٨٩ .

وربما توانوا في إخراج الزكاة وتكاسلوا باستعمال التأويلات فيها ثم إذا حضر أحدهم مجلس وعظ بكى كأنه يصانع بتلك الحال .

١٠ - من علامات العالم أن يكون حزيناً مفكراً مطرقاً صامتاً تظهر أثر الحشية على هيئته وكسوته وسيرته وحركته وسكونه ونطقه وسكونته ، لا ينظر إليه ناظر إلا كان نظره مذكراً لله تعالى وكانت صورته دليلاً على عمله . فالجواد عينه مرآته وعلماؤه الآخرة يعرفون بسياهم في السكينة والذل والتواضع . وأما التهافت في الكلام والتشديق والاستغراق في الضحك والحدة في الحركة والنطق . فمكل ذلك من آثار البطر والأمن والغفلة عن عظيم عقاب الله تعالى وشدة سخطه وهو دأب أبناء الدنيا الغافلين عن الله .

١١ - أفضل ما يعلم به علم ذي العلم وصلاح ذي الصلاح أن يستصلح بما أوتي من ذلك ما استطاع من الناس ويرغبهم فيما رغب فيه لنفسه من حب الله وحب حكمته والعمل بطاعته والرجاء لحسن ثوابه من المعاد إليه ، وأن يبين الذي لهم من الأخذ بذلك والذي عليهم في تركه ، وأن يورث ذلك أهله ومعارفه ليلاحقه أجره من بعد الموت .

١٢ - العجب آفة العقل ، والاحتجاج قائد الهوى ، والبخل لقاح الحرص ، والمراء فساد اللسان ، والحمية سبب الجهل ، والأنف تؤم السفه ، والمنافسة أخت العداوة .

١٣ - مما يدل على علم العالم معرفته ما يُدرك من الأمور وامساكه عما لا يدرك ، وتزيينه نفسه بالمسكارم ، وظهور علمه للناس من غير أن يظهر منه نخر ولا عجب ، ومعرفته زمانه الذي هو فيه ، وبصره بالناس وأخذه بالقسط ، وإرشاده المسترشد وحسن مخالفته خلطاءه ، وتسويته بين قلبه ولسانه ، وتحريره العدل في كل أمر ورحب ذرعه فيما نابه واحتجاجة بالحجج فيما عمل وحسن تبصره .

١٤ - أعدل السير أن تقيس الناس بنفسك فلا تأتي اليهم إلا ما ترضى أن يؤتى

اليك ، وانفع العقل أن تحسن المعيشة فيما أوتيت من خير وأن لا تكثرت من الشر بما لم يصبك . من العلم أن تعلم انك لا تعلم بما لا تعلم ، ومن أحسن ذوي العقول عقلاً من أحسن تقدير أمر معاشه ومعاده تقديرأ لا يفسد عليه واحداً منها نفاذ الآخر فان أعياء ذلك رفض الأدنى وآثر عليه الأعظم .

١٥ - من علامات اللئيم الخادع أن يكون حسن القول سيء الفعل بعيد الغضب قريب الحسد - ولا للفحش مجازياً بالحقد متكلفاً للجود صغير الخطر متوسعاً فيما ليس له ضيقاً فيما يملك .

١٦ - كان يقال الرجال أربعة : أثنان تختبر ما عندهما بالتجربة ، وأثنان قد كفت تجربتهما ، فلما اللذان تحتاج الى تجربتهما فان أحدهما بر كان مع أبرار ، والآخر فاجر كان مع فجار فانك لا تدري لعل البر منهما إذا خالط الفجار أن يتبدل فيصير فاجراً ، ولعل الفاجر منهما إذا خالط الأبرار أن يتبدل براً فيتبدل البر فاجراً والفاجر براً . وأما اللذان قد كفت تجربتهما وتبين لك ضوء أمرهما فان أحدهما فاجر كان في أبرار ، والآخر بر كان في فجار .

النصرة القومية

والفكرة الإسلامية

قامت في هذه الأيام ضجة حول مبدأ التمسك بالوطنية وترك ما عداها . وأنصار هذه الدعوة رفعوا شعار الدين لله والوطن للجميع فقال المصريون منهم : نحن مصريون فرعونيون قبل كل شيء ، وقال بعض السوريين : نحن فينيقيون . وقال بعض العراقيين نحن كلدانيون ، وقس على ذلك ، تريد كل فئة أن تتمسك بمجدها التالد وتحتبس في حدودها ، غير ناظرة الى ما يهددها من المخاطر من جراء عزلتها التي تجعلها فريسة سائغة لكل مستعمر قوي مغتال .

يجب على كل أمة أن تعرف تاريخها قديمه وحديثه لأن ماضي الأمة يلعب دوراً كبيراً في حاضرها ومستقبلها ، ولا يمكننا أن ننسى الماضي لأن عقائدنا وأفكارنا كلها آتية منه ، وهو الذي يكون روح الأمة وشكلها ، ولذلك كلما كانت الأمة عريقة في المدنية وذات مبادئ حقة كان نسلها ذا استعداد طبيعي لكل تقدم ورفي .

قال الدكتور « جستاف لوبون » : « حظ الشعب متوقف على ما يعتقد أنه الحق ، وأن التطورات الاجتماعية وتأسيس أو هدم الممالك وتقدم أو انحطاط المدنية ناتجة عن قليل من العقائد التي تنزل من النفوس منزلة الحقائق وهي تمثل مساهرة الشعب الوراثة وفقاً لحوادث الدهر » .

إن من أخطر الغلطات في العصر الحاضر ترك الماضي وعدم الاعتراف به ،

وكيف يمكن ذلك؟ إن ظل الاسلام يحكم أرواحنا وهو يكون الجزء الأكبر منا كما عليه ينسج القدر حظنا ، وإن حياة الموتى أكثر بقاءاً من حياة الاحياء .
لا يمكن لأي مدينة أن تبقى بدون مرشدين أقوياء من المتعلمين الروحانيين ، أو بالأحرى بدون مبادئ عامة قوية ، لأن قوة الأخلاق أو القوة المعنوية هي الآن المحرك الحقيقي للعالم .

معرفة الماضي يجب أن تكون أداة لاذكاء روح الحمية والغيرة والعزة والرفعة والاستقلال وهنا حدود الوطنية البريئة ، ولكن لا يجوز أن تتمتعها الى الصلف والكبرياء والعزلة والاعتزاز بالنفس وعدم الاعتراف للغير بفضائله ومحاسنه فهذا هو الطيش والحمق .

الوطنية الصحيحة لا تقوم إلا على الأخلاق الفاضلة وهذه بدورها تستمد قوتها من الدين الحنيف . وتاريخ العراق قديمه وحديثه شاهد على ما نقول ، ولذلك كان من أهم أغراض المستعمرين طمس معالم التاريخ القديم لتعليم النشء في المدارس لتضعف فيهم روح الاعتزاز بالماضي ويلقون في روعهم أنهم عالة على الأمم الأخرى ، ومحاربة الدين الاسلامي على الخصوص لأنه يبعث في نفوس النشء الاسلامي الاحتفاظ بالكرامة ومبادئ الحرية والشجاعة وهذا ما لا يتفق مع سياسة المستعمر الغاصب في إخضاع الأمم الاسلامية واذلالها .

فالذين يدعون الى القومية وترك الدين جانباً إنما يدعون الى قضية محقة الخسران لانهم يدعون الى مبادئ لا روح فيها ولا حياة ، إذ كيف يكون حال نشء في الوطنية وهو خلو من مبادئ الفضيلة ومراقبة الله عز وجل في السر والعلن؟ هؤلاء لا تكون لهم إلا سياسة واحدة وهي سياسة المنافع وجر المنافع ، أو بعبارة أخرى سياسة الهوى : وهي سياسة مقضى عليها بالفشل . وقد قال « لامرئين » - بحق - (إن ضميراً خالياً من الله كالحمكة الخالية من القاضي)

الدين له القدح المعلق والمكانة الأولى في نفوس السلف الصالح ، واليه يرجع الفضل في كراهة الأجنب الغاصبين وتوحيد القوى الوطنية . فالذين تربط عقيدتهم الدينية قديماً وحديثاً بالله عز وجل يجب أن يكون قصدهم متبعين أوامره منتهين عن نواهيه .

فالاسلام عندي هو الدستور الطبيعي الذي يوصلهم الى غاياتهم السامية . قال تعالى : (ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين) الدين الاسلامي الحنيف لم ييخس الوطنية حقها ، بل جعل حب الوطن من الايمان ، وان تحرير الأوطان لا يكون إلا بالأب على العمل المنتج . (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم) « ٢ » . وإن الثمر متوقف على بذل الجهد (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) « ٣ » .

فماذا إذاً نحدد عن هذا الصراط المستقيم الذي يقودنا الى سعادة الدنيا بالعمل الصالح المنتج والى سعادة الآخرة بمعرفة الله عز وجل . لقد أعلن دعاة السوء دعوة على غير وجهها الصحيح واذاعوها من أن العراقيين هم كلدانيون وأن واجبههم أن يشتغلوا بشئونهم دون سواهم أما أن يشتغل العراقيون بشئونهم أولاً فهذا ما يقره عليهم الاسلام حسب قاعدة . إبدأ بنفسك ثم بمن تعول ، وأما أن ينزلوا عن بقية الأمم الاسلامية المجاورة لهم ، فهذا مبدأ لا يتفق مع مصلحة العراقيين ولا مع مبادئ الاسلام السليمة ونحن في عهد تحالف واتفاقات دولية أصبحت احدى وسائل القوة والمنفعة ، ومن عاش منفرداً في هذا الزمن عرض نفسه الى القهر والسلب . يجب أن نفهم الحقيقة على وجهها الصحيح حتى لا نضل الطريق السوي فنهلك .

« ١ » سورة فصلت الاية ٣٢ .

« ٢ » سورة التوبة الآية ١٠٥

« ٣ » سورة النجم الاية ٣٩

إن الله جل شأنه هو الذي اختار رسوله الأمين محمداً «ص» ليلبغ دينه إلى الناس كافة ، فالدين الاسلامي هو دين الجميع لا دين عرب أو عجم ، وإن من أكبر قواعد الديمقراطية ، إنه لم يجعل الفضل للجنسية بل جعله للعمل الصالح المنتج فقال تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » « ١ » . وقال (ص) : (لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى) ، وقال (ص) : (خير الناس انفعهم للناس) الاسلام هو الدستور البشري السليم الذي يعطي كل ذي حق حقه ولا يبغض الناس اشياءهم .

إن اشتغال العراقيين بمسألتهم القومية والدفاع عن حريتهم واستقلالهم لا يمنهم بأي حال من الأحوال من العطف على الأمم الاسلامية ومساعدتهم حسب ما في قدرتهم . ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

نحن نرتبط مع جيراننا من الأمم الاسلامية بروابط كثيرة منها رباط اللغة والدين فيجب أن نحصر عليها أشد الحرص ونعمل على تمكين هذه الروابط وتوثيق العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بيننا وبين الأمم الشرقية كافة والاسلامية منها خاصة يا دعاة القومية والوطنية إن كان اتجاهكم بهذه الدعوة إعزازاً للوطن ورفع مستواه وحفظ شرفه غيرة وحمية فليكن اتجاهكم لتزكيتهم من الرذائل وتطهيره من المفاسد - التي أفقدته كل غيرة وحمية حتى خسر عزه وشرفه - أولى وأحرى . تلك الرذائل التي جعلته بؤرة للفساد وحمية للسفالة .

انظروا أقلالاً إلى الأمم المستعمرة تدخل بلاد الشرق وتعطيهم من العلوم قشورها ومن الصناعات أضعفها وتمنع عنهم نور العلم وتعدّهم أشبه بالحيوانات الذليلة فهي تسهل إدخال المشروبات الروحية من الخمر والمخدرات ، وتسهل لهم أحوال البطالة والعكس بما شجع أرباب المحال التي تستهوي العقول ، فيجلس الشبان أكثر

التهازل بلا عمل فيها ، وتوعز للذين يأتون بالصور المتحركة « السينما » أن تكون كلها أو جلها حافلة بالشهوات والمخازي وكل ما يسقط النفوس في الهاوي . فهذه المناظر وتلك المشارب جعلتها الأمم المستعمرة شبكات لاصطياد النقول القوية .

أجل بها يصطادوتنا فلا نقدر بعد ذلك على الخلاص . وهذا هو الذي يميح الاستعمار . وهكذا يذيعون الروايات المملوءة بما يحيط قيمة النفوس الانسانية فتتحول العقول في تلك البلاد الى حال تشبه حال العجاوات ، ولكن الأمم الحرة لا تدخل شريطاً (للسينما) إلا إذا وجدته مهذباً للأخلاق رافعاً للنفوس معاملاً للأمة ما تعيش به كالفلاحة والصناعات المختلفة ، فبدل أن تكون (السينما) والروايات لتشويق النفوس الى كل ما يهدم الانسانية تكون لاعلاء شأنها ورفع قدرها وتعليمها الصناعات وسوقها الى المعاني والمعالي .

فالروايات (والسينما) وأمثالها إما مبيئات نفوس الناس الى منزلة من منازل المجد والعز ، وإما الى حفرة من حفر الرذائل والسقوط .

هاك ما جاء يوم الاثنين ٢٧ محرم ١٣٤٧ هـ منشوراً في جرائد مصر تحت هذا العنوان .

« القديم والجديد »

عقدت إحدى صحف لندن فصلاً في موضوع القديم والجديد قالت فيه ما يأتي :

بينما تظهر الأمة الشرقية في عيون الغربيين غريبة أو بالأحرى روائية لما يحيط بها من هالة الشفق التاريخي نراهم يطمحون الى أن يكونوا من أبناء العصر بل أن يبلغوا أسباباً فوق العصرية ، ونسمع اليوم من كل حذب وصوب عن التقدم في الشرق تقدم العلوم والمعارف ، تقدم النهضة الفكرية ، تقدم الأفكار الجديدة تقدم اقتباس الآراء الغربية ونبتذ كل قديم ورجعي .

هذه صورة حقيقية ، ولكن الى حد معلوم ونقطة معينة ، نعم إن اموراً
جسيمة تحدث في الشرق اليوم . ولكن هناك ناحية أخرى تظهر فيها حاشية الرثق
تلك الناحية الخلفية التي تؤثر في حياة الناشئة الشرقية وتحط من شأن السجايا والطباع
فكم من الأحداث والشبان يجد ما يأخذ بيده ويهوى به الى أسفل الدركات
في تلك البدع التي يسمونها المدنية الغربية كأشرطة السينما القذرة المخلة بالآداب
التي يرونها يوماً بعد يوم في دور السينما ، والمؤلفات البذيئة التي يطالعونها ،
والمعاشرة الرديئة التي يلاقونها ، فلا يتخرج الطالب من المدرسة إلا وهو عبد
لعادات وشهوات شنيعة يظل أسيراً لها بقية أيام حياته ، وتكون عبئاً ثقيلاً يروح
تحته ، ومذلة تذله وتضع أنفه في الرغام وتسمه بوصمة عار لا تمحى ما زال حياً .
هذه حالة البنين .

أما حالة البنات فانكد وأضل سبيلاً ، فان زوينة الحمية التي هبت في الشرق
والاندفاع الشديد في تعليم الأناث وتحرير المرأة واقتباس الملابس والأزياء الاوربية
ومعظم ضروب الرياضة البدنية والالعب والرقص وما الى ذلك قد اوجدت طفرة
في البلاد كان لها أشد مساس بالآداب وعبث التفضيلة . فاذا أرادت الشرق أن تصل
الى مصاف الأمم الراقية فعليها أن تحرص على الحياة الأدبية ولا سيما بين الناشئة
والاحداث ، وأن تحسن تربية البنين والبنات وتغرس في قلوبهم التقوى وخافة
الله والحشمة والنزاهة ومبادئ الشرف والامانة ، وخير التربية هي التي يوضع
أساسها في البيت أولاً ويشاد صرحها في المدارس ثانياً انتهى

القضاء والقدر

بسم الله الرحمن الرحيم

« إنا كل شيء خلقناه بقدر » « ١ » .

لهج الناس في كل زمان ومكان بذكر القضاء والقدر ويقولون إن الله يقول:
« إنا كل شيء خلقناه بقدر » . وإذا كان كذلك فلم العذاب ولم العقاب والعتاب؟
ثم إنه رحمن رحيم فأين الرحمة للمعذبين وأين السعادة للمظلومين ولم هم
في عذاب الجحيم؟

هذه حال الانسان على أي ملة كان وأي دين في مشارق الارض ومغارها .
حيرة لا حيل لها وأسئلة لا جواب عليها إلا من أناس صفت نفوسهم وعلت
عقولهم فيكونون في نوع الانسان أشبه بالعين . هذه صورة منطبقة على أهل
هذه الارض أجمعين .

فهاك أيها الذكي فاستمع ما ألقىه الساعة اليك بقلب صاف ونفس واعية
وتدبر فانه لهذا الداء دواء ولمرض الحيرة في القلب شفاء وكن من المستبصرين .
ولأضرب لك أولاً مثلاً برجل مهندس عبقرى في الهندسة عزم على أن يبني
بيتاً وهو بأنواع البيوت عليم ، ففكر في صورها بعقله وانتزع منها صورة
صورها في نفسه واصطفاها لمسكنه ، ثم رسم ما اختاره وبناه وشاده على أحسن

منوال وأجل مثال ، وفي البيت فرش مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة ، وعلى حيطانه أنواع الصور المختلفة الأشكال البديعة الجمال ، ويحيط به بستان تقرر به عيون الناظرين ويسرّ بمرآه جمهور الزائرين . فدخل البيت زائرون منهم العميان ومنهم المبصرون ، ولما كان هذا المهندس كريم الشيم ترك للزائرين الحرية أن يدوروا في البيت كما يشاؤون ، ويتفرجوا على فرشه ونمارقه وأشجاره وهم آمنون ، فانطلق أحد العميان في المنزل فاصطدم في أرض الحجرات بالأرائك نحر على الأرض كالصريع وما كاد يقف حتى لطمته الألواح المعلقة فأدمت أنفه ، وما كاد يمسه أو يفسله وقد مشى خطوات حتى سقطت رجله في المرحاض فقعده حزينا كئيبا وأخذ يقول : إن رب هذا البيت رجل عظيم ورحيم فكيف خاب ظني فيه ، فأين الهندسة والنظام وأين الكرم والرحمة للزائرين ؟ ولم يزل كذلك حتى جاءه رجل مبصر فأخذ يشرح له دقائق البيت وما فيه من الجمال وحسن الاتقان ففرح أشد الفرح ، وقال : هذا هو النظام وهذه هي الرحمة والاحسان . هذا أيها الذكي هو المثل الذي ضربته لبيان هذا المقام .

إن علم المهندس بنظام البيوت واصطفاءه منها واحداً هو أجملها ضرب مثل للقضاء ، فالقضاء راجع لما ثبت في العلم القديم للمكونات وإبراز البيت على ما قدره المهندس في نفسه على أحسن منوال ضرب مثل للقدر لأنه راجع لظهور المخلوقات على ما سبق به العلم القديم .

العميان ضرب مثل لجميع الجاهلاء على أي دين كانوا ، ولطائفة الملاحدين والمتعلمين تعليماً ناقصاً في مدارس الشرق والغرب أجمعين .

والمبصرون ضرب مثل لأناس جادت قرائحهم وزكت نفوسهم واشتد شوقهم للعلم والبحث ، فلم يكونوا كأولئك العميان يهرفون بما لا يعرفون فدرسوا هذه الدنيا دراسة متقنة من الرياضيات والفلك والطبيعات وأدركوا بصفاء عقولهم جاهها وبهاءها ، ثم رجعوا إلى إخوانهم وأخذوا يخاطبونهم بما يفهمون ويكلمونهم بما

يعقلون ، وسعدوا سعادة لا حد لمداهها وكانوا من الفائزين ، وهؤلاء يقال لهم :
 « يا أيها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي
 جنتي » « ١ » . فاذا سمعواهم يتحدثون في القضاء والقدر يخاطبونهم قائلين : أيها
 الأعزاء ليس لامرئ أن يقصر في عمله محتجاً بالقضاء فتلك حجة الكسالى الغافلين
 فاذا ما اتهم على حقيقته واجتاحتهم الحوائج فهناك يقول : القضاء سلوة المتكويين
 وراحة البائسين .

إن هذه المسألة ليست هي وليدة اليوم ألم تر كيف يقول الله تعالى حكاية
 عن كفار العرب أيام النبوة : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا
 آباؤنا ولا حرمنا من شيء » « ٢ » . فرد الله عليهم مهدداً بالوعيد بقوله :
 « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه
 لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم ألا تحرصون * قل فله الحجة البالغة فلو شاء
 هداكم أجمعين » « ٣ » .

ونقول كما قامت حجة المهندس رب البيت على الأعمى هكذا تقوم حجة الله
 على من يخوضون في القضاء والقدر وهم جاهلون .

ان الأمم التي فتحت على نفسها باب القضاء والقدر هي التي قد استعدت للفناء
 وباءت بالوبال ونسيت عقولها وعدتها حملاً ثقيلاً عليها لانهم على الشهوات عاكفون
 وفي غمرة الجهالة ساهون . وكيف يفتحون هذا الباب وهم يجهلون ، وأنى للعميان
 أن يدركوا محاسن الجمال في الفتيات والفتيان ؟ .

إن المسلم الذي شغله القضاء والقدر وهو بعد لم يدرس نظام الدنيا وعلومها

« ١ » سورة الفجر الاية ٢٦ .

« ٢ » سورة الانعام الاية ١٤٧ .

« ٣ » سورة الانعام الاية ١٤٧ - ١٤٨ .

لحرّي به أن يموء بالحسran . فهذه الطائفة في الدين أشبه بأولئك الذين يجلسون في أماكن الشرب العامة ببلادنا العراقية ويدور كلامهم على سياسة الدول وأسرارها وهم يجهلون سياسة منازلهم وأمتهم فهم في ذلك مغرورون .

إن الناس ثلاث طبقات : عامة مصدقون ، وحكماء محققون ، ومتوسطون بين هذين مذنبون متحIRON .

فالفريقان الأولان مطمئنون ، والفريق الثالث جعلت حيرته مهزأً يسوقه إلى البحث فإذا قصر فهو في ضلال مبين ، وكيف يخوض في القضاء والقدر من يجهل تشريح جسمه وبدائع تركيبه ؟ وان في كل عين من عينيه سبع طبقات وثلاث رطوبات . ومن الطبقات السبع طبقة تسمى الشبكية وهي لا تزيد في سمكها على سمك ورقة الكتابة ، وهذه وحدها فيها ثلاثة ملايين مخروط وثلاثون مليون اسطوانة وهذه كلها مبنية بالتصوير الشمسي واضحة ، وبهذه الملايين يكون الاحساس والنظر بينما كنت أكتب في هذا المقال وجهه إلى أحد الأصدقاء الأفاضل اعتراضاً جاء فيه ما يأتي :

إن هناك فرقاً بين المثل والممثل له . فإن المهندس رب البيت ليس مسئولاً عن العمى ، فليس من حق الأعمى الذي حصل له الألم بشج رأسه أن يقول له لم كنت أعمى ، لأن المهندس لا سلطان له على عين الأعمى ، ولكن الممثل له غير ذلك ، فإن الذي أصبح مشككاً متحيراً هو نفسه من صنع الله ، فالاشكال باق والمسألة على حالها والمثال لا يجدينا نفعاً . فأمن الحاضرون على كلامه فقلت : لا إشكال ، فقال الحاضرون أين أين البرهان ؟ فقلت : هناك أسرتان ، أسرة كبرى : وهي نوع الانسان ، وأسرة صغرى : وهي المعروفة . أستم ترون في الأسرة الصغرى أن صاحب المنزل هو الذي يديره ، وأن الخدم لا اعتراض لهم عليه في الغالب ، وأن أطفاله لا يفقهون شيئاً مما يفعل أبوهم إلا بالتدريج ؟

قالوا : نعم ، قلت : فهل وجود الأطفال مع جهلهم المطبق بنظام المنزل يعتبر عند العقلاء خلافاً وظلماً ؟ قالوا : كلا ، بل الأطفال نعمة وعدم وجودهم يعتبر نقمة . فقلت : إن العامة في العالم الانساني يمثل لهم بالخدم لانهم يعملون ولا يفكرون إلا قليلا . وأما رب البيت فهو ضرب مثل لصانع العالم . وأما الأطفال فيمثل لهم بالطبقة الوسطى من المتعلمين الذين ارتقوا عن العامة قليلا وفكروا في نظام هذه الدنيا ، فهؤلاء أطفال الانسانية ، والأطفال خلقوا ليجلسوا محل آبائهم وهؤلاء هم المتعلمون تعليماً ناقصاً فهؤلاء إذا أحسوا بحيرة فهذه الحيرة نعمة لا نقمة لانها تدفعهم الى استيعاب العلوم ليصيروا حكماء ، فاذا كسلوا وناموا كما هي الحال عند كثير من المتعلمين الحاليين فانهم لا جرم يحيون حياة كلها اضطراب ويرجعون القهقري وتكون الشهوات سلوتهم الوحيدة . وهذا هو السر في تأخر بعض أئمة الشرق التي كثر العلم فيها ولكن لا استقلال لها ، لان الرجال القائمين بأمرها يبنون حياتهم على أساس علمي غير مكين . فهل وجود أطفال الأمم خلل في النظام قالوا : كلا ، لانهم يبحثون عن الحقائق كأطفالنا ، قلت : إذن العميان في مثل المهندس رب البيت ضرب مثل هؤلاء باعتبار نقصهم ، وخلق الناقص المستعد للكمال حالا ومآلا عدل وحكمة وكال فقالوا نعم فقلت الحمد لله إذ عرفتم الحقيقة . انتهى

ومن العجب أن يقع التشكيك لأحد في أمر القضاء والقدر الواردين في القرآن مع علمه أن القرآن بحر واسع ظاهره أنيق وباطنه عميق ، قد اشتمل على أنحاء الكلام والتعبيرات الواقعة في كلام العرب المتداولة فيما بينهم من المجاز والكناية والاستعارة والاطلاق السبب على المسبب وعكسه ، ولا يميز مواقع كلامه تعالى بعضها من بعض إلا من خاطبه الله تعالى به وأطلعه على جميع معانيه وليس هو إلا النبي صلى الله عليه وآله وأمره الله سبحانه بأن يعلمه أهل بيته الموصومين (ع) ، ويجب على الناس أن يرجعوا اليهم في أخذ علوم القرآن .

فهذه الألفاظ الموهمة إنما هي موهمة عندنا ، وليس نحن مما خطبنا به حتى يلزم الاغراء بما له ظاهر وأريد خلاف ظاهره . والذين خطبوا به قد فهموا معانيه منه تعالى من غير إبهام ولذا سماهم تراجمة وحيه ، وليس هذا إلا من باب أن يكون سلطان له رعية لا يفهمون كلامه ، فيجعل بينهم وبينه مترجماً في تفهيم كلامه للرعية ، فهو يخاطب المترجم ويفهمه ما أراد ، والمترجم يفهم الرعية معنى كلام السلطان . فليس للرعية أن يعترضوا ويقولوا إن هذا السلطان قد خاطبنا بما لا نفهم لانه لم يخاطبهم بل خاطب المترجم . وليس لهم أيضاً أن يأتوا الى كلام الملك ويحاولوا فهم معناه لعدم قابليتهم لفهمه لانه رموز وكنيات بينه وبين من وجه الخطاب اليهم فربما فهموا من كلامه غير ما أراد ، كما اتفق في تفاسير الجمهور من حمل كلام الباري سبحانه على المحامل التي أرادوها بأرائهم الفاسدة . وفي الحديث : (من فسر القرآن برأيه فقد كفر) .

وحيث انتهى بنا الحال الى هنا فلنذكر لك بعض معاني القضاء والقدر فنقول : إن القضاء يأتي على عشرة معان .

أولها العلم ومنه قوله تعالى : « ألا حاجة في نفس يعقوب قضاها » يعني علمها ثانيها الأعلام ، ومنه قوله عز وجل : « وقضينا الى بني إسرائيل » ، وقوله : « وقضينا اليه ذلك الامر » أي أعلمناه .

وثالثها الحكم ، ومنه قوله تعالى : (يوم يقضي بالحق) يعني يحكم .

رؤى يزيد بن معاوية الشامي قال : دخلت على الرضا (ع) بمرو فقلت له : يا بن رسول الله روي لنا عن الصادق (ع) انه قال : (لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين) فما معناه ؟ فقال (ع) : (من زعم أن الله عز وجل فعل أفعالنا ثم يعذبنا عليها فقد قال بالجبر ، ومن زعم أن الله فوض أمر الخلق والرزق الى حجبجه فقد قال بالتفويض والقائل بالتفويض مشرك) فقلت له : يا بن رسول الله

فما أمر بين أمرين ؟ قال : « وجود السبيل الى اتيان ما أمروا به وترك ما نهوا عنه » فقلت : فهل لله مشيئة وإرادة في ذلك ؟ فقال : « أما الطاعات فارادة الله ومشيتة الامر بها والرضا لها والمعاونة عليها ، وإرادته ومشيتة في المعاصي النهي عنها والسخط لها والعقوبة عليها والخذلان لها » . فقلت : فله فيه القضاء ؟ قال : « نعم ، ما من فعل فعله العباد من خير أو شر إلا والله فيه القضاء » ، فقلت : فما معنى هذا القضاء ؟ قال : « الحكم عليهم بما يستحقونه على أفعالهم من الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة » .

رابعها القول ومنه قوله تعالى : « يقضي بالحق » أي يقول بالحق .

خامسها الحتم ومنه قوله تعالى : « فلما قضينا عليه الموت » أي حتمناه فهو القضاء الحتم .

سادسها الأمر وهو قوله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » أي أمر ربك .

سابعها الخلق وهو قوله تعالى : « فقضاهن سبع سموات في يومين » يعني خلقهن .

ثامنها الفعل ومنه قوله تعالى « فأقض ما أنت قاض » أي أوفى ما أنت فاعل تأسعها الاتمام وهو قوله تعالى : « فلما قضى موسى الأجل » أي أتمه وقوله : « أيما الأجلين قضيت » أي أتممت .

العاشر الفراغ من الشيء ومنه قوله عز وجل : « قضى الأمر الذي فيه تستفتيان » . وقول القائل قد قضيت لك حاجتك .

إذا تحققت هذا فاعلم ان القضاء في كل خبر ينزل على معنى من المعان المناسبة له ، فما وقع في الروايات من قولهم عليهم السلام إن الأشياء كلها بقضاء الله وبقدره بمعنى أن الله عز وجل قد علمها وعلم مقاديرها ، وله عز وجل في جميعها حكم من خير

أو شر ، فما كان من خير فقد قضاء بمعنى أنه أمر به وحتمه وجعله حقاً وعلم مبلغه ومقداره ، وما كان من شر فلم يأمر به ولم يرضه ، ولكنه عز وجل قضاء وقدره بمعنى أنه علم بمقداره ومبلغه وحكم فيه بحكمه .

وأما المعاصي فقضاء الله عز وجل فيها : حكمه فيها ، ومشيته فيها نهيه عنها وقدره فيها علمه بمقاديرها ومبالغها .

يحدثنا السكيني (ره) في الكافي قال : كان أمير المؤمنين (ع) جالساً بالكوفة بعد منصرفه من صفين إذ أقبل شيخ فجا بين يديه ثم قال : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن مسيرنا إلى أهل الشام أبقضاء من الله وقدر ؟ فقال له أمير المؤمنين : (أجل يا شيخ ما علوتم تلة ولا هبطتم بطن واد إلا بقضاء من الله وقدر) ، فقال الشيخ : عند الله أحسب عناي يا أمير المؤمنين ، فقال له : (يا شيخ فوالله لقد عظم الله تعالى لكم الأجر في مسيركم وأنتم سائرون ، وفي مقامكم وأنتم مقيمون وفي منصرفكم وأنتم منصرفون ، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا إليه مضطرين) . فقال له الشيخ وكيف لم نكن في شيء من حالاتنا مكرهين ولا إليه مضطرين وكان بالقضاء والقدر مسيرنا ومنقلبنا ومنصرفنا ؟ فقال له (ع) : (أو تظن أنه كان قضاءً حتماً وقدرًا لازماً ، إنه لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب والأمر والنهي والجزر من الله تعالى ، وسقط معنى الوعد والوعيد ، فلم تكن لأمة للمذنب ولا مجدة للمحسن ، ولكان المحسن أولى بالعقوبة من المذنب ، تلك مقالة اخوان عبدة الأوثان وخضماء الرحمن وحزب الشيطان وقدرية هذه الأمة وجوسها ، إن الله تبارك وتعالى كاف تخيراً ونهى تحذيراً ، وأعطى على القليل كثيراً ، ولم يعص مغلوباً ولم يطع مكرها ولم يملك مفوضاً ، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ، ولم يبعث النبيين مبشرين ومنذرين عبثاً ، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) . فأنشأ الشيخ يقول :

أنت الامام الذي نرجوا بطاعته يوم المعاد من الرحمن غفرانا
أوضحت من أمرنا ما كان ملتبساً جزاك ربك بالاحسان إحسانا
فليس معذرة في فعل فاحشة قد كنت راكبها فسقاً وعصيانا
لا لا ولا قائلاً ناهيه أوقعه فيها عبتُ إذأ يا قوم شيطاننا
ولا أحب ولا شاء الفسوق ولا قتل الولي له ظلماً وعدوانا
أنى يحب وقد صحت عزيمته ذو العرش أعلن ذاك الله أعلننا

ثم قال : فما القضاء والقدر الذي ذكرته يا أمير المؤمنين ؟ قال ﴿ ع ﴾ :
﴿ الامر بالطاعة والنهي عن المعصية ، والتمكين من فعل الحسنة وترك المعصية ،
والمعونة على القربة اليه والخذلان لمن عصاه ، والوعد والوعيد والترغيب والترهيب
كل ذلك قضاء الله في أفعالنا وقدره لأعمالنا ، أما غير ذلك فلا تظنه ، فان الظن
له محبط للأعمال ﴾ ، فقال الرجل : فرجت عني يا أمير المؤمنين فرج الله عنك .
ومن النكت المليحة أنه لما دخل أبو حنيفة المدينة وكان معه عبد الله بن مسلم
فقال له عبد الله : يا أبا حنيفة إن هاهنا جعفر بن محمد من آل محمد فاذهب بنا فنقتبس
منه علماً فلما أتياه إذا هما بجماعة من شيعته ينتظرون خروجه أودخولهم عليه فينماهم
كذلك إذ خرج غلام حدث فقام الناس هيبه له فالتفت أبو حنيفة وقال يا بن مسلم
من هذا ؟ قال : هذا موسى ابنه ، قال والله لاجبهنه بين يدي شيعته ، قال لن
تقدر على ذلك ، قال والله لأفعلن ثم التفت الى موسى « ع » فقال يا غلام أين
يضع الغريب حاجته في بلدكم هذه ؟ قال ﴿ ع ﴾ : يتوارى خلف الجدار ويتوقى
أعين الجار وشطوط الانهار ومسقط الثمار ولا يستقبل القبلة ولا يستدبرها فحينئذ
يضع حيث شاء .

ثم قال يا غلام ممن المعصية ؟ قال : ﴿ يا شيخ لا تخلو من ثلاث إما أن
تكون من الله وليس من العبد شيء فليس للحكيم أن يأخذ عبده بما لم يفعله ،

وأما أن تكون من العبد ومن الله والله أقوى الشريكين فليس للشريك الأكبر أن يأخذ الشريك الأصغر بذنبه ، وإما أن تكون من العبد وليس من الله شيء فإن شاء عفا وإن شاء عاقب ﷻ . قال عبد الله : فأصابت أبا حنيفة سكتة كما نما ألقم فوه الحجر فقلت له ألم أقل لك لا تتعرض لأولاد رسول الله «ص» ؟ وفي ذلك يقول الشاعر :

لم تخل أفعالنا اللاتي نلام بها	أحدى ثلاث معان حين نأنيها
إما تقـرد بـارينا بصنعتهما	فيسقط اللوم عنا حين ننشينا
أو كان يُشركنا فيها فيلحقه	ما سوف يلحقنا من لائم فيها
أو لم يكن لألـاهي في جنائتها	ذنب فما الذنب إلا ذنب جانيتها



الاسلام دين الفطرة

بسم الله الرحمن الرحيم

فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون «١» .

لم تزل المدينيات منذ بدء الخلقة والتكوين على وجه هذه البسيطة تظهر حيناً وتختفي حيناً ، والدروس الاصلاحية في المجتمع يروج سوقها ثم يكسد ، والتعاليم المرشدة نعم المعاهد العلمية ثم تختفي بعد مدة في زاوية الخمول ، كما أن شعوس الهداية الدينية أيضاً كانت تطلع على الناس ردحاً من الزمن فتصلح حال البشر ثم تأفل زمناً آخرأ فيخلفها الفساد وتعم الهمجية والوحشية . وهكذا الحكمة الالهية البالغة والعناية الرحمانية الغير المنتاهية لا زالت في كل قرن من القرون تبعث رسلها الاصلاحية بقوانينها الارشادية وأحكامها المصلحة الى هذا البشر حسب استعدادهم وقابليتهم في ذلك العصر .

وعلى هذا المنوال لم تزل أُمم العالم في قيام وقعود وحركة وسكون ، تارة في أوج النشوء والارتقاء ، وآونة في حضيض السقوط والانحطاط حتى كمل استعداد العقول البشرية ، وتمت قابليتهم لقبول أنوار الاسلام المشعة التي هي نقطة اعتدال جميع أديان العالم .

أرسل المشرع الأفدس من فيوضاته العامة دين الاسلام المبين الذي هو عصارة قاطبة المذنيات العالمية وخلاصة كافة الأديان السالفة مصلحاً لأحوال البشر صالحاً للأعصر كلها غابرة وآتية على العالم الانساني . وقد بعثه بواسطة شمس الرسالة وقطب دائرة الهداية خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله رحمة للعباد وفضلاً منه ولطفاً ، ولم يمس على هذه المدنية الحقبة « ربع قرن » حتى غمر ذلك النور الأرض وأسس للعالم البشري ديناً قيماً محكماً كافلاً للمدينة السعيدة والسياسة الرشيدة ، وانتشر في الشرق والغرب كالبرق الخاطف بواسطة قوة الحق والحقيقة . هذا وقد كان العالم - يوم ذاك - أجمع في تأخر وانحطاط وسقوط وهمجية من جميع الوجوه والجهات ديناً وعلماً ، معارفاً ومدنية ، سياسة واجتماعاً حتى ظهر على وجه الأرض تغير واضح وتبدل بين ، فأوجد هذا الدين الحنيف في جسم البشر روحاً جديدة وحياة أخرى . وبُذلت الشقاوة بالسعادة ، فحلت أصول الحياة وقوانين التنظيم وأحكامه المحكمة التي لا تزول ولا تفتي محل جرائم الوحشية والبربرية في الربع المسكون . هذا كله كان بواسطة حكم ذاك الحاكم العادل الذي أحيا جسم الأرض الميت ومنحه حياة جديدة سعيدة .

إذاً فلا قياس لهذا الدين الحنيف بسائر الأديان الأخر لأنه دين الفطرة للبشر . والفطرة لغة هي الخلقة ، والخلقة بلسان العصر هي الطبيعة ، فمعنى دين الفطرة هو دين الخلقة والطبيعة البشرية . فهو لا يكلف الانسان بغير الأمور المنطبقة على الطبيعة والمناسبة للحال والبيئة البسيطة يقول دستوره : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » « ١ » وبهذا الاعتبار صار الدين الاسلامي الحنيف ملائماً لكل عصر ومكان ، وهو وافقاً لائقاً لجميع الاستعدادات البشرية في العالم .

أما الأديان الأخر فهي إما الى الافراط وإما الى التفريط ، ولا ترى ديناً

وسطاً واقعاً في نقطة الاعتدال سوى الدين الاسلامي فقط . وعلى هذا قال الله تعالى
« فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها » « ١ » .

فاذا ما لاحظنا هذا الدين الحكيم وعرفنا اعتداله وتوسطه بين الافراط والتفريط جامعاً لجنبتي الدنيا والآخرة حائزاً كلا الحثييتين حكمنا بالضرورة عدم ورود أي اعتراض عليه لعدم وجود أي خدشة وخلل فيه . وما من اعتراض أو إيراد يرد على بعض أحكامه من بعض الجهلاء إلا وسيزول ويبطل تدريجاً عندما يتنور العقل البشري وتترقى الأفكار بالعلم والمعارف ، بل إن هذه الأحكام المعترض عليها بعد العلم بصحتها وعدم ورود الاعتراض عليها ستكون هي الدليل على أحقية هذا الدين وملائمته لكل عصر وأمة وكل قطر ومكان .

ومن جملة تلك الأحكام المعترض عليها هي مسألة الخمر المشروبات الكحولية كانوا يعترضون على ورود تحريمها في شريعة الاسلام ، ويقولون إن استهلاكها بنحو الاعتدال من دون إفراط وتفريط مقبول للجسم محلب للنشاط ، ولكنهم ادركوا أخيراً مضراتها بواسطة المكتشفات الطبية الحديثة والتحليلات الكيميائية . وقد أبطل هذا القول - أعني تقوية المشروب الكحولي للجسم - ثلاثة أعلام من علماء الكيماويين في فرنسا وهم : « ١ » الاستاذ « لجان » « ٢ » الاستاذ « بيرن » « ٣ » الاستاذ « دردي » ، حيث قالوا إن الشراب الكحولي الوارد الى الجسم يخرج غير مؤثر فيه أي تقع أو فائدة . وأضاف ثالثهم قوله : (إنني جزأت الدم وحملته فلم أر فيه أي عنصر من عناصر الكحول .

وقال دكتور آخر في الجمعية الطبية البريطانية : « إنني لم أجد مرضاً تشفيه الكحول . وقال آخر أمريكي في كتاب له كتبه في هذا الموضوع وسماه (اليد الطبي) ص ١٧٥ الى ص ٥٠٤ في باب مضرات الكحول وبيان الاستدلال

على سميته حيث يقول : من شك في سمية الكحول فليلاحظ ورود هذا المشروب الى المعدة فانه إذا ورد اليها فبمجرد وصوله اليها يجرّد الأغشية المخاطية ويخرج كل الطويات التي عليها ويفسد غددها وينهك قواها الدافعة بكل سرعة . وهذه الانفعالات لا شك أنها من خواص السموم . لان السموم إذا وردت المعدة قاومتها جميع الأعضاء للدفاع عنها أمامن الأعلى فبالقيء أو من الأسفل فبالاسهال . وهذا أمر لا ريب فيه ، ومن أجل هذا فقد امتنع ما ينازع الخمسة والأربعين مليوناً من أهالي أمريكا عن استعمال الكحول وحرّموها على أنفسهم ، وحتى صدر أمر الحكومة الأمريكية التي هي أول أمة متمدنة بتحريمها وصار الأمر رسمياً فيها . ومن جملة الأحكام التي هي مورد الطعن والاعتراض . مسألة تعدد الزوجات في الاسلام ، ومن البديهي أنه ما من دين إلا وقد أحاطت بالقائم به شكوك في لفظه أو فعله أو نتائج . فانظر في سير الانبياء السابقين واللاحقين ، ترى أن لكل واحد منهم ولكل قائم بعمل من سائر الناس في أحواله وأعماله (وجهين) وجه يتلأأ نوراً وتستبين فيه الحقائق واضحة جلية . وآخر تتعكس فيه الحقائق على طائفة من الناس وتسود وجوههم فيلج الشك في قلوبهم ولا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم . وهذا في المشاهدات معلوم يرى الناس الاشجار على شواطئ البحار ذات ظل في الماء منعكس أعلاه أسفله وأسفله أعلاه ولا حقيقة لهذا ، وإنما ظله مرسم على سطح الماء فيخيّل للناس انه متدل الى أسفل ، ويرون النار المتقدمة من بعيد كبيرة وهي صغيرة ، ويرون الشبح فوق الجبل صغيراً وهو كبير ، ويرون الزجاج المصدوع أبيض ولا يابض وإنما هو ضوء الشمس أو غيره ، وتبين الحقائق عند التدقيق . ومثل هذا في المسموع عن الانبياء ، ألا ترى الى قصة الخضر « ع » إذ اقتلع لوحاً من السفينة فلامه موسى عليه السلام على فعله ، فلما أن تبينت الحقيقة أدرك أن - فوق كل ذي علم عليم - وأن الوجه الذي تراهى له أسود ، وأن المقصد

إغاثة اليتامى بميب السفينة لئلا يأخذها الملك غصباً ، وما كان ذلك الاعتراض من موسى إلا للأخذ بظواهر الامور ، وانعكاس الحقائق في المرويات كما عكست في المراثيات .

وفي قصة ابراهيم ويعقوب وجدعون معتبر ، ولنا غنى في قصة داود وسليمان فقد لا ولها (٩٩) امرأة ، ولآخرها المئات من الحور الحسن - كأنهن الياقوت والمرجان - مما ماج به قصره وازدانت بهن حجره ، وحكم سليمان ومزامير داود عمت أرجاء المعمورة .

وأنت تعلم أن اليهود والنصارى والمسلمين يعمرن الارض وهم نصف النوع البشري نحو (سبعمائة مليون) يؤمنون بداود وزبورهم ومزاميرهم ، وترى اليهود والنصارى يتلونها آناء الليل وأطراف النهار يناجون ربهم بكرة وعشيا متضرعين بما في المزامير من الآيات ، لا يجدون في صدورهم ما يجد الناس اليوم مما تموج به بحار الانفس وقواميس العقول ، وتغلي به مراجل التعصب لبضع من النساء كن عند آخر الانبياء محمد صلى الله عليه وآله .

مضت الرسل وكانوا يتزوجون العدد الجم من النساء ولا اعتراض عليهم حسب شرايعهم وأزمانهم وأممهم لا تعترض ولا تسخط . قتل الانسان ما أحبه ، قتل الانسان ما أظلمه ، قتل الانسان ما أقل علمه وما أتعس نفسه . يتركون ما لديهم ويأتون بخيلهم ورجلهم وصفوفهم ليحاربوا ديناً في مسألة عرضة لاجوهرية وثانوية لا أولية . اللهم إن عبادك في الارض يصلون وأكثرهم فاسقون ، يتبعون الشهوات في لهجة الدين ، فوالله لا يريدون وجه الله إنما هو وجه الشيطان وخبث النفوس وجهل العامة ، اللهم إن أكثر الناس ظلوم كفار ، اللهم إنا خلقنا في أمم يسير سوادهم مع الاهواء يساقون كما تساق الانعام ، ما حببهم إلا المغالطات كل يسعى لملاء بطنه وسد نهيمته وشهوة فرجه وسلخ جلود الامم الضعيفة وذبحها على

انصاب الامم القوية ، فسلح العلم اليوم اذكى سلاح وأمضاه وهو طليعة جيش المدافع والسهام .

وبالجملّة فانهم بعد أن أدركوا بطلان تلك الوهميات والتوهيات التي خالجتهم كتبوا في كتبهم الاجتماعية : إن لتعدد الزوجات في الشريعة الاسلامية منافع شخصية ونوعية كثيرة ، لان ذلك موجب لسكثرة النسل وزيادة النفوس ، وهذا أحد الركنين الذين بهما يحفظ كيان الامة وقوة النوع .

وهكذا تدريجاً يتضح لدى كل متأمل بطلان اعتراضه وصحة ما جاء به الدين الاسلامي من أحكام وقوانين حيث يدرك أن جميع هذه الاعتراضات مجرد خيال وتصور لا غير ، لزوالها عند التأمل وإدراك أسرارها ومنافعها ، لذلك ترى عقلاء العالم وعلماء الامم المتمدنة لا زالوا يرشدون البشر الى فهم هذه الحقائق السامية خضوعاً للحقيقة والوجدان حتى سمو الدين الاسلامي بروح الاديان .

وبين يدينا كتاب الابطال تأليف الاستاذ المؤخر ﴿ كارليل الانجليزي ﴾ يحدثنا في فصل - البطل في صورة النبي - يقول : (وإن ديناً آمناً به أولئك العرب الوثنيون وأمسكوه بقلوبهم النارية لجدير أن يكون حقاً وجدير أن يصدق به ، وإن ما أودع هذا الدين من القواعد هو الشيء الوحيد الذي للانسان أن يؤمن به وهذا الشيء هو روح جميع الاديان . روح تلبس أثواباً مختلفة وأثواباً متعددة وهي في الحقيقة شيء واحد . وابتاع هذه الروح يصبح الانسان إماماً كبيراً لهذا المعبد الاكبر) . انتهى

وهذا كتاب ﴿ الاسلام سوانح وخواطر ﴾ تأليف ﴿ كونت هنري دي كلستري ﴾ الفرنسي يقول في ص ٢٣ : والآن نلخص لك مذهب نبي المسلمين في الديانات الثلاث فنقول : إن دين الانبياء كان كله واحداً ، فهم متحدون في المذهب منذ آدم الى محمد (ص) وقد نزلت ثلاث كتب سماوية .

وهي : الزبور . والتوراة . والقرآن . والقرآن بالنسبة الى التوراة كالتوراة بالنسبة الى الزبور . وإن محمداً بالنظر الى عيسى كعيسى بالنظر الى موسى ولكن الامر الذي تهتم معرفته هو أن القرآن آخر كتاب سماوي يُنزل للناس وصاحبه خاتم الانبياء ، فلا كتاب بعد القرآن ولا نبي بعد محمد صلى الله عليه وآله ولن يُجد بعده لِكلمات الله تبديلاً .

الطهرم على تعدد الزوجات

بين المسلمين

ليس على الاسلام والمسلمين أشد انتقاداً ولا أمرّ مذاقاً ولا أعظم وقعاً من هذه المسألة ، فهي التي أطالت السنة القادحين وأطمعتهم في هذا الدين ، وإني بعون الله تعالى أفيض الكلام في هذه المسألة وأوضح القول فيها أيضاً وأتمس فيها نهجاً وسطاً لارمزاً ولا شططاً بين ذلك ، متخذ المساواة سبيلاً والابحاز أحسن تأويلاً .

(أقول) لقد غصت المجالس بهذه الكلمة واستفاض بها الحديث من الشرقيين والغربيين ولن تجالس امرأة من بني التايغس أو الصين أو الطونة أو من الالمان أو الطليمان وكان من المغرمين بالديانات إلا فاجأك بهذا الحديث . ولقد والله عجبت لهذا الانسان كيف يتعالى حتى يصل مستوى الفضيلة والشرف ، وينحط حتى تستنزل عن دركات البهائم والدواب والحشرات . هذا الانسان أيها العزيز مخلوق غريب ، ترى الاوربي عالماً بكثير من الشؤون ، طائراً في الجو جاريماً على الأرض

بالصناعات ، عأمأ في البحر ساجماً فيه بعمله ، حتى إذا دخل في مجادلات الدين هالك أمره . فأيقنت أن هذا الانسان المسمى بالمتمدن مقلد يستتلي كما نستتلي الجنيبة عاب الاسلام بمسألة عمرانية من آلاف المسائل الصحيحة ويا ليت شعري لو أنها كانت ثلثة في الدين لم تغن فتيلاً في الاعتذار ولم تقم حجة على ضعفه ولم يكن ثمة سبيل لاعتقاد وهنه ، فكيف وهي كما سنوضح من مستلزمات الاجتماع ومقومات هذا النوع الانساني .

التعدد المعتدل على ما سترى من أعمدة المدنية المقبلة ومن عقاير الأمراض الاجتماعية المزمنة تعدل مزاج هذا النوع أيما تعديل وتقومه أحسن تقويم ، فزاج الانسان اليوم منحرف من الضرر وإصابة الحمى من تعفن الاخلاط وتراكم إرادته وتتابع آلامه . ومسألة اجتماعه المنزلي من عويصات المسائل وكبرياتها ، فلا فاض في القول ولتسمع ولتع ولأقدم المقدمة قبل ذلك فأقول :

١ - إعلم أن المقرر في الطبيعة كما هو المعلوم في سائر الدول والممالك أن عدد الذكور في الميلاد يساوي عدد الأنثى تقريباً كما بني عليه نظام الأمم المقبلة إن صحّت عزيمة الانسان وأراد التملص من حطته والتخلص من شططه وخطيئته ، فلو انك استقصيت مواليد الأمم أمة أمة والبلدان بلدة بلدة لرأيت هذه العجيبة الغربية وهي التساوي بين الجنسين محكمة مطردة صادقة ، فلتقرأ مواليد بلدتك أو أي بلدة تجاورك أو أي مملكة أحصت ذكورها وأنثاها تجد التساوي تماماً إلا قليلاً لخلل عرض . وضعف ومرض وأحوال استثنائية وأمور فجائية . هذا هو القانون العام وهذا أس بنينا عليه ما لهذا الانسان من نظام طبيعي في أخلاقه وسياسته وصناعته وحكومته .

وكيف زاعت الحكومات وضلت السياسات واضمحلت الجماعات واكفهرت الأجواء واختلفت الأنواء وتواثبت الشبان ونقضت العهود والأمانات كل ذلك لجهل

الإنسان بفطرته وزينه عن جادته فأقرأه في موضوعه من الكتب المخصصة لهذه الابحاث تر العجب العجاب مما لا محل لذكره هنا ، وإنما نريد من ذلك أن هذا الإنسان تساوت ذكرانه بانائه فلم تتطلب أمة من أخرى نساءها اضطراراً ، ولم يكن من زلة طبيعية واحدة من هذا السبيل ، بل كل ذلك بمقدار ، فلم نسمع أن أمة من الأمم القديمة أو الحديثة مهما طال عليها القدم كانت مواليدها يوماً ما جميعاً انائاً أو ذكوراً بل العدل مستمر دائم فهذه أول مقدمة .

٢ - المقدمة الثانية إني قرأت في إحدى صحائف (اللورد كرومر) الذي كان عاملاً للانكليز في مصر في صحيفته السنوية : أن تعداد الزوجات بين المسلمين لا يزيد عن خمس في المائة ، ثم نقل عن آخر من السائحين من بعده فقال : إنهم لا يزيدون عن ثلاثة في المائة .

هذان هما الأعلان اللذان أبني عليهما النتائج الآتية . فإذا تقرر هذان الأعلان نقول :

منذ سنين معدودة عدت أمة الانكليز نساءهم فزاد مقدارهن خمس عشرة امرأة في كل ألف رجل وامرأة ، فتكون من هذه الزيادات آلاف ومن الآلاف مئات الآلاف ، وصاحوا وولولوا وندبوا حظهم من الطبيعة وقسطهم من العدل ، وقالوا إن هذا إلا تباب أين نضعهن ومن يعولهن وماذا نصنع فيهن ؟ وزلزلت أرض نادي العموم زلزالها ، وأخرجت أرض المهوم أنقالها ، وقال سادات الانجليز ماها فيومئذ حدثت الجرائد أخبارها ، إن عدد النساء ازداد وما تعني المدافع والجنود .

هذا ما كان من أمة الانكليز في التعداد العام ، ولعمرك ما من أمة إلا أصابها موت الأبطال في ساحات الوغى وفقد الرجال مما يقل تعداد رجالها عن نساؤها ، وهذه الحروب المستعمرة الآن شاهد عدل فكم من نساء ايماء قد فقدن التصير

وأعزهن العشير فقلّت الرجال وكثرت النساء فترى في القرية الواحدة بضعة شيوخ وأطفال وآلافاً من النساء .

ولقد علا صراخ الانكليز وعويلهم من خمس عشرة امرأة زادت في كل ألف رجل وامرأة لعة عارضة في النسل وطارىء من الضر على ارحام النساء واصلاب الرجال ومناهج الترية وطرق الأغذية وما شاكل ذلك .

فبالك بهذه الحروب الطاحنة والاضغان الظاهرة ، وقد جندل الأبطال وعم النكال واصطدم أعظم الأمم قوة وأشدّهم بأساً في العراق والقتال ، فطاحت تلك الفماقيم الجحاجيح وبادت تلمك الصناديد القواتك والصماميم الصوائل ، فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم وحرّمهم الغواني الحرائر البوائير العوانس .

فبعد تقديم هاتين المقدمتين لا مناص عن القول باننا لو أبطلنا جواز تعدد النساء وحرّمناه لاصبحنا وجهاً لوجه أمام الخطر الداهم الذي طغى سيله وطم وعم فساده من أوربا فأغرق الشرق سيله الجارف . ألا وهو الزنا الرسمي كما هو الآن منتشر في بعض العواصم وغيرها من سائر الممالك المتعدنية ، لان ذلك الغني يطلب أكثر من امرأة ، وتلك النسوة البائسات الجليات يتطلبن الرجال للقوت والشهوات ، فلو حجبنا عليهم وعليهن وجب أن نخصص أما كن للفجور كما هو حاصل الآن ، فطاحت العفة وضاع الشرع وذهبت المرأة .

أما الاسلام فلتعجب ولتنظر أباح تعدد الزوجات فزال الخطر المحقق وكانت العفة والشرف والنسل الشريف .

ما أسوأ الأمم الغبية الجاهلة التي تقول لافوائها لا تزوجوا علناً وتزوجوا سرّاً لتموت أبناءكم في المراحض ، ما أجهل تلك الأمم ما أقل علمهم ! ما أكثر جهلهم ما أوضح العلم وما أجهل أولئك في علم الاجتماع ! !

فالحق - والحق أقول - إن العالم الانساني اليوم يعوزه الفلاسفة والحكماء

ليعرف كيف يعيش فإن نظرياته ضئيلة ضعيفة ، يحيا ويموت على عادات موروثه ومناهج مرسومة يقلدها تقليد العميان ويتبعها اتباع الصبيان ويذم ما ليس من عادته وفي التنزيل : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » « ١ » . يقولون تعدد الزوجات أفسد المجتمع الاسلامي .

ويا للعجب لو أن التعدد افساد لم يكن الثلاثون في الألف شيئاً مذكوراً حتى يفسد الألف ، ومن ذا الذي ضل عقله وزاغ بصره فحكم بفساد الألف إذا فسد منهم ثلاثون ؟ .

هذا قول من في قلبه مرض وعلى عينه غشاوة ، فكيف وقد استحال الفساد صلاحاً وأضحى الثلاثون في الألف أو الخمسون منها اصلاً لباقيا ، يلدون لهم البنين والبنات ويخرجون القواد والعلماء والعقائل والفتيات ، وهم أقدر في الغالب على التربية والتعليم ، لما أحرزوا من ثروة وما أوتوا من مال .
فيا ليت شعري كيف تسنى للأمم أن يقولوا للمرأة افعلي الحنا إذا اخترته سبيلاً ، وكوني زانية إذا راق لديك وصفا وقتك .

ويا أيها الرجل أبجنا لك الزنا واخترنا لك الحنا وآتيناك منا قوة القانون على أن تعازل من تشاء من الفتيات ، فأى فتات فضحتها وأفزعتها ، وأي امرأة أزلت صونها ومهددت يديك الى سترها فزقته والى بيت شرفها فهدمته وكان ذلك على اختيار منها ورضاً فانا لكم معينون وإن أئمر ذلك وأد البنين والبنات وقلة النسل العام في الأمة ، وإن فاق اعداؤها عدداً فاعتلوا عليها عند الغلبة بكثرة عددهم وصفوف جيشهم ثم تقول تلك الأمم انفسها :

أيها المرأة ويا أيها الرجل إياكما أن تجتمعا اجتماعاً شرعياً فلا يكن عندك

أيها الرجل منهن ثلاث أو أربع ، احذروا ذلك فإنها عادة المتوحشين ، ولو صينت الاعراض وأقفلت بيوت الخنا وقت أيها الرجل على امرأتك فاقبتها وكسوتها ورحمتها نحن نحرم عليك ذلك وعليك أيتها المرأة نحرّمه تحريماً باتاً ، ولكننا في الوقت نفسه نبينحه على سبيل الفجور والخراب ، فاجمع يا رجل من شئت من النساء ولو ألفاً ما دام ذلك سفاحاً ، وإياكما أن تجتمعا اجتماعاً شرعياً ولو أدى ذلك الى حياة البنين والبنات وكثرة القواد والمؤلفين والعلماء وتكاثر النسل حتى يغلب العدو المفاجيء الداهم .

رضينا بالخراب رضينا بالزنا ، رضينا بقلّة النسل وكثرة العقم ، رضينا أن يكون نسبنا الى عددنا العام كنسبة عدد الفرنسيين الى الالمانين لما في الأولين من إهمال أمر الزواج وفي الآخرين من الحرص عليه ، وإنما علينا إذا حكمنا أمة من الأمم ورأيناها تتكاثر ولادة بقوانين بلادها علينا أن نحسدها ونتطير منها ونشفق ، ونسوءهم سوء العذاب ، ونوجس شراً من كثرة نسلها ، ونرسل رسلنا وطلائع استعمارنا ، ونصطفي الحكام من صغار النفوس المتواضعين ونوحي اليهم أن قبحوا لهم هذه الشريرة البيضاء سودوها في وجوههم ، افعموا افتدتهم بالسوء والجلد والمناقشة ، وهوشوا عليهم لعلهم يرجعون عن التمدد بل لعلهم يزنون ولعله يقل نسلهم فنتمكن من حكمهم كما قال « هنري الفرنسي » في كتابه عن الجزائر .

« قد بدا لهؤلاء المسلمين كل مرصد وسدنا عليهم السبل وأحطناهم بسرراق من نار لعلهم يقولون فلم بقدر حتى الخمر سلطناها عليهم وهي السلاح الفذ لمحاربة الشرقيين ، ففنعاه الاسلام أن يشرب حبه في قلوبهم أو يفتت أكبادهم ، فهم يتناسلون والفرنسيون لا يتناسلون » .

حارت والله تلك الأمم . حارت في محاربة النسل في الأمم المستعمرة ، حسدوها على الفضيلة وعلى النسل وعلى السعادة . ولقد أخبرني صديق أن إحدى

الأم لما رأت الزوج الأفريقيين والوثنيين يتزوج الرجل نساء كثيرات وليس عليه إلا أن يجلس في خيمته طول نهاره يتمتع بما تكسب النساء له من كدهن وعملهن وهو قوي البنية ولا يصرفها إلا في إجابهن وإيلادهن وأنجاب الذرية فكثير النسل ولم يقدر الأوروبي أن يحاربه .

ضربت الحكومة على المتزوجين من هذا القبيل الخراج عمى أن يقل نسلهم فما أشأم هذا الانسان ! « قتل الانسان ما أكفره » « ١ » . « إن الانسان لظالم كفار » « ٢ » . « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » « ٣ » .

جاء في مجلة المرشد ما نصه : إن قوانين الاقتصار على زوجة واحدة أكثرت فرائس العزوبة في الغرب ، وزيادة عدد الاناث على الذكور أوقعت العقلاء في مشكلة ينادون منها بالويل والثبور ويطلبون الخلاص - ولات حين مناص جاء في المجلد السابع من العرفان ما نصه : « إن عدد النساء في ايطاليا يزيد على عدد الرجال بمليون نسمة » . وفي ملزمة « ٣٤ » من الهلال في ضمن مقال بقلم « أميل زيدان » عن جريدة « المائتان » الافرنسية عن الاستاذ « بيتار » الطبيب الكبير الذي كان عضو مجلس النواب في فرنسا انه يقول : « إن في فرنسا الآن ١ ، ٥٠٠ ، ٠٠٠ فتاة لن يجدن لهن أزواجاً على افتراض أن كل شاب افرنسي يتزوج بفتاة واحدة ، وإني أقول بصراحة - ما أنا واثق من صحته - إن المرأة لا تتمتع بصحة جيدة ما لم تصبح أمأ ، وفي اعتقادي أن القانون الذي يحكم على تلك الفرقة الكبيرة بأن تعيش على نقيض ناموس الطبيعة إنما

« ١ » سورة عبس الاية ١٧ .

« ٢ » سورة ابراهيم الاية ٣٤ .

« ٣ » سورة الروم الآية ٤١ .

هو قانون وحشي بل مناف لسكل عدالة . وفي ملزمة « ٣٧ » منه أيضاً : « يزيد عدد الاناث على الذكور في انجلترا بمليون ونصف مليون . أما زيادة الاناث على الذكور في المانيا فتبلغ مليونين ، ولكن هذا الفرق أقل من النسبة الحاضرة في عدد المتزوجين ، ففي انجلترا نحو ثلاثة أو أربعة ملايين فتاة غير متزوجة مع انها في سن الزواج . وقال « شونهور » الفيلسوف الالماني الشهير في رسالته « كلمة عن النساء » تعريب حسن رياض ما نصه :

(إن قوانين الزواج في أوروبا فاسدة المبني بمساواتها المرأة بالرجل ، فقد جعلتنا نقتصر على زوجة واحدة فأفقدتنا نصف حقوقنا وضاعت علينا واجباتنا ، على انها ما دامت أباحت للمرأة حقوقاً مثل الرجل كان من اللازم أن تمنحها أيضاً عقلاً مثل عقله) الى أن قال « ولا تعدم امرأة من الامم التي تميز تعدد الزوجات زوجاً يتكفل بشؤونها ، والمتزوجات عندنا نقر قليل وغيرهم لا يحصين عدا تراهن بغير كفيل بين بكر من الطبقات العليا قد شاخت وهي هائمة متحسرة ، ومخلوقات ضعيفة من الطبقات السفلى يتجشمن الصعاب ويتحملن مشاق الاعمال ، وربما ابتدأن فيعشن تعيشات متلبسات بالخزي والعار . ففي مدينه « لوندريه » وحدها ثمانون ألف بنت عمومية سفك دم شرفهن على مذبحه الزواج ضحية الاقتصار على زوجة واحدة ، ونتيجة تعنت السيدة الاوربية وما تدعيه لنفسها من الأباطيل ، أما الآن لنا أن نعد بعد ذلك تعدد الزوجات حقيقة لنوع النساء بأسره ؟ الى أن قال :

« على أنه من العبث الجدال في أمر تعدد الزوجات ما دام منتشرأ بيننا لا ينقصه غير قانون ونظام » .

أمعن النظر في هذه الفقرة الى أن اعترف بقوله : « بل اتنا لا تسكر اتنا في بعض أيامنا أو معظمها كلنا أو جلنا نتخذ كثيراً من النساء ، وما دام الرجل محتاجاً لزوجات كثيرة يجب أن يكفل شئون هذه النساء » .

وعن مؤلف كتاب « العشيقه الشرعية » الذي حاز السبق في مضمار الزواج في فرنسا وغيرها وطبع منه أكثر من ٥٠٠,٠٠٠ نسخة « انه ذهب الى أن يكون لكل رجل الى جانب زوجته خليله تكون لها صفة قانونية فلا تحتقر ولا تتمهن في نظر الشريعة أو في نظر الرأي العام . قال هذا هو الأمر الواقع اليوم في آدابنا الاجتماعية ، ولم يبق علينا إلا أن نعتز بهذه الحالة وندخلها رسمياً في عرفنا قلت من هذا نعلم أن القوم لا يأفقون من تعدد الزوجات ومعترفون بإباحته الشرعية ولكنهم يطالبون بقانون يبيحه لهم بعد أن ذاقوا مرارة الاقتصار على زوجة واحدة ، ورأوا المفاسد الناشئة منه كالتعدد غير المشروع وأمثاله .

هذا ولا يخفى أن التعدد الذي يعييه الجاعلون اليوم قد أباحه بالأمس المصالح الكبير في النصرانية (لوثر) فسمح لأمبر الالمان (هس) بأن يتزوج ثانية لان امرأته كانت شوهاء « ادوارد السابع » وهو من علمت أصدر في أواخر أيامه منشوراً يسمح فيه تعدد الزوجات وكانت أمه من قبل معارضة لهذا الرأي أشد المعارضة . وسيأتي يوم يدرك فيه الناس فوائد التعدد فيميلون اليه ميلاً واحدة ويعترفون بفضل القرآن . انتهى ما جاء في المجلة المذكورة .

يقول مؤلف الكتاب حسن السيد علي القباجي النجفي عفا الله تعالى عنه ووقفه لمراضيه : لقد فرغت من تبليض هذا الموضوع صباح الاثنين اليوم الثالث من شهر ذي الحجة سنة ١٣٧١ هجرية .

ورغبتني أن أختم الموضوع بنادرة وها هي أقصها .

كان (هنري) الثامن ملك انكلترا مزواجاً وكانت انكلترا في ذلك الحين كاثوليكية فلم تحرك رومية عليه ساكناً ، ولكن حدث ما نقص عيشه فانه لم يرزق ذكوراً ، وخاف الملك أن يحول ذلك دون أن تتولى ابنته ماري العرش أو أن يذهب تاج انكلترا بالزواج الى ملك غريب ، أضف الى ذلك أن « هنري »

الثامن قد سُمّ امرأته « كاترين » صاحبة أراغون فقد كانت أسن منه كثيراً ، وحاول هنري الثامن أن يقنع البابا بكل سبيل بالسماح له بطلاق « كاترين » فلم يقبل البابا ، وأخيراً تزوج هنري الثامن فتاة صغيرة السن اسمها « آن بولين » سرّاً على أمل أن يحصل على إذن بالطلاق فيما بعد فلم يوفق ، ولكن ما دامت القضية قضية قانون شكلي فقط فلماذا لا يسير الملك إليه من سبيل آخر ، فلما أصرّ البابا (كلمنت السابع) على الرفض اجتمع البرلمان الانكليزي وقرر فسخ زواج هنري بكاترين ، وأعلن صحة زواجه بآن بولين ولكن هنري الثامن لم يكن أسعد حظاً إذ رزق من زواجه الجديد بنتاً أخرى ، حينئذ طلق هنري آن بولين وتزوج امرأة ثالثة هي « جاين سيمور » التي رزق منها ابنه وخليفته على عرشه « ادوارد السادس » .

ومنذ أيام هنري الثامن نفسه بدأت الطقوس البروتستانية تتسرب من ألمانيا الى انكلترا ، وأخذت انكلترا كلها تقاوم البابوية بالميل الى المذهب البروتستاني حتى أصبحت البروتستانية الدين الرسمي فيها . وكل من قرأ عشر صفحات من التاريخ يعلم أن الحروب التي ثارت بين البروتستان والكاثوليك كانت أشد وأطول من الحروب التي ثارت في سبيل المطامع القومية والسياسية والاقتصادية معاً .

من هذا كله يجب أن نعلم أن للمجتمع قوانينه ، وأن ثمة حاجات يجب أن تسد سواء - أردنا أم لم نرد - وان وقوفنا في وجهها لا يقوم دليلاً إلا على قصر نظر جلي .

ثم إن الغاية من الزواج بناء مجتمع سعيد قوي ، والمجتمع السعيد القوي يقوم على النسل في الدرجة الأولى أو على النسل الصحيح ، فيجب علينا أن ننظر الى قوانين الزواج والطلاق من ناحية النسل في المقام الأول .

الزواج

هو حاجة من الحاجات الجسدية أوجدها الخالق الحكيم لحفظ وجود النوع الانساني ، فإذا لم يجعله حاجة جسدية لم يأبه به أحد ، لان تكاليف الحياة الزوجية شاقة لا يتحملها الانسان إلا إذا كانت حاجته الى الزواج شديدة . وإنا لموردون هنا كلاماً عاماً عن هذه العلاقة الاجتماعية ثم مردفوه من الابحاث بما يقتضيه موضوعه الخطير فنقول :

وحدة الزوجة وتعدد الزوجات

وحدة الزوجة هو الأصل في الزواج ، وهو أول ما حدث في العالم الانساني ثم تلاه تعدد الزوجات لأسباب سنبسطها فيما يلي .
وغدا وحدة الزوجة هي الأصل في الزواج فان هنالك أسبابا معيشية واجتماعية تدعو اليه ، مثال ذلك : الأمم التي تعيش بالاغتذاء من الغابات كالقبائل الساذجة المنتشرة في البرازيل من امريكا الجنوبية تجبرها هذه الحالة على الاكتفاء بزوجة واحدة لصعوبة المعيشة ، وعلى هذا النمط قبائل البوشيمان في افريقية فانهم مع سماح شرائعهم لهم بتعدد الزوجات يكتفون غالباً بزوجة واحدة لتلك العلة بعينها .
وقد شوهدت علاقة أكيدة بين وحدة الزوجة وبين شغل القبيلة لسطح متسع من الأرض وتبعثرها عليه . مثال هذا قبائل الفيداه في الهند فانهم يكتفون بزوجة واحدة ويتشددون في ذلك للعلة المتقدمة عينها . إن ميل المتوحشين لخطف النساء بالقوة يقتضي وحدة الزوجة ، فان الرجل لم يستطع أن يخطف إلا امرأة واحدة

في مبدأ الأمر ، فكانت وحدة الزوجة سابقة على التعدد لا محالة ، وقد استمر بعض المتوحشين على توحيد الزوجة مدة مديدة مضطرين لذلك بصعوبة حصول الرجل على أكثر من زوجة واحدة إذا كانوا في جهة لا يكثر فيها النساء . هذا وإن هذا الرباط الزوجي بين الرجل والمرأة لم يكن أكيداً ، فإن الأقوى من المتوحشين كان يعدو على الضعيف ليأخذ امرأته .

روى العلامة (لوردافري) . ان الرجل من قبائل خليج هودوسون بأمريكا لا يستطيع أن يحتفظ بزوجة إلا إذا كان صائداً ماهراً وقوياً مقداماً ، أما إذا كان ضعيفاً فيعيش عزباً ولا كرامة . وقد شوهد عند بعض البدوين من العرب أن هذه الرابطة الزوجية واهية لدرجة أن بعضهم تزوج مطلقة خمسين مرة . من الأسباب الاجتماعية التي حدّت وحدة الزوجة : ارتقاء فكرة الملكية عند المتوحشين ، وانتظام أمر الأخذ والعطاء بينهم ، وقد قُلت حوادث خطف النساء عندما أعدّت القبائل لها عدتها في الدفاع ، فقد كان المتعرض لها يجد من الصعوبات ما يثني عزمه ، أو يقع أسيراً فيلاقي صنوف التعذيب ، وزاد هذه القلة لما بدأت الأمم تشتري النساء بالدرهم أو تعطاهن في مقابل عمل يعمل به الرجل على سبيل الأجر ، ومن دفع لامرأته ثمناً أو تحصل عليها بعد خدمة السنين الطويلة عز عليه أن يسلم امرأته إلا بعد جهاد جهيد .

ولما كان رجال القبيلة كافة لم يحصلوا على نسائهم إلا بالسكد فتراهم يتحزون مع كل من يدافع عن امرأته ونشأ من ذلك اعترافهم لكل منهم بحق صيانة امرأته وهذا السبب عينه قلل من حوادث الطلاق ، فإن الرجل متى علم أنه لا يستطيع أخذ امرأة غيرها إلا بدفع مبلغ من المال أو بخدمة سنين عديدة تبصر في أمر الطلاق وكبر عليه طرد امرأته .

ثم إن الوحدة سادت تمام السيادة في البلاد حين تساوى فيها عدد الرجال

والنساء ، سواء بقلة الحروب المجتاحة للرجال أو بغيرها من الأسباب . وفي هذه الحالة ظهر أمام تعدد الزوجات حائل طبيعي شديد ، فانه في مثل هذه الحالة لا يمكن أن يحتظي الرجل بوضع نساء إلا إذا أوجب العزوبة على بضعة رجال . هذه الحالة السيئة تدعو الرجال لكرهه تعدد الزوجات كراهة تامة فيكون رأي عام مضاد للتعدد فيبطل من نفسه .

وقد روى العلامة (لاو) ان هذه الحالة حدثت في قبائل الدياكس من جزيرة (بورنيو) بالاوقيانوسية فبعد أن كانت معددة للزوجات رجعت الى توحيد الزوجة ، حتى أنه كان الرئيس منها إذا عدد زوجاته فقد مكنته في اقتدة قومه . ومن فوائد وحدة الزوجة أنها متى تساوى عدد الرجال والنساء في مجتمع تكون أحسن لتكثير النسل وحفظه من تعدد الزوجات ، فانه في حالة تساوي الجنسين لا يستطيع أحد من الناس أن يكون له عدة نساء إلا بإيجاب العزوبة على عدد من الرجال فيكون داعياً لقلة النسل ، لا تنا لو أخذنا عدد النساء في المجتمع مقياساً لعدد المواليد لرأينا أن أولئك النسوة يلدن أكثر متى كانت كل واحدة منهن لرجل ، ويقل نسلهن متى كانت كل طائفة منهن لرجل واحد .

تعدد الزوجات

تعدد الزوجات موجود الآن في كل قارات العالم ولدى جميع الأجناس البشرية ، فهو موجود عند الفويجيين من امريكا والاستراليين والتاسمانيين ، وفي كاليدونيا الجديدة وتاناوفا واوروانجا وليفو ، ولدى قبائل المالبوبو لينيزين وتاييتي وجزائر ساندوتش وجزائر تونجا وزيلنده الجديدة ، ومدغشقر وسومطرة ، ومنتشر في قبائل امريكا المتوحشة جنوبا وشمالا وهو أمر عام عند الافريقيين كافة وعند أكثر أهل آسيا . وبالاختصار إن تعدد الزوجات أمر شائع عام في كل قارات العالم ، وعدد المعددين للزوجات يفوق بكثير عدد الموحدين للزوجة ، وكان

هذا يكون لا شك أعم مما هو الآن لو لا أن الأحوال القسرية تحول دونه . ودليل ذلك أنه توجد أمم كثيرة تحترم مبدأ تعديد الزوجات ولكن يندر فيهم المعداد لفقرهم المدقع ، كما هو شأن البوشيان في افريقيا . ولدى قبائل الجوندس قل أن نجد معدداً للزوجات فإن ثمن المرأة لديهم مرتفع جداً ، وكذلك الحال عند قبائل الاوستياك والفيدها بالهند ، وقد شوهد أن هذا الفقر ليس بمانع للاسترايين والفويجيين من تعديد الزوجات ، والسبب في ذلك أن المرأة يمكنها هناك أن تغذي نفسها باجتهادها .

يروى لنا السواح أن تعدد الزوجات ينتشر كل الانتشار بين جميع آحاد الأمم التي يشرفون عليها في الاقطار التي ذكرناها آنفاً ، ولكن لو كان حقاً مايقولونه وكان لكل رجل زوجات عدة لكان عدد النساء لدى هؤلاء الناس أكثر من عدد الرجال كثرة هائلة ولا نرى سبباً موجباً لهذه الكثرة . والتحقيق أن ذلك التعدد ليس بمنتشر بين سائر أفراد القبيلة بل هو خاص بأفراد من الاغنياء ، أما بقية الآحاد فلا يتعدون امرأة واحدة وإن ملوكهم ورؤساءهم هم الذين يعددون الزوجات ، وكذلك الشأن في جاوة فإن مبدأ تعدد الزوجات مقبول عندهم ، ولكنه لا يوجد بالفعل إلا عند الرؤساء والملوك ، وكذلك الحال عند أهل سومطرة من الاوقيانوسية فإن قوانينهم تسمح للرجل أن يختار من النساء بقدر ما يريد ولكن لا تجدد المعداد للزوجات فيهم إلا الرؤساء والقادة ، وكذلك الأمر عند قبائل نيكاراغا من امريكا .

إن عادة تعدد الزوجات نشأت من أسباب طبيعية معقولة ، وذلك أن بعض الأفراد امتازوا في قبائلهم بدرجة مفرطة من القوة الجسدية والحيل العقلية ، فصاروا من كبار المحاربين أو أعظم الرؤساء في قبائلهم . هذه الميزة الجسدية عينها مكنتهم من اختطاف جملة نساء سواء من قبائل أجنبية أو من قبيلتهم ذاتها ، ومن هذه

الأسباب عينها اعتبر اختطاف المرأة وحيازتها من علامات الفخار والمجد ، وكما تعددت النساء عند رجل كان فخاره أعظم وشجاعته أدعى للعجب . من هنا سارع الشجعان وأصحاب الفتوة لحيازة أكثر من واحدة من النساء .

ومن الأدلة على ذلك أن رجال قبيلة الاحباش يعتبرون الرجل الأكثر نسوة أحق بالاحترام والاحلال ممن لا يساويه في عددهن . وقد نقل الرحالة (كلايف جيرو) أن خلفاء ملوك (المكسيك) بامريكا كانوا يعتقدون أنهم لا يستطيعون أن يحفظوا مقاماتهم بأزاء الناس إلا إذا أكثروا من النساء والسراي . وقد روى الجغرافي « الليس » أن في جزيرة مدغشقر حيث تعدد الزوجات شائع قانوناً يحظر على الرجال إلا الملك أن يقتني أحدهم اثنتي عشرة امرأة . وروى (بورتون) أن لدى بعض أهل افريقية عادة الفخر باقتناء النساء حتى أن أحدهم ليختار لنفسه من اثنتي عشرة الى ثلاثمائة امرأة .

من هنا نرى أن تأصل هذه العادة سببه حب الفخر بعدد النسوة ، لان عددهن يشعر أولاً بقوة الرجل ثم بغناه وثروته وكلاهما من المفازر في كل جيل . وقد روى « تاسيت » المؤرخ اللاتيني أن الجرمانيين القدماء كانوا هم من القبائل الوحيدة التي لا تعدد الزوجات . وقد روى المشرع (مونتيكيو) الفرنسي المتوفى سنة « ١٧٥٥ » م ان الملوك « الميروفنجيين » الذين حكموا فرنسا من القرن الخامس الى سنة (٧٥٢) ميلادية كانوا معددين للزوجات وكان ذلك لهم من المفازر وهناك أسباب اقتصادية بعثت على تعدد الزوجات منها أن المرأة كانت تقتنى لتشغيلها في الغيط وفي البيت . وقد اعتاد رؤساء كالديونيا الجديدة بالاقيانوسية أن يتزوج أحدهم من عشرة الى ثلاثين امرأة بقصد تشغيلهن في الحراثة والسقاية . هذا السبب الاقتصادي أدى أهل افريقية أجمعين الى تعديد الزوجات ، فان عمل النساء هنالك : السروح الى مسافات شاسعة لجلب الحشب والماء ، وأزواجهن

يجبرونهن على الزرع والحصد .

وعند أهل الكفر وهو قطر من افريقية الجنوبية يشغل الرجل امرأته في أشق الأعمال وأقساها وهو يعتبرها بقرة له ، وقد كلم الرحالة (شوتر) الانكليزي أحد الكافرين في شأن تشييل امرأته فقال له كيف لا اشغلها وقد اشتريتها بمالي . وبناء على هذا فإن كثرة النساء عند هؤلاء الأقوام هي بمثابة كثرة الارقاء والخدام . وما ساعد على انتشار تعدد الزوجات اعتبار هذه العادة من الصالحات الدينية ، وقد دلت أحوال قبائل الشيبوي على أنهم يعتبرون المعدد للزوجات محترماً عند الروح الأكبر وهو معبودهم . وكذلك كان الشأن عند المصريين القدماء فإن تعدد الزوجات عندهم ليس بمضاد للاخلاق الفاضلة ولالتعاليم الالهية ، ومما يدل على ذلك أن قوانينهم خالية مما يدل على أن الله بارك في رجال كانت لهم أزواج عدة وسرار كثيرة .

ومن الغريب أن هذا الاعتبار لمبدأ تعدد الزوجات ليس خاصاً برجال أولئك القبائل بل بنسائهم أيضاً ، فقد شوهد أن نساء قبائل « الكوش » من امريكا الشمالية لا ينظرن لتعدد الزوجات بنظر كراهة بل يعتبرونها أمراً حسناً ، والسبب في ذلك أن المرأة لما كانت معتبرة كالبهيمة فهي تحب أن يكون معها شريكات لتخفف عنها الأعمال .

وقد روى الرحالة « لفنجستون » الانكليزي أن نساء قبائل الما كولو لوس من افريقية عند ما سمعن بان الانكليز لا يعددون الزوجات صحن قائلات إنهن لا يستطعن أن يفهمن كيف أن السيدات الانكليزيات يرضين بهذه العادة ؟ فإن الرجل الفاضل يجب عليه أن يعدد زوجاته ادلالاً على غناه وسماحته . هذه الافكار سائدة كما يقول « لفنجستون » لدى القبائل النازلة على طول نهر « الزمبيز » من افريقية الجنوبية .

ومما شوهد عند السودان ليس لديهم حب ولا انعطاف المرأة غير الميل
 البهيمي المعروف . فقد روى « موتيرو » الرحالة الذي مكث في السودان سنين
 عديدة أن الأسود لا يعرف الحب ولا الانعطاف ولا الغيرة على المرأة ، وذكر أنه
 ما رأى قط رجلاً يحتضن امرأة ويلاطفها ، بل ليس في لغتهم كلمة تعبر عن الحب
 أو الانعطاف . وقد ذكر اللورد (اميري) (الفزيولوجي) الانكليزي الشهير أن
 قبائل « الهوتاتوف » من افريقيا ليس بين رجالهم ونسائهم أدنى انعطاف متبادل ،
 حتى يظهر أنهم يجهلون الحب جهلاً تاماً ، وذكر مثل ذلك عن أهل الكفر من
 جنوب افريقية وقال إن في « يارينا » من السودان يتزوج الرجل بالمرأة ولا يهتم
 لذلك إلا بقدر ما يهتم بقطع سنبله من سنبلة القمح ولا يشاهد عليه أدنى دليل
 للانعطاف على امرأته . وليس هذا عيب تعدد الزوجات بل عيب الجهل إذ أنه
 يوجد بين القبائل الموحدة للزوجات ايضاً .

ومما يجب التنبيه اليه هنا أن نتيجة هذا الجفاء المتبادل بين الرجال والنساء
 تظهر بأفطع مظاهرها في سني الهرم ، لان الرجل لم يكن غرس في قلب امرأته
 حباً في صباه يحملها على العناية به في كبره فتهمله أو تقصر في خدمته فيموت على
 اسوأ حالة .

ومما ساعد على ترقى فكرة وحدة الزوجة إحتطاء المتوحش بوحدة من نسائه
 واعتباره إياها أعلى من غيرها درجة . هذا الاحتطاء كان موجوداً من القدم ولكن
 تأصل مع الزمن وظهر بمظهر مؤثر على تركيب الأسرة ، فترى من عادة المتوحشين
 الاحتطاء بالمرأة لشبيبتها أو لجمالها أو لأسباب آخر كما عند سكان جزائر « تاييني »
 وقبائل (الشيشاس) فان الرجل منهم يعتبر امرأته الأولى هي المرأة الشرعية .
 وقد حددت التوراة هذا التمييز تحديداً صريحاً فأباح للشخص أن يتسرى من سبايا
 الحروب بما شاء وأن يتركهن متى شاء .

تعدد الزوجات في الاسلام

بقي علينا في هذا الباب أن لا نفعل ذكر مسألة هامة جداً إن سكتنا عنها طولبنا بها وهي مسألة تعدد الزوجات في الاسلام ، وهي المسألة التي لا يزال يطعن علينا من جهتها العلم الاوربي ومجادلة الملل المناظرة لنا .

نقول إن الاسلام ظهر في أمة كانت معددة للأزواج وكان لكثير من أفرادها حين نشوئه أكثر من امرأة لهم من جميعين أولاد ، وكانت هذه العادة متأصلة فيهم وفي جميع الشرقيين الى حد انها امتزجت بطبائعهم ، وكان عدد الرجال من العرب يفوق عدد النساء فوقاناً ظاهراً ، كما هو الحال لدى كل الأمم البدوية من دوام الحروب والغارات .

فلو صدم الاسلام هذه العادة صدمة فجائية أحدث نفوراً في النفوس ومعارضة لنمو الأمة لا يتفق مع الغرض الذي شرع من أجله وهو أن يكون ديناً عملياً لا شكلاً خيالياً ، فكانت الحكمة تقضي باباحة التعدد مع تضيق دائرته بالنصوص المزهدة فيه الى أن تدخل الأمة في دور من أحوال الاجتماع يعتبر في التعدد مناقضاً لعاداتها ومألوفاتها وغير مناسب لعدد الرجال والنساء فيها فتتلاشى بأسبابه الطبيعة المقبولة .

اما حكمة إباحته وعدم تحريمه بتاتا فهو أن الأمم في أثناء نشوئها تتعرض لكثير من المؤثرات الطبيعية ، منها قلة عدد الرجال عن عدد النساء قلة ظاهرة بسبب الحروب التي تحتاج اليها آحادها في بعض أدوارها . وفي هذه الحالة تكون الزوجات أمراً ضرورياً لحفظ الأمة من التلاشي والفناء ولله في خلقه عوامل يسلمها عليها وقت الحالة . وقد جاء الاسلام ديناً عاماً لكل الأمم لا لبعضها دون الآخر ، فان تمسكت به قبيلة ثم وجدت في حال اجتاحت رجالها واستبقت نساءها ونشأت فيها انذارات التلاشي والفناء إن لم تعدد الزوجات ، فماذا يكون من أمر هذه القبيلة إلا أن تقع في حيرة من أمرها . فهي إن أجابت داعي الطبيعة

عصت الدين ، وإن أجابت داعي الدين عصت الطبيعة وفيت بالمبيدات المختلفة ، وكيف ندرك أن وحيًا إلهيًا يخالف نظاماً طبيعياً فإذا كان الدين من الخالق والطبيعة منه وقد خلق سبحانه في الطبيعة من العوامل ما يجعل تعدد الزوجات في بعض الأحوال ضرورياً فكيف يعقل أن يحرمه في شريعته على السنة رسله .

ليس علينا بعد هذا البيان إلا أن نثبت لك أن تعدد الزوجات من العوامل الطبيعية التي تكون ضرورية في بعض أدوار الأمم . اليك هذا البرهان عن لسان العلامة العمراني الكبير « هربرت سبنسر » الانكليزي من كتابه أصول علم الاجتماع قال : « إن تعدد الزوجات مفيد للمجتمعات البربرية المحاطة بمجتمعات معادية لها . فقد شاهد « ليشنستين » عند الكفرويين أن رجالهم أقل من نسائهم لأن الأولين يموتون في حروبهم المستديمة بكثرة زائدة . ومن هنا ينشأ تعدد الزوجات واستعمال النساء في سائر الخدم البيتية » . قال « هربرت سبنسر » : « إذا طرأ على الأمة حال اجتاحت رجالها بالحروب ولم يكن لكل رجل من الباقين إلا زوجة واحدة وبقيت نساء عديدات بلا أزواج ينتج من ذلك نقص في عدد المواليد لا محالة ، ولا يكون عددهم مساوياً لعدد الوفيات ، فإذا تقاطلت أمتان مع فرض انهما متساويتان في جميع الوسائل المعيشية وكانت احدهما لا تستفيد من جميع نساؤها بالاستيلاء فلا تستطيع أن تقاوم خصيمتها التي يستولد رجالها جميع نساؤها ، وتكون النتيجة أن الأمة الموحدة للزوجات تقف أمام الأمة المعددة للزوجات » . انتهى كلام سبنسر .

نقول نتج من هنا أن هنالك حالا يعترى القبائل لا يكون لها من وسيلة لحفظ ذاتها من التلاشي إلا تعدد الزوجات ، وهذه الوسيلة من الوسائل الطبيعية التي خلقها الله في الكون وألزم الأمم المعرضة للفناء بالعمل بها . فكيف يخلق الله في الأمم حالا ويلهمها الوسيلة لتلافي أخطارها ثم لا يبيح تلك الوسيلة في وجه على

السنة رسله ؟ كلا ، إن خالق الكون هو موحى القرآن وقد تطابق قوله وخلقه فلا عجب بعد هذا أن يكون الدين مبيحاً لتعدد الزوجات ، بل العجب أن لا يكون قد أباحه مع وجود الداعية اليه إذ ذاك ، وفي رأي أن الامم متى رأت أن لا حاجة اليه فلها إبطاله .

الزواج عند الامم المختلفة

الحيوانات التي تعيش مجتمعة كالقردة والفيلة وغيرها يتقاتل ذكورها على حيازة أناثها وكذلك يفعل الانسان . فقد روي عن قوم (الشيسوبان) من امريكا الشمالية : أن الرجل متى أحب امرأة رجل آخر قاتله فإن تغلب عليه أخذ منه امرأته عنوة . وكذلك روي عن قوم « البوشيان » من افريقية أن الرجل الأقوى يعدو على الضعيف فيسلب منه امرأته على رغم أنفه .

وهذا القتال الشهواني لا يحصل فقط بين الرجال لسي النساء ولكن يحصل أيضاً بين النساء ، وذلك أن الرجل في بعض قبائل « كينسلان » من استراليا يتزوج الى خمسة نساء ، فيجتمع هؤلاء النسوة ويتقاتلن بالعصي الغليظة ولا يزلن يتضاربن حتى تسيل دماؤهن وتكون الغالبة هي صاحبة الخطوة لدى زوجها .

ومن عادات قبائل استراليا المتوحشة أنه إن حدث قتال بين قبيلتين وغلبت احدهما الأخرى ذهب نساء المغلوبين الى الغالبين عن طيب نفس بلا أدنى مقاومة . إن ما نعهده اليوم من نظام الزواج وصيغ التعاقد ليس بموجود عند المتوحشين شأنهم في ذلك كشأنهم في كل أمورهم الحيوية ، فإن في امريكا متوحشين ليس لديهم احتفال بالزواج مما يدل على سقوطه في نظرهم وعلى أنه أمر عرضي ، وكيف يحتفل بزوجة تكون اليوم لرجل فتصبح غداً بحق الغلبة لرجل آخر ؟ . وقد روي أن القبائل في « كاليفورنيا » الدنيا ليس لديهم احتفال بزواج ، بل ليس لديهم في لغتهم ما يدل على معنى الزواج ، فهم يتزوجون كما تتزوج العصافير والبهائم

ليس إلا . وفي كثير من بلاد المتوحشين يتم الزواج بالخطف ، فتخطف الرجل امرأة كانت زوجته سواء رضيت أم لم ترض ، فإن خطفها رجل آخر كانت له . وفي بعض القبائل المتوحشة الاحتفال بالزواج ينحصر في أن يضرم الزوجان ناراً فيجلسان بجانبها ، وعند البعض الآخر يتم الزواج متى قامت الزوجة ببعض الخدم البيتية للزوج ، وعند قبائل « غينا » الجديدة يتم الزواج متى أعطت المرأة لزوجها قليلاً من التبغ ، وعند قبائل « التفاجوس » يتم أمر الزواج بين الرجل والمرأة بمجرد جلوسهما في شبه قصعة كبيرة وأكلهما معاً من الأغذية التي يكونا قد وضعها فيها ، وكما أن الزواج بسيط عند هؤلاء الأقوام فكذلك أمر الطلاق عندهم ، فإن الرجل من قبيلة « الشيموية » من أمريكا الشمالية إذا أراد طلاق امرأته ضربها وأخرجها من بيته فمطلق . وعند الأقوام الموجودين في « كاليفورنيا » الدنيا من أمريكا للرجل أن يتزوج من النساء ما شاء بلا قيد ، وله أن يشغلن كالارقاء ومتى بدا له أن يطلق احدها فما عليه إلا أن يطردها ، وكذلك الشأن عند « النوبيين » من استراليا إذا عرض لأحد الرجال أن يطلق امرأته وهبها لرجل آخر . ومن نظمات « التاسمانيين » من استراليا ضرورة التطليق كما أنه أمر من الأمور الضرورية ، وأما عند قبائل « السكازياس » فإن الطلاق كثير لحد أنه فقد معه معنى الزواج .

ومما يدل على أن الروابط الزوجية عند المتوحشين ضعيفة ، وإن نظرهم للزواج يخالف نظرنا فيه واعتبارنا له ، أن قد اعتاد بعضهم تقديم نسائه لضيوفه ليتمتع بهن ماداموا عنده ، ومن المتوحشين من يهب بناته أيضاً لضيوفه ، من هؤلاء الأقوام « الاسكيمو » وهنود أمريكا وبعض قبائل « بولينيزيا » و « السودان » والحبشة والكفرة . . . الخ .

ونقل إن المرأة البوشمانية تستطيع باذن الزوج أن تنضم الى أي رجل

آخر ، ثم تعود اليه . وهي تشبه عادات بعض العرب في الجاهلية من إذن الرجل لزوجه بالذهاب الى رجل معين ثم عودتها اليه . وهذه العادة تعد عند الاسكيمو « في جروينلاندا » من مكارم الاخلاق وكرم السجيا .

هذا الانحلال في الروابط الزوجية عند هؤلاء الاقوام يشعر بأن أولئك الرجال لا يعلقون كبير اهتمام على عفة المرأة ، فقد روي أن في جهات (الكونجو) من افريقية يعرض كثير من الرجال بناته للفسق ليكسبوا من وراء ذلك دراهم .

وعند المسكسيكين عادة غريبة وهي أن البنت متى بلغت سن الزواج أمرها أهلها بأن تخرج الى الرجال لتكسب مهرها ، فتطوف - لذلك - البلاد في حالة عهارة مطلقة حتى تجمع المبلغ الكافي ثم تعود الى بيتها لتتزوج . وروي عن السكان الأولين لجهة (داريان) من امريكا انهم ما كانوا ينظرون للفسق بعين المقت ، وكان الزنا من الأمور التي لا تؤثر عندهم أي تأثير ، حتى شهر عن نساء أعليائهم أنهم كن يقلن إن من أخلاق سفلة النساء أن ترد احداهن طلب طالب . ولم يزل يعتقد نساء « اندمان » من آسيا أن من سفالة المرأة أن ترد يد لأمس . وروي عن اقوام « الشيبساس » من امريكا الوسطى أن الرجل يعتبر مغازلة الرجال لزوجه بل مباضعتهم لها من موجبات السرور والفخر له ، ولو تزوج أحدكم بامرأة فوجدها بكرة حقرها وعدّها كلا شيء لانها لم تثر شهوة رجل قبله .

وإذا كان المتوحشون فاقدين أخص ما يربط الزوجين من روابط الحب والاثرة فإن لديهم إحساساً حاداً بأمور أخرى تربط بالزواج ليس لدينا منها أدنى تأثير . من ذلك ما اعتاده (الشوشوايس) من كولومبيا بامريكا وهو أنهم يعتبرون العار كل العار أن تتزوج امرأة من أسرة بدون أن تدفع لأهلها شيئاً . ويعتبر « المودوكس » من كاليفورنيا أن الأولاد الذين يولدون من أب لم ينفح أسرة أمهم بشيء من الأولاد المحقرين الذين لا يستوجبون أدنى كرامة . ومن

عوائد أهل « ايبوكونا » من افريقية أنهم يحقرون كل من كان معدداً للزواج وروى « لفتجستون » الرحالة الانكليزي أن أهل « زمبزيا » من افريقية الجنوبية كانوا يتعجبون غاية التعجب لما علموا أن الانكليزي لا يتزوج إلا امرأة واحدة . وروى العالم الانكليزي « بيلي » أنه خاطب أحد رؤساء جزيرة سيلان فخرها الحديث الى ذكر بعض قبائل الهند فأظهر الرئيس احتقاره لهم وعد من أشد المطاعن عليهم في عوائدهم أن الرجل لا يتزوج إلا امرأة واحدة .

التزوج بالمحرم

أما التزوج بالمحرم فيظهر أن ما نشعر به نحن من الكراهة الشديدة لذلك لم يحس به المتوحش ولم يؤثر على ضميره بشيء .

فقد روي عن « السيويان » من امريكا أن الرجل منهم يباضع أمه ، وأنهم يكثرون من التزوج بأخواتهم وبناتهم ، وروى كثير من العلماء مثل ذلك عن كثير من الأمم المعاصرة لنا من المتوحشين . وروي أن ملوك (رأس جونزالف وجابون) من افريقية لأجل حفظ الدم الملكي خالصاً من الشوائب يتزوج الملك ببناته وتزوج الملكات بأبنائهن . وقد أثبت التاريخ أن عدداً كبيراً من أفراد « البطالسة » الذين ملكوا مصر تزوجوا بأخواتهم .

وعلى قدر ما رأيت من انحلال رابطة الزواج عند الأمم المتوحشة ترى أن أمة الفيداء من بلاد الهند تحرم الطلاق تحريماً باتاً ، وهم يقولون إنه لا يجوز أن يفرق بين الرجل وامراته إلا بالموت .

لم نجد من استقراء أحوال الانسان أن هنالك علاقة بين انحلال الروابط الزوجية وبين الأخلاق ، ولكن شوهد عند قبائل « التلنكيس » أنه مع احترام الرجال لنسائهم وحسن معاملتهم ومع كونهن نسائهم شديداً الانعطاف على

أزواجهن ومتواضعات لبعولتهن . تجد من جهة أخرى هؤلاء أكذب خلق الله السنة وأشدّهم لصوصية وأقساهم قلباً ، فتراهم يمثلون بأسراهم تمثيلاً قبيحاً لعباً وهوأ ويقتلون أرقاءهم قسوة . وكذلك قبائل (البشاسان) بينما تجدهم يقتلون النفس بلا أقل حرج ، ويكذبون كذباً لا حد له ، تجد نساءهم من أفضل نساء الأرض محافظة على الاخلاص الزوجي . وكذلك بينما ترى سكان جزائر (فيجي) على غاية ما يكون من القسوة والحشونة والبربرية تجدهم يحفظون عهد الزوجية حفظاً لا مز يد عليه .

ومن أعجب التقاليد عند قبائل « كوتياجاس » أن المرأة ما دامت بلا زوج لها أن تعمل ما شاءت من الجري وراء هواها . ولكنها متى تزوجت حفظت عفتها حفظاً ليس بعده مرمى ، وكذلك الحال عند قبائل « كوماناس » وعند أهل « يرو » من امريكا لا يهتم الأب بالبحث عن سيرة ابنته ، وليس من العار عليها أن يكون لها أخدان عديدون ، ولكنها متى تزوجت حفظت غاية ما يمكن من العفة وعند قبائل « السيبشاس » لا يهتم الرجال لعفة النساء قبل الزواج كما رأينا ولكنهم بعد زواجها يحافظون عليها كل المحافظة ويتأثرون من فسقها تأثراً لا مز يد عليه . مما مرّ يرى القارىء أن الانسان المتوحش يسلك بالنسبة لأمر التزواج سيرة الحيوانات ، فلا يعرف الروابط الزوجية ، ولا يهتم بنظام الأسرة والقربات ، ولكنه على قدر ترقيه في سلم الحضارة تترقى سائر شؤونه الاجتماعية .

ومما يجب التنويه به في هذا الباب : أن القبائل المتوحشة لكثرة حروبها وغاراتها كانت تهتم بتربية الأولاد الذكور وتهمل تربية الأنثى ، بل كان من عوائدهم الشائعة قتل الأنثى لا سيما وقد كانت تربيتها كعبء ثقیل عليهم ، ولكن حدث من جرّاء ذلك أن قتل النساء فنشأت عادة خطف الأنثى بين القبائل والتزوج بهن . فكان الرجل إذا احتاج لامرأة اصطادها من قبيلة أخرى كما يصطاد حيواناً وتزوج بها .

ومن العجيب أن هذه العادة لم تنزل تتأصل حتى اعتبر الزواج بطريق السبي هو الزواج وحده ، بل عدت فيما بعد عادة دينية ، ولم يزل يوجد الآن من قبائل الهنود والقوقازيين من يجرمون الزواج من قبائلهم ويرون ضرورة الزواج من القبائل المجاورة ، ولكن اعترض بعض العلماء على هذا التعليل بقوله : (إن تلك القبائل لو كانت معتادة قتل البنات واستحياء الذكور لأفضى ذلك الى قتلهن من كل القبائل ولأدى الى نتائج خطيرة ولكن التحقيق أن هذه العادة نشأت من الحروب فان المحاربين من كل الأمم متى غلب فريق منهم خصمه أخذ كل ما قدر عليه من ماله وسبي نسائه وهذا أمر حاصل الآن بين جميع القبائل) .

روى العلامة (مئثل) الانكليزي أن بعض البيض من الأوربيين حكوا لبعض أهل استراليا السود بأنهم قتلوا رجلاً تعرض لهم من قبيلة من قبائلهم فظفر اليهم الاسترالي شزراً وقال لهم ما أحقكم ولم تسبوا امرأته ؟ .

وأما قبيلة (الكارايب) فإنها مع نهمها في أكل لحوم البشر تستبقي النساء من أسرى الحروب للاستيلاء ، ومن عادة المتوحش أن يحمل مع ما يحمله من آلة حرب به شعر عدوه الذي قتله أو صفائر منه ، وبمضهم يعلق عليه رأسه بعد أن يحففها وأحسن من ذلك كله أن يختطف امرأته فتبقى عنده ذات فائدتين أولاهما أنها من الارقاء ، وثانيتهما انها من علامات الفخر والشرف له . ومن كان لديه من هذه النسوة أكثر كان له من الفخر ما ليس لغيره .

النساء من جهة الأعمال العالية اعتبرن من الخدم الارقاء وليس لهن إلا الطاعة المطلقة لأزواجهن . فقد يوجد من القبائل من يكلف النساء بكل شيء حتى بجلب الغذاء فقد كان لدى (السامانيين) الذين انقرضوا أن الرجل ليس عليه من غذاء الأسرة إلا صيد حيوان يقال له (جونجوروس) أما المرأة فكان عليها أن تتسلق الأشجار لاقتطاف الثمار وتشق الأرض لاستئثار الجذور النباتية منها وتتسحب على

الأرض لاصطياد القواقع وتفتحهم البحر لتصيد الحيوانات الرخوة وكان عليها مع ذلك أن تربي أولادها .

وعند الفويجين والاندمايين والاستراليين على الرجل أن يصطاد وعلى المرأة أن تحمل له الفريسة وكذلك الحال لدى كثير من القبائل حتى أن الرجل من الاسكيمو متى قتل فريسته اعتبر حملها عليه فيدع وظيفة حملها لامرأته .

وعند الاسكيمو هؤلاء تبني المرأة البيت وتنصب الخيام فيراها رجلها وهي حاملة من الاحجار ما يهد القوى ويكسر الفقرات الظهرية فلا تأخذ عليها شفقة ولا يمد لها يد مساعدة .

ومن عوائد المتوحشين تحميل نسائهم أمتعتهم ولا يحمل الرجل السلاح وربما كان لهم عذر في ذلك ، فإن حياة الرجل المتوحش مهددة دائماً فلا يأمن أن يكون قد كمن له رجل في طريقه ليقتله ويأخذ منه امرأته ، فلو حمل أمتعته أو لو ساعد فيها امرأته لم يكن على تمام الاستعداد عند مهاجمة العدو له فيهرم أو يقتل ، فلذلك يدع الاحمال لامرأته ويمشي هو معتقلاً سيفه ورمحه .

ومن متناقضات المتوحشين ما يوجد عند قبائل (الكوروادوس) من أن الرجل هو الذي عليه الطبخ وإيقاد النار . وعند قبائل ساموا الرجال هم المنوطون بالطبخ ولا يستثنى من ذلك الرؤساء أنفسهم . ومن متناقضاتهم أن النساء في جاوة هن اللاتي يذهبن الى السوق يبعن ويشترين .

وروي مثل ذلك عن قبائل (انجولا) فإن النساء هن اللاتي يذهبن يبعن ويشترين . أما الرجال فيجلسون في البيت يغزلون القطن وينسجونه ، ويعملون أعمالاً هي عندنا نسوية محضة .

وعند أهل (يرو) القديمة من امريكا على النساء أن يشتغلن في الخارج فيتاجرن ويحرثن الأراضي ، وعلى الرجال حفظ البيت والغزل والنسج . أما عند

الأحباش فمن العار أن يذهب الرجل الى السوق ليشتري ولو أصغر شيء ، أو أن يحمل ماءً ، بل عليه أن يجلس في البيت لغسل ملابس الأسرة وليس على المرأة أن تشاركه في هذا العمل .

ومما أسند للنساء من الوظائف في بعض البلاد حمل السلاح كالرجال ، فقد كان لدى ملك ﴿ الداهومي ﴾ وهي من ممالك افريقية التي ملكتها فرنسا منذ نحو ثلاثين سنة جيش مكون من ثمانية آلاف نفر نصفهم من النساء الجميلات الشابات ، وقد كان هؤلاء النسوة حافظات لغفتمهن كل الحفظ . وكان لدى ملوك (ود) وهو قطر من الهند حرس من النساء خاص بخدمة القصر الداخلية .

وقد روى ﴿ البرنس سوليتكوف ﴾ أن في قصر ملوك الدكن بالهند فصيلة من الحرس متسلحات بالبنادق ، ولا بسات على رؤوسهن قبعة حمراء عليها ريشة خضراء ، وعلى أجسادهن حلة حمراء عليها خطوط بيضاء ، وتحت ذلك بنطلون أخضر ، فإذا عرض الانسان هذا الجيش تخيل أنه فصيلة من الشبان المرد لولا غداثرهن الملقاة على ظهورهن وصدورهن البارزة بأندائهن .

ومما يشبه ذلك الحرس الملكي الخاص بملك سيام وهو قطر من آسيا فانه مكون من ٤٠٠ نسمة من النساء المنتخبات من أجمل النساء وجوهاً وأشجعهن قلوباً ، يأخذونهن من سن الثلاث عشرة للخامسة والعشرين ، ثم يحولن الى خدمة السراي الداخلية . هذه النسوة يعاهدن أنفسهن على التهرب إلا إذا دعا احداهن الامبراطور لنفسه فتسكن اليه وتصبح من الحظيات عنده .

ومما شوهد من ماجريات الحوادث الانسانية أن المرأة في القبائل الحربية تكون أكثر عبودية وأشد انحطاطاً منها في القبائل التي بدأت فيها الحياة الصناعية لان الحرية تجعل بين عمل الرجل وعمل المرأة حداً فاصلاً لا نسبة بينهما ، بخلاف الصنائع اليدوية فانها تحدث شبه تماو بين الجنسين لاشتراك الكل فيها فتنشأ للرجل

فكرة المساواة وتنصلح حالة المرأة عنده .

ومن أصرح الامثلة لذلك حالة القبيلتين المتجاورتين من ﴿ بولينزيا ﴾ وها ﴿ الفيجيين والسامون ﴾ فالاولون معيشتهم على الحروب وما تستلزم من حكومة مطلقة استبدادية ، وخشونة بالغة حدود البهيمية بالنسبة للنساء وتعدد في الزوجات حتى أن الرئيس ليستطيع أن يتزوج من عشرة نساء الى مائة امرأة ، وللزوج على امرأته من الحقوق ماله على الحيوانات العجم ، وذلك إنه يستطيع بيعها أو ذبحها وأكلها إن شاء .

أما لدى السامون الذين نشأت فيهم مبادئ الصنائع فقد وصلوا تحت تأثير السلام الى حالة راقية في حكومتهم وصنائعهم ، وحسنت حالة المرأة عندهم لدرجة أن الرجل لا يحملها من الاعمال إلا ما تطيق ويترك مالا تطيق لذاته ، وإذا حدث أن الرجل فارق امرأته بعد معاشرتها سنين تشاطرا المال معاً ، وذهبت بشرطها لتعيش به .

ومما علم من تاريخ المصريين الاقدمين الذين بلغت لديهم الصنائع شأواً بعيداً من السكال أن المرأة كان لها مقام عال في الهيئة الاجتماعية وكانت تعتبر مساوية للرجل ، فكانت تحضر معه في الحفلات العامة ، وكان الطلاق صعباً لديهم ، وتعدد الزوجات وإن كان من مقررات شريعتهم إلا أنه لم يكن شائعاً بين جميع أفرادهم . ومما يجب التنبيه اليه هنا إنه قد ثبت أن حالة المرأة في الاسرة تابعة من بعض الوجوه لشكل الحكومة . وعليه فقد رؤي أن الحكومة لو كانت مطلقة مستبدة كانت المرأة في الاسرة في أشد حالات العبودية لزوجها ، وإن كانت شورية دستورية كان للمرأة شيء من الحقوق والحرية . ومن الامثلة على ذلك حالة المرأة لدى الرومانيين الاقدمين أيام كانت حكومتهم استبدادية ، فقد كان للاب رئاسة مطلقة على امرأته وأولاده بحيث يستطيع أن يبيعهم وأن يقتلهم .

ولدى أهل الصين الذين تصعد مدينتهم الى ما قبل عيسى ﴿ع﴾ بألفي سنة
تجد سلطة الرجل على امرأته لا حد لها ، كما أن سلطة الامبراطور على شعبه
لا حد لها أيضاً ، ولولا أن الصناعة هذبت من أخلاق الصينيين ولطفت من
احساساتهم لمكانت معاملتهم للمرأة لا تفرق عن معاملة المتوحشين لها ، على أن
الرجل الصيني للآن يشتري المرأة ويتسرى كما شاء ، وللحم هناك أن يبيع زوجة
ابنه المتوفى ، وعلى النساء عندهم أن يشتغلن في أقسى الاعمال ، حتى أنهم ليربطونهن
في المحارب لحث الارض . ولكن العرف قضى الآن على هذه الوحشيات وإن
كانت من المباحات القانونية ، وكذا الشأن لدى اليابانيين هم واليونانيون الاقدمون
في جاهليتهم كانوا يعترفون للمرأة ببعض الحقوق ، ثم رأيناهم في عهد مدينتهم
يعاملون المرأة أقسى معاملة ، ولا يسمحون لها بالخروج من بيتها . وقد علمنا ذلك
باهتمام الرجل في ذلك العهد بأعمال السياسة واهماله لما عداها من أمور ، فلم يكن
للرأة حق التصرف في شيء مما لها إلا باذن الرجل لها ، وكان نظر فلاسفتهم لها
باحتمار ، فقد قال ﴿ارسطو﴾ في كتابه ﴿السياسة﴾ : ﴿ليس للعبد إرادة ،
وللطفل إرادة ولكن ضعيفة ، وللرأة إرادة ولكن عاجزة . أما لدى الرومانيين
فكانت المرأة تعمل في البيت وكانت محجبة في عهد الجمهورية ، ولما جاء عهد
الامبراطورية خرجت من خدرها ولكنها كانت لا تثر ، فاحتال الرومانيون
لتحويلها بواسطة الهبة ، فلما آنس المشرعون ذلك ورأوا أن الهبة للمرأة ستفضي الى
نقل الثروات من بيوتها الاصلية الى بيوت أخرى ، قرروا أن ليس للرجل حق
الهبة للمرأة إلا الى حد محدود ، ثم تقرر أن يرث أزواجهن وأن يكون لهن مثل
ما لكل ولد من أولادهن .

وقد استمرت أوروبا في تقاليدما وشرائعها على ما كان عليه شعوبها المختلفة
من المتوحشين تحت سيطرة الرومانيين حتى جاءتهم الديانة المسيحية ، فلم يكن حظ

المرأة من آباء الكنيسة مرضياً ، فلم يعتبرها بعض أولئك الآباء إلا أنها آلة الفتنة وسبب الخطيئة ، وقد قرروا في قوانين الكنيسة سمو الرجل عن المرأة من كل وجه وكانوا يعتبرون الزواج شراً ضرورياً ، وكان يعتبر لدى آباء الكنيسة كافة انه تابع لخطيئة آدم ، وانه لو لا تلك الخطيئة لكان الله عمد الى طريقة أخرى في استدامة النوع الانساني ، وما كانت هذه الآراء مما تلائم روح الانجيل الداعية الى المساواة والعدالة ، ولكن حدث في أوروبا حدث هائل كان في مصلحة الجنس الرقيق .

ذلك الحادث هو غارة المتوحشين على أوروبا في القرن (الخامس) وهم من قبائل الجرمانيين ، ووجه كون هذا الحادث في مصلحة النساء الاوريات ، أن هذه القبائل كان لها غرام فطري باحترام النساء لذاتهن لا بصفتن أمهات ولا زوجات ، فلما اختلطت هذه الشعوب في المملكة الرومانية وتوزعت بلادها وسادت عليها أحكامها وأخلاقها ارتفع شأن المرأة في أوروبا وصارت لها في نظر الرجل منزلة سامية ، ولم تنزل ترقى في ذلك حتى وصلت الى ما هي فيه اليوم .

كانت المرأة قبل الثورة الفرنسية التي حدثت سنة ١٧٨٩ م تعتبر مساوية للرجل في الحقوق ولكنها كانت قانوناً معتبرة دون الرجل في كل حق ، فلما حدثت الثورة الفرنسية اعترفت بمساواتها للرجل قانوناً خارج الزواج ، ولكنها متى تزوجت كانت تحت وصايته لا تتمصرف بما لها إلا بعد اذنه .

ثم إن القانون الفرنسي الذي يعتبر أكثر القوانين عطفاً على المرأة يحرم عليها أن تكون ذات وظيفة في الهيئة الاجتماعية ولا تستطيع أن تكون شاهدة في قضية عامة ، ولا أن تكون حكماً ولا أهل خبرة . ثم إن القانون هنالك يحرم على المرأة الوظائف العامة ، فلا تقبل إلا مديرة لبوستان أو محل بيع الأوراق المدموغة ، وأن تكون معلمة للأطفال أو عاملة لبعض البنوك . . . الخ من الوظائف الحقيرة .

أما الاسلام فقد سبق الامم كافة في اعتبار المرأة شريكة للرجل في الحياة

بنص قوله تعالى : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) «١» . وقرر بأنها كائن متمتع بكل الخصائص الانسانية التي تؤهلها لأرقى مراقي الكمال البشري .

قرر الاسلام أن المرأة في بيت زوجها سيدة محترمة لا خادمة ممتهنة ، فليس عليها أن تخدم زوجها ولا تتمتع بنفسها في الخدم البيتية جبراً ، بل لو لم تحسن الطبخ وجب على زوجها أن يأتيها بالأكل مجهزاً ، ولا يوجب الشارع عليها إرضاع ولدها ويجبر الزوج على استرضاعه بواسطة مرضع مأجورة إن لم ترد الأم ارضاعه .

إذا تأملنا في هذه الحقوق الممنوحة للمرأة فليس في وسعنا أن نتخيل أن فوقها مرمى . فإذا أضفنا الى هذه النظرات أن هذه الحقوق التي نقاخر بها الاوربيين قد أتت بها رجل عربي أمي قبل أكثر من ثلاثة عشر قرناً وهو في أمة لا تعرف للمرأة حقاً وبين أمم كلها مستعبدة للنساء . لو تأملنا في هذا الأمر حدث برهان قاطع محسوس نضيفه على ما لدينا من البراهين ، على أن هذا الاسلام وحي إلهي لا وضع بشري ، فانه ليس في طوق الانسان أن يتعدى حدود عاداته ومألوفاته ، بل حدود عادات الأمم كلها ومألوفاتهم في أمر كائن ضعيف كالمراة فيهب لها حقوقاً لم يتخيلها البشر لذلك العهد . ولو كان ذلك في طوق البشر لاتي به أرسطو أمير الفلسفة الذي يعدّ أكبر عقل ظهر في الاقدمين وقد علمت رأيه في المراة مما تقدم . وإذا ثبت أن هذا الاسلام وضع إلهي فالآتي به لا شك نبي كريم ورسول عظيم يستحق منا أكرم صلاة وأشرف تسليم .

الزواج عند اليونانيين

يؤثر عن اليونانيين القدماء أنهم كانوا موحدين للزوجة ولكنهم كانوا يبيعون لأنفسهم التسري بالاحرار والاسرى ، وكان للزواج غرضان : أحدها ديني والآخر مدني ، ويطلب لأجل إيجاد النسل ، وقد سمحت شرائعهم بأن يتزوج الأهل الأقربون والأخوة ، كل ذلك لحفظ الدم نقياً من الشوائب .

وكان احتفالهم بالزواج ينحصر في تقديم ضحايا لآلهة الزواج « زوس » وهيرا ، وابولون » وغيرها ، وأخذ العهد على الزوجين ، ثم عمل قربان عظيم يوم الزواج تعقبه وليمة تحضرها العروس محجبة ، ثم يتلو ذلك احتفال زفاف العروس الى بيت زوجها فتركب في مركبة تجرها الحياض وحولها الموسيقى تعزف بأنغامها والمغنون يترنمون بأناشيدهم .

الزواج عند الرومانين

كان للزواج عند الرومانين نوعان : أحدهما يقال له زواج (مانوس) ، والآخر زواج بغير « مانوس » . ففي الأول تعتبر المرأة بنتاً للرجل تندمج في أسرته التي له عليها كل سلطة وتخرج بتاتاً من أسرة أبيها ولا يبقى لها به أية علاقة وفي النوع الثاني تحفظ المرأة مكانها الاول من أسرة أبيها ولا تتصل من أسرة زوجها بأي سبب ، وفي كلا هذين النوعين لا بد من شروط لصحة الزواج كبلوغ الرجل سن الحلم وكذلك المرأة ، وكحريتهما فإنه لا زواج عندهم للارقاء ، وكان الطلاق مسموحاً به لديهم وكذلك التسري .

الزواج عند المسيحيين

يتم الزواج عند المسيحيين بإيجاب وقبول بين الزوج والزوجة ولا بد من أن تعقده الكنيسة ، ولكنه على أي حال يعتبر عندهم أدنى من درجة العزوبة . فقد جاء في قوانين الكاثوليكين : أنه يعتبر محروماً كل من قال إن حالة الزواج أفضل من حالة العزوبة ، ومن قال بأن الانسان يكون أسعد حالاً إذا كان متزوجاً مما إذا كان عزباً . حكموا عليه هذا الحكم باعتبار أنه من الشهوات البهيمية الجسدية ، والانسان الكامل لديهم يجب أن لا يفكر في اللذائذ البدنية ، بل ينقطع الى عبادة الخالق ليتصل بعالم الكمال الأقدس ، ومع ذلك سمحت به الكنيسة المسيحية للضرورة ليس إلا .

الزواج في الاسلام

لما كان مبدأ الاسلام عمارة الأرض وإبلاغ النوع الانساني كماله من الوجهتين المادية والمعنوية جاء رسوله حاضراً على الزواج مشجعاً عليه ، بل عدت فيه الرهينة من الأمور المحظورة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا رهبانية في الاسلام » وقال : « تناكحوا وتناسلوا فاني مباه بكم الأمم » . وقد اجمعت الأمة على أن الزواج من العقود الشرعية المسنونة ، ومن قصد نكاح امرأة حل له أن ينظر الى وجهها وكفيها بالاجماع .

أزمة الزواج في العصر الحاضر

أصيب الزواج بأزمة في العصر الحاضر لعدة أسباب : أولها سلطة العادات فان الناس أصطلحوا فيما بينهم على عادات خاصة بالمهر والاحتفالات وغيرها صار أكثرهم لا يطيقها على قدر منازلهم من الهيئة الاجتماعية فيمتنعوا عن الزواج قسراً عنهم . مثال ذلك اعتاد الاوربيين أن يأخذوا من النساء مالا عند تزوجهم بهن

يسمونه « الدوتة » فيصعب على كثير من النساء إيجاد هذا المال فلا يتزوجن ، وقد حملت المطامع الرجال على مساومة النساء في قدر هذا المال ، فيريد كل منهم أن يأخذ امرأة لها أكبر ما يتوق اليه من المال فلا يجد ذلك بسهولة ، فلبث أعزب حتى يصادف مطلوبه وهيئات .

ومن أسباب أزمة الزواج مطامع الرجال فإن أكثرهم يطمع في أن يصاهر الأسر السرية الثرية ، ولما كان ذلك لا يتأتى له إلا بعد أن يحصل لنفسه مركزاً سامياً في الهيئة الاجتماعية فيظل يتربص ذلك فيبلغ الخمسين من العمر وهو أعزب وربما مات على تلك الحال .

ومنها سوء الحالة الاقتصادية عند كثير من الناس وصعوبة المعيشة الزوجية ، وهذه الحالة ترجع الى الحالة الأولى وهي سلطة العادات فاتنا لا نطن أن الفقر يمنع من الزواج إلا إذا كان فقراً مدقماً وهو نادر ، بل الشحاذ لا يعدم إن أراد الزواج أن يجد له كفوّاً من النساء .

هذه الأمور الثلاثة ، بل هذان الأمران ضربا الزواج ضربة قاسية في كل جهة ، وهذه الضربة في أوروبا أشد منها عندنا ، فقد أصبح هنالك عدد النساء العازبات يفوق حد الكثرة ، والسبب في كثرتهن هنالك هذه الكثرة المهددة بالخطر يرجع الى تسامح الرأي العام في اختلاط النساء بالرجال ، ولو شاع بيننا السفور فيحتمل أن يقل الزواج من بعض الطبقات قلة شديدة الخطر على كيان الامة لاسترسال أكثر الشبان مع تيار المطامع الباطلة ، فإن الأوروبي في الدرجة الوسطى أكثر ما ينتظر من امرأته من « الدوتة » خمسمائة جنيه وهو مبلغ لا يزيد إيراده عندهم عن خمسة عشر جنيهاً سنوياً ، ولكن بعض المناطق الشرقية تتمكن من تلك الدرجة ينتظر الشاب أن يتزوج بمن لا يقل إيرادها عن مائتي جنيه في السنة وهو مبلغ لا يجيء إلا من رأسمال قدره خمسة آلاف جنيه . وقد ذاعت هذه المطامع

حتى صار الخاطب لا يسأل عن المرأة إلا من الوجهة المالية دون سواها ، فأثر هذا الانحراف أسوأ تأثير على الأخلاق والعادات والآداب .

فإن المرأة ما دام لا يسأل عنها إلا من الوجهة المالية ولا يعتبر شيئاً لها ما تأتية من صنوف التبرج ما دامت غنية يسهل عليها أن لا تدخر وسعاً في الظهور بكل مظهر تودّه ولو أثر ذلك على سمعتها وسمعة بيتها .

هذه المخاطر لم يتصد لها الى اليوم كاتب اجتماعي خطير يشرح أخطارها ويبين وجوه فسادها وهو نقص كبير نؤمل أن يتصدى له من يسده في القريب العاجل .

وإننا قبل أن نختم هذا الفصل نود أن نذكر كلمة عن حقيقة السعادة المنتظرة من الزواج وعن ضلال أصحاب المطامع عن وجه تلك السعادة .

الزواج حاجة من حاجات الانسان وهو ككل حاجاته لا يؤدي وظيفته على كمالها ولا ينتج كل السعادة المرجوة منه ، إلا إذا وافق الناموس الطبيعي والأدبي معاً فلننظر ما هي الحاجة الحقيقية للانسان من هذه الوجهة ؟ ثم لنقارن بينها وبين ما يتطلبه المنحرفون من شروطها ، ليرى القارئ ظلالهم البعيد من الفرق الشاسع بين الحاجة الطبيعية والحاجة المصطنعة . فنقول :

الحاجة الحقيقية للانسان من الزواج أن يجد بجانبه إنساناً تشاركه الحياة وخواها وشدها لذتها وألمها تحنو عليه حنواً تضطرها اليه وحدة المصلحة واشتراك الوجهة . وترى أنه اتحد بها جسداً وروحاً فصارا إنساناً واحداً كل منهما يكمل نقص صاحبه . هذه هي الحاجة الساذجة الداعية لكل إنسان الى الزواج . وهناك شروط طبيعية أخرى ولكنها ثانوية تتطلبها أحد الزوجين من الآخر وهي جمال الوجه ، وتناسب السن ، وكفاءة العقل .

فطالب الزواج إن تحرى من الشروط غير ما تشعير اليه الحاجة الطبيعية فأنما

يتحرى أسباب شقائه وعوامل آلامه ، لان كل شيء خرج عن حده الطبيعي أدى غير الثمرة المطلوبة منه .

لا بأس أن تكون الشروط الطبيعية موجودة مع شروط كمالية أخرى ، كأن تكون الزوجة شابة جميلة وهودبة وهي مع ذلك أصيلة ومتعلمة تلمأ دينياً راقياً . أما الثروة فاني ممن يعتقدون أن سعادة الزواج لا تتم بمعناها الطبيعي إلا إذا كانت المرأة بنير إيراد ، ذلك لان الله خلق الرجال قوامين على النساء ، عليهم أن يؤتوهن حاجاتهن من المأكل والملبس ، وقد فرضت الطبيعة ذانها على الرجال ذلك وطبع الرجل على أن يكون رئيس بيته وقائد أولاده وسبب كل خير في أسرته فيسره سروراً لا يقدر أن يدخل بيته فلا يجد فيه ذرة إلهي من ثمرة كدحه ونتيجة جده ، ولا يصادف فيه نسمة إلا وهي عالة عليه في مأكلا ومشربها وملبسها هنالك تتجسم له اللذة على قدر تجسم العهدة الملقاة على عاتقه ، ويشعر بارتياح لا يشعر به إلا كل عالي الهمة شريف النفس ، وهي لذة طبيعية ساذجة تغذي الروح وترفعها الى كمالها .

خلّ هذا جانباً وتخيّل رجلاً آخر تزوج من امرأة غنية ، فهو يدخل بيته فيرى أشياء ليست من ثمرة كده ، ويلقي بنظره على امرأته وبنته فيجد أنهم في غنى عنه ، فوجوده وعدمه سيان عندهم من الوجهة المباشية . هذا الشعور يفقده من لذة الزوجية والأبوة ما لا يمكن أن يعوضه له شيء آخر في حياته البنيية . ثم يكون مثل هذا الزوج من وجهة أخرى فاقداً لكرامة الرجولة في نظر زوجته فلا تنظر اليه باعتبار أنه عائلها والحامي لها ، بل باعتبار أنه واحد ممن تعولهم هي بماها . هذا إذا كانت زكية النفس عالية الاخلاق ، ولكنها إن كانت منحطة الهمة ساقطة الآداب منت عليه بما لها وتحمّدت عليه بثروتها وأظهرت له في كل مناسبة أنها غنية عنه بذاتها ، وأن لديها من المال ما يكفيها فيكون مقامه معها محفوفاً

بالأكدار مشوباً بالمنغصات .

هذا هو الواقع ، ولكن بعض الناس أصبحوا بما خالط نفوسهم من ذلة المطامع لا يبالون بكل هذه الشوائب ، فهم يرجون الزوجة الغنية ليتزوا ما لها ويسلبوها تراثها ، أما ليغنوا أنفسهم بالفقارها أو ليرتعوا في شهواتهم بما لها . أولئك المنحطون أخلاقاً الساقطون آداباً ، الذين لا يعرفون من لذة الحياة إلا ملء بطونهم وتوفية شهواتهم ، وإن كان مع الذل والمهانة .

فعلى الذين لم تفسد المطامع نفوسهم أن يتحروا من الزوجات المكاملة خلقاً وخلقاً ، الأصلية أباً وأماً . ولا نريد بالاضالة الثروة والجاه ، وإنما السمعة الطيبة والذكر الحسن وأن يتحروا مع ذلك أن لا تكون المرأة ذات إيراد للمحظورات التي ذكرناها والايضاع من سعادتهم البيتية بقدر ما لدى نسائهم من الدخل . والله الهادي الى سواء السبيل .



حجاب النساء

عادة احتجاب النساء قديمة جداً فقد جاء في دائرة معارف « لاروس » ما خلاصته : « كان من عادة نساء اليونانيين القدماء أن يحجبن وجوههن بطرف مأزرهن أو بحجاب خاص كان يصنع في جزائر « كوس وأمرجوس » وغيرها وكان شفافاً جميل الصنعة » . وكانت الفنيقيات يحجبن بحجاب أحمر .

وقد تكلم عن الحجاب أقدم مؤلفي اليونان حتى يروى أن (بنيلوب) امرأة الملك (عوليس) ملك جزيرة (ايتاك) كانت تظهر محتجبة . وكان نساء مدينة (ثيب) محتجبن بحجاب خاص ، وهو عبارة عن غطاء يوضع على الوجه وله ثقبان أمام العينين لتنظر منهما المرأة

وفي (أسيرطا) كان الفتيات يظهرن أمام الناس سافرات ، ولكنهن متى تزوجن احتجبن عن الأعين . وقد كان حصل النساء على شيء من الرخصة فقد دلت النقوش على أن النساء كن يغطين رؤوسهن ويكشفن وجوههن فقط ، ولكنهن متى خرجن الى الأسواق أوجب عليهن الاحتجاب سواء كن عذارى أو متزوجات كان الحجاب موجوداً عند نساء « السبيلترين » والشعوب النازلة في آسيا الصغرى والميديين والفرس والعرب . . . الخ .

وقالت دائرة معارف لاروس أيضاً : « وكان نساء الرومان مغاليات في الحجاب لدرجة أن القابلة « الداية » كانت لا تخرج من دارها إلا مخفورة ملتمة

باعتناء زائد وعليها رداء طويل يلامس الكعبين وفوق ذلك عباءة لا تسمح برؤية شكل قوامها » . انتهى

الحجاب في الاسلام

عدت دائرة « معارف لاروس » العرب من الأمم التي كانت عادة الحجاب متأصلة فيها من القدم ، وهو الذي يتبادر الى الذهن في أمة كان من رجالها من يتلثمون ، ولكن يظهر أن ساقطات النساء كن يسفرن للرجال ويتبرجن ، فيحدث من ذلك اختلاط معيب بين الجنسين ، فنزلت آيات من القرآن تحث على عدم التبرج الخطاب موجه فيها لنساء النبي والمراد نساء المؤمنين كافة . قال تعالى : « وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية » (١) ، ثم قال تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً » (٢) .

انبرى رجال وبعض الكتاب الى طلب احتذاء المرأة المسلمة شاكلة المرأة الغربية في رفع حجابها وإن كان شفافاً ، وهم يريدون أن يتذرعوا بذلك الى احداث الاختلاط بين الجنسين ، وجهلوا أو تجاهلوا ما نجم وينجم عن ذلك من الفساد الاجتماعي . فكان حقاً علينا أن نكتب كلمة في الحجاب فنقول :

في كل أمة مسألة خطيرة تكتب بحروف عريضة في المجالات والجرائد اليومية هي مسألة المرأة . ففي أوروبا ذات المدنية العتيقة وفي امريكا صاحبة الحضارة الحديثة والحرية المطلقة تتجلى هذه المسألة على أشكال وحالات شتى ، يغم على الباحث الاجتماعي وجه الحل فيها فيكاد يعتقد أنها عضلة العقد والمعنى الذي لا يفك ما دام الوجود الانساني قائماً ، ونحن الذين أخذنا تندفع وراء المدنية بغير حساب

« ١ » سورة الاحزاب الاية ٣٣ .

« ٢ » سورة الاحزاب الاية ٥٩ .

بحكم التقليد الذي هو بمض ما تمنى به الأمم الضعيفة المغلوب على أمرها حيال الأمم القوية قد أصبح لدينا شيء يقال له مسألة المرأة أيضاً . ولكن شتان بين الدوافع التي تدفعنا للتدمير والدوافع التي تدفع الغربيين لذلك . إنهم هناك يشكون آثار الأضاليل الاجتماعية التي سماها كتابهم قبل قرن من الزمان باسم (تحرير المرأة) فتأدوا بها الى النقيض مما يطلبون لها .

كانت المرأة في أوروبا مستعبدة ليس لها شخصية متميزة ، فكانت لا تترث ولا تملك وقد تغالى آسروها حتى حرّموا عليها الضحك وأكل اللحم ووضعوا على فيها الأقفال الحديدية ، وحكم عليها بانها مجردة عن الروح الانسانية التي للرجل ، فقام أفراد يطلبون لها الحرية . وحسناً طلبوا لو كانوا وقفوا بمطالبهم عند حدود الحكمة ولكن دفعتهم الأهواء الى متاهات التعسف فطلبوا للمرأة باسمها كل شيء حتى ما ينافي وظيفتها ويفسد خصائصها . طلبوا أن تستخدم في المعامل وأن تكون طيبة ومحامية ومهندسة . . . الخ

كان لهم ما طلبوا ، فان الدعوة الى الأهواء تجد آذاناً مصغية وقلوباً واعية فيعمل بها العاملون ثم لا يفقهون إلا يوم يصيح بهم صائح الفطرة فترتكس الحال بهم الى الضد ، « سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً » .

أصبح لأوروبا وأمريكا محاميات وطيبات ومهندسات وخرجت المرأة من التقاليد البيتية ، ولكن لا تنس أن ترى أن بجانب كل مهندسة أو طبيبة أو محامية مائة ألف من بنات جنسها وقمن تحت كلا كل الأشغال الشاقة تكبد أجسادهن الأعمال وتلفح وجوههن النار . غصت المعامل بالنساء الضعيفات ، وشحنت بهن مخازن التجارات في مقابل أجور لا تبلغن البلغة من العيش ، وهل في ذلك من عجب بعد أن أنزلن محرروهن الى ميدان الأعمال وقرنوهن بالرجال ! فكان الرجل أسبق منهن الى المنافع وأقدر على مزاولة المشاق .

قال الفيلسوف الاشتراكي « برودون » في كتابه (ايجاد النظام) في تقليل سبق الرجل للمرأة في ميدان الأعمال : « إن نسبة مجموع قوى الرجل الى مجموع قوى المرأة كنسبة ثلاثة الى اثنين ، فيكون التحرير الذي يطلبه بعضهم باسمهن هو تسجيل الشقاء عليهن تسجيلاً قانونياً إن لم أقل تسجيل العبودية » . وقال العلامة (اجوست كونت) مؤسس علم الاجتماع البشري في كتابه النظام السياسي : (إنه لو نال النساء هذه المساواة المادية التي تتطلبها هن من يزعمون الدفاع عنهن بغير رضائهن فان صيانتهم الاجتماعية تفسد على قدر ما تفسد حالتهم الأدبية لأنهن في تلك الحالة سيكون خاضعات في أغلب الصنائع لمزاحمة يومية قوية بحيث لا يمكنهن القيام بها ، كما أنه في الوقت نفسه تتكدر المناجع الأصلية للمحبة المتبادلة » . انتهى نقول بخ بخ . أهذه غاية محري المرأة ؟ يدعون أنهم يحصلون لها حقوقاً مسلوقة فيوقعونها في هذه المآزق المهلكة .

أيعدمن النتائج الحسنة للحركة المساواة بتحرير المرأة أن يصبح في أوربا أكثر من ثلاثين مليون امرأة تصهر أجسادهن الرقيقة نيران المصانع ، ويصوح زهرة جمالهن قسوة المزاحمات ؟

ليست هذه الصيحات هي التي تفتن الشرقيين فهم بمعزل عنها ، بل هي تلك الأسراب النسوية من بنات الغرب يروهن غايات راحات على حال يومهم الناظر السطحي أنهن بلغن غاية المدنية ، وأن رجالهن قد حصلوا بهن على أقصى نهايات الراحة البيئية . لذلك الناظر أن يظن ذلك فليس هو بأول سار غره قر ، وليكتمه في نفسه أو ليسأل عن تفسيره خبيراً ، أما جعله نتائج هذه المشاهدات السطحية مبادئ ، ثم النهوض لنشرها بين الناس فلا نسلم له فيه .

إن هذا المظهر القاتن الذي يؤثر على مشاعر بعض شبانا في أمر النساء ويضرم في نفوسهم نار الغيرة لا بلاغ نساتنا هذه الدرجة الراقية في أعينهم يكفيننا

لأجل أن نريهم مبلغ خطأهم فيه أن نبرهن لهم أنه مشار البلاء على أهله ومنبعث الانحلال على مدينتهم .

جاء في دائرة معارف « لاروس » بعد ذكرها أن خراب مدينة (روما) إنما جاء من انطلاق النساء مع الأهواء قالت : (وفي هيئاتها الاجتماعية الحاضرة التي فيها تتمتع النساء بحرية مفرطة نرى أن دناء ذوقهن وميلهن الشديد الذي يحملهن دائماً على الاشتغال بجمالهن ولا يكل ما يزيد حسنهن كل ذلك أكثر خطراً وهولاً مما كانت عليها الحالة في روما .

نعم لسنا أول من لاحظ هذا الأثر السيء الذي يحدثه حب النساء للزينة فيوماً على أخلاقها . فإن أشهر كتابنا لم يهملوا الاشتغال بهذا الموضوع الكبير ، وكثير من أقاصيصنا التي قوبلت بالاستحسان العام قد وصفت بطريقة مؤثرة الخراب الذي يجره على الأسر الشره الجنوبي بالتزين والتبرج ، فكيف النجاة من هذا الداء الذي يقرض مدينتنا الحالية ويهددها بسقوط سريع جداً ؟ وإن شئت فقل بانحطاط لا دواء له . انتهى . هذه أقوال أصحاب الدار ولكن أنى لها أن تصل الى الواقفين مع الظواهر ، وخصوصاً هذه الظواهر الفتانة .

يخيل لمن يكتب في المواضيع الاجتماعية عن شعوره الذاتي بغير علم أن جميع المسائل تابعة للقانون المنطقي والاستحسان الشخصي ، فتى رأى رأياً وقدره بنظره لم يجد أمامه بعد ذلك أدنى صعوبة في جملة مبدأ له يصح أن يدلي به الى الناس كأصل من أصول الحياة . فما المانع بعد ذلك في رأي الكاتب من أن يأخذ به الناس ويعملوا به مندفعين ؟

هكذا يخيل لمن يكتب في المسائل الاجتماعية عن شعوره الخاص بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ولو حقق النظر واخترق غلف المظاهر المحيطة به وعرض أمام عينيه حالات الاجتماع بعواملها المتراكبة وبواعثها المتشعبة للبيئة الاجتماعية وهي

في حالة تدافع وتفاعل لهاله ما يرى ، ولو وقف حيث هو ، يتطلب من الله بصراً نافذاً يهديه الى العلل الأولية للأشياء والى العوامل المهيئة لها .

قلنا إن للمرأة مسألة حياة في كل أمة ، فهي في أوروبا وأمريكا كما أثبتنا هنا عبارة عن شكوى الرجال من افراطهن في التبرج وتطلعهن للشغل بالأمور العامة ، وتخوفهم من انحلال هيئاتهم الاجتماعية بما يستتبع ذلك من الاعراض . ولم أعرج فيما كتبت على ما يجأرون منه من فساد الأخلاق وشيوع الخزيات ، فان لهذه المسألة في بلادنا موضوع آخر : وهو شكوى الرجال من انحطاط النساء في المعارف ووقوعهن بذلك في آصار الأسر والاستعباد ، وما يستتبع ذلك من قلة اقبال الشبان على الزواج لندرة الاكفاء منهم ، ويلقي بعض المكاتبين تبعه ذلك كله على الحجاب فالحجاب في اعتقادهم صاد للمرأة عن العلم ، مسقط لها تحت كلاكل الرق ، مفسد لأخلاقتها الكريمة ، مانع من رؤية الخاطب لخطيبته أو معاشرته لها قبل الزواج . فهو مجتمع الأزراء ومثار كل بلاء ، ولو زال الحجاب في يقينهم أصبحت عالمة بما لها وما عليها ، محصلة على تمام حريتها أزاء الرجل ، أدبية مهذبة منزهة عن الأهواء . وفوق ذلك تصبح عرضة للخطاب فيتهافت على طلبها الشبان ويستطيعون أن يعاشروها قبل الزواج فيقترب بها من يهواها عن يئنه واختبار ، فيعيش معها عيش السعداء كما يعيش الاوربي مع امرأته ، خالي البال من المنغصات فارغ الصدر من الكمدورات فيعدم الطلاق أو يقل كما هو في أوروبا .

ثم يكون من أثر هذا الانتقال البديع اقبال الشبان على الزواج ورواج سوق المصاهرات ، فلا يعود الشرق يشكو من انتشار العزوبة ، كما لا يشكو منه الغرب الآن . هكذا يقولون .

أكل هذه المسائل الخطيرة سببها هذا الحجاب الشفاف الذي يشبه اللثام الذي تضعه الآن الاوربيات المغاليات بحب الظهور بأقصى حد من الجمال ؟

ما الذي يمنع أن يكون الحجاب في نظر باحثنا الشرقي علة كل هذه

الأرزاء ؟ لا شك عندنا أن هذا النظر القصير من بعض الكتاب . وهذه الخفة المتناهية في تقدير المسائل الاجتماعية سيكون لها نتائج وخيمة جداً على مجموعتنا الاسلامي إن لم يسرع أهل الذكر بالوقوف أمام تيارها ، وإن هذه المسائل الخطيرة ما دامت متروكة لأقلام السطحيين من الكتاب فلا ينتظرون منها إلا أسوأ العواقب على العفاف والاعراض ، وإني أعرف أن الذين يطرقون هذا الباب هم من الشبان الذين ليس لهم زوجات ، وإن ليس المقصود بهذه الحركة الشؤون خلع النساء للحجاب فقط بل المقصود منها أمر وراء ذلك وهو تسهيل سبيل مخالطة النساء للرجال ، ولا ندري ما الذي رأه غيرنا من وراء هذه المخالطة حتى نحف لتقليدهم فيها بدون نقد ولا تدبر ولا استبصار ؟

يقولون إن الحجاب يصد المرأة عن العلم ، وهو ادعاء يكذبه العيان فإن المرأة لا تنقب إلا في الطرقات وليست الطرقات بمجامع العلماء ولكنها مضطرب الفساق ومزدهم الغوغاء .

يقولون : إن الحجاب يفسد الأخلاق وهو ادعاء ادخل في الخطأ مما سبقه ، فهذا الحجاب إن لم يمنع الفساد بتاتاً فهو من أكبر موانعه لمن ينظر بعقل وانصاف وهل يجبل المعادون للحجاب أن أكثر الفساد لا يتأتى إلا من اختلاط الرجال بالنساء ؟ إن جهلوا ذلك أو تجاهلوه تركناهم وشأنهم فليس علينا إلا البيان وما علينا أن يرضى المتعنتون من خفاف الأقلام .

يقولون الحجاب يسبب كثرة الطلاق لعدم تمكن الخاطب من رؤية خطيبته بسببه ، وهو قول من لم يبحث عن حقيقة الأسباب ، ولو كلف هؤلاء الباحثون أنفسهم بالتنقيب عن العوامل الأولية للطلاق لوجدوا أن تسعمائة وتسعة وتسعين حالة من أحوال الطلاق في كل ألف سببها الشقاق البيتي الذي يسببه في أكثر الأحوال الرجال بسوء سيرتهم نحو نسائهم ، ولتطلعهم الى سواهن ممن قابلوهم في الأسواق ولا نظن أن في كل ألف حالة واحدة يطلق الرجل امرأته لعدم الاستحسان .

يقولون الحجاب هو سبب كل هذا الطلاق ، لأن الرجل لعدم إمكانه معاشره المرأة قبل زواجها يجهل أخلاقها تمام الجهل فإذا اقترن بها وجدها على ما لا يرام فيطلقها . وهذا قول بعيد عن الصواب ، لأن الانسان لا تظهر أخلاقه كما هي في الخلوات والجلوس في المقاهي وخصوصاً إذا كان وراء ذلك الزواج فيسهل على كل من الزوج والزوجة أن يتصنعا الكمال ويتكلفا محاسن الحصال لئيم المراد . ولو كان هذا النظر من خصوم الحجاب صادقاً لبطل الطلاق عند الاوربيين والامريكيين وهو لديهم آخذ في الازدياد .

قال الكاتب الامريكي « لوسون » في كاليفورنيا من المملك المتحدة (حصل في ألفي زواج سنة ١٨٩٧) ٦٤١ طلاقاً أي في كل ثلاثة عقود طلقة واحدة (قال الكاتب عقب هذا الاحصاء بالحرف الواحد : « فالطلاق ينتشر اذن للدرجة القصوى ، والمدهش أن ثمانين بالمائة من طلبات الطلاق آتية من النساء مما يثبت أن ليس للرجل إلا دور ضعيف في حل عروة الزواج ، ذلك لأن الطلاق ينجله جديداً ، ولذلك نراه إذا تعب من امرأته يبحث عن سواها ولا يسعى في انفصاله من الأولى إلا إذا طالبتة الثانية بالزواج » .

نقول ماذا يقول أصداد الحجاب في هذه الاحصاءات ، فهل كثرة الطلاق في امريكا هي من رزايا الحجاب ؟ والمرأة الامريكية أكثر نساء العالم حرية وانطلاقاً من القيود .

آلهم إن هؤلاء الكتاب يكتبون بلا علم ويتفلسفون بلا اطلاع ، وإن بعض الجرائد تنشر مقالاتهم بلا نقد ولا تمحيص . فآلهم القارئ أن يدركوا هذا الضعف فيهم فلا يرفعوا بما يكتبون رأساً ، وإلا أضلوا عبادك إنك بالناس رحيم . يقول هؤلاء الكتاب إن العزوبة تنتشر في العراق ولا سبب لها إلا اضراب الشبان عن الزواج مخافة الاقدام على ما يجهلون ، والحقيقة أن الشبان في العراق

يتأخرون عن الزواج ليتسع لهم الوقت لاصطياد فريسة واكتساب مغنم ، فليس لأكثرهم هم إلا الزوج بالمثرات ، فترى أحدهم لا يزال يتحرى مواقع الثروة غير مفكر في كمال ولا جمال حتى يعثر بمطلوبه فيعمل كل ما في وسعه للزوج بها ، وهي تأبى أن ترضاه لطعمها فيمن هو أغنى منها فحدث ما تراه من قلة الاقبال على الزواج وهناك سبب آخر ساعد كثيراً على انتشار مبدأ العزوبة وهو شيوع الفحشاء في البلاد وسهولة انبائها سرراً وعلانية ، وهذا المبدأ بكل علله ومعلولاته احدى هدايا المدنية الاوربية التي نسجت بها مع علومها وآدابها ، ليس سببه هذا الحجاب الشفاف كما يذهب اليه المفتونون يدع الحياة الغربية المادية .

كتب العمراني الخطير (جيوم فربرو) في مجلد سنة ١٨٩٥ من (مجلة المجالات) الفرنسية ما يأتي : (إن العلامات المندرة بقرب حلول الازمة النهائية لهذا الشكل من المدنية الذي نعيش فيه كثيرة جداً (تأمل) بحيث لا يمر يوم حتى يقف الباحث على انذارات جديدة فيه ، فلنعط نحن أيضاً أنفسنا وظيفة الطبيب ولنقدر ما شخصه الأطباء من هذا المرض الاجتماعي في زماننا هذا بدرس هذا الشكل الجديد من الرهينة التي هي مع عدم استنادها على دين تهددنا بأنها ستصل الى الحد الذي وصلت اليه الرهينة الدينية في زمن من أزمنة القرون الوسطى) .

وكتب الكاتب الأمريكي المشهور (لوسون) في المجلد الخامس والعشرين من مجلة المجالات الفرنسية احصاءً عن الطلاق بأمريكا بلد الحرية السنوية المطلقة بناء على طلب المجلة نقطف منه ما يأتي قال : (سجلت المحاكم في ولاية (ماساشوزيت) من ولايات الممالك المتحدة ١٠٢٢ ورقة طلاق سنة ١٨٨٤ بعد أن كانت في السنة التي قبلها ٧٧٠ فقط أي أن الطلاق أخذ في الازدياد بسرعة) .

أما في مملكة « اوهيو » من تلك الممالك المتحدة فقد سجلت المحاكم سنة

« ١٨٦٥ » ٢٢١٩٨ زواجاً حدث فيها ٨٣٧ طلاقاً أعني أنه وقع في كل ٢٦٠٥ زواجاً طلاق واحد .

وأما في سنة ١٨٩٤ أي بعد مضي ٣٥ سنة فقد سجلت المحاكم ٣٣٨٥٨ زواجاً وبلغ الطلاق ١٧٥٣ أي أن في كل ١٢٠٥ زواجاً وقع طلاق واحد . وقد شوهد أن عدد الطلاق فيها في مدة عشر سنين بلغ زيادة عن معدله بمقدار ١١٠٠٠ ونقص الزواج عن معدله ٨٤٠٨٩ .

يعلم النساء والرجال بالتجربة وفي كل بلد أن تلك العقبات التي تحول دون الزواج تزداد يوماً بعد يوم ، وأن هناك أسباباً لا عدد لها - اقتصادية على الخصوص - تقف في طريقه حتى أن كثيراً من الناس لما يتسوا من إمكان تذليلها صبروا على العزوبة بكل وسعهم . ثم قال :

وقد ابتدأ علماء العمران يشعرون بوخامة عاقبة هذا الأمر المنافي للسنن الطبيعية فإن عامة النسوة بمزاحمتهم للرجال صار بعضهن عالة على الهيئة الاجتماعية ، لا يجدن ما يشغلن به . ولودام الحال على هذا المتوال لنشأ عنه خلل اجتماعي عظيم وقالت مجلة المجالات الفرنسية في المجلد الثامن عشر : في فصل عن المرأة ما يأتي :

إن الزواج الذي كان آباءنا يعتبرونه ضرورياً يظهر أنه قد صدم صدمة شديدة في كل جهة ، فإن الرقي العقلي الذي نالته المرأة وامتداد حقوقها يوماً بعد يوم وغرامها الشديد بمساواتها الرجل في حقوقه وافرطاته كل ذلك يهدده دركاتنا التي ورثناها على الزواج . ثم قالت المجلة المذكورة : « إن رفض الناس للزواج وميلهم الى الطلاق هما الأمران اللذان ينتشران يوماً فيوماً في أمريكا وفي كل الممالك الأوروبية . ثم إن كل هذه الاعتصابات النسوية تشعر بمرض يجب أن يتنبه اليه المتشرعون » انتهى .

نسبوا للحجاب إضراب الفتيان عن الزواج في العراق وهذا الإضراب في الحقيقة عرض من اعراض هذه المدنية الاوربية ، فعزوا المعلولات لغير عللها الحققة واستهتروا في ذلك استهتاراً فقدوا معه أدب السكاتب وأدب الاجتماع معاً ، فأضروا بمبدئهم من حيث يريدون إذاعته .

إن هؤلاء غلوا في أوهامهم غلواً بعيداً فعزوا لتكشف النساء كل آثار الترتية والتعلم والآداب الصحيحة ، وغاب عنهم أن فلاحات العراق وبدويات القفار وزنجيات افريقيا متكشفات وهن مع ذلك محرومات من كل ثمرات الحياة الصالحة ، وراسفات في أثقل قيود الأسر والعبودية لرجالهن ، فلماذا لم يؤثر تكشفهن على حالتهن الاجتماعية فتحفف من وطأة النوازل عليهن ؟ .

إن الاختلاط بين الجنسين إذا كان له أثر على حالة النساء فلا يكون إلا في تدنيس طهرهن وافساد فطرهن ، وتسهيل سبل الفسق والفجور على الرجل وعليهن مساكين أولئك السكاتب السطحيون ينظرون للسراب فيحسبونه ماء فيملؤون الدنيا صياحاً بالدعوة الى ورده ولو أنبأهم الناس لما حصلوا على شيء . يقولون بمخالطة النساء للرجال يتمكن الخاطب من رؤية خطيبته ومعاشرتها فيعجم عودها ويخبر خيمها ، فما أعجب هذه الآراء وما أبعداها عن العقل ! .

إن نتيجة هذه المعاشرة في أوروبا قد سببت من المفاسد الاجتماعية ما لو أردنا احصاء بعضه لزمنا كتاب خاص .

منها خدع الفساق من الرجال للنساء فترى أحدهم يتصدى لشابة فيوهما أنه يريد الزواج بها ، ويظهر لها من الانعطاف والميل ما يخلب لبها ، فإذا آنس أنه تمكن من قلبها عاشرها معاشرة الأزواج فتلد منه ولداً وأثنين وثلاثة ثم يهجرها بأولادها هجراً غير جميل ، فلا تجد هذه المسكينة ذات الأولاد حينئذ وسيلة للخلاص اسهل من الانتحار . فان كنت في شك فانظر الى ما تقوله الاحصاءات .

جاء في المجلد الحادي عشر من مجلة المجلات الفرنسية : أنه حصل في إيطاليا من سنة (١٨٨٩) الى سنة « ١٨٩٣ » أي في مدة خمس سنين « ٥٦٩ » انتحاراً من جهة النساء ، وحصل في فرنسا في تلك المدة عنها « ٥٨٦٩ » سادثة من ذلك أي أنه ينتحر في فرنسا كل سنة نحو ألفي امرأة وهو عدد ليس بالقليل لمن يتأمل .

لو كانت هذه المعاشرة قبل الزواج تضمن دوام الارتباط الزوجي أو تقلل الطلاق لكان الطلاق باوربا نادراً ، وقد رأيت أنه أخذ في الانتشار بسرعة مدهشة . وهناك أمر جدير بالنظر وذلك ان النخوة الرجولية في أوربا أرقى منها في البعض ، فإذا كان يسهل على جمهور من العراقيين أن يروا بأعينهم مداعبة تحدث بين فاسق وفاسقة على قارعة الطريق فلا يغضبون .

فان مثل هذه المخازي في فرنسا وانكثرتا مثلاً مما لا يتصور حدوثها على مرأى المارين والجالسين ولا البوليس الموكل بالآداب . فإذا شاع عندنا الاختلاط بين الرجال والنساء غلبت مبادئ الفساق على تصون الفضلاء وأصبحت بلادنا مسارح يمثل فيها الفجور عياناً .

إن بعض العواصم الاسلامية تساهلوا في أمر الحجاب فنشأ فيهم من أنواع الخنثى ما لا يغيب عن ذهن القراء ، فما من بيت إلا ويجاوره أو يحاذيه بيت عامر بالخلاعة مقفر من الكرامة .

هذا اللين المتناهي عيب من العيوب ولا سبب لشفائنا منه إلا بعد أجيال ، فإذا اختلط النساء بالرجال ونحن متلبسون بهذه النقيصة زاد الطين بلة وقضينا بأيدينا على البقية الباقية من الآداب .

أنا لست ممن يذهب الى أن المرأة أميل من الرجل الى الفسوق ، بل أنا ممن يعتقد أنها أقرب للطهر والكمال وأكثر تمسكاً بأذيال العفاف من الرجل ، وأعتقد من جهة أخرى أن الحجاب فيه شيء من الحبس لحريتها ولكن ما الحيلة إذا كان

هو الضمان الوحيد لعدم الاختلاط الذي وراءه كل ما ذكرناه من الآفات ؟ وكم في الحياة من قيود وأغلال نضعها في أرجلنا مضطرين إذا كانت الحياة تقتضيها أو كان من ورائها الخلاص من بلاء مبین .

المرأة في الاسلام

وهي الشطر الأكثر والنصف الأوفر من المجموعة البشرية ، ولها حقوق ولها واجبات وعليها مثل ذلك ، وقد عنيت الشريعة الاسلامية بها عناية فائقة ، وأعطتها من الحرية ما لم تعطها ملة من الملل ولا دولة من الدول ، ولها في الكتاب الكريم سورة باسمها خاصة من كبريات السور « سورة النساء » مقدمة على « المائدة » ، بل ربع القرآن أو أكثر في أحكام النساء ، الإيضاء بالعطف عليهن ورعاية حقوقهن وتحريم إعضائهن وإيذائهن أو أخذشيء منهن دون رضاهن أمّا تارة وزوجة أخرى واختاً ثالثة ومطلقاً رابعة ، وجعل لمن من الحقوق مثل ما للعنصر الآخر فقال تعالى : « ولهن مثل الذي عليهن » (١) .

أما صاحب الشريعة فقد جاء بأوسع من هذا في حقهن فجعلهن وذائع الله وأماناته وقال : (إنها حبيبة نفسه من الدنيا ، وقرنها بالصلاة وهي قرّة عينه ، وكان يحد المرأة أعظم الحق ، كيف لا وأول من نصره على نشر شريعته وقبول دعوته وبذل النفيس بل والنفس في سبيل نصرته هي المرأة الصالحة الجليلة والعاقلة النبيلة

ذات الثروة الطائلة التي تتجر بأموالها قريش كعمال عندها ، تلك التي كان النبي (ص) يحن إليها كلما ذكرها ، بل ربما كان يبكي تلهفاً عليها ووفاء لها ويقول : نصرتي حين خذلني الناس ، وآوتني حين طردني الناس ، الى كثير من أمثال هذا مما يشهد بأن الشريعة الاسلامية وشارعها الأعظم قد جعل للمرأة أسمى مقام وأعلى منزلة في المجتمع . ولا نريد أن نستوفي هذا الموضوع - كما هو - حقه . ولو أردنا أن نعطيه حقه لزمنا أن نؤلف كتاباً يستوفي ذلك ، وإنما ذكرنا هذا من باب التمهيد والمقدمة والذي نريد أن نقوله : إن الله سبحانه حين بره الخليفة ونشر البشر على هذه البسيطة جعل الانسان يحتاج بعضه الى بعض ، ولا يمكن أن يقوم بكل شؤونه بنفسه منفرداً كما تعيش البهائم والوحوش في الغابات والصحاري ، فهو اجتماعي في الوضع مدني بالطبع كله يقوم بحاجة كله ، ولذلك جعل الأعمال بين البشر موزعة ، والوظائف على الكل مجتمعة ، لكل من الجنسين أعمال تخصه ، لا يجوز بل لا يقدر أن يتعدها ويتجاوزها الى غيرها . فكما جعل من خصائص النساء بالفطرة والغريزة الحمل والولادة والرضاع كذلك خصها بأكبر عمل وأشرف وظيفة وهي التربية . نعم جعل النساء للتربية تربة طيبة تنثر فيها بذور البشرية فتتميمها وتربيتها حتى يشتد عودها وتمتد غصونها وتثمر الثمر الطيب الحني ، جعل النساء معملًا جباراً ينشيء الأطفال ويربي الرجال وينتج في الفتيان والفتيات والاخوة والأخوات .

وهذا المعمل الكبير الذي أوجده الحكيم القدير هو الذي بصلاحه تصلح المجموعة البشرية وبفساده تقسد الانسانية ، كما أن بفساد الأرض والتربة يفسد نباتها وبصلاحتها يصلح ربيعها ويطيب زرعها . وأول مدرسة للأولاد والبنات حضن الامهات ، وبمقدار ما عندها من الكمال والنجابة والفضيلة أوفساد الأخلاق والسقوط في الرذيلة يكون لذراريها ويسري الى بناتها وبنيتها ، وعلى ما تعطيه من روح الطموح وعلاهمة وشرف النفس ينشأ الولد ، وبذلك التوجيه الأول يعظم أو يصغر

ويجذب أو يطهر . وما أجود ما قيل : « إن التي تهز المهد يمينها تهز العالم بشمالها » كانت في العرب مربيات صالحات نجيبات يغرسن في نفوس الأطفال بذور الأخلاق الفاضلة قبل أن يسقط في حماة الرذائل القاتلة (والتعليم في الصغر كالنقش في الحجر) .

كانت الأم تنهى ولدها وهو ابن خمس سنين عن الكذب والسرقة وأمثالها وتضرب له الأمثال الصالحة والحكايات المنفرة له عن ذلك ، وتروي له أمثال قصة الولد الذي سرق وهو صغير بيضة من داره أو من بيت جاره فعلمت بذلك أمه فلم تردعه ، بل ربما جذبت له قتمادى في هذه الخصلة السيئة حتى سرق خزانة الملك وتكرر ذلك منه حتى حكم عليه بالشنق ، فلما أوقفوه لدى المشنقة سألوه ماذا تريد ؟ قال : احضروا لي أي ، فلما أحضرت قال لها : أخرجي لسانك ، فعضه حتى كاد يقطعه ، وقال هذا هو الذي أصارني الى هذا المصير ، ولو انك أنكرت علي يوم سرقت البيضة ولم تجبدي لي لم أقع بهذه الجريمة .

وتروي لطفها - التحذير من الكذب - قصة العبد الكذاب الذي ألحق الفتنة بين قبيلتي الزوج والزوجة حتى تقاتلا وأريقا الدماء بينهم . مضافاً الى ما يجتهدن فيه من تلقيح أذهان الصبيان بالعقائد الحققة من التوحيد والنبوة وتعليم احكام دعائم الاسلام ، كالصلاة والصيام والنظافة والنظام . وهذه هي الوظائف والأعمال التي خص الله بها النساء . فقد جعل لها البيت وإدارة البيت وتدير المنزل والبيت كله عو الدنيا كلها ، وهل الدنيا إلا البيت والأسرة التي تتكون من البيت وتنشأ في البيت وبترية ربة البيت ؟ .

البيت للمرأة وعلى المرأة ، وخارج البيت للرجل وعلى الرجل . أساس الدنيا كلها المرأة وسياسة الدنيا كلها للمرأة ومن المرأة ، قل لي بربك أي وظيفة أكبر من هذه الوظيفة وأي مهنة أسمى من هذه المهنة الشريفة ؟ .

تريد المرأة أن تأخذ أو تعطى حقوقها السياسية ، فهل تريد أن تكون مديرة ناحية أو حاكمة إدارية وما الى ذلك ؟ والباري جل شأنه يريد أن تنشئ مدراء صالحين وحكاماً إداريين صحيحين .

تريد المرأة أن تكون عيناً من الأعيان أو نائبة من النواب ، ونحن نريدها ترق ما تفتقه المجالس النيابية ، وتفتح ما تغلقه النوادي العينية .

تريد هي أن تدخل في معامع السياسة وزوابع الرياسة ، وهل السياسة اليوم إلا الخداع والمكر والكذب والغدر وخيانة الامة والمساومة على الوطن وخدمة المستعمرين والتمرغ على اعتاب الظالمين ؟ وفيها يقول داعية الحق ابن عبده (ره) :
« لعن الله الساسة والسياسة وكل ما يشتق منها » .

أفسدت السياسة عقول الرجال وهو العنصر الصلب الحصيف فكيف لا تقسد النساء وهي العنصر اللطيف الذي يعبر عنه بالقوارير لرقته ولطافته ، وسرعان ما ينصدع ويتأثر ولأول صدمة ينثر وينسكس .

آيتها الحرائر النجيبات المهذبات البقيات على أنفسكن لا تدخلن فيما دخل فيه الرجال من التكالب على الكراسي والوظائف والتهالك على هذا الشرف الزايف ، وقد شاء الله لكن المقام الأسمى من الخدمة في تدبير المنزل وتربية الأولاد . وإذا أردتن التوسع في الخدمة للمجتمع وتكوين الاسرة فأماكن مجال واسع للعمل ، ولعل من أعظم الاعمال الصالحة والخدمة الانسانية عموماً ولأخواتكن - من الجنس اللطيف خصوصاً - أن تهضن نهضة جبارة لتطهير النساء من سورة العهر والبغاء ، انتشلن تلك الفتيات التي أسقطتها الصروف والضروف في مهاوي تلك المهالك وسلمكت بها أرذل المسالك ، فقد فسدن وأفسدن جمهرة من الشباب وقذفهم في أوبئة الامراض الفتاكة . أليس تشكيل الجمعيات وعقد المؤتمرات لمعالجة هذه الموبقات أنفع وأرفع من المطالبة بالحقوق السياسية والدخول في المناصب الادارية والقضائية ؟ .

فسد الرجال وانغمسوا الى اذقانهم بكل رذيلة ، وما كفاهم ذلك حتى سحبا النساء وأشركوهن معهم ، فصرن يشربن المسكرات ويرقصن في الحفلات ويلعبن القمار ويركبن العهار وكما يستعمل الرجال بعضهم بعضاً استعملت النساء ذلك فيما بينهن فاذا كانت هناك نساء صالحات طاهرات تريد الخدمة والنفع العام فليطهرن الجهاز النسوي من هذه الجرائم المهلكة التي انتشر شرها وعم ضررها . من الواجب على كل أحد من أبناء هذا الوطن المحبوب أن يتيقظ من سباته ويتنبه من غفلته فيسير برعيته نحو النهج القويم ويدعوهم الى التمسك بالفضيلة ، فانهم مسؤولون عن ذلك ، يقول صلى الله عليه وآله : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » .

« فلو لا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد » (١) . أما البقية من هذا القرن فهم يأمرون بالفساد يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، والحكومة بجميع طبقاتها من رأسها الى ذيلها تمدهم وتساعدهم ، كيف لا وكل هذه الفظائع والفيجائع والجرائم والمآثم التي ترتكبها الامم الاسلامية هي قررة عين المستعمر وأعظم شرك له في استعبادهم وامتلاك بلادهم . هذه الخمر والملاهي التي شاعت في بلادنا أكثر مما هي في بلاده يسلب بها عقولنا وأموالنا ويفسد بها أجسامنا وأحلامنا .

أيها النسوة المثقفات الرقيقات الشفيفات أما تأخذكن الشفقة والرقّة على هذه الامة التي تصنع بأنفسها مالا يصنع العدو بعدوه ، ألا تتفجعين وترثين لما أصاب هذه الامة من البلاء الذي تجنيه على نفسها ؟ ! .

وهل هذه الامة إلا أبوك أو أختك أو ولدك أو أم لك ، يا هل ترى لو أن احداً كن رأيت أختها والنار قد علقت بأذيالها أفلا تمزع وتجتهد لاطفاء تلك النار مخافة أن تحترق . وها هي الشعوب العربية قد أصبحت في آتون من الرذائل ومن

المستعمرين تحترق فيه ولا تحس ولا تشعر (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) « ١ »
كانت الآباء والامهات يجتهدون في تربية أولادهم من الصغر على الآداب
والأخلاق الفاضلة والعفة والنزاهة . أما اليوم فعلى العكس المطرد ، وإذا نشأ الفتى
أو الفتاة ورأى أباه وامه يدمنون على معاقرة « الويسكي » و « البيرة » وأخواتها
ويسكرون ويقامرون ويتراقصون رقص القروذ فإذا يكون حال هؤلاء الأطفال ،
وكيف يكون مصيرهم ، وهم ودائع الله عندنا وأمانته لدينا ونحن مسؤولون عنهم
ومحاسبون عليهم ؟ .

أفليس من المؤسف - بل المثلث - أن تقوم جمعية النساء والامة بمثل هذا
الحال الشائن فتطالب بحقوقها السياسية ، ولا تجتهد في نيل حقوقها الأخلاقية
واصلاح أحوالها الأدبية . أما السياسة فأقول ولا برحت أقول : « إنها جرة نار
أحسها ولا تمسها ، نار أراها ولا أغشاها ، وأريد أن أضرب لكن مثلاً أيتها
الحرائر النجيبات تأخذن منه درساً للعظة والعبرة » .

كان في صدر الاسلام وبدء إشراق أنواره على العالم امرأة من النساء
الجليلات التي تحتل أسمى مركز في الاسلام لما لها من الصلة الوثيقة والرابطة
الوشيجة بصاحب الشريعة وقد أحاطها سيد الأنبياء بهالة من التكريم والجلالة ونشأت
في بيت الوحي والرسالة وسميها الذكر المدين وصعد صفات قلبها قائلاً : (يا نساء
الذي لستن كأحد من النساء وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) « ٢ »
وأنذرها النبي وحذرّها غير مرة أن تزلق في تلك المداخل وتقع في هوة تلك
الحفائر قائلاً : « أيتكن تبجحها كلاب الحوآب » . ثم التفت إليها قائلاً : « لا تكونيها
أنت يا فلانة » . ومع كل هذه القوارع والاندازات استهواها بعض الرجال لما ربهم

« ١ » سورة الحجر الآية ٧٢ .

« ٢ » سورة الاحزاب الآية ٣٢ - ٣٣ .

وساقوها وسيلة لأغراضهم وأركبوها جملاً يسمى « العسكر » ، وسأقت الجنود والعسكر فغلطت تلك الغلظة الشنعاء التي أحدثت أول معركة في الاسلام تقابل فيها جيشان من المسلمين ، وقاتل كل منهما الآخر حتى أريقت الدماء ، وراحت ضحية هذه الغلظة زهاء ثمانين ألف من فوارس المسلمين ورجال الفتوح الاسلامية وخيرة أصحاب النبي «ص» منهم طلحة والزبير (وهما ما هما وما أدراك ما هما) .

وهذه الحادثة المشؤمة هي التي فتحت باب محاربة المسلم لأخيه ، وسنت حروب أهل القبلة وقتال المسلمين بعضهم مع بعض ولم يكن قبل ذلك ، ثم تسلسلت الحروب الاسلامية من ذلك اليوم حتى تطاحن المسلمون في حروب دامية ومجازر ذهب بها من أبطال المسلمين وشجعانهم في ثلاث سنوات أو أربع أكثر من مائتي ألف فارس عدا ما هلك من الاموال والنساء والأطفال .

ولو ان هذه العدة والعتاد توجه الى خارج الثغور الاسلامية لاستولى المسلمون على كل هذه السكرة برها وبحرها وأرضها وسماؤها ، ولكن تدخل المرأة في معمران السياسة هو الذي أوجب هذا الخسران العظيم والضرر الفادح على المسلمين في الاموال والأنفس والثمرات . هذا وهي تلك المرأة السكاملة زوجة أكرم نبي وبنيت أكبر خليفة نشأت في بيت النبوة وارتضعت من افويق الفتوة ، فما ظنك بغيرها من النساء الواهونات لو دخلن في دهايز السياسة المظلمة الملتوية ولججها العميقة وفلواتها السحيقة فكم يكون لها من الاخطاء والاغلاط والفتوق التي لا يمكن رتقها ؟ .

نعم سارت تلك الامراة الجليلة ضحيمة رسول الله (ص) وحيبة خدره ، سارت أو سيرها من الحجاز الى العراق الى البصرة ومرت في أثناء الطريق على ماء أو موضع نبحتها كلابه ، فسألت عن اسمه فقال لها أهله النازلون فيه اسمه : « الحوآب » ، فذكرت كلام الصادق الأمين لها ورأت بعينها صدق نبوته ، فارتعدت فرائصها وعزمت على الرجوع ، فدبر المسير ون لها شاهدين شهدا أن هذا ليس

هو ماء الحوآب ، فكانت أول شهادة زور حدثت في الاسلام . وغلب عليها خور الطبيعية وضعف العزيمة اللتان هما جبلة في النساء غالباً ، فصدقت سمعها وكذبت بصرها ونسيت المثل المشهور (ليس الخبر كالعيان) ، واستمرت على سيرها حتى وقعت الواقعة ، وكان المسيبون لهذه الفتنة والذان أشعلوا نارها أول أضحيتين أو جزورين نحرا فيها ، وصح المثل (من حفر بئراً لأخيه أوقعه الله فيه) .

ونظم شعراء ذلك العصر ما جريات هذه النكبة المفجعة واستذكروا أن تسعى الام لهلاك أولادها ، ويخطر على بالي أن الجاحظ روى في كتاب الحيوان يدين بديعين للسيد الحميري وهما :

جاءت مع الاشقين في هودج تقود للبصرة أجنادها
كأنها في فعلها هرة من جوعها تأكل أولادها

وليس من غرضنا شرح هذه الحوادث المؤلمة وأسبابها ونتائجها وويلاتها ، وإنما الغرض بيان حال المرأة وتدخلها في السياسة .

ولا أظن أنه يوجد شاهد صدق على فشل المرأة واخفاقها في السياسة كهذا الشاهد ، وكـم هناك من شواهد أخرى على ذلك لا مجال لها في هذه الجملة المترجمة والكلمة المقتضبة ، ونحن نحترم تلك المرأة الجليلة ونجلها ونقول « لأجل عين الف عين تكرم » .

وجل الغرض بل كله ، بيان ما جبلت عليه طباع المرأة من الميل مع العاطفة وانها سريعة الاعتقاد سهلة الانقياد سليمة النفس مرهفة الحس وشيكاً ما تتخذ وسرعان ما تنصدع ، وما كان سبب واقعة الجمل السيئة التي تقطعت فيها على خطام ذلك البعير الأديب عشرات الألوف من الاكف والأيدي سوى من قتل حوله الى أن عقرا الجمل وسقط الهودج ومن فيه ، هنالك وضعت الحرب أوزارها وأطفأ الحق نارها . وما كان سبب كل هذا إلا الانخداع وسرعة التأثر والانطباع ، فأودت

بأرواح صناديد الاسلام وأبطال المسلمين ضحية الاطماع ونتيجة الخداع ، وهذه هي التي أوقدت حجرة الغيظ والألم العميق في احشاء أمير المؤمنين سلام الله عليه ، فوصم النساء بأنهن ناقصات العقول ناقصات الايمان ناقصات الحظوظ . ولا شك أن هذا الكلام منه سلام الله عليه ليس على اطلاقه وعمومه ، وإلا فكم من امرأة يفوق عقلها عقل عشرين رجلاً أو أكثر من القديمات قبل الاسلام أو الحادثة بعده وكم امرأة مؤمنة إيمانها أقوى من إيمان ألف رجل وحظها أوسع من حظوظهم . أما نقصها في الارث وفي الشهادة فهو تكريم لها وتعزيز لا تحقير وتنقيص ، كما ذكرنا وجه ذلك أو نذكره في مجال آخر ، على أن لبعض النساء من الشجاعة النفسية والقوة البدنية مع ما لها من رقة الطبع ولين العاطفة ما يقصر عنه كثير من الرجال . وكفالك شاهدأ حديث صفة بنت عبد المطلب مع حسان بن ثابت وهما في اطام من اطام يثرب وقد رأت يهودياً يريد اقتحام الأطام ، فقالت لحسان انزل اليه فاقبلته خفاف وجين ، فتلثمت ونزلت اليه فقتلته وقالت لحسان انزل اليه فخذ سلاحه واسابه ثيابه فاني امرأة ولا يليق بالمرأة أن تسلب الرجال . ومثلها قصة أم هاني وقد دخل دارها بعض المشركين وكان أخوها علي «ع» يريد قتله فاستجار بأم هاني وهجم عليه الامام ليقتله ، فقبضت على يده تمنعه من قتل من استجار بها ، يقول سلام الله عليه : لما كبست يدها على عضدي خارت جميع قواي ولم أستطع أن أتحرك وأخلص بنفسي منها .

أما الشجاعة الأدبية في النساء وثورتهن على الظلم ونقمتهم على الظالمين فيكفيك حديث النساء الوافدات على معاوية ، وقد استوسق له الملك واتسق له السلطان واستقامت له الامور فصار يطلب كل واحدة من نساء الانصار ممن حرضت عليه في صفين فيدخلن عليه ويقرعن صفاته ويصرعن جبروته ويذكرن ظلمه وعتوه غير مكترئات ولا خائفات . راجع كتاب (بلاغات النساء) .

وانظر واعجب لتلك الشجاعة والبسالة في حين أن الرجال يتمرغون على
 اعتابه ويطول وقوفهم على أبوابه رجاء ثوابه أو خوف بطشه وعقابه ، وإذا شئت
 أن تنظر الى ما هو أعلى من هذا الطراز وأرفع من حقيقة هذا المجاز ، فحول نظرك
 الى مواقف حرائر الرسالة وبنات النبوة والامامة ، انظر الى خطبة سيدة النساء
 فاطمة في حشد المهاجرين والانصار وهي مفعوجة مصابة بفقد أعز الخلق عليها
 وعلى الخالق جل شأنه ، وهي أيضاً شابة لا يزيد عمرها على ثمانية عشر سنة ، تهيب
 بهم ولا تهاب وقد نيّط بينها وبينهم ملاءة ، تقف بذلك الحفل الرهيب وقفة القارع
 الخطيب ، وتلقي عليهم تلك الخطبة البليغة المربحة التي لو جاء بها الرجل الفارغ في
 الفصاحة بعد بذل أقصى الجهد والروية في سنة كاملة لكانت آية في البراعة ومفخرة
 في الصناعة ، ومنها أو أعظم منها خطبة بنتها الحوراء زينب في مجلس ابن زياد
 بالكوفة وهي أسيرة في جمع من النساء والأطفال كلهم أسراء ، وثواكل بغير حام
 ولا كفيل ، أدخلوها عليه وهو ثمل نشوان بخمرتين خمرة الفتح والغلب وخمرة
 ابنة العنب ، جالس على كرسيه بين حشده وجنده ، وهي متسكرة وعليها ارت ثيابها
 فدفعه خبث جوهره ولؤم عنصره أن يظهر الشماتة بها ويتجداها ، فقال من هذه
 المتسكرة ؟ فيقل له هي زينب بنت علي ، فقال لها زينب أرأيت صنع الله فيك وفي
 أخيك والعنة المردة من أهل بيتك ؟ قالت : « ما رأيت إلا جيلاً ، أولئك قوم
 كتب الله عليهم القتل فبرزوا الى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاج وتخاصم
 فانظر لمن الفلج يومئذ شككتك امك يا ابن مرجانة » ، فأحمته بهذه الكلمة التي
 عرفته أنه ابن اللعنا ومن عنصر الزنا ، ولم يحجر جواباً وكان بيده سوط فهم أن
 يضر بها فمنعه جلساؤه .

ثم خطبت تلك الخطبة الخطيرة وهي مسببة أسيرة في ذلك الحفل الحاشد
 بالقواد والاجناد ورجالات الكوفة ورؤساء القبائل والاسباع والارباع ، وقالت فيما

قالت : « إنما يقتضح الفاجر ويكذب الفاسق وهو غيرنا يا بن مرجانة » .
فكر وأعجب ما شئت . انظر الى هذه الشجاعة وقوة القلب وعزة النفس
والاتزان . والأسير غالباً يكون مخذولاً خائفاً مضطرب الجوانح مرتجاً عليه ، فكيف
استطاعت تلك العلوية الطاهرة الشريفة وهي بذلك الوضع الشائك أن تأتي بتلك
السبائك الذهبية ، بل يخس ويخسى الذهب عنها وما قيمة الذهب آزاء تلك الدراري
التي تشع نوراً ولعناً وعظمة وإيماناً و يقيناً واتزاناً .

وأعظم من هذا موقفها في مجلس يزيد « وما أدراك ما يزيد وما مجلس
يزيد » ، ما أدراك ما طاغوته وجبروته الشاب العاتي الظلوم الثمل السكران بسكر
الشراب والشباب وسكرة الملك والسلطان وسكر الفتوح والظفر ، جالس على كرسي
الملك الذي أقام دعائه على حجاج أهل البيت والعترة الطاهرة ، وأدخلت عليه مع
الاسارى من بني علي وفاطمة وهم مربقون بالحبال . نعم أدخلت عليه العقيلة
ورأس الحسين (ع) بين يديه ، ويده مخرصة ينكت بها ثنايا سيد شهداء الآباء
وأب الشهداء ، فصدعت تاج طاغوته وجبروته بتلك الخطبة ارتجالاً التي استهانتها
بالآية الشريفة فقالت : صدق الله تعالى حيث يقول : (ثم كان عاقبة الذين أساءوا
السوء ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن) « ١ » .

أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أطراف الأرض وآفاق السماء ، فصرنا
نساق بين يديك كما تساق الاماء ، ان بنا على الله هوانا وبك عليه كرامة ، فنظرت
في عطفك وشمخت بأفك جذلان مسروراً ، حيث رأيت الدنيا لك مستوسقة
والامور متسقة ، وحيث صفا لك ملكنا وسلطاننا ، فهلاً مهلاً لا تطش جهلاً ،
فوالله ما فريت إلا جلدك ولا قطعت إلا لحك ، وسيعلم من سول لك وممكنك من
رقاب المسلمين بس للظالمين بدلاً وأيكم شر مكاناً وأضعف جنداً . يوم ينادي المنادي

ألا لعنة الله على الظالمين ، الى أن قالت له : (ولئن جرت علي الدواهي مخاطبتك إني لأستصغر قدرك واستعظم توبيخك ، لكن العيون عبرى والقلوب حرى ، فكـد كيدك واسع سعيك وناصب جهدك فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تمت وحيننا ، وهل جمعك إلا بدد وأيامك إلا عدد ورأيك إلا قند) فلم تزل تصب تلك الصواعق على رأس يزيد حتى تركت كثيرته قلة وعزته ذلة وصيرته أحقر من نملة .

ولما طلب الشامي منه أن يهبه إحدى بنات الحسين لتكون خادمة عنده ، قالت : « كلا ما جعل الله ذلك له ولا لك » فقال يزيد : هو لي ولوشئت أن أفعل لفعلت ، قالت : « كلا ، إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا » قال لها : إنما خرج عن الدين أبوك وأخوك ، قالت : « بدين جدي وأبي اهتديت أنت وأبوك إن كنت مسلما يا عدو الله » .

انظر واعجب وفكر ما شئت امرأة أسيرة بين يدي جبار طاغي تقول له في ملأ من وزرائه وقواده وهو على سرير الملك وله السلطنة والسلطان والجنود والاعوان (يا عدو الله) غير مبالية بملكه وسلطانه ولا خائفة من بطشه وطغيانه . أي شجاعة وأي بسالة هذه وأي اقدام وتضحية وهل يوجد في الرجال فضلا عن النساء مثل هذه الشهامة والصرامة ؟ ولله قلبها المصدوع ما أقواه ولله ايمانها ما أشده هذه الخطب الحديدية وكلماتها النارية هي التي سلبت من يزيد تاجه وأسقطت ملكه بأسرع زمان ، بل محقت وأزهقت جميع ما سعى واجتهد له معاوية مدة عشرين سنة في توطيد الملك لولده يزيد وأولاد يزيد ، حتى دس السم للحسن «ع» الذي صالحه على أن تكون ولاية العهد له ومن بعده للحسين «ع» ، ولكن إن بطش ربك لشديد ، أهلك يزيد وقوم يزيد ، وسرعان ما انقرض ملك بني سفيان وصار في قصر المدة كلعقة الكلب أنفه .

والغرض من ذكر هذه الكلمة أن نقول للحرائر النجيات في عصرنا هذا

إننا نتطلب منهن مثل هذه الشجاعة الأدبية ، نتطلب منهن الثورة على الظلم والظالمين واتباع الصرخات على المستعمرين ومحاسبة المسؤولين . نريد أن يؤلفن الجمعيات ويتعاقدن ويتحالفن على نصرة المظلوم ومعاونة الضعيف وتشغيل الأيدي العاطلة وإسعاف المرضى وذوي العاهات . وأعظم وألزم ما عليهن انتشال المرأة من أوضاع الفحشاء وأضرار البغاء والضرب على أيدي السماسرة والعملاء لهذا الداء الويل ومعالجة أمثاله من الأمراض الاجتماعية التي انتشر شرها في جميع الممالك الإسلامية وخاصة في العراق كالمحور وشهادة الزور .

وهذه الأمور هي الجذور الإصلاحية التي يجدر أن تقوم بها الجمعيات النسوية إذا لم ينهض لها الأكفاء من الرجال ، أو يساعدن الرجال في مقاومتها وإبادة لها وإلا فالعاقبة وخيمة ، حكومة غير حكيمة وشعوب ساقطة كالبهيمة ، حكومة تتدمر من شعب وشعب يتدمر من حكومة فكيف تكون العاقبة ؟ .

ألا وإن من أسمى الأعمال الأساسية والسياسية السعي الحثيث إلى الإصلاح ، إصلاح من الرجال والنساء للرجال والنساء وهذه الناشئة الطرية التي سقطت في مداخل الرذيلة بكل أنواعها .

ألا صرخة في الكون يعصف ريحها	فتترك دار الظالمين بوارا
ألا عزمات توقد الأرض جمرة	تصب على المستعمرين أوارا
ألا نهضة ترى رجالا ونسوة	فتملأ أرجاء البسيطة نارا
ألا أمة تحي فتحي بلادها	فتحفظ أوطاناً وتغسل عارا

هدية الذباب

ووقوعه في الطعام

« آية من آيات النبوة ومعجزة من معجزات الدين الاسلامي » .
 رأينا هذا المقال تحت هذا العنوان في مجلة الاسلام المصرية عدد « ٣٦ » من
 سنتها الثانية ، فناسبنا نقله في كتابنا هذا « الجواهر الروحية » لما له دخل فيما
 نتحرّاه ولأهميته الكبرى ونفعه العام .

س - حضرة صاحب الفضيلة استاذي الجليل الشيخ يوسف الدجوي .
 السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد فقد أمر الأطباء بمحاربة الذباب
 وابداء جرائمه لما يشاهد من وقوعه على القاذورات فيحمل منها ثم ينتقل بعد ويقع
 على الوجوه والاعضاء ، وفوق هذا فإنه سبب لنقل العدوى من الاجسام المصابة
 بالحمى الى الاجسام السليمة ، وقد ورد في الحديث الصحيح : « إذا وقع الذباب
 في آناء أحدكم فليغمسه كله ، ثم ليطرحه فان في أحد جناحيه شفاء وفي الآخر داء »
 فأكتب الى فضيلتكم راجياً بيان التوفيق بين ما يرشد اليه هذا الحديث وبين
 ما يقرره الاطباء في خطر الذباب ، ونحن بصفتنا الاسلامية نقبل ونطيع لهذا
 الحديث ، وأرجو أن تتفضلوا بنشر هذا البيان على صفحات مجلة الاسلام ودمتم
 للفضل والعلم .

الجواب :

مقدمة

يتوهم بعض الناس أن العلم قد يعادي الدين ويبيانه ، لأن بعض النظريات العلمية المعروفة لا تتفق هي وبعض النصوص الدينية ظاهراً ، غير أن المتأمل الذي يحقق ويبحث يعلم أن كثيراً من نظريات العلم يطرأ عليها التغيير ، وأن كثيراً من الآراء العلمية التي كان يرى أصحابها أنها هي الثابتة ، والتي أفضى إليها البحث قد أظهرت الاكتشافات الحديثة خطأها وعدم صحتها .

من يتحقق هذا ويعلمه - وهو ما تدل كل الدلائل عليه - يجزم بأن ما يرى من الآراء العلمية في ظاهره مخالف للدين لا يبيانه في الواقع ونفس الأمر ، وأن الصحيح في الأمر هو ما ذهب إليه الدين ، وأن الرأي العلمي هو الذي لم ينضج ولم يستوف الباحثون بحثه .

وإننا نأقول لك كثيراً من الشواهد على ذلك ، ولكنني أحب أن أعلمك قبل كل شيء أننا لسنا ممن يعادي الجديد أو ينكر فضل تقدم العلوم الطبيعية والمكتشفات الحديثة في هذا العصر إلى حد لم يكن يحلم به أهل العصور الأولى . ومن ذا يستطيع أن ينكر ما بهرنا به العلم من فوائد يرتقي بها العمران وعوائد قد عادت بالخير العميم على نوع الإنسان ، ولكن هناك ظاهرة من الظواهر لا تكاد تفارق كثيراً من الباحثين وهي في الحقيقة ظاهرة من ظواهر الضعف الخلقي ، تلك الظاهرة التي لا يكاد الباحث يخلص منها أو ينفك عنها : هي تلك الكبرياء الممقوتة التي تخيل له أنه قد قتل الأشياء بحثاً وأحاط بها خبراً ، فتراه - وما أوتي من العلم إلا قليلاً - يتكلم في كل شيء ويحكم على كل شيء ، حتى أنه كثيراً ما يعتقد أن الخارج عما وصل إليه من النواميس وحدده من القوانين لا نصيب له من الصحة مادام

مجاوزاً دائرة فهمه وحدود علمه ، حتى إذا جاء من بعده ضحك من غروره وهزه بما كان يتبجح به من معلوماته مبيناً ما كان له من زلات وما تورط فيه من جهالات . وقد ترى ذلك الهازيء الساخر قد وقع فيما اعترض به على السابقين ، وكان فوزه فيما استدركه عليهم من أكبر الأسباب لأن يطفى عقله قنزل قدمه ، ولو وقفوا عند ما وصلوا اليه من المعلومات الحققة التي شهد لها الحس وأقرها الامتحان وقام عليها البرهان ولم يمرضوا لما سوى ذلك لسكانوا في أمن من الزلل وعصمة من الخطل ، ولكن طغيان نفوسهم أبى عليهم أن يعرفوا قدرهم أو يندسوا أنفسهم لجهل أوقصور والخلاصة ان من تأمل فيما يتجدد كل يوم من العلم الحديث ويظهر من آن لآخر من أسرار الكون لا يشك في أن العلم البشري لا يزال طفلاً وأن الناس ما أوتوا من العلم إلا قليلاً ، وهذا هو مقتضى الضعف البشري وهو لازم من لوازم وجوده بموجب خلقته وتكوينه .

وبهذا يتبين أن قول المتبجحين من قصار النظر أنهم عرفوا ما يمكن وما لا يمكن ، ظناً منهم أنهم أحاطوا بنواميس الكون ، غروراً يبرأ منه التحقيق العلمي ويستتهزى به النظر الواسع المدقق ، ولنا على ذلك الشواهد الكثيرة والأمثلة العديدة .

١ - لو قال قائل إن الهواء أو الماء مؤلف من عدة عناصر لسخر منه أساطين علماء الطبيعة الأولون ، وعده أكابر علماء الفلسفة السابقون قائلًا بالجهل منابذاً للعلم لا يدري ما يقول ، فانهم كانوا مجمعين على أن كلا منهما عنصر بسيط ، وقد قامت البراهين الملموسة من عهد غير بعيد على أن قولهم هو الجهل ، وان ما سموه علماً ولم يكن محلاً للشك ليس بعلم ، وجدير أن يقذف به في عالم الميتولوجيا وإن شهد أهل زمانهم بأنهم الأخصائيون في ذلك .

٢ - لو واجه أولئك العلماء باحث بأن بعض الفلزات كالذهب عنصر بسيط

للقى منهم أشد الانكار ، والعامّة تكون في جانب المنكرين لا محالة لما يرون فيهم من الزعامة لهذا الشأن ، وقد أصبح اليوم انكار هذا الأمر هو الجدير بأن ينكر ، الى غير ذلك من الامور العديدة التي تجدد بها العلم .

هذا الجسم الانساني كم فيه من جزء كانوا يظنون أنه لا منفعة فيه ثم تبين بعد ذلك أن فيه عدة منافع . وناهيك ما يقولون الآن في الغدد وما اكتشفوه فيها من الأسرار والخصائص ، ولا يزال العلم بأسرار ما أودع الله في مخلوقاته في دوره الأول . ولذلك يقول القرآن الكريم : « سزيرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ولا يزال قوله تعالى : (وفوق كل علم علم) صادقاً « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » حتى تقوم الساعة ، ولا ينبغي أن يتخذ منخذ بكثرته ما ظهر من الآلات الدقيقة كالمجهر (المنظار المعظم) ، فإن المنصفين من أهل العلم لا يزالون يقولون في بعض الحيوانات التي تسبب بعض الامراض انها تحت المجهر ، يريدون أن المجهر لا يزال قاصراً عن كشفها ، وإنما عرفوها بأثارها ، ولا يزال كثير من الامراض مجهول الميكروبات الى اليوم رغم تقدم الابحاث العلمية والتفنن في صناعة الآلات الكاشفة .

وكم من شيء في العقاقير الطبية يعرف تأثيره بعض الأدوية ولا يدري لماذا يكون هذا التأثير ، ولذلك نرى الطب كل يوم في تطور ، حتى لقد قال لي بعض حذاق الأطباء الذين مارسوا صناعة الطب زمناً طويلاً : (إننا اليوم نستخرج أشياء تلقيناها في المدرسة وكانت إذ ذاك هي العلم الذي لا يعول على غيره) . وما يدرهم أن ما هم عليه الآن ستظهر فيه الاكتشافات المقبلة من الخطأ ما ظهر لهم في خطأ من قبلهم ، وقد قرر ذلك غاية التقرير وزير خارجية إنجلترا سابقاً المسيو « بلقور » عند ما رأس مجمع ترقى العلوم البريطانية بمدرسة اكبرج الجامعة أثناء اغسطس سنة (١٩٠٤) .

ولا بدع فبحر عجائب أسرار القدرة الربانية مشحون بالدرر ولا يدرك غوره أحد ولا ينتهي منته الى كل ما فيه ، « وأنى للمتناهى أن يبلغ ما لا يتناهى » .
هذا وإن من الحقائق الفلسفية المقررة الثابتة التي تكاد تلحق بالبداهيات أن هناك فرقاً بين عدم العلم بالشيء وبين عدم الشيء في نفسه ، وإن الأول لا يستلزم الثاني ، وأن عدم الدليل على الشيء ليس دليلاً على عدمه .

وبعد فإذا عرفت ما أسلفناه حق المعرفة وهو الحق الذي لا مرية فيه أمكنك أن تضع يدك على الجواب الجملي ، ومع هذا فلا بأس أن تتكلم بشيء من التفصيل المتعلق بنقط السؤال .

الجواب التفصيلي عما جاء في السؤال : كيف يأمر النبي (ص) بغمس الذباب في الأناء إذا وقع فيه ؟ مع أنهم يقولون إنه خلق من القاذورات وإنه ينقل عدوى كثير من الأمراض .

جوابه إن كون الشيء من القاذورات لا يمنع أن يكون دواءً لبعض الأدواء بل قد يكون نفس المستقذر هو الدواء النافع للعرض الذي يداوى به ، وكيف يستعبد ذلك وكثير من الأمراض يتداوى منها بها أو يكون طريق الوقاية منها بالحقن ، وهل عملية التلقيح للوقاية من الجدري إلا بالمادة المعروفة ؟ وقد استبان حديثاً أن من انجبع الأدوية للأمراض المستعصية الحقن بمادة المرض نفسها ، فياخذون دواء من السائل الخاطي ومن الدم ومن التقيحات . . . الخ ؛ أفلا يكون في ذلك ما يكفي ؟ وكثير من هذه الأدوية ليست من القاذورات فحسب ، بل هي القاذورات أنفسها وقد يكون فيها الجرائم للأمراض الكثيرة ، أفيسلم ذلك للأطباء وينكر على سيد الأنبياء عليه أفضل الصلاة والسلام فلينصف المنصفون .

ومن المجرّب أن لسعة الزنبور تقيّد كثيراً في بعض الاوجاع الروماتزمية ، وقد رأينا من استفاد منها ، وأي قدر أقدر من دم الكلب الكلاب وهو الدواء

المعروف الآن للشفاء من الكلب ، حتى لقد أنشدنا بعض ظرفاء الأطباء قول ذلك الأديب « وداوني بالتي كانت هي الداء » .

وأما الجواب عن السؤال الثاني فإنه : لا غرابة في أن يكون الشيء بعضه سم والبعض الآخر ترياق ، وعدم وقوف الأطباء على ذلك لا يقتضي عدم وجوده ، وهذه مسألة ليس مرجعها الى علم التشريح فإنه إنما يتكلم على بعض الوظائف للأعضاء بحسب ما ظهر لأصحابه وهو قليل من كثير .

وقد قال بعضهم الفرق بيننا وبين آباءنا اعتقادنا إتنا جهلاء واعتقاد آباءنا أنهم علماء فليسكن هذا من ذلك الخفي وقد أسلفنا أن عدم العلم بثبوت الشيء لا يقتضي نفيه ومن ادعى احاطة العلم بكل ما في الأشياء من الخواص فقد كذب على العلم وحمله ما هو منه برىء ، والخالق الذي جمع في جسم الحيوان بين القوى المتضادة والعناصر المختلفة قادر أن يجعل في أحد الجناحين سمّاً وفي الآخر ترياقاً ، والأطباء صادقون في دعوى أنهم لم يعلموا ولكن لا يضر ذلك شيئاً كما أوضحناه ، على أن المكتشفات الجديدة قد آيدت الحديث تمام التأييد واستمع شيئاً من ذلك بعد فانتظر .

الطب الحديث

وما يقوله في الموضوع بخصوصه

رأينا بحثاً ممتعاً لحضرة الأستاذ الفاضل ابراهيم افندي مصطفى عبده معيد فن الصيدلة وتركيب العقاقير وهي محاضرة طويلة نقتطف منها ما يأتي .

قال بعد أن ذكر الحديث الذي في سؤال السائل ما نصه :

وقع كثير في خطأ تكذيب هذا الحديث زاعمين عدم مطابقته للحقيقة ، وذلك قبل أن تدحض مفترياتهم الابحاث العلمية الجديدة منذ بضع سنين وتكشف عما تضمنه من بليغ الحكمة ، ولو أنهم جاروا السلف الصالح في التصديق لكان خيراً لهم .

ويحق لنا أن نضم هذا الحديث الى المعجزات العديدة التي جاء بها خاتم المرسلين منذ أكثر من ثلاثة عشرة قرناً ، وأن ما يقدمه الذباب للناس من المنافع لآية عظيمة على وجود الخالق وقدرته ، كما انها توضح الحكمة في ضربه مثلاً في القرآن الكريم لتعجيز الكافرين . ومعلوم أن الذباب يقع على العفونات والمواد القذرة المملوءة بالجراثيم التي تولد الأمراض المختلفة .

أندرون ما هو العمل الجليل الذي خص به الذباب وسخر له ؟ فكما أن الذباب ينقل بعض الجراثيم بملامسته مصدرها فانه أيضاً يأكل منها أكثر مما ينقل ، وليس كل واجبه تقليل نسبة وجود الجراثيم فحسب ، بل إن ما يتناوله منها في فمه يتحول داخل جسمه الى ما سماه علماء الطب « بالبكتريوناج » أو مبعد (البكتريا) الذي يتصر على كثير من جراثيم الأمراض فينبذها عن بكرة أبيها ، ولا يمكن لتلك الجراثيم أن تبقى أو يكون لها أي تأثير في جسم الانسان في حالة وجود (البكتريوناج) . فسبحان الخالق العظيم .

والآن اسمعكم ما جاء بمجلة « التجارب الطبية » الانجليزية عدد « ١٠٣٧ » عام (١٩٢٧) قالت :

لقد أطعم الذباب من زرع ميكروبات بعض الامراض وبعد حين من الزمن ماتت تلك الجراثيم واختفى أثرها وتكونت في الذباب مادة مفترسة للجراثيم تسمى « بكتريوناج » ، ولو عملت خلاصة من الذباب في محلول ملحي لاحتوت على البكتريوناج التي يمكنها إبادة أربعة أنواع من الجراثيم المولدة للأمراض ، ولاحتوت تلك الخلاصة أيضاً على مادة خلاف البكتريوناج نافعة للمناعة ضد أربعة أنواع اخرى من الجراثيم .

وقد برهن على ذلك أيضاً الاستاذ الدكتور « دريل » مندوب الصحة البحرية و « السكورينتينات » المصرية في الهند للبحث عن ظهور « الكوليرا » بها

وأجمع الطرق لمقاومتها ، وقدم تقريراً مفصلاً في ديسمبر سنة (١٩٢٧) عما أجراه مع زملائه من الابحاث الفنية والتجارب العلمية ، فقد ذكر في تقريره : ان البكتريوناج أجسام حية صغيرة الحجم جداً أمكن تكوينها ورؤيتها بترسيب ذرات الفضة عليها ، وانه حصل على البكتريوناج وتمكن من زرعه وتنميته واذابته في الماء واعطاء محلوله الى المرضى بنسب مخصوصة ، وبزيادة الجرعة وتنظيم تناولها كان المريض ينال الشفاء في يومين أو ثلاثة . وتمكن أيضاً من استخراج البكتريوناج من براز الناقهين واستعماله لنفس الغرض ، وكان يضع من زرع البكتريوناج في برّ القرية فاذا شرب منه أهلها زالت عنهم اعراض الكوليرا . وبذلك برهن على أن الذباب ينقل البكتريوناج من براز الناقهين الى آبار الماء فيشربه الأهالي ويتناولون الأطعمة التي ينقل الذباب اليها البكتريوناج فسرعان ما تخف عنهم وطأة الكوليرا ثم تزول .

واجريت مثل تجارب الاستاذ (دريل) في البرازيل عن « الدوسنتريا » الحادة واستعمل البكتريوناج في ايطاليا في علاج الحمى التيفوئيدية وكذلك ضد جراثيم « الاستافيلوكوك » فأفاد :

واطلعت على تفصيل قوة البكتريوناج في مقاومته وإبادته الجراثيم في كتاب باللغة الانجليزية اسمه تمهيد « البكتريولوجي العملي » الذي يدرس في كلية الطب المصرية يكاد يذكر انها غير محدودة .

فمضى الحديث بمد ما تقدم (فليغمسه ثم لينزعه) أو حسب الرواية الاخرى « فليغمسه كله ثم ليطرحه » : ان الحكمة في الغمس لادخال البكتريوناج في الشراب والبكتريوناج يقتل الجراثيم التي تكون منها والمقصود بالغمس : جميع جسم الذبابة ، لأن الحديث لم ينص على غمس الجناحين فقط ، وهذا يدل على ان ذكر الداء والشفاء في الجناحين لفظي لا يفهم منه قصر الضرر والمنفعة عليهما دون باقي

الجسم وبما أن الجناحين جزء من الجسم فإن الطب لا ينبغي وجود ميكروب الداء وبكتريوناج الشفاء فيها ، وبذلك تتحقق صحة الحديث ومطابقته للإبحاب الفنية . والسبب في التعبير بالجناحين انهما أهم الاجزاء في الذبابة إذ بدونهما تشل عن الطيران ، ولزيادة التأكيد في غمس الجسم كله لأن الجناحين أعلى أجزائه ولتقريب المعنى المراد الى افهام العرب خاصة والناس عامة ، ولعل الابحاث الطبية في المستقبل تكشف عن أسرار اخرى في الذباب . والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله .

هذا ما نقله ذلك الفاضل عن تلك المجلات الاوربية ، فليت شعري ماذا عسى أن يقول المنفيهم وهي معجزة أوضح من الشمس وأظهر من الحس ؟ !

كلمة ختامية لا بد منها

ربما يفهم بعض قاصري النظر مما قدمناه اننا نقول بعدم الاحتياط من الذباب وحاشا أن نقول ذلك في الدفاع عن الحديث ، فإن الحديث لا يفيد ذلك ولا يقتضيه وغاية ما يقوله الحديث هو انك إذا فرطت فيما يجب عليك من توقي الذباب بكل ما يمكنك حتى إذا وقع في طعامك فالتخلص من تلك الميكروبات التي ينقلها الى طعامك يكون بغمسه كله ، لذلك السر الذي شرحناه فيما تقدم وبينه أساطين العلم الطبيعي باوربا . وقد صرح الحديث نفسه بأن فيه داء (والحمة رأس الدواء) ، فهو بمنزلة من يقول لك : إذا وصل السم الى جوفك لسبب من الاسباب فترياقه كذا وكذا . فهل ترى أن من وصف لك دواء السم المهلك فقد أمرك بتعاطيه ؟ والامر أوضح من أن نطيل فيه أو يتشبث به بعض القاصرين أو المتعنتين .

معرفة الانسان نفسه

بسم الله الرحمن الرحيم

« وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون » ١ .

هذه الآية تشير الى معرفة النفس الانسانية وشرح ماهيتها وانيتها وكيفية نشوها في الأرض وسر خلاقتها ، وذلك لأن معرفة النفس أم الفضائل وأصل المعارف كما جاء في الوحي الالهي : « اعرف نفسك يا إنسان تعرف ربك » . وفي كلام النبي «ص» : « أعرفكم بنفسي أعرفكم بربه » . وفي كلام بعض الأوائل : « من عرف ذاته ناله » ، وذلك لأنها إذا عرفت كانت مفتاح خزائن المعرفة وباب حكمة رب العالمين وصراط الحق واليقين ، وميزان يوم الحساب ونور المارين الى الجنة ، وإذا جهلت كانت ظلمة القبور وضيقها ، ووحشة الصدور وضنكها ، وعرضة الهلاك والعمى والدثور ، وعذاب الآخرة يوم النشور .

معرفة الانسان نفسه

قالت الحكماء مرة : أول ما يلزم الانسان معرفته نفسه ، وقالوا مرة : أول ما يلزمه معرفة الله تعالى ، وليس بين هذين القولين منافاة ، فانهم عنوا بالأول حيث قالوا معرفة النفس الأول من حيث الترتيب الصناعي ، وعنوا بالأول أيضاً حيث قالوا معرفة الله الأول : من حيث الشرف والفضل ، فان معرفة الله هي أفضل المعارف ، وفي معرفة النفس اطلاع على امور كثيرة .

أحدها أنه بواسطتها يتوصل الانسان الى معرفة غيرها ، ومن جهلها جهل كل ما عداها .

الثاني ان نفس الانسان يجمع الموجودات ، فمن عرفها فقد عرف الموجودات ، ولذلك قال الله تعالى : « أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ » (١) تنبيهاً على انهم لو تدبروا أنفسهم وعرفوها عرفوا بمعرفتها حقائق الموجودات فانيها وباقيها ، وعرفوا بها حقيقة السموات والأرضين ، ولما أنكروا البعث الذي هو لقاء ربهم . قال الله تعالى : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » (٢) . وقال تعالى : (وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفُسكم أفلا تبصرون) (٣) .

الثالث إن من عرف نفسه عرف العالم ، ومن عرفه صار في حكم المشاهد لله تعالى وهو يخلق السموات والأرض ولم يكن كالكفرة الجيلة الذين أمسكهم هذه

« ١ » سورة الروم الآية ٧ .

« ٢ » سورة السجدة الآية ٥٢ .

« ٣ » سورة الذاريات الآية ١٩ .

المنزلة فقال فيهم : « ما شهدهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً » (١) .

الرابع إنه يعرف بمعرفة روحه العالم الروحاني وبقائه وبمعرفة جسده العالم الجسدي وفتائه فيعرف خسة الفانيات وشرف الباقيات والصالحات .

الخامس إن من عرف نفسه عرف أعداءه السكينة فيها المشار إليها بقوله صلى الله عليه وآله (أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك) فيستعيز منها كما قال عليه الصلاة والسلام : (اللهم الهمني رشدي وأعني من شر نفسي) وقال «ص» : ﴿ لا تكلفني الى نفسي طرفة عين فاهلك ﴾ . ومن عرف أعداءه السكينة ومكانها وكيفية انبعاثها أحسن أن يحترز منها وأن يجاهدها فيستحق ما وعد الله به المجاهدين في سبيله ، ومن لم يعرفها فجدير أن يترأى له عدوه الذي هو الهوى بصورة العقل فيتصور له الباطل بصورة الحق ، وقد قال النبي ﷺ : ﴿ الهوى شيطان ﴾ ، بل قال : ﴿ هو إله يعبد من دون الله ﴾ ، وقد روي أنه قال ﷺ : ﴿ ما عبد في الأرض إله أبغض الى الله من الهوى ﴾ . ثم تلا ﴿ أفرايت من اتخذ إلهه هواه ﴾ ٢

السادس إن من عرف نفسه عرف أن يسوسها ، ومن أحسن أن يسوس نفسه أحسن أن يسوس العالم ، فيصير من خلفاء الله المذكورين في قوله تعالى : ﴿ ويستخلفكم في الأرض ﴾ ، ومن الملوك المذكورين في قوله تعالى : ﴿ وجعلكم ملوكا ﴾

السابع إن من عرفها لم يجد عيباً في أحد إلا رآه موجوداً في ذاته اما ظاهراً منبعثاً أو كامناً فيه ككون النار في الحجر ، فلا يكون هازاً ولمازاً وعيباً ، فان كل عيب تراءى له من غيره وجده في نفسه ، ومن رأى عيب نفسه فجدير أن يكون ممن دعا له النبي ﷺ بقوله : ﴿ رحم الله امرءاً شغله عيبه عن عيوب غيره ﴾ . ومعرفة

«١» سورة الكهف الآية ٥٠ .

«٢» سورة الفرقان الآية ٤٣ .

عيب النفس صعب من حيث أن كل إنسان يحب نفسه ، وحبها لها يعميه عن معانيها كما قال «ص» : (حبك الشيء يعمي ويصم) ، والاعمى والاصم عن عيب الشيء قد يعجب به ، ولا ضرر أعظم من اعجاب المرء بنفسه ، وقد قال بعض الحكماء : ﴿ الكاذب في نهاية البعد عن الخلق والمراي أسوأ حالا من الكاذب ﴾ لان الكاذب يكذب بقوله فقط ، والمراي يكذب بقوله وفعله ، قال وأسوأ حالا منهما المعجب بنفسه لأن الكاذب والمراي قد ينتفع بهما والمعجب بنفسه لا نفع فيه بوجه ، ولأنهما قد ينفع وينجع وعظك فيهما لنمهما بنفسهما ، والمعجب بنفسه لجهله يظنك في وعظك إياه ملغياً .

الثامن إن من عرف نفسه فقد عرف الله تعالى ، فقد روي أنه ما أنزل الله من كتاب إلا وفيه اعرف نفسك يا إنسان تعرف ربك . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ سزيرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ «١» وفي هذا الخبر ثلاث تأويلات . أحدها إن بمعرفة النفس يتوصل الى معرفة الله عز وجل ، كمقولك اعرف العربية تعرف الفقه ، أي بمعرفة العربية يتوصل الى معرفة الفقه وان كان بينهما وسائط .

الثاني إنه إذا حصل معرفة النفس حصل بمحصولها معرفة الله بلا فاصل ، كمقولك بطالع الشمس يحصل الضوء ، فكان الضوء مقترناً بطولوعها غير متأخر عنها بزمان .

الثالث إن معرفة الله تعالى ليست تثبت إلا أن تعرف النفس ، لأنك إذا عرفت على الحقيقة فقد عرفت العالم ، فإذا عرفت العالم عرفت انه محدث وإن لا بد له من محدث لا يشبه المحدث بوجه ، وذلك هو غاية معرفة الله تعالى . قالوا وعلى هذا

دل معنى قول أمير المؤمنين (ع) : (إن العقل لاقامة رسم العبودية لا لادراك الربوبية) ثم أنشأ يقول :

كيفية النفس ليس المرء يعرفها فكيف كيفية الجبار في القدم
هو الذي أنشأ الأشياء مبتدئاً فكيف يدركه مستحدث النسم
وقال أيضاً

العجز في درك الادراك إدراك والبحث عن سر ذات السر إشراك
وفي سرائر همت الورى همم عن الذي عجزت جن وأملاك
يهدي اليه الذي منه اليه هدى مستدركا وولي الله مدراك

قال تعالى : ﴿ نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾ (١) . تنبيهاً على أنهم لو عرفوا أنفسهم لعرفوا الله ، فلما جهلوه دل جهلهم إياه على جهلهم إياها .

فالله تبارك وتعالى خلق النفس مثالا لذاته وصفاته وأفعاله لتكون معرفتها مرعاة لمعرفته ، كما وقع في الحديث ﴿ من عرف نفسه فقد عرف ربه ﴾ فجعل ذاتها مجردة عن الأكوان والاحياز والجهات ، وصيرها ذات قدرة وعلم وإرادة وحياة وسمع وبصر ، وجعلها ذات مملكة شبيهة بمملكة باريها يخلق ما يشاء ويختار ما يريد في عالمها ، فمن تحريكها للبدن وتديرها شؤون عالمها الصغير يستعلم انه لا بد لهذا العالم الكبير من محرك ومدبر ، ومن تجردها وعدم كونها في موضع من البدن يعلم تجرد الباري وعدم كونه في موضع من العالم وجهة من جهاته ، ومن تصرفها في الجسد يستدل على قدرته ، ومن اطلاعها على ما في البدن يستكشف علمه تعالى وانه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة ، ومن استوائها على الاعضاء وتساوي نسبة الأجزاء صغيرها وكبيرها إليها استوائه على خلقه وتساوي نسبته إليه ، حيث انه لا يستعظم العظيم لعظمه ولا يستحق الحقير لحقارته ، بل كل من الذرة الى الدرة رشحة من

رشحات فيضه وقطرة من بحار جوده وفضله ، ومن تقدمها عليه وبقائها بعد فناء
الجسد يستدل على ازلية خالق الكون وابديته ، ومن عدم العلم بكنهها مع كونها
بآثارها من أظهر الاشياء وأبينها يعلم عدم إمكان العلم بكنهه ذاته ، ومن عدم إمكان
مسها وامتناع أبصارها يعلم امتناع مسه واستحالة رؤيته لا تدركه الأبصار وهو
اللطيف الخبير .

قوله تعالى للملائكة : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ، إعلامه إياهم ذلك
بأحد وجهين إما باقامة صور الحقائق التي هي من مجردات النشأة الانسانية عليهم ،
أو باطلاعهم على شيء من عالم أمره تعالى المشتمل على جميع الأقوال المتعلقة
بالأكوان الخلقية .

وقد تحيرت العقول في أن استحقاقية آدم للخلافة الالهية لما ذا ؟ ف قيل لتحملة
التكليف ، وقيل لطاعته مع وجود الصوارف البدنية كالشهوة والغضب عنها ، وقيل
لجامعيته بين صفات الملائكة وصفات البهائم وأسد الأقوال كونه جامعاً لجميع
المظاهر الاسماءية .



خبر الله في الأرض

لما اقتضى حكم السلطنة الواجبة الذات الازلية والصفات العلية بسط مملكة الالهية ونشر لواء الربوبية باظهار الخلائق وتحقيق الحقائق وتسخير الاشياء وإمضاء الامور وتدير الممالك وإمداد الدهور وحفظ مراتب الوجود ودفع مناسب الشهود ، وكان مباشرة هذا الامر من الذات القديمة بغير واسطة بعيداً جداً بعدد المناسبة بين عزة القدم وذلة الحدوث حكم الحكيم سبحانه بتخليف نائب ينوب عنه في التصرف والولاية والحفظ ، وله وجه الى القدم يستمد به من الحق سبحانه ، ووجه الى الحدوث يمد به الخلق . فجعل على صورة خليفة يخلف عنه في التصرف وخلع عليه جميع أسمائه وصفاته ، ومكنه في مسند الخلافة بالقاء مقادير الامور اليه واحالة حكم الجمهور عليه وتنفيذ تصرفاته في خزائن مملكته وملكوته وتسخير الخلائق لحكمه ، وسماه إنساناً لامكان وقوع الانس بينه وبين الخلق برابطة الجنسية وواسطة الانسية ، وجعل له بحكم اسمه الظاهر والباطن حقيقة باطنية وصورة ظاهرة ليتمكن بهما من التصرف في الملك والملكوت . فحقيقته الباطنة هي الروح الاعظم وهو الامر الذي يستحق به الانسان الخلافة والنفس المكلية وزيره وترجمانه ، والطبيعة المكلية عامله ورئيسه والعملة من القوى الطبيعية وكذلك الى آخر الروحيات جنوده وخدمه .

وأما صورته الظاهرة فصورة العالم من العرش الى الفرش وما بينهما من البسائط

والمركبات فهذا هو الانسان الكبير المشير اليه قول المحققين : « إن العالم إنسان كبير » وأما قولهم : « الانسان عالم كبير » أرادوا به النوع البشري وهو خليفة الله في أرضه كما اشير اليه في هذه الآية .

وأما خليفة الله في السماء والارض وهو الانسان الكبير ، والانسان البشري نسخة منتخبة من الانسان الكبير الآلهي ، ونسبته اليه نسبة الولد الصغير من الوالد الكبير ، فله أيضاً حقيقة باطنية وصورة ظاهرة .

أما حقيقته الباطنة فالروح الجزئي المنفوخ فيه من الروح الاعظم والعقل الجزئي والنفس والطبيعة الجزئيتان . واما صورته الظاهرة فنسخة منتخبة من صورة العالم فيها من كل جزء من أجزاء العالم لطيفها وكشيفها قسط ونصيب . فسبحانه من صانع جمع السك في واحد كما قيل :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وصورة كل شخص إنساني نتيجة صورة آدم وحواء عليهما السلام ، ومعناه نتيجة الروح الاعظم والنفس الكلية الذين هما أيضاً آدم كلي وحواء كلية ومن هذا يصح أن يقال بعض من كمل أولادهما حقيقة .

وإني وإن كنت ابن آدم صورة فلي فيه معنى شاهد بأبوتي

قوله تعالى : « قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » .

إن قولهم هذا يدل على معان مختلفة : منها ان الله تعالى أنطقهم بهذا القول ليتحقق لنا أن هذه الصفات الدميعة في طبيعتنا مودعة وفي جبلتنا مركوزة ، فلا نأمن عن مكر أنفسنا الامارة بالسوء ولا نعتمد عليها وما نبرؤها كما قال تعالى عن يوسف «ع» « وما ابرى نفسي » .

ومنها لنعلم أن كل عمل صالح نعمله ذلك بتوفيق الله تعالى إيانا وفضله ورحمته

وكل فساد وظلم نعمله هو من شؤم طينتنا وخاصة طبعنا كما قال تعالى : (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) «١» . وكل فساد لا يجري علينا ولا يصدر منا فذلك من حفظ الحق وعصمته ورحمته لقوله تعالى (إلا مارحم ربي) ومنها لنعلم أن الاستعداد أمر عظيم فينا وفينا شأن جسيم ، ليس للملائكة به علم وهو سر الخلافة ، فلا تتغافل عن هذه السعادة ولا تتقاعد عن هذه السيادة ونسعى في طامبها حق السعاية .

ومنها لنعلم أن الله تعالى من فضله وكرمه قد قبلنا بالعبودية والخلافة وقال من حسن عنايته في حقنا مع الملائكة المقربين : « إني أعلم ما لا تعلمون » لكيلا نقطع من رحمته ونقطع من خدمته .

ومنها ان الملائكة قالوا : (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) «٢» لأنهم نظروا الى جسد آدم قبل نفخ الروح فيه فشاهدوا بالنظر الملكي في ملكوت جسده المخلوق من العناصر الأربعة المتضادة صفات غريبة : البهيمية والسبعية التي تتولد من تركيب اضداد العناصر كما شاهدوها في أجساد الحيوانات والسباع الضاريات بل عاينوها ، فأنها خلقت قبل خلق آدم فقاوسوا عليها أحواله بعد أن شاهدوها وحققوها وهذا لا يكون غيباً في حقهم وإنما يكون غيباً لنا لا نتأمل تنظر بالحس ، والملكوت يكون لأهل الحس غيباً ، ومنا من ينظر بالنظر الملكوتي فيشاهد الملائكة والملكوتيات بالنظر الروحاني كما قال تعالى : (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) «٣» ، وقال : (أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض) «٤»

«١» سورة النساء الآية ٧٨ .

«٢» سورة البقرة الآية ٣٠ .

«٣» سورة الانعام الآية ٧٥ .

«٤» سورة الاعراف الآية ٨٥ .

وحينئذ لا يكون غيباً فالغيب ما غاب وما شاهد فيه فهو شهادة ، فالملائكة والشهادة ، والحضرة الالهية لهم غيب ، وليس لهم الترقى الى تلك الحضرة .

وإن للانسان صورة من عالم الشهادة المحسوسة وروحاً من عالم الغيب المملوكوتي وسراً مستعداً لقبول فيض النور الالهي بلا واسطة ، فبالترقية يترقى من عالم الشهادة الى عالم الغيب وهو المملوكوت ، وبسر المتابعة وخصوصيتها يترقى من عالم المملوكوت الى عالم الجبروت والعظمت وهو غيب الغيوب ، فيشاهد بنور الله المستفاد من سر المتابعة أنوار الجمال والجلال ، فيكون في خلافة الحق عالم الغيب والشهادة كما أن الله عالم الغيب والشهادة ، فلا يظهر على غيبه أحداً أي الغيب الخصوص وهو غيب الغيب أحداً يعني الملائكة إلا من ارتضى من رسول يعنى من الانسان . فهذا هو السر المكنون المركوز في استعداد الانسان الذي كان الله يعلمه منه والملائكة لا يعلمون كما قال (إني أعلم ما لا تعلمون) .

ومنها ان الملائكة لما نظروا الى كثرة طاعتهم واستعداد عصمتهم ونظروا الى نتائج الصفات النفسانية استعظموا أنفسهم واستصغروا آدم وذريته فقالوا أتجعل فيها أي في الأرض خليفة ، مع انه يفسد فيها ويسفك الدماء (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) «١» . فنحن مع هذه الصفات أحق بالخلافة منه ، كما قال بنو إسرائيل حين بعث الله لهم طالوت ملكاً قالوا : (أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يأت سعة من المال) «٢» ، فأجاب الله تعالى بأن استحقاق الملك إنما هو بالاصطفاء والبسطة في العلم والجسم ﴿ قال أن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء ﴾ «٣» ، فكذاك ههنا أجابهم الله تعالى

«١» سورة البقرة الآية ٣٠ .

«٢» سورة البقرة ٢٤٦ .

«٣» سورة البقرة الآية ٢٤٧ .

بقوله : « إني أعلم مالا تعلمون » إجمالاً ثم فصله بقوله : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً » وبقوله : « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي » ليعلموا أن استحقاق تلك الخلافة ليس بكثرة الطاعة ، ولكن مالك الملك يؤتي الملك من يشاء ، وأما تفاخر الملائكة بطاعتهم ومن الله على آدم بعلم الأسماء ليعلموا انهم أهل الطاعة والخدمة وانه أهل الفضل والمنة وآين أهل الخدمة من أهل المنة ، فبتفاخرهم على آدم صاروا ساجدين له ليعلموا انه مستغن عن طاعتهم وبمنته على آدم صار مسجوداً له ليعلموا أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

ومنها أن قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء استكشاف عما خفي عليهم وجه حكمته كما أنهم قالوا إلهنا أنت الحكيم الذي لا يفعل السفه فما وجه الحكمة في جعل جوهر ارضي خليفة فيها وهو مصحوب لقوة شهوية شأنها الشر والافساد ، ولقوة غضبية شأنها الاهلاك وسفك الدماء ، فان النفس إذا انقادت لاحديهما سلكت بها مسلك الفساد والجور والظلم .

أو تعجب من أن يستخلف لعارة الأرض وإصلاحها من يفسد فيها مع وجود من هو برىء من الشرور والمفاسد بالكلية كطبقة الملائكة المعصومين عن المعاصي المسيحين بحمده والمقديسين له ، وليس هذا باعتراض على الله تعالى في فعله أو طعن في بني آدم على وجه العيبة أو تزكية لأنفسهم على وجه الافتخار والازراء بغيرهم ، حاشا لملائكة الله عن ذلك وقد وصفهم الله تعالى بانهم « عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » « ١ » .

تعليم الاسماء لآدم «ع»

(وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبؤني بأسماء هؤلاء

إن كنتم صادقين (١) .

إن الملائكة لما سألوا الله عن وجه الحكمة في جعل الانسان خليفة في الأرض دونهم أجاب بوجه اجمالي أراد أن يزيدهم بياناً وكشفاً أخبر عن وجه الحكمة في ذلك تفصيلاً ، فبين لهم جهة فضيلة الانسان عليهم وذلك بأن علمه معرفة الأسماء والظاهر أن المراد من تعليم الأسماء ليس مجرد تعليم الألفاظ الموضوعية بحسب دلالتها على المعاني كما في التعريفات اللفظية بل إعادة العلم بحقائق الأشياء وماهياتها ، وإن كان الأول أيضاً مستلزماً للعلم بمدلولاتها بوجه من الوجوه ، وذلك لأن معرفتها من جهة اللغات ليست كمالاً يعتد به إنما الكمال الأتم في الحكمة والمعرفة .

فاللغى أنه تعالى خلق آدم «ع» من أجزاء مختلفة وقوى متباينة ، مستعداً لادراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات والتمثيلات لاشتماله على جميع النشآت الدنيوية والمثالية والأخروية ، وألهمه معرفة ذوات الأشياء وحقايقها الكلية والجزئية وخواصها وأسماءها ، وأصول العلوم وقوانين الصناعات وكيفية اتخاذ الآلات حتى صار في نفسه عالماً تاماً منفرداً منفصلاً عن العوالم كلها ، ذا هيئة جمعية ونظام وحداني مضاهياً للعوالم الثلاثة .

* * *

قال لسان التحقيق في كشف هذا المقصد العميق إن الممكنات في حال عدمها الامكاني سألت الأسماء الالهية سؤال ذلة واقتدار ، وقالت لها إن العدم قد أعمانا عن ادراك بعضنا بعضاً وعن معرفة ما يجب لكم من الحق علينا ، فلو انكم أظهرتم أعياننا وكسوتمونا حلة الوجود أنعمت علينا بذلك وقتنا بما ينبغي لكم من الاجلال والتعظيم وأنتم أيضاً كانت السلطنة تصح لكم بظهورنا بالفعل وأنتم اليوم علينا سلاطين بالقوة والصلاحية . فهذا الذي نطلبه هو في حقكم أكثر مما في حقنا .

فقلت الأسماء : إن هذا الذي ذكرته الممكنات صحيح ، فاتفقت بحضرة المسمى ونظرت في حقائقها ومعانيها فطلبت ظهور أحكامها حتى يتميز أعيانها بآثارها فان الخلاق والمقدّر والعالم والمصور والمدبر والمفضل والباري والرازق والمحّي والمميت وجميع الأسماء الالهية نظروا في ذواتهم ولم يروا مخلوقاً ولا مقدوراً ولا معلوماً ولا مصوراً ولا مدبراً ولا مفضلاً ولا مرزوقاً ، فقالوا : كيف العمل حتى يظهر هذه الاعيان التي تظهر أحكامنا فيها فيظهر سلطاننا ؟ فجاءت الأسماء الالهية بطلبها بعض حقايق العالم بعد ظهور عينه الى الاسم الباري فقالوا له عسى أن توجد أعيان هذه الأحكام لتظهر أحكامنا إذ الحضرة التي نحن فيها لا تقبل تأثيرنا .

فقال الباري : ذلك راجع الى الاسم القادر فاني تحت حيطته ، فلما لجأوا الى القادر قال أنا تحت حیطة المريد فلا أوجد عينا منكم إلا باختصاص ، ولا يمكنني الممكن من نفسه إلا أن يأتيه أمر الأمر من ربه ، فإذا أمره بالتكوين وقال له كن يمكنني من نفسه وتعلقت بإيجاده فمكوته من حينه ، فالتجأوا الى الاسم المريد عسى أنه يرجح ويخصص جانب الوجود على جانب العدم فحينئذ نجتمع أنا والآمر والمتكلم ونوجدكم ، فالتجأوا الى الاسم المريد فقالوا له إن الاسم القادر سألناه في إيجاد أعياننا ووقف أمر ذلك عليك فما ترسم ؟ .

فقال المريد : صدق القادر ولكن ما عندي خبر بما حكم الاسم العالم فيكم هل سبق علمه بإيجادكم فأخصص أو لم يسبق ؟ فأنا تحت حیطة الاسم العالم فسيروا اليه واذكروا قضيتكم ، فصاروا الى الاسم العالم وذكروا له ذلك ، فقال العالم : قد سبق علمي بإيجادكم ولكن الأدب أولى فان لنا حضرة مهيمنة علينا وهي الاسم الله فلا بد من حضورنا عنده فانها حضرة الجمع ، فاجتمعت الأسماء كلها في حضرة الاسم الله تعالى فقال ما بالكم ، فذكروا له الخبر ، فقال أنا اسم جامع لحقايقكم واني دليل على مسمى وهو ذات مقدسة له نعمت الكمال والتنزيه فقفوا حتى أدخل على مدلولي

فقال له ما قالته الممكنات وما تجاوزت فيه الاسماء وقال اخرج وقل لسلك واحد من الاسماء يتعلق بما تقتضيه حقيقته في الممكنات فإن الواحد الأحد لنفسه والممكنات إنما تطلب مرتبتي وتطلبها مرتبتي والاسماء الالهية كلها للمرتبة ولا لي إلا الواحد خاصة وهو اسم خصيص لا يشاركني في حقيقته عن كل وجه أحد لا من الاسماء ولا من المراتب ولا من الممكنات . فخرج اسم الله ومعه الاسم المتكلم يترجم عنده للممكنات والاسماء ، فذكر لهم ما ذكره المسمى فتعلق العالم والمريد والقادر فظهر الممكن الأول من الممكنات بتخصيص المريد وحكم العالم ، فلما ظهرت الاعيان والآثار في الأكوان وتسلط بعضها على بعض وقهر بعضها بعضا بحسب ما يستند اليه من الاسماء فأدى الى منازعة وخصام ، فقالوا إنا نخاف علينا أن يفسد علينا نظامنا ونلحق بالعدم الذي كنا فيه أولاً ، فنبهت الممكنات الاسماء بما ألقى اليها الاسم العليم والمدبر وقالوا : أيها الاسماء لو كان معلوم حكمكم على ميزان واحد مرسوم بامام ترجعون اليه يحفظ علينا وجودنا ويحفظ عليكم تأثيراتكم فينا لكان أصلح لنا ولكم فالتجأوا الى الله عسى أن يقدم من يحدد حداً لكم تقفون عنده وإلا هلكنا وتعطلتم فقالوا هذا عين المصلحة وعين الرأي ففعلوا ذلك ، فقالوا إن الاسم المدبر ينهي أمركم فأتوها الى المدبر فقالوا ما قالته الممكنات ، فقال أنا لها ، فدخل وخرج بأمر الحق الى الاسم الرب وقال له افعل ما تقتضيه المصلحة في بقاء أعيان هذه الممكنات ، فاتخذ وزيرين يعينانه على ما أمر به الوازر الواحد الاسم المدبر والآخر الاسم المفصل قال : (يدبر الامر يفصل الآيات لعملكم بقاء ربكم توقنون) (١) الذي هو الامام فانظر ما أحكم كلام الله تعالى حيث جاء بلفظ مطابق للحال الذي ينبغي أن يكون الامر عليه ، فجاء الاسم الرب فرتب لهم الحدود ووضع لهم المراسم لاصلاح المملكة وليلوهم أيهم أحسن عملاً ، وجعل الله ذلك قسمين قسم يسمى سياسة حكيمية

ألقاها في قطر نفوس الأكابر من الناس بحسب ما تدركه عقولهم وآراؤهم فحددوا حدوداً ووضعوا نواميس رسمية بحسب ما يقتضيه صلاح كل أقليم وكل زمان ، وانحفظت بذلك أموال الناس ودماؤهم وأهلوتهم وأرحامهم وأنسابهم وسموها نواميس ، وقسم يسمى شريعة إلهية يجيء بها الوحي الإلهي الى من اصطفاه الله وارتضاه من خلقه ، ولم يكن قبل الوحي يعلم أحد بأن الله فرض على عباده اموراً مقربة الى الله يورث جنة وحريراً ، واخرى مبعدة منه تورث ناراً وزمهيراً ولا علموا قبلهم أن ثمة آخرة وبعثاً محسوساً ، وبعد الموت في أجساد طبيعية ودار فيها أكل وشرب ولباس ونكاح ، ودار فيها عذاب أليم .

ثم بعث الله رسولاً بعد رسول ولم يخل الأرض عن خليفة هو مظهر اسم الله إذ به تنتظم أمور الخلق بما له من الجمعية الإلهية والعدالة الحقيقية التي يرجع بها اليه كل الخلائق في حوائجهم وانتظام أمورهم ومعاشهم كما في الاسم الله من المقام الجمع الإلهي الذي ترجع اليه الأسماء كلها . فهذا سر الخلافة وتعليم الأسماء في الإنسان المكامل وعدم استحقاق غيره لها .

معرفة فضل العلم والعلماء

وهذه الآية من أدل الدلائل على فضيلة العلم وعظم شأن حامله ، فإنه تعالى ما أظهر كمال حكمة في خلقة آدم وجعله خليفة في الأرض أولاً ، ومسجوداً للملائكة في السماء ثانياً إلا بأن أظهر علمه بالأسماء ، فلو كان شيء أشرف من العلم لسكان من الواجب إظهار فضله بذلك الشيء لا بالعلم . ولما قال تعالى : (إني جاعل في الأرض خليفة) فلما قالت الملائكة : (أتجعل فيها من يفسد فيها) قال تعالى : « إني أعلم ما لا تعلمون » ، فأجابهم تعالى بكونه لم يجعل سائر الصفات جواباً لهم وموجباً لسكوتهم ، وذلك يدل على أن سائر الصفات كالقدرة وأمثالها وإن كانت بأسرها في نهاية الشرف ، إلا أن صفة العلم أشرف من غيره ، ثم إنه تعالى لما أظهر

علمه جملة مسجوداً للملائكة وخليفة للعالم السفلي وذلك يدل على أن تلك المنقبة إنما استحقها آدم «ع» بالعلم ، ثم إن الملائكة افتخرت بالتسبيح والتقديس ، فأظهر الله تعالى علم آدم بالأسماء في مقابلة تسبيحهم وتقديسهم مع أن التسبيح والتقديس أيضاً من بركات العلم وإلا لكان اما نفاقاً والنفاق من أخس المراتب لقوله تعالى : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار » « ١ » ، أو تقليداً وهو مذموم لا يوجب الافتخار ، فثبت أن فضيلة آدم عليهم إنما كان بعلمه بسائر الأشياء الكلية والجزئية التي لم يكن من شأنهم الا حاطة بها جميعاً لانهصارهم في مقام واحد معلوم .

ثم انظر في إبراهيم «ع» كيف اشتغل في أول أمره بطلب العلم ، منتقلاً بفكره من ملاحظة أحوال السماويات والانتقال من بعضها الى بعض ، حتى انتقل من الانوار الكوكبية الحسية النفسية القمرية ، ومنها الى الاضواء العقلية الشمسية الى أن وصل بالدليل الباهر والبرهان النير الزاهر الى المقصود الاصلي والدين الحنيفي واعرض عن الشرك لقوله : (وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض خنيئاً وما أنا من المشركين) ، ثم إنه بعد الفراغ من معرفة المبدأ اشتغل بمعرفة المعاد كما قال تعالى : « وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى » ، ولما فرغ من العلم اشتغل بالحاجة والتعليم ، تارة مع عمه آزر إذ يقول له « لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر » ، وتارة مع قومه (ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون) ، واخرى مع ملك زمانه : « ألم تر الى الذي حاج إبراهيم في ربه » الآية وقوله : « أف لكم ولما تعبدون » ، وتارة كان مع الله فانياً عما سواه فانهم عدو لي إلا رب العالمين .

ثم انظر الى أحوال موسى «ع» مع فرعون ووجوه دلائله وحججه عليه من طريقة الخليل في المقامات العلمية . وانظر الى عيسى «ع» في قوله : « رب أرني كيف تحيي الموتى ؟ » وكان مقصوده العلم بأحوال المعاد بعد أن حصل له العلم بأحوال

المبدأ ، ثم انظر الى نبينا «ص» كيف منَّ الله عليه بالعلم مرة بعد أخرى في قوله تعالى : « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان » وقوله : « ما كنت تعلمها أنت ولا قومك » وقوله : « وعلمك ما لم تكن تعلم » وهو صلوات الله عليه وآله كان أبداً يقول : « رب أرني الأشياء كما هي ، فلو لم يظهر للانسان - بهذه الامور التي ذكرناها - شرف العلم وفضله لاستحال أن يظهر له شيء لشيء أصلاً .

إن رتبة العلم ومنزلة العلماء كانت عظيمة عند الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين أما محمد «ص» فقد قال الله تعالى تأديباً وتعظيماً له : ﴿ قل رب زدني علماً ﴾ وفيه أدل دليل على عظيم رتبة العلم ونفاسته وعلو منزلته وكرامته وفرط محبة الله إياه حيث أمر حبيبه «ص» بالازدياد منه خاصة دون غيره . وقال تعالى امتناناً عليه وتشكرياً له « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » .

وأما كلهم الله فقد قال بعض المفسرين : لو اكتفى أحد من العلم وساغ له القنوع منه لاكتفى موسى «ع» ولم يقل للخضر «ع» هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً ؟ .

وأما داود فلما ذكر من حاله مع أحوال الانبياء قدم العلم أول الاقوال حيث قال : « وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث » الى قوله « وكلا آتينا حكماً وعلماً » ثم إنه ذكر بعد ذلك ما يتعلق بالجواب فدل على ان العلم أشرف .

وأما سليمان (ع) فكان له من ملك الدنيا ما كان حتى انه قال : (رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي) فلم يفتخر بالمملكة وافتخر بالعلم حين قال (يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء) ، فافتخر بكونه عالماً بمنطق الطير فاذا حسن من سليمان الافتخار بذلك فبان يحسن بالموثمن أن يفتخر بمعرفة رب العالمين وصفاته وأسمائه وكيفية أسماؤه وأفعاله وملكوته سمواته وكتبه ورسله والايمان بيوم القيامة وحشر الخلائق اليه ومعاد الكل ورجوع الجميع اليه كان

أحسن ولأنه قدم ذلك على قوله : (وأوتينا من كل شيء) .

وقال بعضهم الهدهد مع انه في نهاية الضعف ومع انه كان في موقف المعاتبة قال : (احطت بما لم تحط به) ، فلولا أن العلم أشرف الأشياء وإلا فن أين مثله أن يتكلم في مجلس سليمان بمثل هذا الكلام وما ذاك إلا ببركة العلم ، وأيضاً أن ساير كتب الله المنزل على الانبياء (ع) ناطقة بفضل العلم .

أما التوراة فقال تعالى لموسى (ع) (عظم الحكمة فاني لا أجعل الحكمة في قلب عبد إلا وأردت أن أغفر له ، فتعلمها ثم اعمل بها ثم ابذلها كي تنال بذلك كرامتي في الدنيا والآخرة . وأما الزبور فقال تعالى : ﴿ قل لأخبار بني إسرائيل ورهبانهم حادثوا من الناس الأتقياء ، فإن لم تجدوا فيهم تقياً فحادثوا العلماء ، وإن لم تجدوا علماً فحادثوا العقلاء ، فإن التقي والعلم والعقل ثلاث مراتب ما جعلت واحدة منهن في أحد من خلقي وأنا أريد هلاكه .

قال بعض العلماء : إنما قدم الله التقي على العلم لأن التقي لا يوجد بدون العلم كما بين في المفاتيح الغيبية من أن الخشية لا تحصل إلا مع العلم ، والموصوف بالأمريين أشرف من الموصوف بأحدهما ، ولهذا السر أيضاً قدم العالم على العاقل لأن العالم لا بد وأن يكون عاقلاً دون العكس والعقل كالبذر والعالم كالشجرة والتقي كالثمرة .

وأما الانجيل فقد قال تعالى في السورة السابعة عشر : « ويل لمن سمع بالعلم فلم يطلبه كيف يحشر مع الجاهل الى النار. اطلبوا العلم وتعلموه فإن العلم إن لم يسعدكم لم يشقكم ، وإن لم يرفعكم لم يضعكم ، وإن لم يغنكم لم يفقركم ، وإن لم ينفعكم لم يضركم ، ولا تقولوا نخاف أن نعلم ولم نعمل ولكن قولوا نرجوا أن نعلم فنعمل ، فالعلم يشفع لصاحبه ، وحق على الله أن لا يخزيه إن الله تعالى يقول يوم القيامة : (يامعشر العلماء ما ظنكم بربكم فيقولون : ظننا بربنا أن يغفر لنا ويرحمنا ، فيقول : إني قد فعلت ، إني استودعكم حكمتي لا لشر أردته بكم بل لخير أردته بكم فادخلوا في

مصالح عبادي الى جنتي برحمتي .

وقال مقاتل بن سليمان وجدت في الانجيل أن الله تعالى قال لعيسى «ع» :
عظم العلماء واعرف فضلهم فأني فضلتهم على جميع خلقي إلا النبيين والمرسلين كفضل
الشمس على الكواكب وفضل الآخرة على الدنيا وفضلي على كل شيء .

قيل إن الله تعالى علم سبعة نفر سبعة أشياء : علم آدم أسماء الاشياء
لقوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » ، وعلم الخضر «ع» علم الفراسة « وعلمناه
من لدنا علماً » ، وعلم يوسف علم التعبير : « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من
تأويل الأحايث » ، وعلم داود «ع» صنعة الدروع : (وعلمناه صنعة لبوس لكم)
وعلم سليمان (ع) منطق الطير « وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير » ، وعلم
عيسى (ع) علم التوراة ﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ﴾ ، وعلم
سيدنا محمداً «ص» الشرع والتوحيد ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾ ، ويعلمه الكتاب
والحكمة ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ .

فعلم آدم كان سبباً في حصول السجدة والتحية ، وعلم الخضر كان سبباً لأن
وجد تلميذاً مثل موسى ويوشع ، وعلم يوسف كان سبباً لوجدان الأهل والمملكة ،
وعلم داود كان سبباً لوجدان الرياسة والدرجة ، وعلم سليمان لوجدان بلقيس
وتسخير الجن ، وعلم عيسى «ع» لزال التهمة عن أمه ، وعلم محمد صلوات الله عليه
كان سبباً لحصول الشفاعة .

قال بعض العلماء : إن آدم من علم أسماء المخلوقات وجد التحية من الملائكة بل
تحية الرب ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ . والخضر «ع» وجد بعلم الفراسة صحبة
موسى «ع» . فأمة الحبيب كيف لا يجدون بعلم الحقيقة صحبة محمد «ص» ،
﴿ فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين ﴾ ، ويوسف «ع» بتأويل الرؤيا
نحي من حبس الدنيا . فمن كان عالماً بتأويل كتاب الله كيف لا ينجو من حبس

الشبهات ، (ويهدي من يشاء) . وأيضاً فإن يوسف ﴿ ع ﴾ ذكر منة الله على نفسه حيث قال : ﴿ وعلمتني من تأويل الأحايث ﴾ . فانت يا عالم أما تذكر منته على نفسك حيث علمك تفسير كتابه ، فأني نعمة أجل مما أعطاك الله ، حيث جعلك مفسراً لكلامه المجيد ، وسمياً لنفسه ووارثاً لنبيه ، وداعياً لخلقه وعباده وسراجاً لأهل بلاده ، وقائداً للخلق الى جنته وثوابه ، ورادعاً لهم عن ناره وعقابه كما جاء في الحديث : ﴿ العلماء ورثة الأنبياء ، العلماء سادة الفقهاء قادة ومجالستهم زيادة ﴾ قال بعض المحققين العلماء ثلاثة : عالم بالله غير عالم بأمر الله ، وعالم بأمر الله غير عالم بالله ، وعالم بالله وبأمر الله ، أما الأول فهو عبد استولت المعرفة الالهية على قلبه فصار مستغرقاً بمشاهدة نور الجلال وصفحات الكبرياء . فلا يتفرغ لتعلم علم الاحكام إلا ما لا بد منه ، الثاني هو الذي يكون عالماً بأمر الله وغير عالم بالله وهو الذي عرف الحلال والحرام وحقائق الاحكام لكنه لا يعرف أسرار جلال الله أما العالم بالله وبأحكام الله فهو جالس على الحد المشترك بين عالم المعقولات وعالم المحسوسات ، فهو تارة مع الله بالحب له وتارة مع الخلق بالشفقة والرحمة . فإذا رجع من ربه الى الخلق صار معهم كواحد منهم كأنه لا يعرف الله ، وإذا خلا بربه مشغلاً بذكره وخدمته فكأنه لا يعرف الخلق ، فهذا سبيل المرسلين والصديقين وهذا هو المراد بقوله ﴿ ص ﴾ : ﴿ سائل العلماء وخالط العلماء وجالس الكبراء ﴾ فالمراد من قوله سائل العلماء أي العلماء بأمر الله غير العالمين بالله ، فأمر ﴿ ص ﴾ بمسائلتهم عند الحاجة الى الاستفتاء منهم .

وأما العلماء فهم العالمون بالله الذين لا يعلمون أوامر الله فأمر بمخالطتهم . وأما الكبراء فهم العالمون بالله وبأحكام الله فأمر بمجالستهم ، لأن في تلك المجالسة منافع الدنيا والآخرة . ثم قال شقيق البلخي لكل واحد من هؤلاء الثلاثة ثلاث علامات : أما العالم بأمر الله فله ثلاث علامات : أن يكون ذا كراً باللسان دون القلب

وأن يكون خائفاً من الخلق دون الرب ، وأن يستحي من الناس في الظاهر ولا يستحي من الله في السر ، وأما العالم بالله : فإنه يكون ذا كبراً خائفاً مستحيماً أما الذكر فذكر القلب لا ذكر اللسان ، وأما الخوف فخوف الرياء لا خوف المعصية ، وأما الحياء فحياء ما يخطر على القلب لآحياء الظاهر ، وأما العالم بالله وبأمر الله ، فله ستة أشياء : الثلاثة التي ذكرناها للعالم بالله فقط مع ثلاثة أخرى ، كونه جالساً على الحد المشترك بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، وكونه معلماً للقسمين الأولين ، وكونه بحيث يحتاج الفريقان الأولان إليه وهو يستغني عنهما ، ثم قال مثل العالم بالله وبأمر الله كمثل الشمس لا يزيد ولا ينقص ، ومثل العالم بالله فقط كمثل القمر يكمل تارة وينقص تارة أخرى ، ومثل العالم بالله فقط كمثل السراج يحرق نفسه ويضيء لغيره .

قال فتح الموصلي أليس المريض إذا امتنع عنه الطعام والشراب والدواء يموت فكذلك القلب إذا امتنع عنه العلم والفكر والحكمة يموت . قال بعضهم في قوله تعالى : ﴿ فاحتمل السيل زبداً رابياً ﴾ السيل ههنا : العلم شبهه الله تعالى بالماء لتمام لحسن حال أحدها كما أن المطر ينزل من السماء كذلك العلم ينزل من السماء ، والثاني كما أن إصلاح الأرض بالمطر فإصلاح الخلق بالعلم ، الثالث كما أن الزرع والنبات لا يخرج بغير المطر كذلك الأعمال والطاعات لا تخرج بغير العلم ، والرابع كما أن المطر فرع الرعد والبرق ، كذلك العلم فإنه فرع الوعد والوعيد ، الخامس كما أن المطر نافع وضار ، كذلك العلم نافع وضار ، نافع لمن عمل به ، ضار لمن لم يعمل به .

الدنيا بستان زينت بخمسة أشياء : علم العلماء ، وعدل الأمراء ، وعبادة العباد وأمانة التجار ، ونصيحة المحترفين ، فجاء إبليس بخمسة أعلام فأقامها بحجب هذه الخمسة ، جاء بالحسد فركزه في جنب العلم ، وجاء بالجور فركزه بحجب العدل ، وجاء بالرياء فركزه بحجب العبادة ، وجاء بالخيانة فركزها بحجب الأمانة ، وجاء بالفتش فركزه بحجب النصيحة .

إذا أردت أن تعلم أن علمك ينفعك أم لا فاطلب من نفسك خمس خصال :
 حب الفقر لقلّة المؤنة ، وحب الطاعة طلباً للثواب ، وحب الزهد في الدنيا طلباً
 للفراغ ، وحب الحكمة طلباً لصلاح القلب ، وحب الخلوة طلباً لمناجاة الرب . اطلب
 خمسة في خمسة : الاول اطلب العز في التواضع لا في المال والعشيرة ، والثاني : اطلب
 الغنى في القناعة لا في الكثرة ، والثالث : اطلب الأمن في الجنة لا في الدنيا ،
 والرابع : اطلب الراحة في القلة لا في الكثرة ، والخامس : اطلب منفعة العلم في
 العمل لا في كثرة الرواية .

قال ابن المبارك ما جاء فساد هذه الامة إلا من قبل الخواص وهم خمسة :
 العلماء والغزاة والزهاد والتجار والولاة . أما العلماء فهم ورثة الانبياء ، وأما الزهاد
 فهم أهل الارض ، وأما الغزاة فجنّد الله في الارض ، وأما التجار فامناه الله في أرضه
 وأما الولاية فهم الرعاة . فاذا كان العالم للدين وادعياً وللمال رافعاً فبمن يقتدي
 الجاهل ؟ وإذا كان الزاهد في الدنيا راغباً فبمن يقتدي التائب ؟ وإذا كان الغازي
 طامعاً مرأئياً فكيف يظفر بالعدو ، وإذا كان التاجر خائناً فكيف تحصل الامانة ،
 وإذا كان الراعي ذنباً فكيف تحصل الرعاية ؟ .

قال علي أمير المؤمنين (ع) العلم أفضل من المال بسبعة أوجه ، أولها : العلم
 ميراث الانبياء ، والمال ميراث الفراغة ، والثاني : العلم لا ينقص بالنفقة والمال ينقص
 والثالث : يحتاج المال الى الحافظ والعلم يحفظ صاحبه ، والرابع : اذا مات الرجل
 يبقى ماله ، والعلم يدخل مع صاحبه قبره ، والخامس : المال يحصل للمؤمن والكافر
 والعلم لا يحصل إلا للمؤمن ، والسادس : جميع الناس يحتاجون الى صاحب العلم في
 أمر دينهم ولا يحتاجون الى صاحب المال ، السابع : العلم يقوي الرجل على المرور
 على الصراط ، والمال يمنعه .

قال الفقيه أبو الليث إن من يجلس عند العالم ولا يقدر أن يحفظ من ذلك

العلم شيئاً فله سبع كرامات ، أولها : ينال فضل المتعلمين ، والثاني : ما دام جالساً عنده كان محبوباً عن الذنوب ، والثالث : إذا خرج من منزله طلباً للعلم نزلت الرحمة عليه والرابع : إذا جلس في حلقة العلم فإذا نزلت الرحمة عليهم حصل له منها نصيب ، والخامس : ما دام يكون في الاستماع تكتب له طاعة ، والسادس : إذا استمع ولم يفهم ضاق قلبه لحرمته عن ادراك العلم فيصير ذلك الغم وسيلة له الى حضرة الله تعالى لقوله عز وجل : « أنا عند المنكسرة قلوبهم لاجلي » ، والسابع : يرى إعزاز المسلمين للعالم واذلالهم للفساق فيرد قلبه عن الفسق ويميل طبعه الى العلم ، فهذا أمر صلى الله عليه وآله بمجالسة الصالحين . وقال أيضاً : من جلس مع ثمانية أصناف من الناس زاده الله ثمانية أشياء ، من جلس مع الاغنياء زاده الله حب الدنيا والرغبة فيها ومن جلس مع الفقراء جعل الله له الشكر والرضا بقسمة الله ، ومن جلس مع السلطان زاده الله القسوة والكبر ، ومن جلس مع النساء زاده الله الجهل والشهوة ومن جلس مع الصبيان ازداد من الهو والمزاح ، ومن جلس مع الفساق ازداد من الجرة على الذنوب وتسويف التوبة ، ومن جلس مع الصالحين ازداد زغبة في الطاعات ، ومن جلس مع العلماء ازداد العلم والورع .

المؤمن لا يرغب في طلب العلم حتى يرى ست خصال من نفسه ، أحدها أن يقول إن الله أمرني بأداء الفرائض وأنا لا أقدر على أدائها إلا بالعلم ، الثانية أن يقول نهاني عن المعاصي وأنا لا أقدر على اجتنابها إلا بالعلم ، الثالثة : إنه تعالى أوجب علي شكر نعمه ولا أقدر عليها إلا بالعلم ، والرابعة أمرني بانصاف الخلق وأنا لا أقدر أن أنصفهم إلا بالعلم ، والخامسة إن الله أمرني بالصبر على بلائه ولا أقدر عليه إلا بالعلم والسادسة إن الله أمرني بالعداوة مع الشيطان ولا أقدر عليها إلا بالعلم طريق الجنة في أيدي أربعة : العالم والزاهد والعابد والمجاهد فالزاهد إذا كان صادقاً في دعواه يرزقه الله الأمن ، والعابد اذا كان صادقاً في دعواه يرزقه الله

الخوف ، والمجاهد اذا كان صادقاً في دعواه يرزقه الله الثناء والحمد ، والعالم اذا كان صادقاً في دعواه يرزقه الله الحكمة .

اطلب أربعة من أربعة : من الموضع السلامة ، ومن الصاحب الكرامة ، ومن المال الفراغة ، ومن العلم المنفعة ، فاذا لم تجد من الموضع السلامة فالسجن خير منه ، واذا لم تجد من صاحب الكرامة فالكلب خير منه ، واذا لم تجد من مالك الفراغة فالدر خير منه ، واذا لم تجد من العلم المنفعة فالموت خير منه .
لا تتم أربعة أشياء إلا بأربعة أشياء : لا يتم الدين إلا بالتقوى ، ولا يتم القول إلا بالفعل ، ولا تتم المروءة إلا بالتواضع ، ولا يتم العامل إلا بالعمل فالدين بلا تقوى على الخطر ، والقول بلا فعل كالهذر والمروءة بلا تواضع كشجر بلا ثمر ، والعلم بلا عمل كغيث بلا مطر .

قال علي أمير المؤمنين «ع» لجابر بن عبد الله الانصاري : ﴿ قوام الدنيا بأربعة : بعالم يعمل بعلمه ، وجاهل لا يستكشف من تعلمه ، وغني لا ييخزل بماله ، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه . فاذا لم يعمل العالم بعلمه استكشف الجاهل من تعلمه وإذا بخل الغني بمعروفه باع الفقير آخرته بدنياه ، فالويل لهم والنبور سبعين مرة .
أربعة لا ينبغي للشريف أن يأنف منها وان كان أميراً : قيامه من مجلسه لأبيه وخدمته لضيفه وخدمته للعالم الذي يتعلم منه والسؤال عما لا يعلم ممن أعلم منه إذا اشتغل العلماء بجمع الحلال صار العوام آكلين للشبهات ، وإذا صار العالم آكلًا للشبهات صار العوام آكلًا للحرام ، وإذا صار العالم آكلًا للحرام صار العوام كافرين ﴾

العامم وتطوراته

بسم الله الرحمن الرحيم

(وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا اني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما آتاها نودي يا موسى اني أنا ربك فاخضع لعليك إنك بالوادي المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى الخ . « ١ »

إن القصص في القرآن أريد بها بعث الهمم وشحذ الأذهان . إن هذه الالام الاسلامية التي نامت في القرون المتأخرة ستستيقظ من رقدتها بمزاولة القرآن واستكناه معانيه ، وما مثل المسلم حين يقرأ علماً أو يستفيد حكمة من أي فرع من فروع العلوم العلوية أو السفلية الحسية والعقلية إلا كمثل رجل رأى قافلة مقبلة وأهله في منزله لا قوت عندهم وقد انتظروا الطعام وأنواع الأمتعة من هذه القافلة ، أو رأى سحائب أقبلت وهو في أشد الجوع والعطش فأقبل اليهم يقول بشراكم ها هي ذه القافلة أقبلت أو ها هي ذه السحائب ستمطركم . وهذه عادة كل امرء مع من يتصل به فهو اذا رأى مغتماً قد اقترب وهم في انتظاره أسرع اليهم وبشرهم . وهل هذه إلا حال موسى «ع» رأى ناراً وهو متعب في طلب « أمرين » الهداية لله والدفء

لأهله التي تضع ولا مغيث لها ولا معين في صحراء (طور سيناء) فأراه الله النار في شجرة العليق فبشر أهله بها . وهل هذه القصة جاءت لمجرد حفظها أو فهمها أو معرفة بلاعتها أو مجرد الايمان بها . كلا . كلا والله فهذه مرتبة العجائز وصغار المتعلمين . أيها المسلمون لا يغرنكم البلغاء ولا الشعراء ولا صغار العلماء ، أولاً يعلم المسلمون في أقطار الارض ان كتب الحكماء ككتاب « كيلة ودمنة » الذي جاء على أسنة الحيوانات قد قبلته جميع الأمم ؟ وهذه الحوادث التي فيه كحادثة ابن الملك والطائر (فزّه) فان هذا الطائر كان له فرخ يلعب به ابن الملك فذرق في حجره فقتله فأقبل الطائر ففقأ عين ابن الملك اقتصاصاً لابنه ، فأراد الملك أن يخدع الطائر ويقول له اقبل ويكون بيننا الصلح فعلم الطائر انه يريد الغدر به فلم يقبل ، وكانت نتيجة ذلك هذه الحكمة (وهي انه لا أمان لعدو قوي له علينا ثأر وإن أظهر لنا تضرعاً وملقاً) .

وكحادثة الجرذ والسنور إذ ضرب مثلاً - لرجل كثر أعداؤه وأحدثوا به من كل جانب فأشرف على الهلاك فالتمس النجاة والخرج بموالة بعض أعدائه ومصالحته فسلم من الخوف وأمن ، ثم وفي لمن صالحه منهم - ذلك ان الجرذ خرج يوماً فرأى السنور وقع في شبكة الصياد ورأى ابن عرس خلفه يريد أخذه وفي الشجرة يوم يريد اختطافه أيضاً فصالح السنور وهو أحد أعدائه لينجو منه ومن الباقي فقطع حباله إلا واحداً حتى لا يقتله السنور ، ولما رأى ابن عرس والبوم اقترابه من عدوهما يتسا منه وانصرفا ، فلما أقبل الصياد نحو السنور أقبل الجرذ فقطع الحبل الباقي فتنجا السنور بذلك كما نجا الجرذ وانتهى الأمر .

فهاتان الحادستان يفرح بهما الاطفال والجهال باعتبار ظواهرهما . أما رجال السياسة ورجال الحكمة وهم سادات الأمم في الدنيا والدين فانهم يقولون (إن المقصد ان الافراد والأمم عليهم انهم إذا وقعوا في ورطة وتألبت عليهم الأعداء أن يصالحوا

بعضهم مع الاحتراس ، وبهذه المصالحة ينجون من بقية الأعداء ومن نفس ذلك العدو الذي صالحوه .

وهذه الامم الاسلامية إذا قرأت هذه السورة تفهم فوق ما يفهمه الجهلاء فماذا يقولون ؟ يقولون إن كل عاقل في الارض - لاسيما المسلمين - عليه أن يسمى لغرضين : الاول اصلاح حال الامة من حيث الامور المادية ، الثاني : اصلاحها من حيث الهداية العلمية ، وهذان يجمعهما القبس والهداية ، فالأول مادي والثاني عقلي . وهذا هو نظام الامم جميعها ، فلا نظام لامة تخرج عن هذين الأصلين . وإذا كنا نجد مصالحة الجردز للسنور ونجاته من ابن عرس والبوم جملة رمزاً لمصالحة بعض الدول المعادية أو الجماعات للنجاة من الجميع وهذا سر كلام فيلسوف مخلوق ، أفلا يكون كلام الله أولى باستتاج الحكمة والعلم والعرفان ؟ .

أنزل الله تعالى على نبيه محمد (ص) قصة موسى (ع) ليأتم به في تحمل اعباء الرسالة ومشاقها فقال تعالى : « وهل أتاك يا محمد حديث موسى إذ رأى ناراً » .

ذلك أنه استأذن شعبياً (ع) في الخروج الى امه وأن يخرج بأهله من مدين الى مصر فأذن له فخرج بأهله وماله وكانت أيام الشتاء فأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام وامرأته حامل في شهرها لا يدري أليلاً تضع أم نهاراً ، فسار في البرية غير عارف لطرقها فالتجأ المسير الى جانب الطور الغربي الأيمن ، وذلك في ليلة مظلمة مثليجة شاتية شديدة البرد ، فأخذت امرأته في الطاق فأخذ زنده فجعل يقدهه فلا يوري فأبصر ناراً من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطور ، فقال لأهله : امكثوا اني آنست ناراً - أي أبصرت ناراً - لعلني آتيكم منها بقبس - أي شعلة من النار أو جرة « أو أجد على النار هدى » هادياً يدلني على الطريق أو يدلني على الله تعالى .

وتوجيه المعنى الثاني : إن الأبرار مفلطرون على التوجه لمعرفة الله تعالى فهم

ينشدونها في كل زمان ومكان لأدنى مناسبة وقلوبهم أقرب لذكر الله ، إذا رأوا نوراً مشرقاً فهم يذكرونه عند الغروب والشروق ، فكان طلب موسى لمن يهديه لربه حين نظر النور أمراً أوجبته فطرته ، فقال أو أجد فوق المكان القريب من النار هادياً ، فالمستعلي هو الهادي المترب والمستعلي عليه المكان القريب من النار . (فلما أتاها) ، أي النار ، وجد ناراً بيضاء تتقد من شجرة كأضواء ما يكون فلا ضوء النار يغير خضرة الشجرة ولا خضرة الشجرة تغير ضوء النار . وكان موسى كلما دنا نأت عنه الشجرة وإذا نأى دنت منه ، فوقف متحيراً وسمع تسبيح الملائكة والقيت عليه السكينة فهناك « نودي يا موسى » ، قال من المتكلم ؟ « قال إني أنا ربك » ، فوسوس اليه الشيطان قائلاً لعلك تسمع كلام الشيطان ، فقال أنا عرفت انه كلام الله بأنني أسمع من جميع الجهات وبجميع الاعضاء . وهذا معناه ان المعاني القيت على روحه ثم اشرب بها قلبه اشرباً حتى فاضت على الحس المشترك ، « والحس المشترك هو القوة المدوعة في الدماغ التي هي قابلة لما يرد في الحواس من العلوم فتوصله للعقل » .

وهنا عكس الامر فجاء العلم من داخل النفس وانتقش فيه فلهذا رمز بأنه من جميع الجهات أي أنه ليس من جهة خاصة بل من النفس ، والنفس لا جهة لها بل هي أمر فوق الجهات كلها ، كما أنه تعالى ليس في مكان بل كل مكان تحت أمره . ثم أمره تعالى أن يخلع نعليه احتراماً للبقعة المقدسة فقال تعالى : « فأخلع نعليك » ، وعلل ذلك بقوله : « إنك بالواد المقدس طوى » .

وفيه « تنبيه » ان قابلية العلم لا تكون إلا مع أمرين « طهارة النفس من الجبائث كما خلع موسى نعليه الذين هما من جلد حمار ميت » ، وخلع النفس من التعلق بمتاع الدنيا الذي هو العائق الأكبر عن تحصيل العلم .

الاسلام دين علم وعمل ، ولما ضلت الممالك الاسلامية الكبرى سواء السبيل جهلت العلوم الكونية والعقلية صاروا لم يصلحوا لهداية العالم المتعلم فنبذهم الاسلام فلم

ينصروا على أعدائهم من الاوربيين ، وأصبحوا يلتمسون العلوم من الامم الاوربية ويستضيئون بأنوارهم ويهتدون بهديهم ويرتوون من مواردهم ويكرعون من مشاربهم ، أو ليس ذلك دليلاً على أن الامم الاسلامية الكبرى جهلت الحقائق وظنت أن المسلم لا يعنيه العلم بل الجهل يكفيه والقوت يرضيه وهو غافل عما أبدع الله في الارض والسموات وبراً فيهما من البدائع وأحسن فيهما من صنع وأبدع وأجاد وذراً من كل زوج بهيج .

لهذا السبب ذهبت الامم الاسلامية فأصبحوا لا ترى إلا آثار آبائهم لأن الجهل بالعلوم خيم فيما بينهم وضرب عليهم سرادقاته فضر بهم الدهر ضرباته فذل العزيز وعز الذليل وخضع العظيم وعظم الحقير .

فاذا وجدنا أن الذين يتغلبون على كثير من النواحي والامم إنما تغلبوا بتنافسهم في الخير وخلاله من الكرم والعفو عن الزلات وبذل الأموال في صون الاعراض وتعظيم الشريعة واجلال العلماء الحاملين لها والوقوف عند ما يحدونه لهم من فعل أو ترك وحسن الظن بهم . فاذا علمنا ذلك في المتغلبين علمنا أن هذه أخلاق السياسة قد حصلت لديهم واستحقوا أن يكونوا ساسة لمن تحت أيديهم أو على العموم وأنه خير ساقه الله تعالى اليهم ، وبالعكس من ذلك إذا أذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات واتسحال الرذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل منهم جملة ولا تزال في انتقاص الى أن يخرج الملك من أيديهم ويتبدل به سواهم ليكون نعيماً عليهم في سلب ما كان الله تعالى قد آتاهم من الملك وجعل في أيديهم من الخير وإنما ذكرت هذه الكلمات مع طولها لأنها هي القاعدة التي سأنبي عليها ما سأذكره من أن حب العلم وتعظيم العلماء واکرامهم هو محور الرقي ، وبضدها تتميز الأشياء وأنه ما من أمة أو دولة ناوأت العلم والعلماء إلا ونأت عن العز وجانبت الخير والسعادة وكانت الى الموت أقرب منها الى الحياة .

فهاك العصر العباسي الذي ابتداء سنة ١٣٢ هـ أي من سقوط الدولة الأموية الى سقوط بغداد على يد « هولاء كو » سنة ٦٥٦ هـ ، لقد كان الرشيد والمأمون وقبلهما المنصور والهادي والمهدي كل هؤلاء كانوا يكرمون العلماء ويحرصون على نشر العلم ، وهذا أمر مشتهر عنهم ، لذلك زهت الدولة في عصرهم واتسع نطاقها وارتفع رواقها الى أن جاء المتوكل انحرف كل الانحراف على العلماء ، فقد قتل ابن السكيت الرجل الشهير والعالم التحرير مفخرة العراق وغرة جبهة الدهر ، وغضب على (بنخيشوع) الطيب وقبض ماله ونفاه الى البحرين ، وسخط على عمر بن مصرح الراجحي وكان من عليه الكتاب ، فاضطربت لذلك الاحوال واستفحل شأن الاتراك ونفرت قلوب طلبة العلم وأكثرهم من الفرس والعرب ، فتفرقوا من بغداد رويداً رويداً .

أفلا ترى عقاب الله للدولة ، أفلا تراه كيف أنزل العقاب صارماً على الامة على ما فعله المتوكل ؟ إذ قتل بعض العلماء ونفى بعضاً وضع بعضاً ، فقتل من أجل ذلك هو أولاً ثم اختلت المملكة وقويت شوكة العامة على الملوك وهاجر العلم من بغداد فالتوكل وأمثاله لم يقولوا ربي زدني علماً كما أمروا ، بل قالوا ربي زدني جهلاً وهذا كقوله تعالى في سورة سبأ : « فقلوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم » (١) . إن أهل سبأ لم يطلبوا من الله أن يباعد بين أسفارهم ، بل كان فعلهم من التخريب والسلب والنهب أوجب ذلك نفوحت البلاد وطالت مسافات السفر في القفر بعد اتساع نطاق العمارة . هكذا هنا لم يقل المتوكل ربي زدني جهلاً وإنما جرى على اسلوب لا يوافق ازدياد العلم كما امر في الآية فتمت كلمة العذاب عليه فهذا مصداق ماقلته من أن احترام العلم والعلماء علامة الرفعة والعكس بالعكس .

عز العلم في ظل الدولة البويهية

أنصار هذه الدولة الديلم من الحيلان وراء خراسان . وآل بويه يرتفعون في نسبهم الى ملوك الفرس القدماء ، وجد آل بويه اسمه (بويه) ولقبه أبو شجاع له ثلاثة أبناء هم : علي ولقبه عماد الدولة ، وحسن ولقبه ركن الدولة ، وأحمد ولقبه معز الدولة .

كان آل بويه هؤلاء يحبون العلم والادب ، وكان وزراؤهم من العلماء والشعراء والكتاب كابن العميد والصاحب بن عباد وسابور بن اردشير المهلبى ، بل نفس ملوك آل بويه اشتهر بعضهم في العلم والادب مثل عضد الدولة وقد قرب اليه العلماء واستحثهم على تأليف الكتب ، فألف له أبو اسحاق الصابي كتاباً في أخبار آل بويه ، وألف له أبو علي الفارسي كتاب « الايضاح والتكملة » في النحو ، وقصده الشعراء من كل صوب كالمتنبى والسلاحي وغيرهم . ومن شغفه بالشعر تمنى أن يكون هو المصلوب بدل ابن بقية الوزير لتقال فيه قصيدة محمد بن عمران الانباري التي مطلعها .

علو في الحياة وفي الممات لعمرك تلك احدى المعجزات

وقد كانت عظمة دولتهم كلها ترجع لنصرهم العلم وشدة رغبتهم فيه . فانظر كيف كان ركن الدولة ابن بويه في الري وهمدان واصبهان مستوزراً ابن العميد الكاتب الشهير ، وهكذا بهاء الدولة ابن عضد الدولة في العراق والاهواز استوزر سابور بن اردشير فأنشأ هذا الوزير في كرخ بغداد خزانة كتب وقفها على افادة الناس . قال ياقوت : لم يكن في الدنيا أحسن كتب منها ، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتمدة واصولهم المحررة ، وقد كان الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة ابن ركن الدولة ، ثم وزر لأخيه نغم الدولة وكان له عشرات من أهل العلم والادب يقيمون عنده وعشرات يقدون عليه .

عز العلم في ظل الدولة السامانية في تركستان

رأس هذه الدولة سامان من أشراف بلخ ، واعقابه هم الذين أنشأوا دولة عظيمة في خراسان و تركستان ، وزعت في أيامهم بخارى فكانت تجمع الادباء والعلماء والشعراء ، واشتهرت نيسابور وانشئت فيها أقدم المدارس الاسلامية . وملوك هذه الدولة عشرة اشتهر كثير منهم بالعلم والأدب . منهم منصور بن نوح الذي استوزر البلعمي العالم الفارسي فترجم له تاريخ الطبري الى اللغة الفارسية : وخلفه ابنه نوح وهو الذي اقترح نظم الشاهنامه « الياذة الفرس » في الفارسية ، اقترح ذلك على شاعره الدقيق فنظم له بعضها ولما قتل اتهمها الفردوسي بعده بإشارة السلطان محمود الغزنوي ، ولما سمع نوح بشهرة الصاحب بن عباد وزير البويهيين كتب اليه سرّاً يستدعيه الى بخارى ليفوض اليه وزارته وتدير مملكته ، فاعتذر الصاحب اليه بأن كتبه تحتاج في نقلها الى أربعةائة جمل .

واتسع العلم في زمن الدولة الغزنوية بأفغانستان والهند وكان أعظم ملوك هذه الدولة السلطان محمود من ٣٨٨ الى سنة ٤٦١ هـ صاحب الفتوحات العظيمة ، وهو الذي اخترع المدفع وبه فتح بلاد الهند لما تعمس عليه فتحه . كان محمود هذا لا يسمع بعالم أو شاعر إلا استقدمه اليه وكتب الى مأمون بن مأمون أمير خوارزم (علمت أن في مجلسك جماعة من العلماء المبرزين فارسلهم الي ليتشرف مجلسي بهم ونستفيد من علمهم) إن إكرام العلماء كان في نظر أهل ذلك العصر من أسباب الابهة وأدلة الحضارة . فهذا وأمثاله من الاعم الفارسية أكرموا العلماء وعظموا العلم وتنافسوا فيه لأن لهم سابقة في ذلك وهم الأكاسرة - ملوك الفرس - اولئك الذين شادوا للعلم مناراً ورفعوا له قدراً وهؤلاء الملوك على آثارهم يهرعون وبهم يقتدون وعليهم يقومون فهل يعلم ذلك امراء العرب بالجزيرة اليوم ان لآبائهم دولة كانت شامخة الذرى رفيعة القدر ، فهل يشرفون آباءهم باحتدائهم حذوهم كما فعل اولئك الفارسيون ؟ .

إن هؤلاء الملوك الفارسيين سواء أكانوا من البويهيين أو السامانيين قد نزعوا في إكرام العلماء الى ما نزع اليه كسرى إذ أرسل برزويه الطبيب الفارسي الى بلاد الهند ليترجم له كتاب كلية ودمنة ، فتوجه الطبيب المذكور خفية الى الهند وبقي مختفياً فيها مدة من السنين يحاول تدبير الحيلة في الدخول الى المكتبة الى أن أمكنته الفرصة فترجم الكتاب - أي نقله من اللغة الهندية الى اللغة الفارسية - ورجع به وقرأه على الملك ووجوه القوم ، فأكرم مثواه وأنزله المنزلة السامية وخلع عليه وقال له خذ ما تشاء من الأموال فقال كلاماً ثم كلاً ولكنني أريد أن يكتب وزيرك تاريخ حياتي في مقدمة الكتاب تشريفاً لي ، ففعل وكتب تاريخ حياته وانه تولد من أبوين شريفيين ، وانه طلب العلم لله والدار الآخرة لا للجاه ولا للمال ، وانه كان يأخذ على التطيب أجراً عظيماً من الأغنياء ويصرفه على الفقراء المرضى ويواسيهم من جيبه الخاص ، وانه كان يعتقد ان من طلب العلم لأجل العلم والله نال الدنيا مع العلم ، ومن تعلم العلم للدنيا فقط لم ينل حظ الآخرة . فطاب العلم اما أن يكون عمله كالحنطة أو كالسكلاء فزرع الحنطة ينفع للانسان والحيوان ، وزرع السكلاء لا يفيد إلا البهائم فمن طلب الأعلى نال معه الأدنى ، ومن طلب الأدنى لم ينل الأعلى .

رقي العلم بالاندلس في عصر الدولة المروانية

كان الناصر وابنه الحكم محبين للعلم معظمين للعلماء وكان الفقهاء والادباء يحضرون مجالسهما ، وكان الناصر مولعاً باقتناء الكتب فجمع منها ما لم يجمعه أحد قبله وأنشأ في قرطبة مكتبة جمع اليها الكتب من أنحاء العالم ، كان يبعث في شرائها رجلاً من التجار ومعه الاموال يحرضه على البذل في سبيلها لينا فاس بن العباس في اقتناء الكتب وتقريب الكتاب ، وكان أبو الفرج الاصبهاني صاحب الأغاني معاصراً له وهو أموي فبذل له ألف دينار ذهب على أن يرسل اليه كتاب الأغاني قبل اخراجه الى بني العباس ، وكانت فهارس الدواوين وحدها « ٤٤ » فهرساً ، في كل فهرس

عشرون ورقة . قال بعضهم فإذا قدرنا للصفحة « ٢٥ » اسماً فقط كان مجموع عدد الدواوين « ٤٤٠٠٠ » كتاب فكيف بسائر الكتب ، يقول ابن خلدون : إن مجموع ما حوته تلك المكتبة « ٤٤٠٠٠٠٠ » .

رقي العلم في الدولة الفاطمية بمصر

استولى الفاطميون على مصر سنة ٣٥٧ هـ وقد نبغ في تنشيط العلم منهم اثنان العزيز بالله سنة ٣٦٥ الى سنة ٣٨٦ ، والحاكم بأمر الله سنة ٣٨٦ الى سنة ٤١١ فأنشأ خزان الكتب فيها مئات الآلاف من المجلدات في العلوم في مكتبته التي تسمى « دار الحكمة » أو « دار العلم » ، وقد أباح فيها المناظرة للمتريدين اليها وسهل لهم المطالعة والنسخ ، وأنشأ المرصد الحاكمي وبناه على جبل المقطم وبقي عمدة الراصدين حتى بنى نصير الدين الطوسي مرصده في مراغة بتركستان سنة ٦٥٧ هـ .

لسائل أن يسألني عن هذه الذخائر العلمية والثغائس الغالية ما صنع الدهر بها علي أجيب بأن الأيوبيين الذين ورثوا ملك الفاطميين أنزلوا غضبهم ونقمتهم على مكاتب الفاطميين فأبادوها وأحرقوها وقذفوا بها الى تلال المقطم فضاعت هذه الكنوز العلمية الثمينة بسبب التعصب الأعمى وخسرها العالم الاسلامي ، وهذه خيانة وجناية كبرى ويد أثيمة من الأيوبيين على الاسلام والمسلمين والعلم .

ذكر الشيخ الطنطاوي في مجلد ٩ من تفسيره ص ١٧٥ : « ان صلاح الدين الأيوبي انتزع الخلافة من الفاطميين وجعلها لنفسه ، وعدا على الاسرة الفاطمية أولاد علي وفاطمة فأفناها عن آخرها وجعلهم في بيوت خاصة - أي سجون - وفرق بين الرجال والنساء حتى لا يتوالدوا كما صنع فرعون موسى في بني إسرائيل ثم عدا على قبورهم فهدمها عن آخرها ، وأمر الناس أن ينوا عليها بنياناً حتى لا تكون لهم قبور تزار ولا أسماء تذكر ، وكذا ذكر المقرئ في خططه من تاريخ مصر من الفطايح التي عملها معهم مما يقرح قلب كل مسلم عربي غيور .

الى هنا انتهى ما أردت ذكره من تعاون امراء الاسلام وملوكهم على نصر العلم وحب العلماء وان ذلك هو رأس الأمر وملاكه .
 فحب العلم وتعظيم العلماء إذا حلَّ بأمة فتحت لها باب الفضائل وسائر أخلاق المكالم ، وذلك إيذان من الله بأنهم يملكون زمام السياسة ، وإذا ادبر عن الأمة هذا الحب نفرت منهم سائر الفضائل ويتبعها ذهاب الدولة ، ولقد عجبت لأهم الاسلام المتأخرة كيف ضلوا وجهلوا ؟ ولله عاقبة الامور .

هذه هي الصورة الواضحة الظاهرة الجميلة من تعاون امراء الاسلام على نصر العلم واحترام العلماء وحبهم ، وكيف رأينا المجد والعز يصاحب العلم ، فلما أن نسوا ذلك وتأخروا عن نصر العلم وتباعدوا عن العلماء وأحرقوا كتبهم انحطت الامم الاسلامية ، ولم يمض أقل من قرن حتى دخل هولاء كوف بغداد وسلط الله عليهم الحروب الصليبية وهجم المغول والتتار فاكتمسحوا ما بالكاتب من الكتب وأحرقوا منها الوفاً لا تحصى .

فلما كره المسلمون العلم فر منهم الى أوروبا وتنافس ملوكها في عصرنا على حب العلماء كما كان في الدول الاسلامية قبل اليوم .
 إن العلم لما حماه المسلمون بقي عندهم وأعز دولهم ، ولما أهانوه وأهانوا حامليه وأحرقوا كتبه التبعاً الى الامم المسيحية وقرت عينه هناك بهم .

الطب وأثره في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفأرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يعيتني ثم يحيين «١» .

قال تعالى : (واتل عليهم) يا محمد - أي على مشركي العرب - (نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون) أي أي شيء تعبدون ؟ وهذا الاستفهام للاستخفاف بما يعبدون وأنه لا يستحق العبادة (قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين) ، أي نقيم على عبادتها ليلاً ونهاراً ، (قال هل يسمعونكم إذ تدعون ؟) أي هل يجيبكم الآلهة إذا دعوتهم ؟ (أو ينفعونكم) في معاشكم إذا أطعتموهم (أو يضرون) في معاشكم إذا عصيتموهم ؟ « قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » يعبدونها فنحن نعبدهم مقتدين بهم ، قال إبراهيم «ع» (أفأرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون)

« فانهم عدو لي » أي أعداء لعابديهم لأن عبادتهم أضرت على العابدين من الأعداء « إلا رب العالمين » استثناء منقطع أي ولكن رب العالمين ، ثم وصفه بمجموعة صفات ترجع الى افاضة الخير والنعمة على العبد .

« ١ » خلقه من نقطة ، « ٢ » هداه لثدي أمه ولما بعده من امور المعاش والعلم واصلاح نفسه ، « ٣ » انعم عليه بالطعام والشراب لبقاء بدنه ، « ٤ » انعم عليه بالشفاء إذا مرض وذلك اما بالعقاقير واما باجابة الدعاء .

يقول جلا وعلا على لسان ابراهيم : « وإذا مرضت فهو يشفين » نسب الشفاء لله ليفتح لنا باب البحث والنظر في أمر الشفاء وعلم الطب ، فان العلماء لما بحثوا في أصل الطب من أين جاء تميزوا ولكن بعد التباين والتي وجدوه لا يعدو « ثلاثة أحوال » .

الحالة الاولى : التجربة ، الحالة الثانية الالهام ، الحالة الثالثة : المصادفة والاتفاق . فهذه الأحوال الثلاث هي اصول الطب .

الحال الاولى

« ١ » يقولون إن امرأة كانت بمصر وكانت شديدة الحزن والههم مبتلاة بأمراض كثيرة ، منها ضعف المعدة ، ومنها امتلاء الصدر باخلاط رديئة ، ومنها احتباس حيضها ، فاتفق انها أكلت « الراسن » مراراً كثيرة بشهوة ، فذهب عنها جميع ما كان بها ورجعت الى صحتها ، فلما سمع به الناس استعملوه فبرئوا من ذلك المرض « ٢ » إن رجلاً اشترى كبداً طرية من جزّار ومضى الى بيته ، فاحتاج أن ينصرف في حاجة اخرى فوضع تلك الكبدة المشتراة على أوراق نبات مبسوبة كانت على وجه الارض ثم قضى حاجته وعاد ليأخذ الكبدة فوجدها قد ذابت وسالت دماً فأخذ تلك الأوراق وعرف ذلك النبات وصار يبيعه دواء للتلف حتى فطن به وامر

بقتله وأمر أن تشد عيناه في وقت مروره الى القتل حتى لا ينظر الى ذلك النبات أو أن يشير الى أحد نحوه فيتعلم منه .

« ٣ » حدث جمال الدين النقاش السعودي : ان في لحف الجبل الذي بناحية « اسعرد » عشباً كثيراً ، وان رجلاً نام على نبات هناك فلم يزل نائماً حتى رآه الناس والدم يسيل من أنفه ومن مخرجه فتعجبوا ، حتى ظهر لهم أن ذلك من النبات الذي نام عليه . والنبات أشبه بالهندبا - وهو مر المذاق ، وان كثيراً من الناس يقربونه من أنوفهم ويستشقونه مراراً فيحدث لهم رعاف .

وملخصها ان أمثال هذه الحوادث تنبه الأذكياء الى البحث والتنقيب حتى يركبوا أدوية كثيرة باجتهدهم هذا ملخص أمر التجربة في الطب .

الحال الثانية

الالهام وذلك بالرؤيا الصادقة

حكى « جالينوس » في كتابه في الفصد إذ فصد العرق الضارب لما أمر به ، قال : إني أمرت في منامي مرتين بفصد العرق الضارب الذي بين السبابة والابهام من اليد اليمنى ، فلما أصبحت فصدت هذا العرق وتركت الدم يجري الى أن انقطع من تلقاء نفسه ، لأنني كذلك أمرت في منامي ، فكان ما جرى أقل من رطل فسكن عني - بذلك المكان - وجع كنت أجده قديماً في الموضع الذي يتصل به الكبد بالحجاب ، وكنت في وقت ما عرض لي هذا غلاماً .

« ٤ » وقال جالينوس : (رأيت رجلاً عظم لسانه واتفخ حتى لم يسهه الفم فتحايلت في مداواته ، ففي ليلته رأى قائلاً يقول له امسك في فك عصارة الخس ، فاستعمل هذه العصارة كما امر في المنام وبرأ تماماً ، ثم قال جالينوس في شرحه لكتاب « الايمان » لأبقراط ما نصه : وعامة الناس يشهدون أن الله تبارك وتعالى

هو الملهم لهم صناعة الطب من الاحلام والرؤيا التي تتقدم من الأمراض الصعبة وذلك إنا نجد خلقاً كثيراً ممن لا يحصى عددهم أتاهم الشفاء من عند الله تبارك وتعالى بمثل ذلك .

(٥) قال (أرياسيوس) : إن رجلاً عرض له في المئانة حجر عظيم ، قال وقد داويته بكل دواء فلم ينجح ، فلما اشرف على الهلاك رأى في النوم إنساناً أقبل وفي يده طائر صغير الجنة ، فقال له هذا الطائر يكون بمواضع السباحات والآجام نخذه واحرقه وتناول من رماده حتى تسلم ، فلما اتبته فعمل ذلك فخرج الحجر من مثانته مقتساً كالرماد وبرأ برء تاماً .

﴿ ٦ ﴾ قال ابن أبي اصبيحة : ﴿ إن بعض خلفاء المغرب مرض مرضاً طويلاً وتداوى كثيراً فلم يستفع بها ، فرأى في بعض الليالي النبي (ص) في نومه فشكا له ما يجده ، فقال ﴿ص) : ﴿ ادهن بلاوكل لا تبرأ ، فلما اتبته من نومه بقي متعجباً من ذلك ولم يفهم ما معناه ، ولم يعرف المعبرون عنه شيئاً إلا علي بن أبي طالب القيرواني فانه قال : يا أمير المؤمنين إن النبي ﴿ص) أمرك أن تدهن بالزيت وتأكل منه فبرأ لأن الله يقول : ﴿ من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ﴾ ، فلما استعمل ذلك صح وبرأ .

﴿ ٧ ﴾ قال ونقل من خط علي بن رضوان في شرحه لكتاب جالينوس في فرق الطب ما نصه : ﴿ قد عرض لي منذ سنين صداع مبرح عن امتلاء في عروق الرأس ففصدت فلم يسكن وأعدت الفصد مراراً وهو باق على حاله ، فرأيت جالينوس في النوم وقد أمرني أن أقرأ عليه حيلة البرء فقرأت عليه منها سبع مقالات ، فلما بلغت الى آخر السابعة نسيت ما بي من الصداع وأمرني أن أحجم ﴾ القمحدوة ﴿ من الرأس ، ثم استيقظت فحجمتها فبرأت من الصداع على المكان .

﴿ ٨ ﴾ قال عبد الملك بن زهر في كتاب التيسير : ﴿ إنني كنت قد اعتل

بصري من قيء افراط علي فعرض لي انتشار في الحذقين دفعة ، فشغل بذلك بالي فرأيت فيما يرى النائم من كان في حياته يعني بأعمال الطب ، فأمرني في النوم بالاكتحال بشراب الورد وكنت لم أزل طالباً لم يكن لي حنكة في الصناعة فأخبرت أبي فنظر في الأمر ملياً ثم قال استعمل ما امرت به في نومك فانتفعت به ثم لم أزل استعمله الى وقت وضعي هذا الكتاب في تقوية الأبصار . ومثل هذا أيضاً كثير مما يحصل بالرؤيا الصادقة ، فانه قد يعرض أحياناً لبعض الناس أن يروا في منامهم صفات أدوية ممن يوجد هم إياها فيكون بها برؤهم ثم تشتهر بالمداداة بتلك الادوية فيما بعد .

الحال الثالثة

أن يكون قد حصل لهم شيء بالاتفاق والمصادفة مثل ما حصل لاندروماخس وغيره حيث عرف بالاتفاق أن سم الحياة يشفي بلحومها ، وهكذا كل سم لحيوان يمنع ضرره لحم ذلك الحيوان ، وهكذا يشفي كل مرض مزمن قوي بلحوم الحيات كالبرص والجذام . فان ابن أبي اصبيحة ذكر في عيون الأنباء في طبقات الأطباء أن « اندروماخس » الثاني وضع لحوم الأفاعي في الترياق ، قالو الذي نشطه لذلك وأفرد ذهنه لتأليفه « ثلاثة أسباب » جرت على غير قصد وهذا كلامه . قال التجربة الاولى : إنه كان يعمل عندي في بعض ضياعي في الموضع المعروف « بيورنوس » حرثاؤون يحرثون الأرض للزرع ، وكان بيني وبين الموضع نحو فرسخين وكنت ابكر اليهم لأنظر ما ذا يعملون ؟ وذكر أن غلامه كان يحمل لهم زاداً وشرباً فاحضر لهم يوماً خمرأ طيباً في اناء طين لم يفتح فلما فتحوه وجدوا فيه حية قد تهرأت فقالوا إن هننا رجلاً مجذوماً يريد أن يموت فاذا سقيناه أرحناه من الحياة ولنا ثواب عند الله فمضوا اليه فأعطوه زاداً وسقوه الخمر موقنين أنه لا يعيش يومه ، فلما قرب الليل انتفخ جسمه نفخاً عظيماً ، فلما كانت الغداة سقط جلده الخارجي وظهر الجلد الداخلي الاحمر ولم يزل حتى صلب جلده وبرأ وعاش دهرأ طويلاً من غير أن يشكو علته

حتى مات الموت الطبيعي . قال : فهذا دليل قاطع على أن لحوم الأفاعي ينفع من الأوصاب الشديدة والأمراض العتيقة في الأبدان .

وأما التجربة الثانية : فإن « اندروماخس » كان له أخ يسمى (أبولنيوس) مساحاً من قبل الحكومة على الضياع فصادف يوماً في حمارة القيظ انه نام فنهشته أفعى في يده وكان قد ألقى يده على الأرض من شدة تعبته فأتته بفزع وعلم أن الآفة قد لحقته ولم يكن به على القيام طاقة ليقتل الأفعى ، وأخذ الكرب والغشي فكتب وصية وضمنها اسمه ونسبه وموضع منزله وصفته وعلق ذلك على الشجرة حتى إذا مات واجتاز به إنسان ورأى الرقعة يأخذها ويقرأها ويعلم أهله ثم استسلم للموت وكان قد غلبه العطش فشرب من ذلك الماء شرباً كثيراً فلم يلبث الماء في جوفه حتى سكن ألمه وما كان يجده من ضربة الأفعى ثم برأ فبقي متعجباً ولم يعلم ما كان في الماء ، فقطع عوداً من الشجرة وأقبل يفتش به الماء لأنه كره أن يفتشه بيده لئلا يكون فيه أيضاً شيء يؤذيه فوجد فيه أفعين قد اقتتلا ووقعا جميعاً في الماء وتهرتا ، فأقبل أخيه الى منزلنا صحيحاً سالماً وترك ذلك العمل الذي كان فيه واقتصر على ملازمته وكان هذا دليلاً على أن لحوم الأفاعي ينفع من نهش الافاعي والحيات والسباع الضارية . قال وأما

التجربة الثالثة : فانه كان للملك « بيولوس » غلام وكان شريراً غمازاً خاراً فيه كل بلاء وكان كبيراً عند الملك يحبه لذلك ، وكان قد آذى كثيراً من الناس فلجتمع الوزراء والقواد على قتله فلم يتهياً لهم ذلك ، فصمموا أن يضعوا السم في شرابه حتى إذا مات حملوه الى الملك ليس به جراح ، فلما وضعوه في الشراب لم يلبث إلا قليلاً حتى مات فتركوه في بعض البيوت وختموا عليه ووضعوا الحراس عليه وتوجهوا للملك ، فلما ساروا بأجمعهم الى الملك رأى الفعلة أفعى قد دخل الى البيت الذي فيه الغلام فلم يتهياً لهم أن يدخلوا خلفه ويقتلوه لان الباب كان مختوماً فلم يلبثوا إلا ساعة

وإذا بالغلام يصيح بهم لم أقفتم على الباب ؟ أغثوني قد لسعني أفعى ، ثم كسر الباب وخرج ليس به مرض . قال وكان هذا دليلاً على أن لحوم الافاعي تنفع شرب الأذوية القتالة المهلكة .

هذا جملة ما ذكروه من التجربة والأحلام والمصادقات والاتفاق ، وإنما ذكرت ذلك لتفهم قوله تعالى : « وإذا مرضت فهو يشفين » .

إن الشفاء من الله تعالى فانه اما أن يلهم الناس في أحلامهم وهذا منه تعالى ، وإما أن يلهمهم في اليقظة فيفكرون كما في الحال الاولى وهذه هي التجربة ، وإما أن تقع لهم الاشياء مصادفة فيفكرون فيها فسواء أكان بالأحلام أم بالاعتبار والبصيرة فكل هذا من الله . ولتعلم أن الله عز وجل لا يحب أن تكون جميع علومنا بالأحلام والرؤيا ولا بوحى الانبياء ، لان الاحلام إنما هي موقظات فقط . ثم إن الناس عليهم أن يجتهدوا بأنفسهم ليرتقوا . اما الانبياء عليهم السلام فإن الله جعلهم قليلاً في الارض ، هكذا النابغون والحكماء في الامم ، ذلك لان الله يريد أن يجعل هؤلاء الانبياء موقظين فيوحي اليهم قولاً أجمالياً ويطلب من أتباعهم أن يفكروا فيه . فلو أن الناس أتت لهم جميع علومهم بطريق الرؤيا أو كان الانبياء معطين الناس كل علم وكل حكمة بحيث لا يفكرون ولا يدرسون وإنما يعيشون على أحلامهم الصادقة وأنبيائهم الصادقين لكان ذلك وبالاً ، ولذلك تجدد الاحلام الصادقة قليلة جداً والانبياء قلائل والعلوم التي أتوا بها تحتاج الى التعقل والتفكير حتى لا تموت عقول الشعوب التابعة لهم بالانكسار على ما سمعوه . وعلى كل فالشفاء من الله أما بالرؤيا وأما بالجد والاجتهاد والتفكير والاول مبادئ وما بعده هو الاغلب الاكثر ألاءم .

وهناك « حال رابعة » : وهي ما يشاهده الناس في الحيوان مثل ما ذكره الرازي في كتاب (الخواص) : ان الخطاف إذا وقع بفراخه اليرقان مضى فجاء بحجر اليرقان وهو حجر أبيض صغير يعرفه فجعله في عشه فيراً ، وان الانسان إذا

أراد ذلك الحجر طلاً فراخه بالزعفران فيظن انه قد أصابهم اليرقان فيمضي فيجىء به فيؤخذ ذلك الحجر ويلقى على من به اليرقان فينتفع به . ﴿ هكذا يقول ابن أبي أصيبعة والله العالم بالحقائق ﴾ .

وكذلك من شأن العقاب الاتى انه إذا تعسر عليها يبضها وصعب خروجه حتى تبلغ الموت ورأى ذكرها ذلك طار وأحضر حجراً يعرف بالقلقل لانه إذا حرك تقلقل في داخله ، فإذا كسر لم يوجد فيه شيء ، وكل قطعة منه إذا حركت تقلقلت ، وأكثر الناس يعرفه بحجر العقاب ويضعه على الاتى فيسهل عليها يبضها ، والناس يستعملونه في عمر الولادة على ما استنبطوه من العقاب . ومثل ذلك أيضاً أن الحيات إذا اظلمت أعينهن لكونهن في الشتاء في ظلمة بطن الارض وخرجن من مكانهن عند ما يدفأ الوقت طلبن « نبات الرازيانج » وأمررن عيونهن عليه فيصلح ما بها ، فلما رأى الناس ذلك وجربوه وجدوا من خاصيته اذهاب ظلمة البصر إذا اكتحل بمائه .

وذكر « جالينوس » في كتابه في الحقن عن « ارودوطس » ان طائراً يدعى « ايبس » هو الذي دل على علم الحقن وزعم أن هذا الطير كثير الاغتذاء لا يترك شيئاً من اللحوم إلا أكله ، فيحتبس بطنه لاجتماع الاخلاق الرديئة وكثرتها فيه فإذا اشتد ذلك عليه توجه الى البحر فأخذ بمنقاره من ماء البحر ثم ادخله في دبره فيخرج بذلك الماء الاخلاق المحتقة في بطنه ثم يعود الى طعامه الذي عادته الاغتذاء به

الحال الخامسة

أن يكون حصل شيء منها أيضاً بطريق الالهام كما هو لكثير من الحيوانات فانه يقال إن البازي إذا اشتكى جوفه عمد الى طائر معروف يسميه اليونانيون « ذريفوس » فيصيده ويأكل من كبده فيسكن وجهه على الحال . وكما تشاهد عليه أيضاً السنابير فانها في أوقات الربيع تأكل الحشيش ، فان عدت الحشيش عدات

الى خوص المسكانس فتأكله ، ومعلوم أن ذلك ليس مما كانت تغتذي به أولاً وإنما دعاها الى ذلك الالهام لفعل ما جعله الله تعالى سبباً لصحة أبدانها فإذا أكلته تقيأت اخلاطاً مختلفة قد اجتمعت في أبدانها ولا تزال كذلك الى أن تحس بالصحة - المأنوس اليها بالطبع - فتكف عن أكله . وكذلك أيضاً متى نالها أذى من بعض الحيوانات المؤذية ذوات السموم أو أكلت شيئاً منها فانها تقصد الى الشيرج والى مواضع الزيت فتثال منه وعند ذلك يسكن عنها سورة ما تجده .

وحكى القاضي نجم الدين عمر بن محمد بن الكرندي : ان اللقلق يعيش في أعلى القباب والمواقع المرتفعة ، وان له عدواً من الطيور يتقصده ابدأً ويأتي الى عشه ويكسر البيض الذي فيه . قال وان هناك حشيشة من خاصيتها إن عدو اللقلق إذا شم رائحتها يعمى فيأتي بها اللقلق الى عشه ويجعلها تحت بيضه فلا يقدر العدو أن يقرب منه . وحكى أن إنساناً رأى الجبارى تقاتل الأفعى وتهزم عنها الى بقلة هناك وتتناول منها ثم تعود لقاتلها ، وان هذا الانسان عاينها فنهض الى البقلة فقطعها عند اشتغال الجبارى بالقتال ، فعادت الجبارى الى منبتها ففقدتها وطافت عليها فلم تجدها فخرت ميتة ، فقد كانت تتعالج بها . قال وابن عرس يستظهر في قتال الحية بأكل السذاب . والكلاب إذا دودت بطونها أكلت السنبل وتقيأت واستطلقت . وإذا جرح اللقلق داوى جراحه بالزعر الجيلي . والثور يفرق بين الحشائش المتشابهة في صورها ويعرف ما يوافقه منها فيرعاه ، ومالا يوافقه فيتركه مع نهمه وكثرة أكله وبلادة ذهنه ، ومثل هذا كثير .

فاذا كانت الحيوانات التي لا عقول لها ألهمت مصالحها ومنافعها كان الانسان العاقل المميز المكلف الذي هو أفضل الحيوان أولى بذلك . وهذا أكبر حجة لمن يعتقد أن الطب إنما هو إلهام وهداية من الله سبحانه خلقه . وصفوة القول فانه قد يكون من هذا ومما وقع بالتجربة والاتفاق والمصادفة أكثر ما حصلوه من هذه

الصناعة ، ثم تكاثر ذلك بينهم وعضده القياس بحسب ما شاهدوه وادّتهم اليه فطرحهم فاجتمع لهم من جميع تلك الأجزاء التي حصلت لهم بهذه الطرق المتفنتة المختلفة أشياء كثيرة ، ثم انهم تأملوا تلك الأشياء واستخرجوا عنها والمناشبات التي بينها فحصل لهم من ذلك قوانين كلية ومبادئ منها يتبدى بالتعلم والتعليم والى ما أدركوه منها أولاً ينتهى ، فعند الكمال يتدرج في التعليم من الكليات الى الجزئيات ، وعند استنباطها يتدرج من الجزئيات الى الكليات .

وقوله تعالى : (الذي خلقني فهو يهدين) ، إن الهداية تنحصر في (قسمين) قسم حفظ الصحة ، وقسم مداواة المرض ، فأما قسم حفظ الصحة فهو يختص بالطعام والشراب والهواء والماء .

« ١ » مثل المحافظة على نظافة الجلد بأن يستحم مرة في الاسبوع شتاءً ومرة في صيفاً .

« ٢ » أن يغسل الانسان يديه بالصابون قبل الشروع في غسل عينيه ووجهه وقبل تعاطي الغذاء .

« ٣ » أن يغسلها بعد الفراغ من الأكل وبعد لمس أي جسم غير نظيف وبعد الاستيقاظ من النوم وقبل إرادة النوم ، كل ذلك بالماء والصابون فانه يبعث في الجسم نشاطاً وانشراحاً .

« ٤ » غسل القدمين بالماء والصابون صباحاً ومساءً ، كذلك يخلل ما بين الأصابع ويزيل ما بينهما من الأقدار .

« ٥ » إن شعر الرأس يجب غسله كل اسبوع بالماء والصابون .

« ٦ » أن تقلم الأظفار ثم تغسل الأصابع بعد القص بالماء مع الليفة أو نحوها لازالة الأقدار التي تحتها .

« ٧ » غسل الأنف وتنظيفه ، وانه لا يجوز تنف الشعر الذي فيه أو قصه

فإن الله خلقه لصحة أبداننا فهو يضعف تيار الهواء إذا كان شديداً .

« ٨ » العناية بالاسنان وتنظيفها بحيث تغسل بالماء والصابون قبل الأكل وبعده لئلا تبقى بعض الفضلات فتضر وتعقب أمراضاً لا قبل لنا بها . ويستحسن التنظيف بنحو السواك (والفرجون) بعد غمسها في بعض العقاقير التي عند الصيادلة ، ويكون ذلك التنظيف بالعقاقير مرتين في اليوم عند الاستيقاظ من النوم وعند الذهاب الى الفراش .

هذا كلام الأطباء ، وديننا أمر بأكثر من ذلك بحيث يكون السواك عند كل وضوء وعند كل صلاة . قال رسول الله ﷺ : ﴿ لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء ﴾ ، وقال ﷺ : ﴿ لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة ﴾ ، وهذه نعمة إسلامية عظيمة . ومن العجب أن عناية ديننا الإسلامي بأمر الصحة أرقى من عناية الأطباء .

من بدائع وعجائب الاسلام في الطب (السواك)

السواك من أهم ما كشف عن ضرورته العصر الحديث ودلنا على أسرار أحكام شريعة الاسلام التي يعجز عن إدراكها البشر . وأتى لرجل قبل أربعة عشر قرناً وهو ابن الجزيرة العربية القاحلة الجاهلة التي لا علم فيها ولا ملك ولا دين ولا مدنية ولا كتابة ولا قراءة أن يتوصل الى معرفة أسرار تنظيف الأسنان وفائدته لو لم يكن نبياً . ولم تكتشف هذه الاسرار إلا بعد تقدم الطب - هذا التقدم الهائل - في هذا العصر .

ومن يدقق الاحاديث الواردة في السواك يعرف كيف تنطبق على آخر ما توصل اليه العلم الحديث في فائدة السواك وفي كيفيته . لقد استفاضت الاحاديث في أن السواك طهور للفم ، ويزيد في الحفظ والعقل والفهم والفصاحة ، ويذهب بالسقم وحفر الاسنان والنسيان ووسوسة الصدر ، ويبيض الاسنان وينقيها ويذهب

بأوجاعها ويشد اللثة ، ويطيب الفم ويقلل البلغم أو يقطعه ، ويجلو البصر ويذهب غشاوته ودمعته ، وينبت الشعر ويشهي الطعام ويصلح المعدة الى غير ذلك من الفوائد غير الفوائد الالهية إذ به رضى الرب واصابة السنة وثواب الآخرة . وهذه الفوائد الكثيرة والعظيمة في وقت واحد قد نصت عليها الاحاديث بنفس هذه العبارات . وقد يستكثرها الرجل الابتدائي على السواك ، ولذلك نجد جملة من البلهاء يستهينون باستعماله ولا يعيرون له اهتمامهم فيقومون بكثير من الامراض المزمنة ، ولكن الاكتشافات الحديثة اثبتت هذه الفوائد . والطب اليوم يعلق أهمية كبرى على السواك في حفظ الصحة ، حتى أن أكثر الامراض ينسبها الاطباء الى الاسنان من جراء إهمالها .

وقد قال إمامنا أبو جعفر الباقر عليه السلام : « لو يعلم الناس ما في السواك لأباتوه معهم في لحاف » . وهذا يدل على مبلغ جهل الناس يومئذ بفوائده ، وان علمه يختص بهم (ع) والنبي « ص » كان يقول كما تقدم : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند وضوء كل صلاة » وهو كان يستاك ثلاث مرات في الليل قبل النوم وبعده وقبل خروجه الى صلاة الصبح . وهذا ينطبق تماماً على وصايا الطب الحديث في اختيار وقت السواك قبل النوم وبعده ، كما أن الوارد في وصف السواك أن يلين طرف عود الاراك قبل السواك ، وتلين طرف عود الاراك خاصة يجعله كفرشة الاسنان الغريبة الحديثة . ونعرف من هذا سر تفضيل عود الاراك على غيره لأنه ليس كل عود يعطي هذه الصفة إذا لين ، فان عود الاراك الواحد يتألف من مجموعة عيدان دقيقة لا تتحطم عند الاستيائك كشعرات الفرشة ، وان كان السواك الشرعي يحصل بكل عود بل حتى بالاصبع ولكن الاراك هو المفضل عند تيسره لتلك الغاية وربما لغايات اخرى نجعلها .

فلذلك يكون الاستيائك في الفرشة أيضاً من السواك الشرعي ، ولكن اعتقد

أن عود الازراك أفضل منها للأسنان بالتجربة لا سيما أن المعروف في الفرشة انها مأخوذة من شعر الخنزير الأبيض ، والخنزير في الشرع الاسلامي نجس العين وشعره كذلك لا يطهر بالماء ولا بغيره ، فلا يصح استعمالها والحال هذه . ولنا بالازراك غنى والوارد في كيفية الاستيائك شرعاً يوافقه الطب الحديث أيضاً فإن الاستيائك الشرعي الوارد هو الاستيائك عرضاً لا كما يستاك بعض الناس طولاً بزعم أنه الاستيائك الشرعي والطب الحديث يوصي بالاستيائك عرضاً حفظاً للأسنان من جهة ، ومبالغة في تنظيفها وتنظيف اللثة من جهة اخرى ، كما أن الشرع يوصي بالمضمضة بالماء بعد السواك ، والطب أيضاً يوصي بها وكأنها من مكملاته .

ومما يلفت النظر في الأحاديث عن النبي والأئمة عليه وعليهم الصلاة والسلام استعمالهم مختلف الاساليب في حمل الناس على اتخاذ عادة السواك فلم يرخصوا بتركه أكثر من ثلاثة أيام ، وحثوا على استعماله عند كل وضوء وكل صلاة وعند النوم وعند قراءة القرآن . ولو احصينا الاوقات التي ورد فيها الحث عليه في كل يوم لهلنا العدد ولظننا أن ذلك مما ينهك الأسنان ولكن من العجيب أن الطب أثبت - ودلت عليه التجربة - أنه كلما استاك الانسان قويت لثته واشتدت وصحت أسنانه وإن استعمل القوة في الاستيائك على غير المألوف فما أعظم ما جاء به الشرع الاسلامي لو انا اتبعنا سبيله .

عناية الاسلام

بصحة الأبدان

« يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » (١) .

إن الانسان بتطوراته المتوالية في المدنية وذهابه في الابداع الصناعي كل مذهب وبما استتبع ذلك من اخلاذه الى معيشة الترف واغراقه في نطلب الملاذ البدنية قد أخرج مسألة التغذية عن حقيقتها ، فبعد أن كان يأكل طلباً لاقامة حياته وحماية جثمانه من العطش أصبح يفعله طلباً للذة المعجلة حتى دفعته هذه العاطفة الى تناول الأغذية الضارة المبيدة لجثمانه وهو يعلم ذلك ويشعر به ، إلا أنه قد شعر بأن خروجه هذا على القوانين الطبيعية كان له أسوأ تأثير على جسده وعقله معاً ، وان هذا المتاع الحيواني سريع الزوال ثم يعقبه دور من الآلام والأعراض يطول أمده عليه ولا يزال به حتى يصصره على أبشع الأحوال بعد أن يحرمه من جميع الطيبات الجسدية والعقلية .

عني الاسلام منذ عهده الأول بسن سنن مقرررة للتغذي وما زال العلماء والفلاسفة يجعلون هذا الموضوع من أهم مباحثهم حتى يومنا هذا ، بل استحال أمره

في العهد الأخير إلى اعتباره أولى بالعناية من الوجهة الصحية والعلاجية من كل المسائل التي لها علاقة بالحياة الجسدية لما ثبت أن الغذاء هو العامل الأكبر في الصحة والمرض وفي طول الحياة وقصرها .

قال العلامة البكتريولوجي « متشنيكوف » مدير معهد « باستور » بباريس (إن الإنسان خلق ليعيش ثلاثمائة سنة وإنما هو يقتل نفسه بسوء سيرته في تغذيته) وأقر بهذه الحقيقة جمهور الباحثين والمنقبين . وجاءت العلوم الكيماوية فأيدت أقوالهم بالتحليلات إذ بينت ما يحويه كل نوع من أنواع الأغذية من المواد المختلفة وما يحتاج إليه الجسد كل يوم من كل منها ، وحدثت بجانب هذه الفتوحات الكيماوية فتوحات أخرى طبية أثبتت بالتحليل أن أدواء القلب والسرطان والروماتيزم والبول السكري والزلالي وتصلب الشرايين والشلل والامساك المستعصي إلى ما إليها مما يطول عدده كلها متولدة من سوء التغذية وعدم تخير صنوف الطعام . فأصبحت هذه المسألة - والحالة هذه - في عداد المسائل المحسوسة الممكن تجربتها تحليلاً وتركيباً .

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب

فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

متى عرف الإنسان أن صحته فوق كل شيء من حيث السعادة والراحة والهناء وأن المال والجاه والسيطرة والنفوذ والشرف والمجد وكل ما يدخل تحت دائرة السعادة وما يعتبر من متاع الحياة الدنيا ونعمة الوجود لا قيمة لها عنده إذا اختلت صحته وضعفت قوته وانحرف مزاجه ، متى عرف ذلك وجب عليه أن يحافظ على صحته بكل الوسائل الممكنة تفادياً من الوقوع في الأمراض وفقدان الصحة .

قال أحد الحكماء : « الصحة الحسنة كنز لا يعرف قيمته إلا الذي يفقده فلسفي تحتفظ بصحتك ، عليك أن تتجنب كل ما يضر بها » . ولقد صدق من قال « الصحة تاج فوق رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى والصحة أئمن من الثروة .

قال رسول الله «ص» : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » . ويقول الشاعر :

آلة العيش صحة وشباب فإذا وليا عن المرء ولي

كان أبو عثمان الثوري يجلس ابنه معه ويقول : إياك يا بني ونهم الصبيان واخلاق التوائخ ونهش الاعراب وكل مما يليك ، واعلم أنه إذا كان في الطعام لقمة كريمة أو مضغة شهية أو شيء مستظرف فأنما ذلك للشيخ المعظم أو للصبي المدلل ولست بواحد منهما ، وقد قالوا : « مدمن اللحم كمدمن الخمر » . أي بني عود نفسك الاثرة ومجاهدة الهوى والشهوة ، ولا تنهش نهش السباع ولا تخضم خضم البراذين ، ولا تدمن الأكل ادمان النعاج ، ولا تلقم لقم الجمال ، فان الله جعلك إنساناً فلا تجعل نفسك بهيمة ، واحذر سرعة السكظة وسرف البطنة ، فقد قال بعض الحكماء : إذا كنت نهما فعد نفسك من الزمى ، واعلم ان الشبع داعية الى البشم ، والبشم داعية الى السقم ، والسقم داعية الموت . ومن مات هذه المية فقد مات مية لئيمة لانه قاتل نفسه وقاتل نفسه الأم من قاتل غيره . أي بني والله ما أدى حق الركوع والسجود ذو كظفة ، ولا خشع لله ذو بطنة ، والصوم مصحة ، والواجبات عيش الصالحين . أي بني لا تمر ما طالت أعمار الهند وصحت أبدان العرب والله در الحرث بن كلدة إذ زعم أن الدواء هو الازم ، فالداء كله من فضول الطعام فكيف لا ترغب في شيء يجمع لك صحة البدن وذكاء الذهن وصلاح الدين والدنيا والقرب من عيش الملائكة . أي بني لم صار الضب أطول عمراً إلا لأنه يبتلع النسيم ، ولم قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « إن الصوم وجاء إلا لأنه جعله حجاباً دون الشهوات ، فافهم تأديب الله عز وجل وتأديب رسوله (ص) . أي بني قد بلغت تسعين عاماً ما نقص لي سن ولا انقشر لي عصب ولا عرفت ديناً أنف ولا سيلان عين ولا سلس بول ما لذلك علة إلا التخفيف من الزاد . فان كنت تحب

الحياة فهذه سبيل الحياة ، وان كنت تحب الموت فلا أبعد الله غيرك .
وقد حثنا الله تعالى ورسوله على العناية بالامور الصحية ، واليك الآيات الواردة
في القرآن الكريم وبعض الاحاديث الشريفة بشأن مراعاة القواعد والتدابير الصحية
يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين
المعنى يا بني آدم البسوا أحمل الثياب عند حضوركم أي مسجد للصلاة وكلوا
واشربوا بغاية الاعتدال ولا تسرفوا لأن الله تعالى لا يحب المسرفين .

ترشدنا هذه الآية الكريمة الى ما علمنا الله إياه من الطب والقواعد الصحية
وهدانا اليه من الحكمة مما تصح به أبداننا وتقوى به أجسامنا وتطيب به معيشتنا
وتنهأ به حياتنا من عدم الافراط في الاكل والشرب والاسراف فيها ، لأن كثرة
الأكل والشرب تقسد المعدة وتطفيء حرارتها وتضعف الجسم وتكثر الارياح
« الغازات » في البطن ، وتصفّر اللون وتضيّق النفس ، وبذلك يضعف الفكر ويخمد
الذهن وينحط الادراك . وأقل ما يترتب عليها أن يكون الانسان نهماً « شرها »
وذلك يسوقه الى البطالة « التخمّة » المهلكة والاعراض المتلفة . مع أن القصد من
الطعام هو تعويض ما يفقده الجسم ، أي تجديد ما تحلل واستهلك من أعضائه بسبب
أعماله الحيوية بحيث تكون كمية مكافئة لكميته المفقودة منه .

فلهذه الأسباب نهانا الله عز وجل عن الافراط في الأكل والشرب وأمرنا
بالاعتدال فيها . وهذه أعظم قاعدة وضعها الاسلام لحفظ الصحة

ذكر الطبرسي في تفسيره ان الرشيد العباسي كان له طبيب نصراني حاذق فقال
ذات يوم من الأيام لعلي بن الحسين بن وافر : ليس في كتابكم من علم الطب شيء
والعلم علمان : علم الأبدان وعلم الأديان ، فقال : قد جمع الله تعالى الطب كله في
نصف آية من كتابه هو قوله تعالى : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا » وجمع نبينا
صلي الله عليه وآله الطب كله في قوله : « المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء فاعط

كل بدن ما عودته ، فقل الطيب النصرائي : « ما ترك كتابكم ولا نبيكم
لجالينوس طبيباً » .

فالنتيجة أن يأكل الانسان أكلاً معتدلاً لا يسقم بطنه ولا يفسد قلبه ،
وأن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ولا يشعر بألم الجوع ، يقول رسول الله (ص)
« نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع » وهذه أكبر حكمة في الطب
وهذا أكبر دليل للاعتدال في الأكل ، لأن في تجاوز حد الاعتدال سقم البطن
وفساد الجسم والعقل معاً كما قال «ص» : (المعدة بيت الداء والحمية عين الدواء) .
والقاعدة الصحية هي أن يجعل الانسان ثلث معدته لطعامه وثلثاً لشرابه
وثلثاً لنفسه كما قال (ص) : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، حسب ابن آدم
لقيمات يقمن صلبه فان كان فاعلاً لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه »
أي يترك الثلث الباقي خالياً حتى يتمكن من التنفس بسهولة ويقل ضغط البطن على
الحجاب الحاجز .

هذا وإن أطيب الطعام وألذ وأشهى وأوفقه للأبدان ما مسته النار ولا مسته
فأثرت فيه ، قال «ص» : « إن أطيب طعامكم ما مسته النار » وذلك لأن النار
مطهرة ، ولأن الطعام بعد تأثير النار فيه وطبخه جيداً يكون أسهل في المضغ وأسرع
في الهضم . قال (ص) : (لا تكرر هوا مرضاكم على الطعام فإن الله يطعمهم ويسقيهم)
ويقول «ص» : « لا تكرر هوا المرضى على تناول شيء من الطعام والشراب
إلا الدواء » حناناً ورفقاً بهم ، فإن الله تعالى يتولى اطعامهم وسقيهم بمنحهم الصبر
على الجوع وصرف ألمه عنهم .

وقد حرم الاسلام جملة أشياء من المأكولات نظراً لما فيها من الميكروبات
المضرة بالصحة والخلة باعتدال المزاج . أنظر قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا
من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون » ، إنما حرم عليكم الميتة

والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور حلیم ﴿ ١ ﴾ .

هذه الآية تنص على تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله .
ولنفصل هذه المحرمات :
١ - الميتة :

هو الحيوان غير المذبوح ، أي الذي يموت ميتة طبيعية أو بحادثة من الحوادث ونبدأ بالميتة الطبيعية . « فالحيوان الميت ميتة طبيعية لا يموت إلا لسبب ، فان كان لمرض فما لا شك فيه انه لا يزال في الجسم نتيجة التسمم من مواد غير طبيعية وضارة للانسان ، حتى إمد أن يعقم من الجراثيم بطريق النار . فالجسم الميت في هذه الحالة يشبه الغذاء المتخمر الذي مهما طهر من الجراثيم بالحرارة يظل مضرراً بالانسان وربما أدى الأكل منه الى الوفاة » . وإذا كانت الميتة بالشيخوخة فضررها كضرر الميتة بالمرض ، لأن الشيخوخة معناها انحلال أحد الأنسجة الاخرى فتؤدي الى انحلال الكل ، وانحلال أحد الأنسجة لا يأتي إلا لضعف طبيعي فيها ، أو بمرض تدريجي غير منظور يحدث تغيرات في لحوم الحيوان تقلل من قيمتها الغذائية وقابليتها للهضم .

ورب قائل يقول : إن الميتة تؤكل يومياً في البلاد الباردة مثلاً ، وكذلك الدم ولحوم الحيوانات تؤكل بدون ذبحها وتصفية دمه ولا تشكل ضرراً ظاهراً . والجواب على ذلك : ان ضرر التخمر يقل كثيراً في الأقاليم الباردة ويزيد في الأقاليم الحارة ، والدين الاسلامي أنزل للعالم كله بما فيه الأقاليم الحارة التي يحدث فيها التخمر بسرعة مدهشة . إذأما لا شك فيه طبياً أن لحم الحيوان السليم الذي يذبح ويصفي دمه احسن غذاء وليس فيه أقل ضرر بخلاف الحيوان المريض المتخللة لحومه بالدم » .

أما الميتة التي تموت بحادثة من الحوادث فقد حرمها الإسلام أيضاً جاء في القرآن « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَازِيرِ وَمَا أَهْلُ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، وَالْمُنْخَنِقَةُ ، وَالْمَوْقُوذَةُ ، وَالْمُتَرَدِّيَةُ ، وَالنَّطِيحَةُ ، وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ » (١) .

فالمنخنقة هي الحيوانات التي تموت خنقاً . فلا خناق يجمل لحم الحيوان المخنوق أسرع إلى التعفن ، كما أن المنخنقة لا تصلح للأكل طيباً لتغير شكل لحمها وكآبته واسوداده عند قطعه وكرهه رائحته ولزوجة ملمسه ، والموقوذة هي المضروبة حتى تشرف على الموت فتترك حتى تموت ، أو هي ماتت فعلاً من أثر الضرب فوراً ، والمتردية هي التي سقطت من مكان مرتفع فأتت من أثر صدمة الوقوع والنطيحة هي التي ماتت من أثر عراكها مع مثيلاتها من الحيوانات وغالباً ما يحدث الموت من أثر النطح ولهذا خصصه النص بالذكر .

فلحوم الموقوذة والمتردية والنطيحة لا تصلح للأكل كما قرر علم فخص اللحوم لاسودادها ولزوجتها وكرهه رائحتها . أما إذا وصلت الجرائم المدية أو القيحية إلى الجروح التي حدثت في الجثة من الضرب أو السقوط فهذا مما يزيد الطين بلة ، وكذلك إذا أصيبت الجروح بالمطبة « الغنغرينا » .

٢- ما أكل السبع

حرّم الإسلام أكل ما ترك السبع ، والسبع هو الحيوان المفترس الضاري ، وهو كثيراً ما يعتدي على قطعان الماشية فيتناول منها فريسته ويتبعه الرعاة - عادة - للحيلولة بينه وبين الفتك بالفريسة ، وقد يدركونه قبل الفتك بها وقد يدركوه بعد خنقها أو بعد قتلها بصورة ما ، وقد يدركون الفريسة وقد أبقى منها جزءاً قليلاً أو كثيراً . وفي جميع الحالات المتقدمة لا يجوز أكل الحيوان الأليف إذا كان ميتاً لأنه إن أخذ مخنوقاً فقد شابه ما تقدم ، أو مقتولاً بجراح فلا يجوز أكله أيضاً ،

وضرر ذلك أن الحيوانات المفترسة تأكل الحيف عادة التي تحمل الامراض ، وربما انتقلت الجراثيم من فم السبع الى الفريسة ، ولهذا السبب حرم الاسلام أكل ما ترك السبع .

وزبدة القول إن الحيوان الذي فارقه الروح قبل أن يذبح تنعدم منه جميع خواصه الطيبة للبدن كما ثبت لدى أهل الفن من علماء الطب ، وزالت منه كل مواده الحيوية ، فإذا أكل الانسان منه حدث فيه منقص في المعدة ونزلات حادة في الامعاء هذا إذا أكل عقب موته مباشرة ، أما إذا مضت عليه مدة حتى يتعفن كان سماً زعافاً أضرب بالبدن ضرراً لا يتدارك ، وحدث فيه أمراضاً لا تعالج كالسكتة القلبية وموت الفجأة ، وقد يؤثر العقم وقطع النسل . جاء في الوسائل عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام : ﴿ إن أكل الميتة لا يدنو منها أحد إلا ضعف بدنه ونحل جسمه وذهبت قوته وانقطع نسله ولا يموت إلا فجأة ﴾ . فكان تحريم الميتة أمراً صحياً حيويّاً من الشارع المقدس انعم به علينا حفظاً لصحتنا وإبقاءً على كياننا وسعادة حياتنا

٢ - الدم والمراد به الدم المسفوح أي المنصب ، لاما خالط اللحم لأنه غير ناضج ، وهو ما اتفق الأطباء على حصول الضرر منه ، والسر في تحريمه هو ما أثبتته الطب الحديث وما أظهره التحليل الكيماوي من أن الدم مرتع الجراثيم الامراض وهو جسم صالح لنموها وتكاثرها . ثم ثبت لديهم أيضاً أن الحيوانات ولا سيما المواشي أكثر ما تصاب به من الامراض هو الطاعون والحُميات والتدرن وأشباهاها ، وإن جراثيم هذه الامراض الخطرة تكون في الدم ، فإذا ما دخل هذا الدم الحامل لتلك الميكروبات الى بدن الانسان دخلت تلك الامراض اليه معه بلا ريب ولا شك وهناك البلية الكبرى . هذا مضافاً الى أن الدم بنفسه وإن كان نقياً فإن المعدة لا تقوى على هضمه فيكون كلا عليها ، ومن جهة ثالثة أن الدمين المختلفين كدم الانسان ودم الحيوان إذا اختلطا سببا ارتفاعاً هائلاً عالياً في درجة حرارة البدن

مما يخشى عليه منها جاء في الوسائل عن أبي عبد الله الصادق (ع) في تحريم شربه انه يورث الماء الاصفر ويبيخر الفم وينتج الريح ويسميء الخلق ويورث الكلب والقساوة في القلب وقلة الرأفة والرحمة حتى لا يؤمن منه من القتل لولده ومن يقرب منه ، وقد يورث الجذام والعياذ بالله فسيحانه من مشرع رؤف رحيم .

وقيل لاحتوائه على الفضلات التي يستغني عنها الجسم ولا فائدة من ارجاعها اليه . وقد تكون فيه ميكروبات أمراض عفنة وسمومها ، وهذه الميكروبات لا تموت حتى بالغليان لما تتجمد حولها من المواد الزلالية ، كما أن الحرارة قد لا تؤثر في ذراتها ولا تغير تسممها ، وقيل لتأثيره الذي غالباً ، وقيل لعسر هضمه لانه يحتوي على مادة حديدية كثيرة تتحجر عند انفصالها عن البدن .

وحرم أكل الغدد ، والحكمة في ذلك انها مخازن فطائس الميكروبات البدنية ومقابر المواد الفاسدة التي تتجمع فيها من سائر أنحاء البدن ، وقد قيل عنها انها تورث الجذام كما ورد عن أئمة أهل البيت وعاضده الطب الحديث .

وحرم أكل الطحال والاثني عشر والقضيب والمثانة ، والحكمة في تحريم أكل الطحال لانها محل فطائس الجراثيم والدم الفاسد وأما الاثني عشر فلانها موضع المني والمني سريع الفساد سريع التعفن والتسمم ، وأما القضيب فلانه موضع ممر البول الذي هو مجموعة المواد الفاسدة التي يحملها الماء من الجهاز الهضمي والبولي معاً ، وأما الرحم فلانه عضو الطمث وقذارة الدم ومني الذكر ، وأما المثانة فلانها مجمع البول .

٣ - لحم الخنزير لأنه قد ثبت طبيياً بواسطة النظارات المعظمة (الميكروسكوب) ان بين أجزاء جسمه ووسطه ألياف وديدان لا حصر لها ، وقد دلت التجربة على انها لا تموت ولو بعد نضجه واستوائه فأكله مع ما فيه من هذه الديدان مما يلحق بالجسم أضراراً بليغة وأمراضاً مؤذية . فقد اكتشف الطب الحديث قبل مائة سنة تقريباً حكمة ما أمر به الدين الاسلامي الحنيف قبل قرون من منع أكل لحم الخنزير

فلقد ظهر أن دودة شريطية تسمى باللغة الأجنبية « تينا السوليم » تعيش في الامعاء الرقاق من الانسان وتمر بويضاتها مع البراز فإذا خرجت كان عدواها للانسان بسرعة ، وهي منتشرة في آكلي لحم الخنزير لانها تربو في عضلات الخنزير وأمعائه وهي دودة يتراوح طولها بين مترين الى ثلاثة أمتار وأكثر وتتركب من حوالي ثلثمائة قطعة وبرأسها ثمان وعشرين خطافا فإذا أكل الانسان لحم الخنزير تطورت هذه الدودة في أعضائه وقد تصل الى المخ والعين أو غيرها من الأعضاء الرئيسية فتؤدي الى خطر العواقب مثل السكتة القلبية أو نزيف المخ وقد لا يتخلص منها أبداً ، إذ لو بقي منها بعد العلاج الكثير العسير شيء أو قطعة عادت الى ما كانت عليه أولاً ، وهذا مرض خطير الى الفناء والموت أقرب منه الى الحياة ، فكان نهى الشارع المقدس عنه وتحريم أكله لطفاً منه ورحمة بالعالمين .

يقول الدكتور أحمد عارف الوريثي في الطب النبوي :

لا تقرب الخنزير إن طعامه سم وموت عاجل الافناء
في لحمه الدود الوحيد تحفه عقد ترد الجسم كالاشلاء
طالت مساحتها كطول مصابها وجنت على الاجسام شر بلاء
لو قطعت إرباً وخلي رأسها عادت بها الافعى الى الانماء
لا تأكل الخنزير طوع جهالة ولو ابتليت بازمة نكراء
إن المحرم لا يعود بصحة يوماً ولا يدعو الى السراء
واسلك تعاليم النبي ونهجه إن الهدى في نهجه الوضاء

وحرم من الذبائح ما لم يذكر اسم الله عليه والحكمة في ذلك ان تشريع ذكر اسم الله حال الذبح والنهي عن استعمال ما لم يذكر عليه اسم الله لأسرار وحكم واضحة .

منها أنه يسبب الامتناع عن أكل ذبيحة المشركين التي لم يذكر عليها اسم الله

وهذا مما يوجب عدم اختلاطهم وامتزاجهم بهم وتباعدهم عن الشرك وأهله ، إذ لو
تواكلوا تقاربوا وتواصلوا ، ولو تقاربوا وتواصلوا مال بعضهم الى بعض ، وقد نهى
الله تعالى عن الامتزاج والركون الى المشركين ، فيكون منع ذلك بمنع أسبابه .

ومنها ان ذبح الحيوان عمل تتوقف منه النفوس الحساسة والقلوب الرقيقة ،
لأنه إخراج روح مخلوق له حياته وعيشه في هذه الدنيا ، فذكر اسم الله عليه مطمئن
للفؤوس بأن هذا العمل هو بإرادة الله تعالى وأمره ، وان الاقدام عليه امتثال لتعاليمه
وأن لا ظلم فيه ولا تعدي على اذهاق روحه ، إذ لو كان ظمناً وتعدياً لما أمر الله تعالى
به وهو الرؤف اللطيف بالعباد وكل خلق من خلقه . فلقد قال عز وجل : (فاكلوا
مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم مؤمنين) « ١ » .

ولما كان الله لا يريد بالناس العسر بل يريد أن يخفف عليهم أباح لهم لدى
الضرورة ما لم يذكر اسم الله عليه فقال تعالى : « وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم
الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم اليه » « ٢ » ، فسبحانه من
خالق حكيم لطيف خير رؤف رحيم .

٤ - وما أهل به لغير الله : وهو ما يذبح ويقدم للاصنام أو غيرها مما يعبد
والمنع من هذا ديني محض لحماية التوحيد لانه من أعمال الوثنية ، فكل ما أهل لغير
الله على ذبيحة فإنه يتقرب الى من أهل باسمه تقرب عبادة وذلك من الاشراك
والاعتماد على غير الله تعالى .

وبعد أن نهى جل شأنه عن هذه المحرمات الاربعة بين أن ذلك مقيد بعدم
الضرورة والحاجة بأن خاف الانسان ان تلف على نفسه والملاك ولم يجد ما يسد به
رمقه غير أحدهذه المحرمات فلا حرج عليه في أكلها ولا إثم عليه . وهذا هو المراد

« ١ » سورة الانعام الآية ١١٨ .

« ٢ » سورة الانعام الآية ١١٩ .

من قوله تعالى : (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه) « ١ » أي غير طالب له راعب فيه لذاته وإنما الضرورة ألجأته ، ولا عاد متجاوز قدر الضرورة فلا إثم عليه لان الالقاء بنفسه الى التهلكة - بالموت جوعاً - أشد ضرراً من أكل الميتة أو الدم أو لحم الخنزير (إن الله غفور رحيم) إذ حرم على عباده الضار وجعل الضرورات بقدرها لينتقي العسر والحرج عنهم .

وكما حرم جل شأنه بعض المأكولات المضرة بالصحة والحلة باعتدال المزاج كذلك حرم بعض المشروبات المضرة بالصحة أيضاً والمنهكة لقوام الجسم .

انظر قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلوة فهل أتممتم مهون * وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين « ٢ » .

بين تعالى في هذه الآية الكريمة تحريم شرب الخمر ولعب القمار وعبادة الأصنام والاعتقاد بها لأنها جميعها رجس : أي قدر يدفعكم اليه ويوقعكم فيه الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفوزون برحمة . فنهانا عن شرب الخمر ، فمن تجرعها كان عرضة لأمراض وبيلة فتاكة لا شفاء منها تنتهي عادة بالموت - والعياذ بالله - فالحذر الحذر من شربها لأنها مفسدة للصحة مذهب للعقل مضية للعال مخالف للدين مغضبة لرب العالمين ، قال « ص » : « اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح لكل شر » .

بين تعالى بهذه الآية علتين لتحريم الخمر والميسر احداها صحية طبية وهي الخمر فإن لها دخل كبير في فقدان الصحة واختلال المزاج .

« ١ » سورة البقرة الآية ١٧٣ .

« ٢ » سورة المائدة الآية ٩٠ - ٩٢ .

وثانيهما أخلاقية اجتماعية اقتصادية وهي الميسر - أي القمار - فهو مثار للعداوة والبغضاء وبحق كل شرف وفضيلة ، وفيه الصد عن ذكر الله وعن الصلاة : (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الحمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) .

تبدي هذه الآية سر الحكمة في تحريم القمار الذي هو من أقوى حبائل الشيطان وهو العدو اللدود للإنسان في إيقاع العداوة والبغضاء بين نوع البشر وإبعادهم عن ذكر الله الذي هو أصل كل خير ومصدر كل فضل ، وصدهم عن الصلاة التي تنهى عن كل فحشاء ومنكر . وكيف لا يكون كذلك ونحن نرى بأعيننا ما يحدثه القمار من ضرر الكاسب الخاسر ، أما الخاسر فضرره بديهي مضافاً إلى أنه إذا خسر اشتد شغفه بالعب أكثر من ذي قبل طلباً لاسترداد خسارته ، وهذا يستلزم أن يستدين أولاً وقد يعسر عليه الدين فيلجأ إلى كل وسيلة توجد له مალأً ليلعب به ، علماً يرجع خسارته فقد يسرق أو يغار على ما في بيته فيبيعه ، وإذا لم يمكنه استولى على حلي زوجته أو ابنته إلى غير ذلك من الوسائل حتى يسمي معدماً ذليلاً مهاناً بغيضاً لدى أصدقائه الذين أخذوا ماله ، بغيضاً عند أهله الذين سلبهم حليهم وما عندهم ، بغيضاً عند أولاده المحرومين من عطفه وحنانه ، بغيضاً عند الناس لأنه رذيل يرتكب ما لا يرتضيه العقل والوجدان . وأخيراً قد تضطره هذه الحال إلى ارتكاب الجرائم لتمشية حياته فيخسر أهله وأسرته ودينياه وآخرته .

وأما الكاسب فإنه أولاً يفقد كل أعماله اليومية لأنه يرج بلا تعب بل بلذّة وسرور فتستولي البطالة عليه مع اشتداد الطمع فيه والبخل ، ثم تزرع عنه عاطفة الحب لأهله وولده نظراً لأنهم في اللعب ورغبته في مجالسة أمثاله من الاراذل والاوباش ، وتفقد منه عزة النفس ويحل محلها حب الذات لأنه يصبح وهو لا يحب إلا نفع ذاته دون ملاحظة صديقه الخاسر أو أخيه المقامر ، ولم يبق له هم إلا النفع

مهما أدى بأخيه من الخسارة . وبالجملة فإن القمار من أكبر أسباب القضاء على الفضيلة والشرف وموت الاعتماد على النفس وفضيلة النشاط والعمل وفقد الثقة لدى الناس من خاص وعام حتى لدى الأهل والولد ، ومن أعظم مولدات البغضاء والعداوة وقصم روابط الود والاخاء وتقويض حركة التحابب والمساعدة الضروريتان للبشر فهو فساد الفرد والمجتمع وأوسع باب من أبواب الفناء وفقد الحياة في الدارين ، فسيحان المشرع الحكيم الرؤف بعباده .

ولما بين جل شأنه علة تحريم الخمر والميسر وحكمته أكدده بقوله : « فهل أنتم منتهون » فهذا استفهام يتضمن الأمر بانتهاء وهو من أبلغ ما ينهى به ، كأنه قيل قد تلي عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون ، أم أنتم على ما كنتم عليه كأن لم توعظوا ولم تزجروا . وبعد أن أمر تعالى باجتناب هذه الأشياء ذكر فيها نوعين من المفسدة .

فالأول ما يتعلق بالدنيا وهو قوله : « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر » (١) . ونحن نشرح وجه العداوة والبغضاء أولاً في الخمر ثم في الميسر .

أما الخمر فالظاهر فيمن يشرب أنه يشربها مع جماعة ويكون غرضه من ذلك الشرب أن يستأنس برفقائه ويفرح بمحادثتهم ومكالمتهم فكان غرضه من ذلك الاجتماع تأكيد الالفة والمحبة ، إلا أن ذلك في الأغلب ينقلب الى الضد لأن الخمر يزيل العقل ، وإذا زال العقل استولت الشهوة والغضب عليه من غير مدافعة العقل وعند استيلائهما تحصل المنازعة بين أولئك الأصحاب ، وتلك المنازعة ربما أدت الى الضرب والقتل والمشافهة بالفحش ، وذلك يورث أشد العداوة والبغضاء . فالشيطان يسول أن الاجتماع على الشرب يوجب تأكيد الالفة والمحبة ، وبالأخرة انقلب

الأمر وحصلت نهاية العداوة والبغضاء .

وأما الميسر ففيه بازاء التوسعة على المحتاجين الاجحاف بأرباب الأموال ، لان من صار مغلوباً في القمار مرة دعاه ذلك الى اللجاج فيه عن رجاء أنه ربما صار غالباً فيه وقد يتفق أن لا يحصل له ذلك الى أن لا يبقى له شيء من المال والى أن يقامر على لحيته وأهله وولده ، ولا شك أنه بعد ذلك يبقى فقيراً ويصير من أعدى الأعداء لأولئك الذين كانوا غاليين له .

إذاً الخمر والميسر سببان عظيمان في إثارة العداوة والبغضاء بين الناس ، ولا شك أن شدة العداوة والبغضاء تقضي الى احوال مذمومة من الهرج والمرج والفتن ، وكل ذلك مضاد لمصالح العالم .

وأما النوع الثاني من المفاسد الموجودة في الخمر والميسر المفاسد المتعلقة بالدين وهو قوله تعالى : « ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة » « ١ » .

فنقول أما أن شرب الخمر يمنع عن ذكر الله فظاهر لانه يورث الطرب واللذة الجسمانية ، والنفس إذا استغرقت في اللذات الجسمانية غفلت عن ذكر الله تعالى ، وأما عن الصلاة فكذلك . وأما أن الميسر مانع عن الله وعن الصلاة فكذلك لانه إن كان غالباً صار استغراقه في لذة الغلبة مانعاً من أن يخطر بباله شيء سواه ، ولا شك أن هذه الحالة مما تصد عن ذكر الله وعن الصلاة . ثم إن هذه الآية دالة على تحريم الخمر والميسر من وجوه .

أحدها أن الله تعالى صدر الجملة بانما الدالة على الحصر للمبالغة في ذمهما كأنه قال ليست الخمر وليس الميسر إلا رجساً فلا خير فيهما البتة .

ثانيها أنه تعالى جعل الخمر والميسر رجساً . وكلمة الرجس تدل على منتهى القبح والخبث ، ولذلك أطلقت على الاوثان فهي أسوأ مفهوماً من كلمة الخبث .

وقد علم من عدة آيات أن الله تعالى أحل الطيبات وحرم الخبائث ، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله : « الحمر أم الخبائث » ، وقال «ص» : « الحمر أم الفواحش وأكبر الكبائر » . ومن شرب الحمر ترك الصلاة ووقع على أمه وخالته وعمته .
ثالثها أنه تعالى قرنهما بالانصاب والازلام التي هي من أعمال الوثنية وخرافات الشرك ، وقد قال النبي «ص» : « شارب الحمر كعابد الوثن » .

رابعها أنه تعالى جعلهما من عمل الشيطان لما ينشأ عنهما من الشرور والطغيان وهل يكون عمل الشيطان إلا موجباً لسخط الرحمن ؟ .

خامسها أنه تعالى جعل الامر بتركهما من مادة الاجتناب وهو أبلغ من التترك لانه يفيد الامر بالتترك مع البعد عن المتروك بأن يكون التارك في جانب بعيد عن المتروك ، ولذلك نرى القرآن لم يعبر بالاجتناب إلا عن ترك الشرك والطاغوت الذي يشمل الشرك والأوثان وسائر مصادر الطغيان وترك الكبائر عامة ، وقول الزور الذي هو من أكبرها قال تعالى : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » « ١ » ، وقال تعالى : « واجتنبوا الطاغوت » كما قال تعالى : « والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها » « ٢ » وقال : « الذين يحبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللهم » « ٣ » .

سادسها أنه تعالى جعل اجتنابهما معداً للفلاح ومرجاة له فدل ذلك على أن ارتكابهما من الحسرة والحياة في الدنيا والآخرة .
سابعها وثامنها أنه تعالى جعلهما مثاراً للعداوة والبغضاء وهما شر المفاسد الدنيوية المتعدية إلى أنواع من المعاصي في الأموال والاعراض والأنفس ، ولذلك سميت الحمر بالخبائث وأم الفواحش .

« ١ » سورة الحج الآية ٣٠ .

« ٢ » سورة الزمر الآية ١٧ .

« ٣ » سورة النجم الآية ٣٢ .

تاسعها وعاشرها أنه تعالى جعلها صادين عن ذكر الله وعن الصلاة وهما روح الدين وعماده وزاد المؤمن وعتماده ، وقد علم مما تقدم أيضاً أن الصد عن ذكر الله غير الصد عن الصلاة .

حادي عشرها الامر بالانتهاء بقوله : « فهل أنتم منتهون » وهو من أبلغ ما ينتهى به ، كما أنه قيل قد تلي عليكم ما فيها من أنواع المفاسد والقبائح فهل أنتم منتهون مع هذه الصوارف أم أنتم على ما كنتم عليه حين لم توعظوا بهذه المواعظ .

ثاني عشرها أنه تعالى قال بعد ذلك : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول » أي أطيعوا الله فيما أمركم به من اجتناب الخمر والميسر وغيرها كما تجتنبون الانصاب والازلام أو أشد اجتناباً وفي كل شيء ، وأطيعوا الرسول فيما بينه لكم مما نزله الله تعالى عليكم ومنه قوله « ص » : « كل مسكر خمر وكل خمر حرام » .

ثالث عشرها قوله عز وجل : « واحذروا » أي احذروا عصيانها أو ما يصيبكم إذا خالفتكم أمرها من فتنة الدنيا وعذاب الآخرة ، فإنه ما حرم عليكم إلا ما يضركم في دنياكم وآخرتكم قال تعالى : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) « ١ » .

رابع عشرها الانذار والتهديد في قوله تعالى : (فان توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) « ٢ » ، أي فان توليتم وأعرضتم عن الطاعة فاعلموا إنما على رسولنا أن يبين لكم ديننا وشرعنا وقد بلغه وأبانه وقرن حكمه بأحكامه وعلينا نحن الحساب والعقاب وسترونه في أبانه .

« ١ » سورة النور الآية ٦٣ .

« ٢ » سورة المائدة الآية ٩٢ .

الطب والرسول محمد «ص»

هبط القرآن الكريم على صاحب الرسالة العامة محمد بن عبد الله «ص» بكل ما يصلح هذه البشرية في كافة نواحيها الحيوية ، فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ولم يفرط في شيء مما تحتاجه هذه الحياة إلا عاجله ، ولم يهمل جانباً من جوانب اصلاحها إلا أبانه ملاًئماً لكل ظرف من ظروفها ، موافقاً لكل دور من أدوار حياة الانسان في أجياله المتعاقبة وعصوره المتتالية . فهو قانون عالمي عام ، وناموس اصلاحي شامل ، ومنهاج سماوي حكيم أرسله اللطيف الخير بواسطة أصدق خلقه لاسعاد هذا الانسان الجاهل ، وتقويم ما اعوج من طباعه وانتشاله من هوة الهمجية الى مرتفع ذروة الراحة والهناء . فكان من الضروري نظراً لهذه الغاية السامية أن يجيء شاملاً بعنايته الاصلاحية كل ناحية من مناحي الحياة الانسانية ، ليسير كل حي في طريقة المستقيم الى السعادة فيؤدي واجبه من الطاعة والعبادة .

هكذا جاء القرآن الحكيم . فيه تبيان كل شيء وهدى ورحمة للعالمين ، حاوياً من الكنوز العلمية والارشادات السماوية ما لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم ممن من الله عليهم بمعرفتها واختارهم للاطلاع عليها وخصهم دون خلقه بها فجعلهم أدلاء على الخير ومصابيح يهتدى بهم نحو سبل الحياة السعيدة ،

ولما كانت التكاليف السماوية لم تشرع إلا لسليم العقل ، ولم يكن العقل السليم إلا في الجسم السليم ، كان من الحكمة واللفظ الالهي أن يلحظ القرآن هذه الناحية

المهمة من الانسان - اعني صحة الجسم - ملاحظة خاصة ، وأن يهتم بها اهتماماً لا يقل عن الاهتمام بالتكاليف الشرعية نفسها لتوقفها عليها . ولا جله فقد ذكر الكتاب المجيد كل اسس الطب ودعائم الصحة في آية واحدة . ترجع اليها خلاصة أفكار الفلاسفة والحكماء طيلة قرون ، وتقف عندها تجارب العلماء والأطباء حتى في هذا العصر عصر العلم والاختراع ، وهي قوله تعالى : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » .

فإن كافة الأطباء قد اجمعوا بعد التحقيق العلمي المستمر والتجارب المتعاقبة ان مدار صحة الأجسام ودعامة سلامتها هو الاعتدال في الطعام ، وان هذا الاعتدال إذا ما تعدى الى الافراط والاسراف أصبح وبالأعلى على البدن وفتح باباً واسعاً للفتك بالأجسام والنفوس . وما هذا النتاج العلمي الذي يفخر به الطب في تقدمه إلا مؤدى هذه الكلمات الثلاث (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) . حيث جمعت في طيها جميع اسس علم حفظ الصحة وخلاصة نوااميسه .

ثلاث كلمات جمعت جملة اصول حفظ الصحة ، وأعطينا خلاصة أسباب الامراض ، وحذرتنا عن أهم علل الاسقام ، ودرستنا فصولاً وأبواباً عما حوته معضلات الكتب الطبية التي استخلصتها أفكار العلماء وتجارب الأطباء طوال قرون وأعوام قضتها في البحث والتنقيب والاستقراء والتتبع . فكانت هذه الآية الحكيمه قانوناً عاماً يأمر بالأكل المعتدل لأجل استقامة الأبدان واعتدال صحتها في حياتها المادية والنفسية ، وينهى عن الاسراف دفعاً للأضرار التي تتولد في البدن والروح بسببه .

أجل إن هذا الأمر والنهي في الآية الكريمة هما نهجان بسيطان لونهما آخذين بهداهما لما اخترمت النفوس قبل أوانها ، ولسار الانسان في طريق الحياة صحيحاً سليماً لم تعبت به الاسقام والأوباء ، ولم تسيطر عليه الامراض الحادثة عن

ذلك الاسراف والخروج عن القانون الالهي الصحي ، ولعلنا بحق أن الشريعة الاسلامية منبعثة من صميم نوااميس الطبيعة التي خلقها الله تعالى وفقاً لنوااميس الحياة البشرية بتقدير دقيق وموازين ثابتة .

أما النبي الكريم صاحب الرسالة - اعني به محمد بن عبد الله «ص» - فقد وردت عنه من التعاليم والارشادات الصحية ما تنوف حـد الحصر ، وكلها اصول تركز عليها قواعد هذا العلم وتدعم بها أركانه ، مثل قوله «ص» مشيراً الى أعظم نقطة يتطلبها علماء هذا الفن في أبحاثهم وهي النظافة والرياضة العقلية والبدنية حيث يقول : بشئ العبد القاذورة ، إن الله ليبغض الرجل القاذورة ، ازيلو الشعر عن أبدانكم فإنه نجس - أي فذر - . كل هو باطل إلا ثلاث تأديبه الفرس ورميه عن قوسه وملاعبته امرأته فإنه حق . روحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، كما كان يقول الحديث المشهور عنه (ص) : (المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء) . إعطكم بدن ما عود . وكقوله : (لا تكثرهوا مرضاكم على الطعام فإن الله يطعمهم ويسقيهم) وقوله في الحمى : (اطفئوا سحائم الماء) . وكان (ص) إذا وعك دعا بماء فادخل فيه يده . وعنه (ص) ان قوماً من الأنصار قالوا يا رسول الله : إن لنا جاراً يشتهي بطنه أفتأذن لنا أن ندأويه ؟ قال : ﴿ بماذا تدأوونه ؟ ﴾ قالوا : يهودي ههنا يعالج من هذه العلة ، قال (ص) : بماذا ؟ قالوا : يشق بطنه فيستخرج منه شيئاً ، فكره ذلك رسول الله ، فعادوه مرتين أو ثلاث ، فقال . ﴿ افعلوا ما شئتم ﴾ . فدعوا اليهودي فشق بطنه ونزع منه رجراً جاً كثيراً ثم غسل بطنه وخاطه ودأواه حتى صح وبرى ، وأخبر النبي بذلك ، فقال : ﴿ إن الذي خلق الأدوية جعل لها دواء وإن خير الدواء الحجامه والفصاد والحبيبة السوداء .

أقول وهذا الحديث الشريف يعطينا درساً عن قدم فكرة العمل الجراحي في العلاج وانه لاحداثه له ، وانه آخر الدواء كالـكي لا يحسن التسرع اليه وأن

لاوازع عنه في الشرع المقدس . وقوله (ص) : « اجلس على الطعام وانت تشتهييه
وقم عنه وأنت تشتهييه » .

ذكر البيهقي في المحاسن ما يعجبني ذكره في هذا المقام . قال في محاسن
اصلاح البدن ما هذا لفظه : « جمع الرشيد العباسي أربعة من الأطباء عراقياً ورومياً
وهندياً وسوادياً ، فقال : ليصف كل واحد منكم الدواء الذي لا داء فيه ، فقال
الرومي : « الدواء الذي لا داء فيه الرشاد الأبيض » وقال الهندي : « الماء الحار »
وقال العراقي : « الاهليلج الأسود » . وكان السوادي أبصرهم ، فقال له تكلم ،
فقال : « حب الرشاد يولد الرطوبة والماء الحار يرخي المعدة والاهليلج يرق
المعدة » ، قال : فانت ما تقول ؟ قال : الدواء الذي لا داء فيه أن تقعد على الطعام
وأنت تشتهييه وتقوم عنه وأنت تشتهييه .

أجل إن أقوال الرسول (ص) وتعاليمه التي وضعها قبل أكثر من ألف سنة
تمشى مع أحدث التعاليم والنظم الصحية ، فليخفف الغرب من كبريائه . محمد القائل
المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأصل كل داء البردة . هذا كلام جل عن
الضعة ، بل هذا هو الكلام الصادق الذي يجري على النفس سهولة ويسراً .

لقد كان حديث الرسول (ص) في المرض سلامة وعافيه لأنه سهل في ادراكه
وفهمه عظيم في غاياته ومعناه ، ولم يسمع بما هو أهم وأعم منه نفعاً ولا أحسن موقعاً

الطب والامام علي (ع)

وأما صنو النبي (ص) أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) فيمن عن اعتنائه
البالغ بهذا الشأن قوله المشهور : « العلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان » ، وقوله
بلفظ ابن شعبة في تحف العقول : « العلم ثلاثة : الفقه للأديان ، والطب للأبدان
والنحو للسان » . وقوله (ع) بلفظ الكراجكي في جواهره ، « العلوم أربعة :
الفقه للأديان ، والطب للأبدان ، النحو للسان ، والنجوم لمعرفة الأزمان » . وله

عليه السلام كلمات قيمة في جوامع علم الابدان كقوله : ﴿ اكسروا حر الحمى بالبنفسج والماء البارد ﴾ ، وقوله : ﴿ لا تميئوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فان القلب يموت كالزراع إذا كثر عليه الماء ﴾ ، وقوله لابنه الحسن ﴿ ع ﴾ ﴿ يا بني ألا أعلمك أربع كلمات تستغني بها عن الطب ؟ فقال : بلى ، قال : « لا تجلس على الطعام إلا وأنت جائع ولا تقم عن الطعام إلا وأنت تشتهي » وجود المضغ ، وإذا نمت فأعرض نفسك على الخلاء ، فإذا استعملت هذه استغنيت عن الطب . وقوله : من أراد البقاء ولا بقاء فليأكل الغذاء وليؤخر العشاء ويقل غشيان النساء وليخفف الرداء .

كان ابن هبيرة يباكر الغذاء ، فسئل عن ذلك فقال : إن فيه ثلاث خصال أما الواحدة فإنه ينشف المرة ، والثانية يطيب النكهة ، والثالثة أنه يعين على المروءة قيل : وكيف يعين على المروءة ؟ قال : إذا خرجت من بيتي وقد تغذيت لم أطلع الى طعام أحد من الناس .

وقال «ع» : أربع كلمات في الطب أيضاً لو قالها بقراط وجالينوس لقدم أمامها مائة ورقة ثم زينها بهذه الكلمات وهي قوله «ع» : « توقوا البرد في أوله وتلقوه في آخره فإنه يفعل في الأبدان كفعله في الأشجار أوله يحرق وآخره يورق » وإن الطف ما رأيت له «ع» من المواقف الطيبة الكريمة ما أخرجه رجال الحديث من الفريقين ، وقد ذكره من رجال أهل السنة أسعد بن إبراهيم الاردبيلي المالكي بإسناده عن عمار بن عمار بن ياسر وزيد بن أرقم قالوا : كنا بين يدي أمير المؤمنين في مسجد الكوفة وإذا بزعة عظيمة وكان علي «ع» على دكة القضاء فقال «ع» : « يا عمار أنت بمن على الباب ؟ » قال : نخرجت وإذا على الباب امرأة في قبة على حجل وهي تشتكي وتصيح يا غياث المستغيثين إليك توجهت وبوايك توسلت فيض وجهي وفرج عني كربتي ، قال عمار : وكان حولها ألف فارس بسيف مسلولة وقوم لها

وقوم عليها ، فقلت أجيئوا أمير المؤمنين فبزات المرأة ودخل القوم معها المسجد واجتمع أهل الكوفة ، فقام أمير المؤمنين (ع) وقال : سلوني ما بدا لكم يا أهل الشام فنهض من بينهم شيخ وقال : يا مولاي هذه الجارية ابنتي وقد خطبها ملوك العرب وقد نكست رأسي بين عشيرتي لأنها عاتق حامل فاكشف هذه الغمة . فقال أمير المؤمنين (ع) : ما تقولين يا جارية ؟ قالت : يا مولاي أما قوله اني عاتق فقد صدق . وأما قوله إني حامل ، فوحقك يا مولاي ما علمت من نفسي خيانة قط ، فصعد (ع) المنبر وقال : علي بداية الكوفة ، فجاءت امرأة تسمى (لبناء) وهي قابلة أهل الكوفة فقال لها اضربي بينك وبين الناس حجاباً وانظري هذه الجارية عاتق حامل أم لا ؟ ففعلت ما أمرها ثم خرجت وقالت نعم يا مولاي هي عاتق حامل فقال (ع) : من منكم يقدر على قطعة ثلج في هذه الساعة ؟ فقال أبو الجارية : الثلج في بلادنا كثير ولكن لا نقدر عليه ههنا ، قال عمار (ره) : فمد علي يده من أعلا منبره وردها وإذا فيها قطعة من الثلج يقطر الماء منها .

أقول لا غرابة في مثل هذا بعدما قص علينا القرآن الكريم من قصة آصف ابن برخيا وقوله لسلامان (ع) لما استحضر عرش بلقيس عنده : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، وشتان بين ابن برخيا وبين أمير المؤمنين (ع) فإن ذاك عنده علم من الكتاب ، وهذا عنده علم الكتاب كله . ثم قال (ع) : يا داية خذي هذه القطعة من الثلج واخرجي بالجارية من المسجد واتركي تحتها طستاً (١) وضي هذه القطعة مما يلي الفرج فسترين علقته وزنها سبعة وخمسون درهما ففعلت ورجعت بالجارية والعلقة اليه ، وكانت كما قال (ع) فالتفت عليه السلام لأبي الجارية وقال له (١) والموضع يعرف اليوم بالكوفة بموضع الطست وقد وقفنا عليه ورأيناه وفي سنتنا وهي سنة ١٣٧٣ هـ بذلت الحكومة العراقية ألف دينار عراقي لعمارتها وشاهدنا العمارة في وقت العمل وهي عمارة ضخمة متقنة .

خذ ابنتك فوالله ما زنت ولكن دخلت موضعاً فيه ماء فدخلت هذه العلقة في جوفها وهي بنت عشر سنين فما زالت العلقة تكبر في بطنها حتى الآن انتهى «١» .

ومن لطائف ما وجدناه أيضاً لأmir المؤمنين (ع) ما رواه اليافعي في روض الرياحين ص ٤٢ . قال : مر علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في بعض شوارع البصرة فإذا هو بملقة كبيرة والناس حولها يمدون اليها الاعناق ويشخصون اليها بالاحداق فمضى اليهم لينظر ما سبب اجتماعهم فإذا فيهم شاب حسن الشباب بقي الثياب عليه هية ووقار وسكينة الاختيار وهو جالس على كرسي والناس يأتون به بقوارير من الماء وهو ينظر في دليل المرضى ويصف لكل واحد منهم ما يوافقه من أنواع الدواء ، فتقدم اليه «ع» وقال : السلام عليك أيها الطيب ورحمة الله وبركاته ، هل عندك شيء من أدوية الذنوب فقد أعني الناس دواؤها يرحمك الله ؟ فاطرق الطيب برأسه الى الارض ولم يتكلم ، فناداه الامام «ع» ثانية فلم يتكلم فناداه ثالثة كذلك فرفع الطيب رأسه بعد ما رد السلام وقال أو تعرف أنت أدوية الذنوب بارك الله فيك ؟ قال «ع» : نعم ، قال : صف وبالله التوفيق ، فقال «ع» : تعمد الى بستان الايمان فتأخذ منه عروق النية وحب الندامة وورق التدبر وبزر الورع وثمر الفقه وأغصان اليقين ولب الاخلاص وقشور الاجتهاد وعروق التوكل واكمام الاعتبار وسيقان الانابة وترياق التواضع ، تأخذ هذه الأدوية بقلب حاضر وفهم وافرباً نامل التصديق وكف التوفيق ثم تضعها في طبق التحقيق وتغسلها بماء الدموع ، ثم تضعها في قدر الرجاء وتوقد عليها بنار الشوق حتى ترعى زبد الحكمة ثم تفرغها في صحاف الرضا وتروح عليها بمراوح الاستغفار ينعقد لك من ذلك شربة جيدة ، ثم تشربها في مكان لا يراك فيه أحد إلا الله تعالى ، فان ذلك يزيل عنك الذنوب حتى لا يبقى عليك ذنب أبداً فأنشأ الطيب قائلاً

يا خاطب الحوراء في خدرها شمر فتقوى الله من مهرها
وكن مجدداً لتكون وانياً وجاهد النفس على صبرها

ثم شفق شهقة فارق بها الدنيا انتهى . الى غير ذلك مما يدلنا على ما لهذا الدين الحنيف من العناية بالصحة ، وما لدى النبي (ص) وأوصيائه من المعرفة الالهية والكنوز القرآنية التي اختارهم الله تعالى لمعرفة . فلقد كان النبي (ص) في حياته الشريفة هو الواسطة الكبرى بين الخالق وخلق ، ولما رفعه الله تعالى اليه أبى لطفه العام وكرمه الشامل أن يترك هذا الخلق - بعد نبه - سدى دون أن ينصب لهم ولياً مرشداً يكشف لهم عن تلك الكنوز ويثبت فيهم تلك التعاليم الصالحة المصلحة والارشادات الحكيمة فكانت أوصياؤه وأبناءؤه هم حملة تلك العلوم وأمناء الله في أرضه على مكنون علمه وغامض سره ، ولا غرابة فقد أخذوا ذلك عن جد هم النبي صلى الله عليه وآله عن جبرئيل عن الله تعالى ، ولقد ظهر في الناس من تعاليمهم وأرشاداتهم ما دل على كامل معرفتهم وتمام اطلاعهم على مختلف العلوم لا سيما علم الطب حتى جمع غير واحد من العلماء جملة من أقوالهم فألفها كتباً قيمة باسم طب النبي وطب الأئمة (ع) وطب الرضا الى غيرها مما ملأت الكتب وتواترت بها الاحاديث الصحيحة وفي مقدمتها الرسالة الذهبية التي ألفها الامام علي بن موسى الرضا (ع) بطلب من المأمون الخليفة العباسي ، وقد جمعت فوائده من قواعد الطب واصول الصحة ، وأمر المأمون أن تكتب بالذهب لأهميتها ولذلك سميت بالذهبية ، ولم يكن للخليفة عنها غنى برجال الفن المتصلين به نظير حنا بن ماسويه وجبرئيل بن جئيشوع وصالح بن سلهم الهندي وغيرهم من أطباء البلاط العباسي ، وقد أصبحت هذه الرسالة فريدة كل دهر وخريدة كل عصر

الطب والامام الرضا «ع»

في أوائل القرن الثالث الهجري - حيث الخلافة العباسية في عصرها الذهبي خليفته المأمون من بني العباس وولي عهدها الرضا من آل محمد (ص) - انعقدت ندوة من أندية العلم الرفيعة بنيسابور ، مجلس علمي من تلك المجالس التي كان المأمون أعلم الخلفاء العباسيين يكثر عقدها ويجلب لها كبار العلماء من شتى أقطار الأرض ليخوض معهم في بحار العلم يجلو غوامضه ويكشف حقائقه ، يحقق بذلك رغبة العلماء السباقيين الى البحث والجدل ابتغاء الوصول الى حقيقة علمية أو بز الأقران في مجلس الخلافة ليسير بذكر فضلهم الركبان .

ولم يكن المأمون قد عقد هذا المجلس كما كثر ما كان يعقد من مجالس العلم حينذاك للمناظرة في المذاهب والمناقشة في الأديان ليجمع في مجلسه عمران الصابي ورأس الجالوت والجائليق والهر بذا الأكر وأماهم ، وإنما عقد مجلسه العلمي من الفلاسفة والمتطيين ليتذاكروا في الأمزجة وطب الأبدان وقد انعقد المجلس من كل من : - المأمون الخليفة ، الامام الرضا ولي العهد ، يوحنا بن ماسويه الطبيب ، جبرئيل بن بختيشوع الطبيب النصراني ، صالح بن سلمة الهندي الفيلسوف وغيرهم من ذوي العلوم والبحث والنظر ، وجرى ذكر الطب وما فيه صلاح الأجسام وقوامها فأغرق المأمون ومن بحضرته في الكلام وأنه كيف ركب الله هذا الجسد وما فيه من الأشياء المتضادة من الطبائع الأربع ومضار الأغذية ومنافعها ، وأبو الحسن

— الامام الرضا — ساكت لا يتكلم في شيء من ذلك ، فقال له المأمون : ما تقول يا أبا الحسن في هذا الأمر الذي نحن فيه هذا اليوم ؟ .

فقال أبو الحسن : « عندي من ذلك ما جربته وعرفت صحته بالاختبار ومرور الأيام مع ما وقفني عليه من مضى من السلف مما لا يسع الانسان جهله ولا يعذر في تركه ، فأنا أجمع ذلك مع ما يقاربه مما يحتاج الى معرفته ، ثم عاجل المأمون الخروج الى بلخ وتخلف عنه أبو الحسن «ع» فكتب اليه المأمون كتاباً يستجزه ما كان ذكره في ذلك فكتب اليه الرضا كتاباً نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم

اعتصمت بالله :

أما بعد فإنه وصل الي كتاب أمير المؤمنين فيما أمرني من توقيفه الى ما يحتاج اليه مما جربته وسمعته في الأطعمة والأشربة وأخذ الأدوية والفصد والحجامة والحمام والنورة والباء وغير ذلك مما يدبر استقامة أمر الجسد وقد فسرّت ما يحتاج اليه وشرحت له ما يعمل عليه — في سياسة جسمه وبالله التوفيق . وبعد هذا يفتح الرسالة بقوله : « اعلم يا أمير المؤمنين . . . الخ »

فلما وصلت هذه الرسالة الى المأمون وهو يومئذ يبلخ وقرأها فرح بها فرحاً شديداً ، وأمر فكتب بالذهب ، وأمر أن تسمى بالمذهبة ، ودفعت إلى أولاده وأولياء دولته وبني عمه ثم أودعها بيت الحكمة من خزانته وكتب معها رسالة بخطه وكان حسن الحظ نسختها .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أهل الحمد ووليّه وله آخره وبدؤه ذي النعم والافضل والاحسان والاجمال أحمدّه على نعمه المتظاهرة وفواضله وأياديه المتكاثرة المتواترة ، وأشكره على منحه ومواهبه شكراً يوجب زيادته ويقرب زلفي أشهد أن لا إله إلا الله شهادة

مخلص له بالايمان غير جاحد ولا منكر له بربوبيته ووحدانيته ، بل شهادة تصدق نسبته لنفسه ، وأنه كما قال الله عزوجل : « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » . وكذلك ربنا عزوجل . صلى الله على سيد الأولين والآخيرين محمد بن عبد الله خاتم النبيين .

أما بعد فإني نظرت في رسالة ابن عمي العلوي الأديب والفاضل الحبيب والمنطقي الطيب في اصلاح الأجسام وتدير الحمام وتعديل الطعام فرأيتها في أحسن التمام ووجدتها في أفضل الانعام ، ودرستها متدبراً ورددت نظري فيها متفكراً ، فكلما أعدت قراءتها والنظر فيها ظهرت لي حكمتها ولاحت لي فائدها وتمكنت من قلبي منفعتها ، فوعيتها حفظاً وتدبرتها فهماً ، إذ رأيتها من أنفس العلائق وأعظم الدخائر وأنفع الفوائد ، فأمرت أن تسكتب بالذهب لنفاستها وحسن موقعها وعظم نفعها وكثرة بركتها ، وسميتها المذهبة وخزنتها في خزانة الحكمة ، وذلك بعد أن نسختها آل هاشم قتياب الدولة ، لأن بتدبير الأغذية تصلح الأبدان ، وبصحة الأبدان تدفع الأمراض ، وبدفع الأمراض تكون الحياة ، وبالحياة تنال الحكمة ، وبالحكمة تنال الجنة . وكانت أهلاً للصيانة والادخار وموضعاً للتأهيل والاعتبار وحكماً يعول عليه ومشيراً يرجع إليه ، ومن معادن العلم آمراً وناهياً ينقاد له لانها خرجت من بيوت الذين يوردون حكم الرسول المصطفى وبلاغات الأنبياء ودلائل الأوصياء وآداب العلماء وشفاء للصدور والمرض من أهل الجهل والعمى . رضوان الله عليهم ورحمته وبركاته أولهم وآخرهم وصغيرهم وكبيرهم ، فعرضتها على خاصتي وصفوتي من أهل الحكمة والطب وأصحاب التأليف والكتيب المعدودين في أهل الدراية والمذكورين بالحكمة ، وكل مدحها وأعلاها ورفع قدرها وأطراها ، انصافاً لمصنفها وإذناً لمؤلفها وتصديقاً له في ما حكاه فيها . فن وقعت إليه هذه الرسالة من بعدنا من أبنائنا وأبناء دولتنا ورعايانا وسائر الناس على طبقاتهم فليعرف

قدرها والموهبة له وتمام النعمة عليه وليأخذها بشكر ، فانها أنفـس من العقيان وأعظم خطراً من الدر والمرجان ، وليستعمل حفظها وعرضها على همته وفكره ليلاً ونهاراً فانها عائدة اليه بالنفع والسلامة من جميع الامراض والاعراض إن شاء الله تعالى .
وصلى الله على رسوله مجد وأولاده الطيبين الطاهرين أجمعين حسبنا الله ونعم الوكيل والحمد لله رب العالمين .

ولقد جاءت رسالة الامام الرضا «ع» البليغة العلمية مختصراً لعدد من العلوم الطبية : كعلم التشريح ، علم الاحياء ، وعلم وظائف أعضاء الجسم « الفسليجة » ، وعلم الامراض « الباثولوجي » ، وعلم حفظ الصحة . ودلت على القسم الاعظم من الطب الوقائي وعلم الأغذية وعلم الكيمياء وقسم كبير من العلوم الاخرى .
ومن الجدير أن نلفت نظر القارئ النبيه هو أن الامام صلوات الله عليه بعث برسائله الذهبية هذه الى الخليفة المأمون حوالي سنة ٢٠١ هجرية في وقت كان الطب علماً بدائياً ودراسته بصورة غير علمية ، مبنية على الممارسة فقط وليست على الاكتشافات العلمية ، وفي وقت لم تكن تشفى فيه الجرائم بعد ، ولم يعرف شيء عن جواهر الغذاء المهمة كالفيتامينات ولا الاكتشافات الطبية المهمة الاخرى لمكافحات المـكروبات من « البنسلين » ، والستروميسين ، والاورومايسين » وغيرها .
وقد جاءت الرسالة بسيطة بظاهرها المباشرة عقلية ذلك الزمان ، إلا انها عميقة ومعقدة ببواطنها تحتاج الى دراسات علمية وبحوث طويلة لتفسير أسرارها وكشف بواطنها ومقارنتها بالحقائق العلمية الحديثة .

الرسالة

اعلم يا أمير المؤمنين إن الله تعالى لم يبتل الجسد بداء حتى جعل له دواء يعالج به ، ولكل صنف من الداء صنف من الدواء وتدير ونعت . وذلك ان الاجسام الانسانية جعلت على مثال الملك ، فلك الجسد هو القلب والعـمال العروق والـاوصال

والدماغ ، وبيت الملك قلبه وأرضه الجسد ، والأعوان يده ورجلاه وشفثاه وعيناه
ولسانه واذناه ، وخزائنه معدته وبطنه ، وحجاب صدره . فاليدان عونان تقربان
وتبعدان وتعملان على ما يوحى اليهما الملك ، والرجلان تنقلان الملك حيث يشاء ،
والعينان تدلان على ما يغيب عنه ، لأن الملك من وراء الحجاب لا يوصل اليه شيء
إلا بالاذن وهما سراجان أيضاً ، وحصن الجسد وحرزه الاذنان لا يدخلان على
الملك إلا ما يوافقهما لأنها لا يقدران أن يدخلن شيئاً حتى يوحى الملك اليهما فإذا
أوحى اليهما أطرق الملك منصتاً لهما حتى يسمع منهما ثم يحجب بما يريد فيترجم عنه
اللسان بأدوات كثيرة : منها ربح الفؤاد وبخار المعدة ومعونة الشفتين ، وليس
للسفتين قوة إلا باللسان أو « الاسنان » وليس يستغني بعضها عن بعض ، والكلام
لا يحسن إلا بترجيئه في الأنف لان الأنف يزين الكلام كما يزين النافخ في المزمار
وكذلك المنخران وهما ثقبتا الأنف يدخلان على الملك مما يحب من الرياح الطيبة ،
فإذا جاءت ربح تسوء الملك أوحى الى اليدين فحجبا بين الملك وتلك الريح .
وللملك مع هذا ثواب وعقاب . فعذابه أشد من عذاب الملوك الظاهرة القاهرة
في الدنيا وثوابه أفضل من ثوابهم ، فأما عذابه فالحزن ، وأما ثوابه فالفرح ، وأصل
الحزن في الطحال ، وأصل الفرح في الثرب والكليتين ومنها عرقان موصلان الى
الوجه ، فمن هناك يظهر الحزن فترى علامتهما في الوجه . وهذه العروق كلها طرق
من العمال الى الملك ومن الملك الى العمال . ومصدق ذلك انك إذا تناولت الدواء
أدته العروق الى موضع الداء باعانتها .

الفلسفة والتشريح في رسالة الامام «ع»

كم كنت أود أن أعثر على شرح لهذه الرسالة القيمة يوافق العصر والطب
الحديث وإن كان السلف - رضوان الله عليهم - لم يهملوا هذه الناحية فقد وقفنا على
عدة شروح لهم معقدة لا نفي بالغرض - والطب اليوم غيره بالامس - الى أن اتيت

الفرصة ووفق الجليل جل وعلا أن زرت الامامين الجوادين عليهما السلام ، ومن حسن الصدف أن زرت في الاثناء الصديق الحفي الدكتور الفاضل السيد صاحب زيني أداءاً للخدمة الانسانية التي يقوم بها .

وما أسعدني عندما أتخفني بكتيب صغير الحجم كبير المعنى ، وما أكثر ابتهاجي حينما وجدته الغاية المتوخاة . الكتاب في شرح رسالة الامام قد ضمن دقيق الطب وجليله جمع فأوعى ، ومن الممكن أن يكون آية عصره . وفق الله الدكتور لأداء الخدمة الطبية وجزاه عما قام به من شرح هذه الرسالة الذهبية .
واني أرى من الخير لقراء « الجواهر الروحية » أن أقتطف لهم من آرائه السديدة بعض المناسبات التي تتعلق بالغرض . قال وفقه الله تعالى :

أول العلوم والذي له الصدارة في مدرسة الطب الحديث هو علم التشريح وعلم وظائف الاعضاء الذي تدرس لطلاب الطب كعلوم بدائيه وأولية لما لها من أهمية في تفهم العلوم الطبية الاخرى . فالتشريح هو دراسة مختلف الاجزاء التي تكون الجسم البشري على اختلاف أنواعها وتنوع أنسجتها شاملاً وإياها فرعاً كبيراً هو علم الأجنة « العلم المخصص بدراسة النطفة من تكونها في الارحام حتى تولد الجنين كاملاً » . وقد قسم علم التشريح الى عدة أقسام كبيرة عديدة لسهولة البحث ولتيسير دراسة أهمها : ١ - الهيكل العظمي ٢ - المجموعة المفصليّة ٣ - المجموعة العضلية ٤ - جهاز الدوران ٥ - الجهاز العصبي ٦ - الحواس والجلد ٧ - جهاز التنفس ٨ - جهاز الهضم ٩ - جهاز البول والتناسل ١٠ - الغدد الصماء . وتتكون هذه الاقسام الكبيرة من أقسام أصغر فتتدرج في صغر التكوين الى أن تصل الى وحدة تكون الانسجة وهي الحبيرة التي لا ترى بالعين المجردة وتحتاج الى الدرس بمساعدة المجهر « المكروسكوب » .

إن كل قسم من هذه الاقسام الكبيرة هو موضوع بحث منفصل عن الاقسام

الآخري ، وتختلف كل حسب وظيفتها في تركيبها عن الأقسام الباقية إلا أنها جميعاً تشترك وتتعاون فيما بينها لتكوّن الجسم البشري الحي ، ولتحافظ على إدامة الحياة في هذا الجسم الى حد ما ، وللمحافظة على روح هذا الجسم . أما ما هي الروح وأين موقعها في الجسم ؟ فإن علم ذلك عند إلهه فقط ، إلا أن الشيء الذي توصل إلى معرفته البشر هو أن أدق وأحس أقسام البدن هما القلب والدماغ الذي إذا شبنها جسم الانسان بمملكة مصغرة فيكونان بمثابة الملك لهذه المملكة . فالقلب هو ذلك العضو الجبار الذي لا يكل ولا يعطل وهو أقوى العضلات التي تبدأ حركتها ودقاتها بيده الحياة في الجنين ولا تكف حركته إلا عند الموت ، وهو المسؤول عن توزيع الدم النقي - الذي يعتبر العنصر المغذي لأنسجة الجسم كافة - بواسطة الشرايين وارجاع الدم الفاسد المثقل بالفضلات بواسطة الأوردة ، ومجموعة الأوردة ، والشرايين ومساعداتها الأنايب المعفاوية هي ما تسمى بالعروق . فالعروق هي بمثابة الجنود للقلب الذي يعتبر هو قائد هذا القسم التي لا تنتهي مأموريتها بهذا العمل فقط بل هي المسؤولة عن إيصال هذا الدم الفاسد الى الجهاز التنفسي المتكون من الرئتين والقصبات الهوائية وجاري الهواء العليا لبدال ما أثقله من غازات ومواد سامة بغاز شفاف نقي هو غاز الاوكسجين ، ثم لحمل المواد السامة والفضلات الزائدة الى الجهاز المسؤول عن طرحها الى الخارج وتخليص الجسم منها وهو الجهاز البولي .

أما الأقسام الآخري فاسكن تركيبه الخاص وأعماله الخاصة الملقاة على عاتقه فالهيكل العظمي مثلاً هو رافع كيان البدن وقالبه المقوم ، والمجموعة العضلية والمفصلية هي قسم الحركة ، وجهاز الهضم بتركيباته المعقدة بادئاً من الفم ومنتهياً الى الشرج هو المسؤول عن اخذ الطعام وسحقه ثم هضمه وامتصاصه ثم تمثيله وطرح فضلاته . وما جهاز التناسل على اختلاف تركيبه في الذكور والاناث سوى معمل للتكاثر والتوالد هذه المملكة المصغرة وهؤلاء قوادها وجنودها وهذا ملكها وأمرها وناهيها

هو سيد الأعضاء الجهاز العصبي . يختلف الجهاز العصبي عن بقية الأجهزة الأخرى ، فنسيجه هو من أتقى الأنسجة وحجراته هي من أحلى وأدق الحجرات ، وتصميم تركيبها وتلاحمها هو من أقوى وأحسن التراكيب والامتزاج ، وأفضل أنواعها وأصفاها هو نسيج الدماغ (المخ والمخيخ والمراكز العصبية العليا) ، وبالدرجة الثانية النخاع المستطيل والنخاع الشوكي ، وبالدرجة الثالثة هو توزيعات الأعصاب على اختلاف أنواعها سواء أكانت حسية أو حركية ، إرادية أو غير إرادية .

لمركز الأعصاب العليا المخ والمخيخ وقنطرة فارول والدماغ الوسطى والقسم المركزي من الجملة العصبية ، النخاع المستطيل والنخاع الشوكي السيطرة الكلية على جميع الأفعال والحركات سواء كانت إرادية أو غير إرادية ، وعلى جميع الحواس بما فيها التفكير والعقل والحواس الخمسة : (النظر والسمع والشم والذوق واللمس) وعلى حركات الاحشاء الداخلية . وكل هذه المراكز الخارجية باتصال مع المراكز العليا بأسلاك خاصة ومراكز توزيعية هي أشبه شيء بشبكة خطوط التلغرافات .

علم الفسلجة : - وهو علم وظائف الأعضاء وبحث جميع فعاليات الجسم الداخلية والخارجية في الحالات الطبيعية الصحية . فما فلسفة سيطرة الجملة العصبية على جميع أجزاء البدن وأهمية الدورة الدموية بادامة الحياة بتغذية جميع الانسجة الحية وتزويدها بحاجياتها ، وما عملية تنقية الدم الفاسد من الشوائب في الرئتين وعملية الهضم المعقدة وعمل الكليتين من تخليص الجسم من المواد السامة والفضلات ، وفائدة الغدد الصماء في ضبط درجة الفعاليات المختلفة إلا أمثلة ورؤوس مواضيع في هذا العلم الواسع وهو ثاني علوم الطب البدائية بعد التشريح .

لقد استهل إمامنا الرضا (ع) رسالته بتشبيه الجسد بمملكة ، والقلب والدماغ بمثابة الملك ، ويد الملك وبقية الاعضاء بضمها عروق الدم والاعصاب بمثابة الرعية والجنود ، الواجب عليهم اطاعة الملك وتنفيذ أوامره ، ثم المحافظة عليه من جميع

الطوارئ والمؤثرات الخارجية . لقد أشار الامام الى تقسيم الحوافز الصادرة من الدماغ والراجعة اليه بواسطة أعصاب خاصة حركية ، وتطرق بالتفصيل الى الحواس الخمسة وخاصة حاسة السمع والبصر والشم وفوائدها وبين أن كل هذه الحواس لا تتم إلا بفضل حوافز الدماغ . فالإنسان يرى ويسمع ويشم ويدوق ويحس بدماغه ، وما آلات الحواس سوى وسائط لا يصال الحافز الخاص للدماغ وصدور الشعور لذلك الحس منه ، وان هذه الحواس هي من النوع الارادي ، فالإنسان يرى متى ما أراد أن يرى ، ويسمع متى ما أراد أن يسمع ، ويشم ما يريد أن يشمه وما عدى ذلك يمكن تجنبه بمحض إرادته .

ثم عرّج عليه السلام على ناحية اخرى من وظائف الدماغ وهي السيطرة على الاعضاء المكلفة بالحركة كاليدين والرجلين بواسطة الاعصاب الحركية ، وكيف فسرت أحدث نظريات انتقال حوافز الحركة من المراكز العليا الى الاسفل وبالعكس ثم مساعدة اليدين والرجلين في تنفيذ أوامر ملك الجسد في الانتقال وقضاء الحوائج اليومية والدفاع عن النفس ، وفي سياق شرح الحواس الخمسة أبان « ع » ما للأتق من فائدة في تصفية هواء التنفس وما له من فائدة اخرى مشتركة مع اللسان والاسنان والشفيتين في إخراج الكلام الواضح المفهوم المقاطع ، وفسر أحدث النظريات الصوتية في فائدة الجيوب الأنفية الهوائية في تزيين الصوت وتجسيمه واعطائه النبرات الخاصة به . وفي نهاية هذا القسم لمح سيدنا الامام (ع) الى مراكز خاصة لنوع من الأعصاب التي تحكم نفسها بنفسها حكماً ذاتياً والتي لها كل السيطرة على الاحشاء الداخلية كمروق الدم والدورة الدموية بصورة خاصة وبقية الاجهزة بصورة عامة . فبعض المؤثرات الخارجية كالحزن والفرح التي لها بعض المظاهر كحمرة الوجنتين والتعرق سببها تقلصات وتمددات في عروق الدم الدقيقة الجهرية بحكم هذه الاعصاب الذاتية الموزعة من بعض نقاط التوزيع الواقعة

بعضها خلف الكليتين والاخرى في القسم الامامي من غشاء الأمعاء تحت الثرب مباشرة « وأصل الحزن في الطحال وأصل الفرح في الثرب والكليتين . . . الخ ونختم بحث الفلسفة بذكر جواب الامام الرضا «ع» لضباع بن نصر الهندي وعمران الصابي بمحضر المأمون حين سأله عمران فقال : « العين نور مركبة أم الروح تبصر الأشياء من منظرها ؟ قال «ع» : العين شحمة وهو البياض والسواد ، والنظر للروح « ولما » قال ضباع فإذا عميت العين كيف صارت الروح قائمة والنظر ذاهب ؟ قال «ع» : كالمشمس طالعة يغشاها الظلام . قال : أين تذهب الروح ؟ قال : أين يذهب الضوء الطالع من الكوة في البيت إذا سدت الكوة ؟ قال : أوضح لي ذلك ، قال : الروح مسكنها الدماغ وشعاعها منبعث بالجسد بمنزلة الشمس دارتها في السماء وشعاعها منبسط على الأرض فإذا غابت الدارة فلا شمس وإذا قطع الرأس فلا روح . »

خذ من الطعام ما يوافقك

واعلم يا أمير المؤمنين ان الجسد بمنزلة الأرض الطيبة ، متى تعوهدت بالعمارة والسقي من حيث لا يزداد الماء فتغرق ولا ينقص منه فتعطش دامت عمارتها وكثر ريعها وزكى زرعها ، وإن تعوفل عنها فسدت ولم ينبت فيها العشب . فالجسد بهذه المنزلة ، وبالتدبير في الأغذية والأشربة يصلح ويصح وتزكو العافية فيه . فانظر يا أمير المؤمنين ما يوافقك ومعدتك ويقوى عليه بدنك ويستمر به من الطعام فقدّرته لنفسك واجمله غذاءك . واعلم يا أمير المؤمنين أن كل واحدة من هذه الطبايع تحب ما يشاكلها ، فاعتد ما يشاكل جسدك ، ومن أخذ من الطعام زيادة لم يغذيه ومن أخذه بقدر لا زيادة عليه ولا نقص في غذائه نفعه ، وكذلك الماء فسيبيله أن تأخذ من الطعام كفايتك في أيامه ، وارفع يدك منه وبك اليه بعض القرم وعندك اليه ميل فانه أصلح لمعدتك ولبدنك وأزكى لعقلك وأخف لجسمك .

حفظ الصحة بمراعاة الجسم

قال الدكتور زيني : بُنيت أكثر القواعد الطبية والارشادات الصحية لاعلى قاعدة معينة يسري مفعولها على جميع الأبدان بل على سريان مفعولها وانطباقها على أكبر عدد من البشر ، لأن كل شخص هو وحدة بدنية وخليقة تختلف نسبياً عن الآخرين . فكل شخص هو مزاج خاص وقابلية خاصة بل هو وحدة حيوية خاصة تختلف عن الوحدات الاخرى ، وقد تنطبق عليها بعض القواعد وقد يضرها البعض الآخر أو قد لا ينفعها بتاتاً . فمثلاً قالت أكثر الكتب ونشرات الارشادات الصحية إن الحمام البارد صباحاً وخاصة في البلاد الحارة وفي الفصول الحارة مفيد للبدن ولكن بعض الأجسام الضعيفة ذات المقاومات القليلة ودقيقة المزاج قد لا تنفعها هذه الحمامات وقد تسبب بعض الأضرار أو الأخطار لتأثيراتها على الشرايين والأوردة فتقلصها فجائياً ، وهذا مما يؤثر تأثيراً خطراً على عضلة القلب ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى هنالك نصائح وأقوال يسري مفعولها على جميع الأجسام على السواء كنصيحة الامام علي «ع» : « كل وأنت جائع وقم وأنت جائع » .

لقد شبه الامام الرضا «ع» الجسد في هذا الموضع بالأرض الخصبة والانسان هو صاحب هذه الأرض الشرعي وفلاحها ، فان اعتنى بها العناية اللازمة باعتدال لا تبذير أو تقير أثمرت هذه الأرض أطيب الثمرات ، واما إذا أساء التصرف بها أو باغراقها أو تعطيشها فقتل أو تموت . ياله من تشبيه تنطبق عليه أحدث الاسس الوقائية الصحية وتستنتج أدق النظريات الطبية ، ثم قبل أن يترك هذا القسم من الموضوع يفسر لنا كيف أن الباري عز وجل خلق كل إنسان كوحدة منفردة ومنفصلة عن الآخرين ولكل شخص مزاجه الخاص فيخطب الخليفة بقوله : « فانظر يا أمير المؤمنين ما يوافقك ويوافق معدتك . . . الخ » واعلم يا أمير المؤمنين ان كل واحدة من هذه الطبائع تحب ما يشاكلها فاغذ ما يشاكل جسدك . . . الخ

ويرجع فيقول : « وارفح يدك منه وعندك اليه ميل » فهو في هذا الموضع يفسر قول جده الامام علي «ع» : « كل وأنت جائع وقم وأنت جائع » .

الجوع : هو ذلك الشعور الخاص الذي يشعره كل فرد عندما يحتاج جسمه للغذاء ويكون جهازه الهضمي بحالة الراحة التامة وجاهز لتلقي الوجبة الطعمية واستئناف عمله .

الشبع : هو ذلك الشعور الخاص الذي يشعره كل فرد عند ما يصل الحافظ الخاص النبيء باكتفاء الجسم بتلك الكمية من الغذاء التي استوعبتها المعدة . إن الافراط بهذين الشعورين وسوء التصرف تجاه كل منهما وخيم العاقبة بدون أي شك وان الأكل الكثير أكثر من قابلية البدن مولد للتخمة بديهة لا حاجة لاثباتها كنتيجة مباشرة للافراط . أما النتائج غير المباشرة فمكثيرة آتي على أهمها وهو « سوء الهضم المزمن » ذلك المرض المسبب من اجهاد الجهاز الهضمي وخاصة المعدة والسكبد بالأكل الكثير وعدم مراعاة الشروط الصحية .

والسمنة : وهي علة العلل إذا كان الجهاز الهضمي صالح لحد ما وافراط صاحبه في الأكل فيثقل الدم بالمواد الشحمية التي يضطر الى ترسيبها في محلات غير طبيعية كعضلة القلب والسكبد التي تعتبر من أخطر المواضع . ومن نتائج السمنة (عجز القلب) الذي قد يؤدي الى (عجز الكلى) ، ومن النتائج الاخرى (ارتفاع الضغط الدموي) الذي قد يؤدي الى (تصلب الشرايين) وانفجار بعضها في محلات خطيرة كالدماع ومن التأثيرات المرضية الاخرى هي بعض أمراض المفاصل المزمنة « كالنقرس » وغيرها . هذه بعض الأمراض المسببة عن الافراط في الأكل . أما نتائج هذه فحدث ولا حرج عن خطورتها ، وأما ما هو أصاح طعام اسكل فرد فذلك يتعلق بمزاج ذلك الفرد وقابليته .

قال الامام الرضا «ع» : يا أمير المؤمنين كل البارد في الصيف والحار في

الشتاء والمعتدل في الفصلين على قدر قوتك وشهوتك ، وابدأ في أول الطعام بأخف الأغذية التي يفتدي بها بدنك بقدر عادتك وبحسب طاقتك ونشاطك وزمانك ، والذي يجب أن يكون أكلك في كل يوم عندما يمضي من النهار ثمان ساعات أكلة واحدة أو ثلاث أكالات في يومين تغتدي باكرأ في أول يوم ثم تتعشى ، فإذا كان في اليوم الثاني فعند مضي ثمان ساعات من النهار أكلت أكلة واحدة ولم تحتاج الى العشاء ، وكذا أمر جدي مجد «ص» وعلي (ع) في كل يوم وجبة وفي غد وجبتين وليكن ذلك بقدر لا يزيد ولا ينقص ، وارفع يدك من الطعام وأنت تشتهي ، وليكن شرابك على أثر طعامك من الشراب الصافي العتيق مما يحل شربه الذي أنا واصفه «أو واضعه» فيما بعد .

قال «ع» ونذكر الآن ما ينبغي ذكره من تدبير فصول السنة وشهورها الرومية الواقعة فيها في كل فصل على حدة وما يستعمل بعد الطعام .

ذكر فصول السنة

أما فصل الربيع فإنه روح الزمان ، وأوله آذار وعدد أيامه ثلاثون يوماً ، وفيه يطيب الليل والنهار وتلين الأرض ويذهب سلطان البلغم ويهيج الدم ويستعمل فيه من الغذاء اللطيف واللحوم والبيض النيمرشت ويشرب الشراب بعد تعديله بالماء ويتقى فيه أكل البصل والثوم والحامض ، ويحمد فيه شرب المسهل ويستعمل فيه الفصد والحجامة .

« نيسان » ثلاثون يوماً فيه يطول النهار ويقوى مزاج الفصل ويتحرك الدم وتهب فيه الرياح الشرقية ، ويستعمل فيه من المأكول المشوية وما يعمل بالخل ولحوم الصيد ويعالج الجماع والتمريخ بالدهن في الحمام ، ولا يشرب الماء على الريق ويشم الرياحين والطيب .

« أيار » أحد وثلاثون يوماً ، وتصفو فيه الرياح ، وهو آخر فصل الربيع

وقد نهى فيه عن أكل الملوحات واللحوم الغليظة كالرؤوس ولحم البقر والبن ، وينفع فيه الحمام أول النهار ويكره فيه الرياضة قبل الغذاء .

« حذيران » ثلاثون يوماً ، يذهب فيه سلطان البلغم والدم ، ويقبل فيه زمان المرة الصفراوية ، ونهى فيه عن التعب وأكل اللحم داسماً والاكتثار منه ، وشم المسك والعنبر وفيه ينفع أكل البقول الباردة كالفنداء والبقلة الحماة وأكل الخضر كالخيار والقثاء والشيرخشت والفاكهة الرطبة واستعمال الحمضات ، ومن اللحوم لحم المعز الثني والجذع ومن الطيور الدجاج والطيهورج والدراج والألبان والسمنك الطري .

« تموز » أحد وثلاثون يوماً ، فيه شدة الحرارة وتقوم المياه ويستعمل فيه شرب الماء البارد على الريق ، ويؤكل فيه الأشياء الباردة الرطبة ، ويكسر فيه مزاج الشراب ، ويؤكل فيه الأغذية اللطيفة السريعة الهضم كما ذكر في حذيران ، ويستعمل فيه من النور والرياحين الباردة الرطبة الطيبة الرائحة .

« آب » أحد وثلاثون يوماً ، فيه تشنيد السموم ويهيج الزكام بالليل وتهب الشمال ، ويصلح المزاج بالتبريد والترطيب ، وينفع فيه شرب اللبن الرائب ويحجنب فيه الجماع والمسهل ويقل من الرياضة ويشم من الرياحين الباردة .

« أيلول » ثلاثون يوماً ، فيه يطيب الهواء ويقوى سلطان المرة السوداء ويصلح شراب المسهل ، وينفع فيه أكل الحللاوات وأصناف اللحوم المعتدلة كالجداء والحولي من الضان ، ويحجنب فيه لحم البقر والاكتثار من الشواء ودخول الحمام ، ويستعمل فيه الطيب المعتدل المزاج ويحجنب فيه أكل البطيخ والقثاء .

« تشرين الاول » أحد وثلاثون يوماً ، فيه تهب الرياح المختلفة ويتنفس فيه ريح الصبا ويحجنب فيه الفصد وشرب الدواء ويحمد فيه الجماع وينفع فيه أكل حوم السمينة والرمات المز والفاكهة بعد الطعام ، ويستعمل فيه أكل اللحوم

بالتوايل ويقلل فيه شرب الماء ويحمد فيه الرياضة .

« تشرين الآخر » ثلاثون يوماً ، فيه يقع المطر الوسمي وينهى فيه عن شرب الماء بالليل ، ويقلل فيه من دخول الحمام والجماع ، ويشرب بكرة كل يوم جرعة ماء حار . ويجتنب أكل البقول كالكرفس والنعناع والجرجير .

« كانون الأول » أحد وثلاثون يوماً ، تقوى فيه العواصف ويشد فيه البرد ، وينفع فيه كل ما ذكرناه في تشرين الآخر ، ويحذر فيه من أكل الطعام البارد ويتقى فيه الحجامة والفصد ، ويستعمل فيه الأغذية الحارة بالقوة والفعل .

« كانون الآخر » أحد وثلاثون يوماً ، يقوى فيه غلبة البلغم ، وينبغي أن يتجرع فيه الماء الحار على الريق ويحمد فيه الجماع ، وينفع الأحشاء فيه مثل البقول الحارة كالكرفس والجرجير والكراث ، وينفع فيه دخول الحمام أول النهار والتمريخ بدهن الخيري وما ناسبه ، ويحذر فيه الحلق وأكل السمك الطري واللبن .

« شباط » ثمانية وعشرون يوماً ، تختلف فيه الرياح وتكثر الأمطار ويظهر العشب ويجري فيه الماء من العود . وينفع فيه أكل الحلاوة ، ويحمد فيه كثرة الجماع والحركة والرياضة .

قال الدكتور زيني ، لتبدل الفصول الأربعة سنوياً كل فصل بوقته المحدد من الحكم ما لا يمكن شرحه هنا ، والذي اكتفي به هو تأثير هذا التبدل في حياة الانسان فقط ، وما يجب أن يستعد له كل فرد لمواجهة تأثيرات هذه التغيرات ولا تقاها أضرارها على الجسم والاستفادة من حسناته وتجسيم وتقخير هذه الحسنات لقد خلق الباري عز وجل الكائنات وجهزها ببعض القوى الحفية التي تحافظ عليها وتقيها شرمؤثرات الخارجيه وهذه الوقاية وتلك المحافظة هي غريزية خلقية خلقت مع هذه الاحياء ، وقد امتاز الانسان على جميع الاحياء بقوى ثانية رفعته عالياً وجعلته واسمه في قمة جداول أسماء هذه الاحياء ألا وهو العقل . فالبعض سمي

الانسان سيد المخلوقات وسجل اسمه أول أسماء الحيوانات ورسم خط فاصل بين هذا الاسم واسم أرقى طبقات الحيوانات الأخرى لأفضلية هذا المخلوق على البقية الباقية . لقد تعلم الانسان وذلك بفضل عقله عدداً لا يستهان به من العلوم الطبيعية ، وقد استغل هذه المعلومات في توفير المرفهات ولتيسير الحياة وجعلها سهلة . ومن العلوم المستغلة في هذا المضمار هو ما يخص تقسيمات الفصول الأربعة ، لقد درس فوائد تبدلاتها من قديم الزمان وقد اتقى شراً تأثيراتها وخاصة التأثيرات المباشرة على بدنه لتبدلات الفصول الأربعة فوائد لا تعد ولا تحصى على جميع الكائنات لا يسع المجال للتطرق لها هنا ، وإنما اكتفي بشرح فوائدها على جسم الانسان بصورة خاصة وما يجب عمله لمواجهة كل قسم منها على حدة .

بعد أن فرغ الامام عليه السلام من شرح تحديد وجبات الطعام وقد راعى في شرحها أدق الشروط الصحية بتحديد عددها ومراعاة اعتدالها وفصل باردها في الفصول الحارة والحرار منها - المولدة للطاقة الحرارية - في الفصول الباردة ، رجع فوجه الشرح الوافي للفصول الأربعة معدداً كلا منها وأشهره الثلاثة بعدد أيامها الكاملة . ووصف كل شهر وصفاً موجزاً مبيناً ما يجب عمله في كل منها بصورة مختصرة وما يجب أن تأخذ من الطعام والشراب ، ومقسماً بها أوقات النوم والراحة والاستحمام والفعاليات الجسدية الأخرى الواجب منها والمستحب .

ففي فصل الربيع وهو أطيب الفصول ويعتبر رأس كل سنة جديدة وفيه يحدث التغير والاتقال من الجو البارد القارس الى الاعتدال الذي يعقبه حر الصيف فبعد أن تكون الاجهزة قد انقلت وتعبت بمآكل الشتاء الثقيلة كالدهنيات والسكريات ، وبعد أن يكون الجسم قد تعود على الركود والحول وعلى تلك الملابس الثقيلة الواقية من البرد وذلك الجو الخاص الذي يهيئه البشر لنفسه ليمتق غائلة البرد ، بعد كل هذا وبعد حدوث ذلك الاعتدال في المناخ أصبح ضرورياً أن يتغير كل شيء . فلما أكل

يجب أن يتغير من النوع الثقيل ذي الطاقة الحرارية الزائدة « كربوهيدرات سكريات نشويات والشحومات » الى ماكل خفيفة سهلة الهضم والتمثيل كالفواكه والخضروات . وفي هذا الفصل يتجدد كل شيء سواء كان نباتياً أو حيوانياً ، وينصح أكثر الأطباء بتنظيف جهاز الهضم بالمسهل وخاصة المجاري الصفراوية ، وتفضل المسهلات الملحية وأخذ الحمامات وخاصة الصباحية منها ، والاكتثار من الزهات والفسحات الخلوية . وفي أواخر هذا الفصل وعند ابتداء فصل الصيف يستعد الانسان لوقاية جسمه من الحرارة فيستبدل نوع لباسه ونوع معيشته البيئية ثم تبديل نوع الغذاء بتقليل اللحومات والدهنيات الى غير ذلك مما ذكره في شرحه لهذا الفصل من رسالة الامام «ع» .

صفة الشراب

قال الامام الرضا «ع» : الشراب الذي يحل شربه واستعماله بعد الطعام وقد تقدم ذكر نفعه في ابتدائنا بالقول على فصول السنة وما يعتمد فيها من حفظ الصحة وصفته هو أن يؤخذ من الزبيب المنقى عشرة أرطال فيغسل وينقع في ماء صاف في غمرة وزيادة عليه أربع أصابع ويترك في أنائه ذلك ثلاثة أيام في الشتاء وفي الصيف يوماً وليلة ثم يجعل في قدر نضيفة وليسكن الماء ماء السماء إن قدر عليه وإلا فمن الماء العذب الذي ينبوعه من ناحية المشرق ماءً بارقاً أبيضاً خفيفاً وهو القابل لما يعترضه على سرعة من السخونة والبرودة وتلك دلالة على خفة الماء ويطبخ حتى ينشف الزبيب وينضج ، ثم يعصر ماؤه ويبرد ثم يرد الى القدر ثانياً ويؤخذ مقداره بمود ويغلى بنار لينة غلياناً ليناً رقيقاً حتى يمضي ثلثاه ويبقى ثلثه ، ثم يؤخذ من غسل النحل المصفى رطل فيلقى عليه ويؤخذ مقداره مقدار الماء الى أين كان من القدر ويغلى حتى يذهب قدر الغسل ويعود على حده ، ويؤخذ خرقة صفيقة فيجعل فيها زنجبيل وزن درهم ومن القرنفل نصف درهم ومن الدارجين نصف درهم ومن

الزعفران درهم ومن سنبل الطيب نصف درهم ومن الهندبا مثله ومن المصطكي نصف درهم بعد أن يسحق الجميع كل واحد على حدة ويُنخل ويَجعل في الخُرقة ويشد بخيط شدّاً جيداً وتلقى فيه وتمرس الخُرقة في الشراب بحيث تنزل قوى العقاقير التي فيها ، ولا يزال يعاهد بالتحريك على نار لينة برفق حتى يذهب عنه مقدار العسل ، ويرفع القدر ويرد ويؤخذ ويترك مدة ثلاثة أشهر حتى يتداخل مزاجه ببعضه بعضاً وحينئذٍ يستعمل . ومقدار ما يشرب منه أوقية الى أوقيتين من الماء القراح . فإذا أكلت يا أمير المؤمنين مقدار ما وصفت لك من الطعام فأشرب من هذا الشراب مقدار ثلاثة أقداح بعد طعامك ، فإذا فعلت ذلك فقد أمنت بأذن الله تعالى يومك وليلتك من الأوجاع الباردة المزمنة كالنقرس والرياح وغير ذلك من أوجاع العصب والدماغ والمعدة وبعض أوجاع الكبد والطحال والمعاء والأحشاء فإن صدقت بعد ذلك شهوة الماء فليشرب منه مقدار النصف مما كان يشرب قبله ، فإنه أصلح لبدن أمير المؤمنين وأكثر لجماعه وأشد لضبطه وحفظه ، فإن صلاح البدن وقوامه يكون بالطعام والشراب وفساده يكون بهما ، فإن أصلحتها صلح البدن وإن أفسدتها فسد البدن .

« الشرح » للأغذية ثلاثة مصادر رئيسية : ١ - مصدر حيواني : - مثال اللحوم والدهون والألبان ومشتقاتها . . . الخ ٢ - مصدر نباتي : - مثال الفواكه والخضروات على اختلاف أنواعها والزيوت النباتية . ٣ - مصدر معدني : - ويشمل المواد المعدنية والكيميائية التي تدخل في تركيب الأغذية كالحديد والفسفور والكالسيوم . . . الخ .

وبالنسبة الى العناصر الرئيسية فالغذاء الكامل يجب أن يحتوي على هذه المواد بنسب خاصة : ١ - كربوهيدرات : أ - النشويات . ب - السكريات . ٢ - الدهون ٣ - الزيوليات . ٤ - المعادن والفيتامينات . فالغذاء الكامل هو ذلك الغذاء الحاوي

على جميع هذه العناصر بنسبها الخاصة ، وإذا اختلت هذه النسب لمدة طويلة فقد تسبب الأمراض والعلل . ولا يوجد نوع من الغذاء يحوي جميع هذه العناصر بل هي موجودة في مختلف الأغذية . والغذاء الجيد ما حوى أكبر عدد منها بنسب معقولة وما كان سهل الهضم والتمثيل .

إن أكثر الأغذية تفقد من أياها وعناصرها الجوهرية عند تحضيرها ، فالحرارة الشديدة مثلاً تصلب البيض لدرجة تجعله عسر الهضم والتمثيل وتفقده عدداً من فيتاميناته ، أما إذا حضر على الطريقة الصحية (نيمرشت) فيحتفظ بأكثر عناصره ويكون هضمه أسهل .

في وصف الامام للشراب الحلال وطريقة تحضيره سنّ لنا شروط صحية أساسية مفيدة جداً ومتبعة في الوقت الحاضر أما عن انتقاء المواد اللازمة لتحضير هذا الشراب فحدث ولا حرج عن فوائدها الطبية والغذائية . فالزبيب من أحسن مصادر السكريات السهلة الهضم والتمثيل والعسل أيضاً ، أما المواد الأخرى المضافة فهي برغم أن القسم الأعظم منها تحتوي على عناصر غذائية مهمة فهي عقاقير طبية مفيدة مستعملة حتى يومنا هذا في مداواة أكثر الأمراض الهضمية وأمراض الكبد والأمعاء « الزنجبيل - القرنفل - الدارچين - الزعفران - سنبل الطيب - هندباء - مصطكي . . . الخ » . يعتبر الحليب من عناصر الغذاء المهمة وقبل أن تكتشف طريقة (باستور) المشهورة في تحضيره كان يشرب إما بدون غلي وفي هذه الحالة يواجه شاربها خطر انتقال السل البقري أو يشرب بعد غليه بصورة غير فنية غلياً شديداً لمدة طويلة ، وفي هذه الحالة فقد أكثر عناصره المفيدة إلى أن اكتشفت طريقة (باستور) التي بواسطتها يُسخن الحليب لدرجة معينة ولمدة معينة وبهذه الطريقة يقضى على المكروبات ويحافظ على عناصر تركيب الحليب .

لقد سبق الامام «ع» « باستور » في سنّ هذه السنة الطبية بوصفه طريقة

تحضير الشراب الحلال حينما قال : ﴿ ويغلى بنار لينة غلياناً ليناً رقيقاً حتى يمضي ثلثاه . . . ﴾ . فبطريقته هذه قد حافظ على قيم الشراب الغذائية وحافظ على العناصر الطيارة الموجودة ضمن مكونات الشراب واللاتي يتلفها الغليان . لقد ألح عليه السلام في عدة محلات عند وصفه التحضير مراعاة النظافة في العمل واختيار أبقى المواد وأحسنها (هو أن يؤخذ من الزبيب المنقى عشرة أرطال فيغسل وينقع . . .) (وإلا فن الماء العذب) ثم يتطرق الى وصف الماء العذب فيقول : (ماءً براقاً ايضاً خفيفاً وهو القابل لما يعترضه على سرعة من السخونة والبرودة وتلك دلالة على صفاء الماء) .

لقد سبق الامام «ع» علماء الفيزياء بتعريف الماء اليسر وميزه تمييزاً علمياً لا جدال فيه عن الماء العسر ، وقد احتاج البحث العلمي مؤخراً لاثبات ذلك الى مختبرات وآلات معقدة جداً .

خلق الانسان من مرتين ودم وبلغم

قال الامام «ع» : « واعلم يا أمير المؤمنين ان قوة النفوس تابعة لأمزجة الأبدان ، وان الأمزجة تابعة للهواء وتتغير بحسب تغير الهواء في الأمكنة ، فاذا برد الهواء مرة وسخن اخرى تغيرت بسببه أمزجة الابدان وأثر ذلك التغير في الصور فاذا كان الهواء معتدلاً اعتدلت أمزجة الأبدان وصححت تصرفات الأمزجة في الحركات الطبيعية كالهضم والجماع والنوم والحركة وسائر الحركات ، لأن الله تعالى بنى الأجسام على أربع طبائع : وهي المرتان والدم والبلغم . وبالجملة حاران وباردان قد خولف بينهما ، فجعل الحارين ليناً ويابساً ، وكذلك الباردة رطباً ويابساً ، ثم فرق ذلك على أربعة أجزاء من الجسد : على الرأس والصدر والشراسيف وأسفل البطن .

واعلم يا أمير المؤمنين ان الرأس والاذنين والعينين والمنخرين والفم والأنف

من الدم ، وأن الصدر من البلغم والريح ، وأن الشرايف من المرة الصفراء ، وأن
اسفل البطن من المرة السوداء .

واعلم يا أمير المؤمنين أن النوم سلطان الدماغ وهو قوام الجسد وقوته ، فإذا
أردت النوم فليكن اضطجاعك أولاً على شقك الأيمن ثم انقلب على الأيسر ،
وكذلك فقم من مضجعك على شقك الأيمن كما بدأت به عند نومك ، وعود نفسك
العود من الليل ساعتين ، وادخل الحلاء لحاجة الانسان والبت فيه بقدر ما تقضي
حاجتك ولا تطل فيه فان ذلك يورث داء الفيل .

السوالك

واعلم يا أمير المؤمنين أن أجود ما استكت به ليف الأراك فانه يحلو الأسنان
ويطيب النكهة ويشد اللثة ويسمنها وهو نافع من الحفر إذا كان باعتدال ، والاكثر
منه يرق الأسنان ويزعزعها ويضعف اصولها . فن أراد حفظ الأسنان فليأخذ قرن
الأيل محرقاً وكزمازجاً وسعداً وورداً وسنبل الطيب وحب الأثل أجزاء سواءاً
وملحاً اندرانياً ربع جزء فيدق الجميع ناعماً ويستن به فانه يمسك الأسنان ويحفظ
اصولها من الآفات العارضة ، ومن أراد أن تبيض أسنانه فليأخذ جزءاً من ملح
اندراني ومثله زبد البحر فيسحقهما ناعماً ويستن به .

نصائح طبية متفرقة

« الشرح » جاء هذا القسم من الرسالة كجموعة نصائح طبية متفرقة ومنوعة
في قسمه الأول وكنقسم « فسلجي - تشريحي لأعضاء الجسم المختلفة في قسمه
الثاني » . كانت النصيحة الصحية الاولى هي عدم تعريض الجسم الى جو حار وبارد
بصورة فجائية لما في ذلك من أخطار الاصابة بأنواع الأمراض الفتاكة وخاصة
أمراض جهاز التنفس سواء كانت في المجاري العليا أو الرئتين والقصبات ، فإذا قضى

الانسان وقتاً ما في محل دافئ مزدحم بالسكان ثم تعرض بخروجه الى تيارات هوائية باردة ، فان هذا التغير المفاجيء قد يسبب اصابة ذلك الشخص بأحد الامراض وأشهرها وأكثرها فتكاً في مثل هذه الحالات هو الزكام الذي يعتبر أم الأمراض ، والتهاب اللوزتين بأنواعه ثم التهاب البلعوم والتهاب القصبات الحاد وذات الرئة بأنواعها ، ويتبع نوع المرض وشدة نوع المكروب الموجود في ذلك الجو وقابلية الجسم المصاب وقوة مزاجه .

أما النصيحة الثانية فكانت في موضوع النوم وقد تطرقت له في الفصل السابق وبينت حاجة كل إنسان الى النوم وعدد الساعات اللازمة منه ، وقلت إنه يختلف بالنسبة الى الأعمار ونوع العمل والفصول . أما عن الوضعيات الصحية في الاضطجاع فذلك يتبع مزاج الانسان وعاداته ، ثم حالة إمتلاء المعدة أو عدم إمتلائها بالأكل فعند ما يكون الانسان ممتلئ المعدة يفضل الاضطجاع على الشق الأيسر لئلا تضغط المعدة المثقلة بالأكل على القلب ، وإذا كانت المعدة فارغة فالحيار للشخص في اضطجاعه سواء أ رغب أن يضطجع على الشق الأيسر أو الايمن ولكل جهة فوائد خاصة .

أما النصيحة الثالثة فكانت حول صحة وضعية عملية إخراج الفضلات ، وهذا الباب قلما تطرقت اليه الكتب الطبية على أنه من المواضيع المهمة والمؤثرة في سلامة جسم الانسان . فكثيراً من الناس قد يعتاد التكاسل في إنجاز عملية إخراج الفضلات في وقتها الخاص وعند الشعور بالرغبة بانجازها ، وهذا التكاسل قد يؤدي الى نتائج غير حسنة وأهم نتائجها المباشرة هو الامساك الذي يعتبر علة علل الجهاز الهضمي لما يعقبه من تعقيدات كأمراض الكبد والامعاء والمرارة وأمراض الشرج كالبواسير والفتور وركود الدم في الاوردة في محلات خاصة وانسداد مجاري العروق اللمفاوية مما يسبب بعض الامراض كداء الفيل .

وكانت آخر النصائح هي العناية بالاسنان بتنظيفها بصورة مستمرة - على ألا تستعمل المواد الصلبة الخرسنة - والعناية بالسن ومادتها واللثة ونسيجها الحساس ، والعناية بصحة الفم بصورة عامة كالامتناع عن المواد المحرقة الخرسنة وعدم أخذ الطعام الحار والاطعمة الحاروة على مواد مضرّة بصحة الفم والاسنان ، واستعمال بعض المساحيق المجربة المفيدة في تنظيف وتلميع ميناء الاسنان .

أما التقسيم « الفلسفي - التشريحي » فبني على أساس الطبائع الاربعة :
 ١ - المرة الصفراء : وتشمل الجهاز الهضمي والكبد والمرارة والطحال والبنكرياس وتوابعها ،
 ٢ - المرة السوداء : وتشمل الكلى والمجاري البولية والتناسلية والارحام وتوابعها ،
 ٣ - الدم : ويشمل القلب وعروق الدم والدم واللف وتوابعها ،
 ٤ - البلغم : ويشمل الجهاز التنفسي بمجاريه والرئتين والقضبات وتوابعها . وقسمها حسب طبيعة خلقها الى حارة وباردة والى رطبة ويابسة حسب كميات النسبة المثوية للماء فيها لأن الماء عنصر أساسي في تكوين جميع أجزاء البدن .

وقد قسم الامام «ع» الجسم الى أربعة تقاسيم كبيرة هي : الرأس والصدر والشراسيف وأسفل البطن ، وقسم الاجهزة حسب التقسيمات الاربعة المذكورة على أن يكون الرأس والاذنان والعينان والمنخران والفم والانف من الدم وهي الاجهزة الغزيرة بالدم والتي لها دورات دموية أكثر من بقية الاعضاء . والصدر من البلغم والريح (وذلك رمز لجهاز التنفس) ، والرئتان والشراسيف من المرة الصفراء « وذلك رمز لجهاز الهضم » ، والكبد والمرارة وأسفل البطن بما يحويه من مثانة ومجاري بولية وتناسلية من المرة السوداء .

الشباب والكهولة والمهرم

قال الامام «ع» : « واعلم يا أمير المؤمنين إن أحوال الانسان التي بناها الله تعالى عليها وجعله متصرفاً بها أربعة أحوال : الحالة الأولى خمس عشرة سنة ،

وفيها شبابه وحسنه وبهاؤه وسلطان الدم في جسمه ، ثم الحالة الثانية من خمس عشرة سنة الى خمس وثلاثين سنة وفيها سلطان المرة الصفراء وقوة غلبتها على الشخص وهي أقوى ما يكون ، ولا يزال كذلك حتى يستوفي المدة المذكورة وهي خمس وثلاثون سنة ثم يدخل في الحالة الثالثة الى أن تتكامل مدة العمر ستين سنة فيكون في سلطان المرة السوداء وهي سن الحكمة والمعرفة والدراية وانتظام الامور وصحة النظر في العواقب وصدق الرأي وثبات الجأش في التصرفات ، ثم يدخل في الحالة الرابعة وهي سلطان البلغم وهي الحالة التي لا يتحول عنها ما بقي إلا الى الهرم ونكد العيش وذبول ونقص في القوة وفساد في تكونه واستسكركل شيء كان يعرف من نفسه حتى صار ينام عند القوة ويسهر عند النوم ويتذكر ما تقدم وينسى ما يحدث في الاوقات ويذبل عوده ويتغير معهوده ويحجب ماء رونه وبهائه ويقل نبت شعره وأظفاره ، ولا يزال جسمه في انعكاس وادبار ما عاش لانه في سلطان البلغم وهو بارد وجامد ، فبجموده وبرده يكون فناء كل جسم تستولي عليه في الاخير القوة البلغمية .

ومن نعمه ننكسه

« الشرح » من آيات الباري وخوارق قدرته خلق الانسان وتطوره وطريقة تماسله وتكاثره . خلقهم ذكوراً واناثاً وجعل تولد النطفة في الارحام نتيجة لامتزاج واتحاد بويضة ناضجة وحيوان منوي كامل . عند ما تبلغ المرأة سن الرشد وعند ما تنضج أجهزتها التناسلية وتكمل تنفصل عن المبيض بويضة كاملة صالحة للتخصب - وفي الحالات الشاذة أكثر من بويضة ، وفي التوائم ربما وصل العدد الى خمسة - وتسبح حرة في جوف البطن الاسفل فتلتقها أصابع الايدي منتشرة في ذلك الجوف وتدخلها في الانابيب الرحمية ومنها الى داخل الجوف الرحمي حيث تستقر في منطقة ما في الجدار الرحمي وتنتظر أن يؤاتيا الحظ فتلتقي بحيوان كامل ناضج صالح للتلقيح . أما في الرجل البالغ سن الرشد فالخصيتان وبقيّة الاجهزة

التناسلية تنضج وتصبح الاولى صالحة لافراز المواد المنوية - الحيوانات - في اوقات مناسبة ثم تسلك طريقاً خاصة - الانابيب المنوية - مارة بطريق البروستات - غدة تناسلية - لتسكب عليها افرازها الخاص لادامة حيويتها وازدياد فعاليتها لمواجهة البويضه الناضجة . في كل عملية جماع يفرز الذكر ملايين من الحيوانات المنوية ويواتي الحظ واحداً منها « وفي الحالات الشاذة ١ - ٥ » للامتزاج والاتحاد مع البويضة الناضجة ذات الجاذبية الخاصة لسحب هذا الحيوان الحرك الفعال الذي يقصدها من جوف المهبل حتى جدار الرحم ومن اتحادها وامتزاجها تتكون البويضة المخصبة (النفطة) تنمو هذه النفطة وتتكاثر حجيراتنا بصورة سريعة جداً وتتعدد تركيباتها بمرور الزمن واستمرارها في النمو ، فمن حبيرة بسيطة الى جنين كامل بعد تسعة شهور . أما البويضة التي لم يواتها الحظ فتتلفح وتطرد من الجوف الرحمي بعد مرور مدة معينة ، وبعد أن تصبح كجسم أجني غريب فيه وذلك بواسطة دم الحيض - العادة الشهرية - التي ما هي إلا انسلاخ غشاء الرحم المخاطي للتخلص من محتوياتها غير المرغوب فيه . ينفصل الجنين عن امه وهو كامل التكوين والحلقة إلا أنه عاجز عن إنجاز أبسط مهمات الحياة وهو بحاجة الى عطف أبويه وخاصة امه في تغذيته وتنظيفه والاعتناء به الى أن يبلغ السنة الثانية فينفصل عنها غذائياً بعد أن كبر ونمى وزودته امه بالمناعة ضد الامراض لمدة ما .

فالطفل الصحيح هو جسم حي كامل صالح لدخول معترك الحياة مجهز بقدرة الباري عز وجل بجميع وسائل الدفاع عن النفس لشق طريقه في هذه الحياة القاسية وذو حيوية فائقة ومعنوية كبيرة ، وان هذه القوى تستمر في النمو والتكامل حتى سن البلوغ - السنة الخامسة عشر - حيث يودع أيام الطفولة والصبا ليستقبل ربيع الحياة دور العمل ودور الفعالية ، دور التكاثر والانتاج ، دور التفكير وتكامل العقل ، دور الجمال والمكمال ، فهي أحلى وأطيب وأينع وأزهى أيام الحياة التي تمنى

بأيامه الشعراء ، وقد عرف حلاوة طعمها من اجتياز هذا الدور الى دور الشيخوخة البغيض . تبدأ أدوار الشباب بعد الخامسة عشر وتستمر حتى الخامسة والثلاثين وهو عصر الحياة الذهبي وفيه أطيب الأيام وألذها ، وهو دور العمل الحق وزيادة الفعاليات بصورة عامة .

فالجسم بهذا الدور يصبح في أوج عظمته من حيوية ونضوج وصلاح الامتزاج والتسكائر وتكامل العقل وزيادة تلافيف الدماغ ونمو التفكير . بهذا الدور يقف نمو الجسم وتتصلب العظام وتأخذ حجمها وشكلها النهائي وقالها الأخير .

لقد قسم إمامنا «ع» أدوار الحياة الكاملة الى أربعة أقسام وكانت حصة دور الشباب منها عشر سنين حصرها بين ١٥ الى ٢٥ سنة وهي أزهى أدوار الشباب ، وكان من حصة هذا الدور تغلب سلطان الدم على البقية ، ويعني بذلك أن هذا الدور هو دور نمو وفعالية ودور عمل وحركة وشدة حاجة البدن الى دورة دموية قوية وقلب قوي لادارة هذه الفعاليات المتناهية . ثم حصر الدور الثاني وهو دور المرة الصفراء بين ٢٥ - ٣٥ سنة وهي أواخر أيام الشباب ومقدمة دور الكهولة الذي تتجه فيه قوى الجسم الى العمل الفكري والى الأشغال الذهنية ، وتقل فيه الحيوانات والفعاليات حتى يدخل في الدور الثالث وهو دور الكهولة الحقة والذي حصره «ع» بين ٣٥ - ٦٠ سنة وفيه يسيطر سلطان المرة السوداء وهو سن الحكمة والمعرفة والدراية والكمال وانتظام الامور وصحة النظر في العواقب وصدق الرأي وثبات الجأش والتصرفات الصحيحة .

أما الدور الأخير وهو دور الشيخوخة آخر أدوار الحياة : فيسيطر فيه سلطان البلغم ويهرم فيه الشخص وتقل فعاليات جسمه وجميع حيوياته وتعجز أجهزته الداخلية وتقنى حجراتها الحية بالتدرج . وأول الأجهزة والأعضاء الذي تظهر عليه علامم العجز هو القلب وملحقاته فإذا عجز القلب عجزت الأعضاء الاخرى وإذا قل

الدم - الذي اعتبرناه العنصر المغذي الوحيد لجميع أجزاء البدن - قلت الحيوانات وظهرت علامات المعجز في العضو الذي يلي القلب ويتبعه بالمعجز الرئتان . فإذا قلت فعاليات هذين العضوين المهمين ظهرت أهم علامات الشيخوخة وهي التعب السريع وضيق النفس والسعال المستمر والبلغم ثم تليها العلامات الأخرى ، ولذا جعل إمامنا عليه السلام تسلط سلطان البلغم في هذا الدور من الحياة على البقية . إذا قلت فعاليات الاعضاء والاحشاء الحيوية في الجسم كالدورة الدموية وجهاز التنفس والهضم وجهاز البول والجملة العصبية ظهرت علامات الكبر والشيخوخة وتليها بالتدرج العلامات المرضية الخاصة بأمراض الشيخوخة ، فتمطي الشخص مظهرًا خاصًا وتذهب برونقه ومظاهر حيويته ، فبعد أن كان ذلك الشخص الفعال الممتلئ بالقوى وإذا به أصبح شيخاً مقعداً عاجزاً مضمحلًا .

لقد وصف الامام هذا الدور وأبدع في وصفه : « فيذبل عوده ويتغير معهوده ويحذف ماء رونقه وبهاؤه ويقل نبات شعره وأظفاره ولا يزال جسمه في انعكاس وادبار ما عاش لانه في سلطان البلغم وهو بارد جامد ، فيجموده وبروده يكون فناء كل جسم يستولي عليه في آخر القوة الغضبية » ، ومن نعمه تنكسه .

الحجامة

قال الامام «ع» : « وقد ذكرت لأمر المؤمنين جميع ما يحتاج اليه في سياسة المزاج وأحوال جسمه وعلاجه ، وأنا أذكر ما يحتاج الى تناوله من الاغذية والادوية وما يجب أن يفعله في أوقاته . فإذا أردت الحجامة فليكن في اثني عشر ليلة من الهلال الى خمس عشر ، فإنه أصلح لبدنك فإذا نقص الشهر فلا تحتجم إلا أن تكون مضطراً الى ذلك ، وهو لان الدم ينقص في نقصان الهلال ويزيد في زيادته ، وليكن الحجامة بقدر ما يمضي من السنين ، فابن عشرين سنة يحتجم في كل عشرين يوماً ، وابن الثلاثين في كل ثلاثين يوماً مرة واحدة ، وكذلك من بلغ

من العمر أربعين سنة يحتجم في كل أربعين يوماً مرة وما زاد فبحسب ذلك .
واعلم يا أمير المؤمنين : ان الحجامة إنما يؤخذ دمها من صغار العروق المبثوثة
في اللحم ، ومصدّق ذلك ما ذكرته أنها لا تضعف القوة كما يوجد من الضعف عند
الفصد ، وحجامة النقرة تنفع من ثقل الرأس ، وحجامة الأخدين تخفف عن
الرأس والوجه والعينين وهي نافعة لوجع الأضراس ، وربما ناب الفصد عن جميع
ذلك . وقد يحتجم تحت الذقن لعلاج القلاع في الفم ومن فساد اللثة وغير ذلك من
أوجاع الفم ، وكذلك الحجامة بين الكتفين تنفع من الحفقان الذي يكون من
الامتلاء والحرارة . والذي يوضع على الساقين قد ينقص من الامتلاء نقصاناً يئناً
وينفع من الأوجاع المزمنة في الكلى والمثانة والارحام ويدر الطمث غير أنها تنهك
الجسد ، وقد يعرض منها الغشي الشديد ، إلا أنها تنفع ذوي البثور والدمامل .
والذي يخفف من ألم الحجامة تخفيف المص عند أول ما يضع المحاجم ثم يدرج المص
قليلاً قليلاً والثواني أزيد في المص من الأوایل وكذلك الثوالث فصاعداً ويتوقف
عن الشرط حتى يحمر الموضع جيداً بتكرير المحاجم عليه . ويلين المشراط على جلود
لينة ويمسح الموضع قبل شرطه بالدهن ، وكذلك الفصد فانه يقلل الألم وكذلك
يلين المشراط والمبضع بالدهن عند الحجامة ، وعند الفراغ منها يلين الموضع بالدهن ،
وليحذر على العروق إذا فصد شيئاً من الدهن لكيلا يحتجب فيضر ذلك بالمفصود ،
وليعمد الفاصد أن يفصد من العروق ما كان في المواضع القليلة اللحم ، لأن في قلة
اللحم من فوق العروق قلة الألم ، وأكثر العروق ألماً إذا فصد حبيل الذراع
والقيفال لاتصالها بالعصل وصلابة الجلد . فأما الباسليق والأكحل فانهما في الفصد
أقل ألماً إذا لم يكن فوقهما لحم ، والواجب تكميد موضع الفصد بالماء الحار ليظهر
الدم وخاصة في الشتاء فانه يلين الجلد ويقلل الألم ويسهل الفصد . ويجب في كل
ما ذكرناه من إخراج الدم اجتناب النساء قبل ذلك باثنتي عشر ساعة ، ويحتجم في

يوم صاح صاف لا غيم فيه ولا ريح شديدة ويخرج من الدم بقدر ما يرى من تغيره ولا تدخل يومك ذلك الحمام فإنه يورث الداء ، وصب على رأسك وجسدك الماء الحار ولا تفعل ذلك من ساعتك .

وإياك والحمام إذا احتجمت فإن الحمى الدائمة تكون فيه ، فإذا اغتسلت من الحمامة فخذ خرقة مرغزي فالفها على محاجمك أو ثوباً ليناً من قز أو غيره ، وخذ قدر حمصة من الترياق الأكبر واشربه إن كان شتاءً ، وإن كان صيفاً فاشرب السكنجبين العنصلي وامزجه بالشراب المفروح المعتدل وتناوله ، أو بشراب الفاكهة وإن تعذر ذلك فشراب الاترج ، فإن لم تجد شيئاً فتناوله بعد غسله ناعماً تحت الأسنان واشرب عليه جرعة الماء الفاتر ، وإن كان ذلك في زمان الشتاء والبرد فاشرب عليه السكنجبين العسلي ، فإنك متى فعلت ذلك أمنت من اللقوة والبرص والبهق والجذام باذن الله تعالى .

وامتص من الرمان المزفانه يقوي النفس ويحيي الدم ، ولا تأكل طعاماً مالحاً بعد ذلك بثلاث ساعات فإنه يخاف أن يعرض من ذلك الجرب ، وإن شئت فمكل من الطباهيح إذا احتجمت واشرب عليه من الشراب المزكي الذي ذكرته أولاً ، وادهن بدهن الخيري أو شيء من المسك وماء الورد وصب منه على هامتك ساعة فراغك من الحمامة .

وأما في الصيف فإذا احتجمت فمكل السكباغ والهلام والمصوص والحامض وصب على هامتك دهن البنفسج بماء الورد وشيئاً من الكافور ، واشرب من ذلك الشراب الذي وصفته لك بعد طعامك . وإياك وكثرة الحركة والغضب وبجامعة النساء ليومك .

الحجامة تصح البدن وتشد العقل

على أمير المؤمنين «ع»

يقسم فن التداوي والعلاج الى الأقسام التالية :

١ - التدبير العمومي للمريض يجب ملاحظة وضعية المريض العامة وما يؤمن راحته الخاصة ، وذلك بتوفير المحل الصحي للجهاز بوسائل الراحة اللازمة لتلك الوضعية من المرض من نوم مريح وتهوية ممتازة وإضاءة حسنة وجميع ما يقتضي ويلزم من ثياب وفراش ومعدات أخرى .

٢ - المداواة الغذائية : لما كان لكل مرض منهج غذائي خاص ودستور متبع ولكل مريض مزاج خاص أيضاً فيجب مراعاة المرض وما يقتضيه ، فالمرضى بالبول السكري مثلاً يحرم عليه الأغذية السكرية والنشوية ، ومرضى الكلى يحرم عليه ملح الطعام ، ومرضى الكبد يمنع من أكل اللحومات والدهنيات . . . الخ .
٣ - المداواة العقارية : وتشمل الأدوية على اختلاف أنواعها ، قال الامام في ابتداء رسالته : « لكل صنف من الداء صنف من الدواء » .

٤ - المداواة النوعية : إن بعض الأمراض له دواء سريع المفعول وتأثيره خاص به كالكنين للملاريا ، والزرنينخ للسفلس . . . الخ

٥ - العوامل الفيزيائية بالمداواة : كاستعمال الضمادات والحمامات والمداواة الكهربائية والحجامة

٦ - المداواة النفسية : وهي التي تستعمل في علاج الأمراض العقلية كالإحباط النفسية

٧ - المداواة الجراحية : وذلك باستئصال الداء الذي يعجز عن علاجه الطبيب بالطرق السليمة .

لقد ارتقى فن التداوي وتقدم تقدماً محسوساً وخاصة في السنين الأخيرة حتى

انعدمت كثيراً من الأمراض في بعض البلاد الراقية بتأثير الاكتشافات الحديثة .
فقد اكتشفت عدة مواد جديدة واستحضرت ثم استعملت لعلاج ما استعصى من
الأمراض في الماضي وأهمها مضادات المكروبات القيحية والتعفنفة ، وعلاج السل
على أنواعه والمداواة بالطاقة الذرية وعلاج الملاريا الحديث الاكتشاف .

والحجامة فرع مهم من هذه الفروع تذكر تحت عنوان (المداواة الفيزيائية)
وقد استعملت في قديم الزمان وأوصى بها أطباء اليونان وأكد عليها الأنبياء
وخلفاؤهم ، وقد استعملها الأقدمون كواجب من الواجبات الفصلية كعلاج من
العلاجات الناجحة لعدد لا يستهان به من الأمراض ، وقد خصه الأقدمون بالذكر
فقال جالينوس : (دمك عبدك وربما قتل العبد سيده فاطلقه فإن رأيته صالحاً فامسكه)
وتحدث عنها الرسول «ص» وأوصى بها كثيراً فقال : (عليكم بالحجامة لا يتبىخ
بأحدكم الدم فيقتله) ، وقال علي «ع» : « الحجامة تصح البدن وتشد العقل » ،
وقال الصادق (ع) : (الحجامة تنفع الدوران وأنه إن أخذ الرجل الدوران فليحجم
وإن خير ما تداوئتم به الحجامة والسعوط وإن الدواء أربعة : — الحجامة والطلي
والقيء والحقنة) .

أما الحجامة في الطب الحديث فقد ذكرتها جميع كتب الطب وأوصت باستعمالها
في عدد كثير من الحالات كعلاج عاجل اضطراري ، وقد استعملت ونجح استعمالها
في حالة مهمة وخطرة جداً حالة (ضغط الدم المفرط) ، وفي حالات انفجار شريان
دماغي . وقد أوصى باستعمالها أكثر كتب الطب الحديث في حالات امراض القلب
والكلية الاحتقانية ، وفي العلاج الموضعي لكثير من أمراض الأوردة الدموية
كركود الدم في منطقة ما في الجسم ، وفي عدد كبير من أمراض العيون . أما ملحقاتها
كالفصد واستعمال العلق الطبي فتلك لها أهميتها وفائدتها الخاصة .

لما وصفنا الفصول الأربعة وطريقة التغذية فيها ذكرنا أن الدم في جسم

الانسان عندما يقبل فصل الربيع ويحدث التبدل الفصلي يكون مثقلاً بالافرازات والفضلات المتراكمة التي خلفها فصل الشتاء (فصل الركود وقلة الحركة) والفصل الذي يكثُر فيه استعمال المأكَل الدهنية الثقيلة : صعبة الهضم ، وقد ذكرنا ما لاستعمال المسهلات وخاصة الملحية منها من فائدة عظيمة في تنظيف الجهاز الهضمي والمجاري الصفراوية ، ونذكر هنا أهمية استعمال الحجامة الفنية للتخفيف عن الدورة الدموية وما أثقلها من سموم الفضلات والمتخلفات من الافرازات وما عجزت عن التخلص منه الأجهزة الخاصة بالتنظيفات والتطهيرات . فالحجامة ضرورية في هذا الفصل للجسم المثقلة بالفضلات .

فالحجامة الفنية تختلف عن الفصد ، فالفصد هو اخراج دم الوريد بينما الحجامة هي إخراج الدم من العروق الدقيقة المكروكوبية .

لقد فسر الامام (ع) الحجامة تفسيراً علمياً دقيقاً وميزها عن غيرها فقال : (واعلم يا أمير المؤمنين أن الحجامة إنما يؤخذ دمها من صغار العروق المشوثة في اللحم . . الخ) وبين مواضعها بدقة ، وشرح محلات أخذ الدم عن كل عضو بمحله المناسب حسب التواصيف التشريحية للبدن وذكر فائدة كل محل وما يجديه من نفع على ذلك العضو ، ثم عدد أمراض كل عضو منفصلاً عن الآخر وفوائد الحجامة في كل منها فقال : (وقد يحتجم تحت الذقن لعلاج القلاع في الفم ومن فساد اللثة) . لقد عدد بوصفه الامراض التي تعالج بالحجامة وأهمها : - احتقان الاسنان واللثة ، خفقان القلب ، أمراض الكلى المزمنة والمثانة والرحم ، قلة الحيض ، حالات البثور والدمامل . . الخ

ثم وصف العملية وصفاً دقيقاً مبيناً اختيار منطقة سحب الدم وتنظيفها ثم تحضير المشرط وبقية المعدات ، ومعالجة الجرح بعد اجراء العملية من استعمال الدهونات المعقمة والأدوية المنعشة . أما في الفصد فاختار الامام أحسن الأوردة وأظهرها كجبل

الذراع والقيفال والباسليق والا كحل ، ثم شرح تحضيرات ما قبل العملية وما بعدها والشروط اللازمة لذلك والوقت الصحيح ، ثم منع بعض الاشياء كالحمام ، ونصح بعض الاشياء كمشرب بعض الشرابات المنعشة والمفرحة واكل الرمان المز واستعمال الاطعمة الفاخرة المغذية والسهلة الهضم كالسكباج والهلام والمصوص ، وأوصى بعدها بالراحة التامة وعدم ممارسة أي فعالية أو عمل شاق .

فالحجامة الفنية في الوضعيات التي تتطلبها علاج ناجح لا يمكن الاستغناء عنها ولا يمكن اسقاطها من كتب الطب التي تبحث عن موضوع التداوي والعلاج . أما ما ورد وما قيل من ان الحجامة مضرة وتولد فقر الدم فذلك صحيح لحد ما فيما اذا كان المعالج مصابا بدرجة من درجات فقر الدم ، كما ان الامام (ع) قد أشار الى ضرر قسم منها الى جانب نفعه في قوله : (والذي يوضع على الساقين قد ينقص من الامتلاء نقصاً يئناً وينفع من الاوجاع المزمنة في الكلى والمثانة والأرحام ويدير الطمث غير أنها تنهك الجسد وقد يعرض منها الغشي الشديد)

« من الماء كل ما يضر الجمع بينها »

قال الامام (ع) : (واحذريا أمير المؤمنين أن تجمع بين البيض والسمك في المعدة في وقت واحد فانهما متى اجتماعا في جوف الانسان ولداعليه النقرس والقولنج والبواسير ووجع الأضراس ، واللبن والنبيد الذي يشربه أهله اذا اجتماعا ولدا النقرس والبرص ، ومداومة أكل البيض يعرض منه الكلف في الوجه ، وأكل الملوحة واللحمان المملوحة وأكل السمك المملوح بعد الفصد والحجامة يعرض منه البهق والجرب ، وأكل كلية الغنم واجواف الغنم يعسر المثانة ، ودخول الحمام على البطنة يولد القولنج ، والاعتسال بالماء البارد بعد أكل السمك يورث الفالج ، وأكل الاترج في الليل يقلب العين ويوجب الحول ، واتيان المرأة الحائض يورث الجذام في الولد ، والجماع من غير اهراق الماء على اثره يوجب الحصة ، والجماع بعد الجماع

من غير فصل بينها بغسل يورث الولد الجنون ، وكثرة أكل البصل وادمانه يولد الطحال ورياحاً في رأس المعدة ، والامتلاء من البيض المسلوق يورث الربو والانهار وأكل اللحم النيء يولد الدود في البطن ، وأكل التين يقمل منه الجسد إذا أدمن عليه ، وشرب الماء البارد عقيب الشيء الحار والحلاوة يذهب بالأسنان ، والاكتثار من أكل لحوم الوحش والبقر يورث تغيير العقل وتحيير الفهم وتبلد الدهن وكثرة النسيان .

عدم توافق التركيب

« الشرح » يبحث علم الكيمياء عن تفاعل بعض المواد تفاعلاً كيميائياً وامتزاجها امتزاجاً كلياً ، ويبرهن على ان نتيجة هذا التفاعل فقدان كل من المادتين الممتزجتين جميع خواصها وأوصافها الفيزيائية والطبيعية وتحولها الى مواد اخرى تختلف كل الاختلاف عن أصل المادتين . فلو أخذنا مثلاً حامضاً كيميائياً ومزجناه مع قاعدة فبعد التفاعل وتطاير بعض الغازات ترسب مادة جديدة - الملح - تختلف بكل صفاتها عن الحامض وعن القاعدة .

حامض : قاعدة = ملح . أما الغاز الناتج فربما كان غازاً ساماً أو غازاً مخرباً أو محرقاً . وهناك سوائل مثلاً لو امتزج اثنان منها لترسبت مادة صلبة من جراء هذا الامتزاج ، وتختلف هذه المادة المترسبة تمام الاختلاف عن كل من السائلين ، وفي مقدمة مفردات الطب - العلم الذي يشمل دراسة العقاقير وتركيباتها الطبيعية وصناعتها - يدرس موضوع كبير للطبيب والصيدلي في آن واحد وهو عدم توافق التركيب بين بعض المواد والاخرى ويقسم هذا التنافر الى عدة فروع : كيميائي ، وفسلجي ، ودوائي . وإن كثيراً من الأدوية غير مرغوب فيها ، أو أن مزجها مع أدوية اخرى محذور فيه لترسب بعض المواد المضرة أو الخطرة التي تؤثر على صحة المريض الذي يستعملها وربما قتلتها حالا .

وقد جمع علم مفردات الطب هذه المواد في جداول ووضع أمام اسم كل مادة المادة التي لا تصلح للامتزاج معها وحذر كلا من الطيب والصيدلي من ذلك ، حذر الأول بعدم وصفها وحذر الثاني كي يئبه الطيب فيما إذا وصفها سهواً . وتنطبق هذه القاعدة في الامتزاج على مجموعة من الأغذية لو جمع البعض منها مع الآخر لربما حصلت بعض المواد التي تسبب بعض الأمراض والعاهات وقد يكون البعض منها ساماً قتالاً يفتك بآكلها حالا .

والامام «ع» قد أتى على ذكر القسم الاكبر منها وبين أن من جرّاء أكل مادتين معينتين يحصل المرض المذكور اسمه أمام أسماؤها ، وقد بين بهذه الفقرات الموجزة أسباب أمراض لازالت معرفة أسبابها مستعصية ، والتي علقتها كتب الطب الى مختلف التعليقات فإن اختلاطات الأمعاء وتعفّنتها من أهم الأمراض المسببة عنها ولا نزال نجعل أسباب عدد كبير من الأمراض وعلى رأسها مرض النقرس والبرص والاكرزما الجلدية والحساسيات . . . الخ . والتي تعزى الى تفاعلات معوية مغلوطة والتي تتصل بموضوعنا اتصالاً وثيقاً . وفي آخر هذه الفقرات أوصى الامام «ع» وصايا صحية ثمينة وحذر تحذيرات مهمة يجب اتباعها لاتقاء عدد من الامراض ، كما أوصى اجتناب المرأة الحائض لما في ذلك من أضرار على الطرفين - ولذلك حرّمته الأديان السماوية - وحذر من أكل اللحم النيء لاحتواء بعض أنواعه وخاصة البقري منها على أنواع من الديدان واكياسها اللاتي لو أصابت بعض المواضع من البدن كالكبد والدماغ لأصبحت خطرة جداً « أكياس هيدائية دماغية وكبدية » وحذر وأعاد التحذير بالمحافظة على الاسنان من تعاطي السوائل الحارة والباردة بأوقات متقاربة ، ومنع استعمال المواد السكرية بكثرة ، ثم أشار ولمح لبعض الواجبات الصحية ، ثم بين عن أجهزة التناسل ونظافتها ووجوب الاغتسال والتطهير بعد ممارسة كل عملية تناسلية بياناً مفصلاً . وفي مراعاتها فوائد صحية كثيرة .

الحمام

قال الامام «ع» : « وإذا أردت دخول الحمام وأن لا تجرد في رأسك ما يؤذيك فابدأ قبل دخولك بخمس جرعة من ماء فاتر فانك تسلم إن شاء الله تعالى من وجع الرأس والشقيقة ». وقيل : « خمس أكف ماء حار تصبه على رأسك عند دخول الحمام » .

واعلم يا أمير المؤمنين أن الحمام ركب على تركيب الجسد . للحمام أربعة بيوت مثل أربع طبائع الجسد : البيت الأول بارد يابس ، والثاني بارد رطب ، والثالث حار رطب ، والرابع حار يابس . ومنفعة الحمام عظيمة ، يؤدي الى الاعتدال وينقي الدرن ويلين العصب والعروق ويقوي الأعضاء الكبار ويذيب الفضول وينهب العفن . فاذا أردت أن لا يظهر في بدنك بثرة ولا غيرها فابدأ عند دخول الحمام بدهن بدنك بدهن البنفسج . وإذا أردت استعمال النورة ولا يصيبك قروح ولا شقاق ولا سواد فاغسل بالماء البارد قبل أن تتنور ، ومن أراد دخول الحمام للنورة فليجتنب الجماع قبل ذلك باثني عشر ساعة وهو تمام يوم ، وليطرح في النورة شيئاً من الصبر والاقاقيا والحضض أو يجمع ذلك ويأخذ منه اليسير إذا كان مجتمعاً أو متفرقاً ، ولا يلتقي في النورة شيئاً من ذلك حتى تمانث النورة بالماء الحار الذي طبخ فيه بابونج ومرزنجوش أو ورد بنفسج يابس أو جميع ذلك أجزاء يسيرة مجموعة أو متفرقة بقدر ما يشرب الماء رائحته ، وليسكن الزرنيخ مثل سدس النورة ، ويدلك الجسد بعد الخروج منها بشيء يقلع رائحتها كورق الخوخ وشجر العصفور والحناء والورد والسنبيل مفردة أو مجتمعة ، ومن أراد أن يأمن إحراق النورة فليقلل من تقليبها وليبادر إذا عمل في غسلها ، وأن يمسح البدن بشيء من دهن الورد . فان أحرقت البدن - والعياذ بالله - يؤخذ عدس مقشر ويسحق ويداف في ماء ورد وخل ويطلّى به الموضع الذي أثرت فيه النورة فانه يبرأ باذن الله تعالى

والذي يمنع من آثار التوردة في الجسد هو أن يدلك الموضع بنخل الغنبد الثقيف ودهن الورد دلوكا جيداً .

صحة الجلد

« الشرح » كما أن في كل جسم بشري أعضاء مسؤولة عن البناء والتعمير كذلك فيه أعضاء للاستهلاك وتوليد الطاقة ، وفيه أعضاء أخرى لتنظيف وإزاحة وطرح فضلات هذه الفعاليات وللتخلص من أنواع التسممات المتولدة في الداخل والخارج .

فالكبد هو العضو الرئيسي المسؤول عن تنقية الدم مما يعلق به من مواد غريبة وسمومات داخلية ، والدم يتخلص من هذه المواد الأجنبية بتفاعل حجيرات الخاصة معها وطرحها على شكل افرازات وبرازات خارجية ، هذا إذا لم تكن المادة الأجنبية العالقة بالدم من المواد المحرقة الخرسنة كالكحول ، وإلا فإنها تؤثر تأثيراً سيئاً على حجيرات الكبد وتخربها تخريباً دائماً وتتلفها مما يؤثر على صحة ذلك الفرد عمومياً .

والكليتان هما عضوان مسؤولان بصورة مباشرة عن طرح فضلات الجسم سواء كان الزائد من الافرازات الجسدية طبيعية أو كانت الفضلات والافرازات ناتجة من مختلف فعاليات الجسم . ويوجد في الدم عدد من المواد بصورة طبيعية وينسب معينة ، فإن زادت تلك النسب سببت أمراضاً مختلفة كداء السكر وأمثاله . فالسكر هو أحد مكونات الدم الطبيعية وله نسبة خاصة به ، وإن زادت اعتبرت الزيادة حالة مرضية وجب على الكليتين التخلص منها وطرح الزائد منها ، وكذلك الحالة تجاه مادة البول « اليوريا » التي إذا زادت في الدم وعجزت الكليتان عن طرحها حدث التسمم بها وقضي على الشخص حالا .

يساعد الكليتين في أعمالها عضوان آخران هما الرئتان والجلد . فالجسم يتخلص

بعملية التنفس من عدد من المواد وعلى رأسها السموم الطيارة التي تطرح بشكل غازات مع هواء الزفير ، وأما الجلد فهو أوسع هذين العضوين سطحاً وأعقد عملهما وأجداًهما تقملاً ، فتركيب الجلد معقد نوعاً ما وله عدد من الفعاليات تختلف حسب المناطق الجسدية ، فجلد الوجه يختلف عن جلد الرأس والأخير يختلف عن الجلد المغطي للبطن والصدر .

وللجلد أهمية عظيمة في التخلص من عدد لا يستهان به من المواد السامة التي يجب أن يتخلص منها الجسم يومياً والتي إذا بقيت فيه مدة قصيرة جداً قتلتها حتماً ، ويعتبر الجلد المساعد الأول للكيتين في طرح هذه المواد السامة ، ويعتبر العرق — افراز الجلد — المساعد الأول للبول — افراز الكلى — في طرح الفضلات خارج الجسم .

ولتعريف الجلد تعريفاً بسيطاً نقول : هو غطاء الجسم الواقى ومصفاته الخارجية والعامل المتقي الثاني وذلك لسعة سطحه ولكثرة مساماته المساعدة لخروج افرازاته الى الخارج ، وأهم افرازاته هي : العرق الذي تفرزه غدد خاصة ومواد دهنية تفرزها غدد أخرى لترطيب سطح الجلد وإدامته طراوته وأخرى لإدامة طراوة الشعر . فالمسامات هي طرق طرح الافرازات فإذا انسدت بسبب من الأسباب انحصرت هذه المواد الضارة داخل الجسم وحينذاك تسبب ما تسبب من الاعراض التسممية .

وللجلد كما لبقية أعضاء الجسم الفعالة حقوق وواجبات يجب مراعاتها ، وأهم واجبات نحو هذا العضو الحساس هو النظافة ، فانه لدقة تركيب سطح الجسم ولأهمية المسامات الجلدية أصبحت النظافة هي أوجب الواجبات الصحية وخاصة على الأقسام المكشوفة من الجسم ، وان أهم أسباب انسداد المسامات الجلدية هي تراكم الاوساخ في أفواها نتيجة للإهمال وعدم مراعاة الطرق الصحية الصحيحة التي توصي بالنظافة

اليومية وإزالة ما يعلق بالجسم من أوساخ خارجية وإفرازات دهنية سطحية .
 لقد اهتم الامام «ع» بصورة خاصة في رسالته هذه ودعا الى استعمال الحمامات
 اليومية على اختلاف أنواعها من باردة وحارة لأداء مختلف الخدمات الصحية للجسم
 فالحارة منها للتنظيفات وإزالة ما لم تتمكن الباردة من إزالته كمنظفة ومنعشة في نفس
 الوقت وخاصة في الفصول الحارة فهي خير أداة لانعاش النفس والترويح عنها ، ولقد
 قسم (ع) الحمامات الى أنواعها وأوفى لكل نوع شرحه وأوضح شروط استعمال
 كل نوع منها والواجبات الصحية التي يجب اتباعها قبل أخذ الحمام وبعده ذكراً
 بعبارة مختصرة نفع استعمالها « ومنفعة الحمام عظيمة يؤدي الى الاعتدال وينقي
 الدرن ويلين الأعصاب والعروق ويقوي الأعضاء الكبار ويذيب الفضول ويذهب
 العفن » الخ . . .

وما ترك الامام «ع» موضوع الحمام قبل أن يفيه حقه من جميع الوجوه
 وبذلك شرح ناحية ثانوية من نواحي نظافة البدن وتخليص الجسم من بعض الزوائد
 بصورة فنية تلائم مقتضيات ذلك العصر ، كما أنه شرح وبين ما تتطلبه هذه العملية
 من نظافة تامة وتعيم صحي قبل القيام بها وبعده ، ثم أمر بعدها باستعمال المواد
 المملطة والمنعشة وتلافي ما يحدث من جروح دقيقة وخدوش وإن كانت بسيطة
 فلربما سببت تسمم الدم وما لا يحمد عقباه .

نصائح عامة

قال الامام «ع» : « ومن أراد أن لا يشكي مثانته فلا يجلس البول ولو على
 ظهر دابته ، ومن أراد أن لا تؤذيه معدته فلا يشرب بين طعامه ماء حتى يفرغ ،
 ومن فعل ذلك رطب بدنه وضعفت معدته ولم تأخذ العروق قوة الطعام فإنه يصير
 في المعدة فجاً إذا صب الماء على الطعام أولاً فأولاً ، ومن أراد أن لا يجد الحصى
 وحصر البول فلا يجلس المني عند نزول الشهوة ولا يطل المكث على النساء ، ومن

أراد أن يأمن من وجع السفلى ولا يظهر به وجع البواسير فليأكل كل ليلة سبع تمرات برني بسمن البقر ويدهن بين اثنييه بدهن زنبق خالص ، ومن أراد أن يزيد حافظته فليأكل سبع مثاقيل زبيباً على الريق ، ومن أراد أن يقل نسيانه ويكون حافظاً فليأكل كل يوم ثلث قطع زنجبيل مربى بالعسل ويصطبغ بالخردل مع طعامه في كل يوم ، ومن أراد أن يزيد في عقله يتناول كل يوم ثلاث هليلجات بسكر ابلوج ومن أراد أن لا ينشق ظفره ولا يعيل الى الصفرة ولا يفسد حول ظفره فلا يقلم أنظفاره إلا يوم الخميس ، ومن أراد أن لا تؤلمه اذنه فليجعل فيها عند النوم قطنة ، ومن أراد ردع الزكام مدة أيام الشتاء فليأكل كل يوم ثلاث لقم من الشهد .

واعلم يا أمير المؤمنين أن للعسل دلائل يعرف بها نفعه من ضارده وذلك أن منه شيئاً إذا أدركه الشم عطس ، ومنه شيء يسكر وله عند الذوق حرقة شديدة فهذه الأنواع من العسل قاتلة ولا يؤخر شم النرجس فانه يمنع الزكام في مدة أيام الشتاء ، وكذلك الحبة السوداء . وإذا خاف الانسان الزكام في أيام الصيف فليأكل كل يوم خياراً ، وليحذر الجلوس في الشمس . ومن خشى العقيقة والشوصة فلا يؤخر أكل السمك الطري صيفاً كان أو شتاء . ومن أراد أن يكون صالحاً خفيف الجسم واللحم فليقلل من عشائه بالليل . ومن أراد أن لا يشتكي سرته فليدهنها متى دهن رأسه . ومن أراد أن لا تتشقق شفتاه ولا يخرج فيها باسور فليدهن حاجبيه من دهن رأسه . ومن أراد أن لا تسقط اذناه ولهاتاه فلا يأكل حلواً حتى يتغرغر بعده بخل . ومن أراد أن لا يصيبه اليرقان فلا يدخل بيتاً في الصيف أول ما يفتح بابه ولا يخرج منه أول ما يفتح بابه في الشتاء غدوة . ومن أراد أن لا يصيبه ريح في بدنه فليأكل الثوم كل سبعة أيام مرة . ومن أراد أن لا تفسد أسنانه فلا يأكل حلواً إلا بعد كسر خبز . ومن أراد أن يستمري طعامه فليشك به بعد الأكل على شقه الأيمن ثم ينقلب بعد ذلك على شقه الأيسر حتى ينام . ومن أراد أن يذهب

البلغم من بدنه وينقصه فليأكل كل يوم بكرة شيئاً من الجوارش الحريف ويكثر دخول الحمام ومضاجعة النساء والجلوس في الشمس ويجتنب كل بارد من الأغذية فانه يذهب البلغم ويحرقه . ومن أراد أن يطفىء لهب الصفراء فليأكل كل يوم شيئاً رطباً بارداً ويروح بدنه ويقل الحركة ويكثر النظر الى من يحب . ومن أراد أن يحرق السوداء فعليه بكثرة القيء وفصد العروق ومداومة النورة . ومن أراد أن يذهب بالريح الباردة فعليه بالحقنة والادهان اللينة على الجسد وعليه بالتمكيد بالماء الحار في الأذن . ومن أراد أن يذهب عنه البلغم فليتناول بكرة كل يوم من الاطريفل الصغير مثقالاً واحداً .

صحة المسافر

واعلم يا أمير المؤمنين أن المسافر ينبغي له أن يتحرز من الحر إذا سافر وهو ممتلئ من الطعام ولا خالي الجوف وليكن على حد الاعتدال ، وليتناول من الأغذية الباردة مثل الغريض والهلام والحل والزيت وماء الحصرم ونحو ذلك من الأطعمة الباردة .

واعلم يا أمير المؤمنين أن السير الشديد في الحر الشديد ضار بالأبدان المنهوكة إذا كانت خالية من الطعام وهو نافع بالأبدان الخصبية ، وأما صلاح المياه للمسافر ودفع الأذى عنه فهو أن لا يشرب من ماء كل منزل يردّه إلا بعد أن يمزجه بماء المنزل الذي قبله أو بشراب واحد غير مختلف يشوبه بالمياه على اختلافها والواجب أن تزود المسافر من تربة بلده وطينته التي ربي عليها وكل ما ورد الى منزل طرح في أنائه الذي يشرب منه الماء شيئاً من الطين الذي تزوده من بلده ويشوب الماء بالطين في الآنية بالتحريك ويؤخر قبل شربه حتى يصفو صفاء جيداً ، وخير الماء شرباً لمن هو مقيم أو مسافر ما كان ينبوعه من الجهة الشرقية من الخفيف الأبيض ، وأفضل المياه ما كان مخرجها من مشرق الشمس الصيفي وأصحها وأفضلها ما كان

بهذا الوصف الذي نبع منه وكان مجراه في جبال الطين وذلك لأنها تكون في الشتاء باردة وفي الصيف ملينة للبطن نافعة لأصحاب الحرارة . وأما المالح والمياه الثقيلة فإنها تيبس البطن ، ومياه الثلوج والجليد ردية لساير الاجساد وكثيرة الضرر جداً وأما مياه السحب فإنها خفيفة عذبة صافية نافعة للاجسام إذا لم يطل خزنها وحبسها في الارض . وأما مياه الجب فإنها عذبة صافية نافعة إن دام جريها ولم يدم حبسها في الارض . وأما البطائح والسباخ فإنها حارة غليظة في الصيف لركودها ودوام طلوع الشمس عليها وقد يتولد من دوام شربها المرة الصفراوية وتعضم به أطحلتهم (الشرح) الماء : هو ذلك العنصر الفعال الذي يدخل في تراكيب أكثر المواد وهو من أهم مكونات جسم الانسان فإنه يدخل في تركيب كل عضو من أعضائه وكل مادة من مواده ، وبدونه لا يمكن أن تتم أية عملية أو تفاعل سواء أكانت العملية هضمية أو تمثيلية أو امتصاصية أو غيرها . ويحتاج الجسم الى كميات كبيرة منه للقيام بهذه الفعاليات وغيرها ، ويحتاج اليه للاستعمالات الخارجية ، فلما هو من أحسن المنظفات والمطهرات والمعتمات لجسم الانسان ولحاجيات الانسان الاخرى . والمياه تختلف باختلاف أنواعها واختلاف مصادرها فهناك مياه الأمطار وهي التي تتجمع من ماء المطر ومياه العيون والأنهار ومياه الآبار . وتقسم المياه الى عسرة ويسرة وقد تعرضنا الى شرحها ووصفها في الفصول السابقة عند تعليلنا على صناعة الشراب الحلال ، وقلنا ان الامام (ع) قد سبق غيره في تعريف الماء فعرفه أحسن تعريف وأوجز وصفه .

والماء يعتبر من أهم العناصر الحيوية للجسم ويعتبر أيضاً من أهم مصادر العدوى في نقل كثير من ميكروبات الامراض والطفيليات ، فإذا تلوث مصدر ماء الشرب بمكروب وبأي ما وقعت الطامة الكبرى وعم البلاء على المنطقة التي تزود

من ذلك الماء . فتصفية المياه وتعيمها يعتبران من أهم الواجبات الصحية العمومية وقد اهتمت بذلك الحكومات وخاصة في السنوات الأخيرة وخصت كل بلدة لجنة مسؤولة عن مشروع إسالة الماء وهي مسؤولة في الدرجة الاولى عن انتقاء مصدر المياه وفي الدرجة الثانية عن تصفية تلك المياه وتعيمها صحياً حسب اسس صحيحة وجمعها في مخازن كبيرة وتوزيعها على المحلات الخاصة والعامه بواسطة شبكة أنابيب .

وقبل أن نترك بحث الماء يجب أن نذكر بعض الشيء عن مجاري المياه القذرة وما لها من أهمية صحية ، فالامم الحديثة التي تفكر بإنشاء المدن العصرية يتبادر الى أذهانها في أول الأمر تصاميم هذه المجاري على الاسس الصحية الهندسية الحديثة قبل أن تضع تصاميم المدينة الاخرى كالبناء والكهرباء لأهمية تلك المجاري وما لها من مساس بالصحة العامة ، فهي الطريق الوحيد للتخلص من الفضلات وزيادات المياه والأوساخ الاخرى التي لو تبقّت لأحدثت ما أحدثت من عفونة وتفسخ وسببت انتشار شتى الانواع من الامراض السارية ، والتي إذا اتصلت بمصادر ماء الشرب ولوئتها لساعدت في اتساع نطاق انتشار ذلك الوباء ولتعرض في بعض الاحيان ضبطه وايقافه .

وتجمع هذه الفضلات وهذه الاوساخ في محل واحد بصورة غير صحية هو أشد وأخطر وسط من منتج للمكروبات فتصبح معملاً ذا قدرة عظيمة على انتاج ملايين المكروبات يومياً ونشره بمختلف الطرق سواء أكان في الهواء أو الوسائط الاخرى لنقل عدوى الامراض للابدان الصحيحة والامام عليه السلام قبل أن يدخل في بحث المياه أوصى كل مسافر وخاصة للمسافات الطويلة وفي الفصول الحارة ألا يكون ممتلئ المعدة ولا خالي الجوف ، وألا يتناول من الاطعمة إلا أخفها وأبردها وراعى في ذلك المحافظة على سلامة المعدة في الاسفار وعلى مكافحة العطش ، لأن الاكلات الغليظة تسبب تعب المعدة وفسادها وتسبب العطش . وحذر المسافرين عن

شرب المياه التي يصادفها بطريقه إلا بعد أن يتأكد من أن ذلك المصدر صالح للشرب وتقي وطاهر ، وأوصى كثيراً بأخذ المياه التي تكون ينابيعها في الجهة الشرقية ويقصد بذلك المعرضة لأشعة الشمس وذلك ما للشمس من تأثير في تعقيم المياه والقضاء على أكثر مكروباتها ، وحذر من شرب المياه العسرة وذلك لتأثيراتها على عرقلة عمليات الهضم والتمثيل ، وكانت أكثر تحذيراته (ع) هي : عدم شرب المياه الحزونة مباشرة من مياه المطر التي لا يعرف تماماً كيفية خزنها .

وبهذه العبارات الموجزة المختصرة أوصى الامام ألا يشرب الماء ما لم يكن مصفى في الدرجة الاولى ومعقماً في الدرجة الثانية وفضل التعقيم الشمسي على بقية الطرق لأنه طبيعي ومفيد أكثر من غيره وفي نفس الوقت هو اقتصادي لا يكلف أية نفقة .

آداب الجماع

قال الامام (ع) : (وقد وصفت لك يا أمير المؤمنين فيما تقدم من كتابي هذا ما فيه كفاية لمن أخذ به ، وإنما أذكر أمر الجماع : فلا تدخل النساء من أول الليل صيفاً ولا شتاءً وذلك لان المعدة والعروق تكون ممتلية وهو غير محمود ويتولد منه القولنج والفالج والقوة والنقرس والحصاة والتقطير والفتق وضعف البصر ورقته ، فإذا أردت ذلك فليكن في آخر الليل فانه أصلح للبدن وأرجى للولد وأزكى للعقل في الولد الذي يقضي الله بينهما ، ولا تجامع امرأة حتى تلاعبها وتكثر ملاعبتها وتغمر ثدييها فانك إذا فعلت ذلك غلبت شهوتها واجتمع ماؤها لان ماءها يخرج من ثدييها والشهوة تظهر من وجهها وعينيها واشتهت منك مثل الذي تشتهي منها ، ولا تجامع النساء إلا وهي طاهرة ، فإذا فعلت ذلك فلا تقم قائماً ولا تجلس جالساً ولكن تميل على يمينك ثم انهض للبول إذا فرغت من ساعتك شيئاً فانك

تأمن الحصة باذن الله تعالى ، ثم اغتسل واشرب من ساعتك شيئاً من المومياي
بشراب العسل أو بعسل منزوع الرغوة فانه يرد من الماء مثل الذي خرج منك)
واعلم يا أمير المؤمنين أن جماعهن والقمر في برج الحمل أو الدلو من البروج
أفضل ، وخير من ذلك أن يكون في برج الثور لكونه شرق القمر . ومن عمل
فيما وصفت في كتابي هذا ودبر به جسده أمن باذن الله تعالى من كل داء وصح
جسمه بحول الله وقوته . فإن الله يعطي العافية لمن يشاء ويمنحها إياه . والحمد لله
أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً .

« الشرح » قال الدكتور « إستاس تشاسر » : « يكاد الناس يتكلمون
ويأكلون ويتنفسون ويقومون بأعمال أخرى بمقتضى قواعد تكنيكية وعلمية ، وأما
المسائل الجنسية فجعلهم بها كأن لا يزال فاضحاً ، ومرد هذا الجهل الى حضارة
مرائية تسكر على الانسان حق إثارة موضوع دقيق كموضوع العلاقات الجنسية مع
العلم انها من الوجهة العلمية شغل الناس الشاغل بالرغم من تظاهرهم بالرصانة والترفع عنها
وليس الجهل بهذه المسائل الجنسية مقصوراً على طبقة معينة فيه يستوي العالم
والجاهل والغني والفقير ، وقليل من الرجال يدركون أهمية التوافق والانسجام في
العلاقات الجنسية ، وذلك بالنسبة الى الزوجين وأقل منهم هم الذين اكتشفوا أن
خمسة وسبعين بالمائة من حوادث الزواج الفاشل ما كانت لتكون لو لا جهل الرجال
وأنايتهم . وكيف يسعد زوجان يستأثر أحدهما - وهو الرجل - بأطايب توفرها
له الحياة الزوجية ، تاركاً للمرأة الفئات وأحياناً لا شيء .

وتأبى التقاليد إلا مسaire الحضارة المرائية وأناية الرجل . فلمرأة في تلهمها
المشروع الى إحراز نصيبها من المتع لا تجرباً في الغالب على المطالبة بهذا النصيب
لأنها محرومة عرفاً من هذا الحق ، ومن أجل هذا لا تجني من الاتصال الجنسي

سوى الخيبة والحرمان . وإذا ساءت العلاقات بين الزوجين تظل الأسباب الحقيقية دفينية في صدر المرأة فيخفق المصلحون لعجزهم عن الاهتمام الى موطن الداء .

فالجهل والانانية والحياء الكاذب والتحفظ المرأئي كلها تمكن وراء الزواج الفاشل وحوادث الزنا والطلاق . ناهيك عن الأمراض التي تذهب ضحاياها في الغالب نساء أثر الحرمان في أعصابهن . من أجل هذا يقوم في العالم المتمدن مفكرون وكتاب مؤهلون بحملات واسعة لمكافحة سياسة الصمت حول المسائل الجنسية ولتحرير الناس من الأوهام والفضيلة الكاذبة التي تجثم على صدورهم ولتسليط أضواء الحقيقة على الفعل الأساسي الذي يشد المرأة بالرجل . ينبغي للرجل أن يستخدم مواهبه واختباراته في اعداد امرأته للفعل الجنسي ، وكل رجل لا يفكر إلا بنفسه ويترك امرأته فريسة الشهوات دون أن يتاح لها بلوغ قمة اللذة ، فهو أما جاهل يستحق الشفقة أو أناني يستأهل الصفع .

وليس الاعداد للفعل الجنسي - ولنسمه العمل التمهيدي - من مبتكرات اناس مغرقين في الفساد ، كما قد يتبادر إلى الازدهان . فلقد أجمع الذين عالجوا القضايا الجنسية على أساس علمي أن الاعداد هو ضرورة فسيولوجية كالفعل نفسه .

لاريب في أن الرجال الذين يمارسون حقوقهم الزوجية دون مقدمات هم قلة في البيئات الراقية والمتحررة وكثرة في سائر البيئات حتى الذين يمهّدون للخلوّة بما يكفل نجاحها لا يتقنون من ضروب الملاعبة والملاطفة إلا أقلها . وليس مرد هذه الظاهرة الى الجهل فحسب ، بل الى الترفع عن ممارسة بعض هذه الضروب بحجة انها غير لائقة ولا تتفق والكرامة الانسانية . انتهى

وقال الدكتور « كورسال » : « ثبت وجود أعضاء الانتصاب عند المرأة واقتراح عملها الجنسي باللذة والاندفاع وان كانت لكل امرأة طبيعتها الجنسية الخاصة فان هذه الطبيعة رغم كونها في الظاهر عاطفية أكثر منها حيوية ، تخضع لقوانين علم

الحياة ، وتوجه هي الاخرى غاياتها الخفية نحو الخلق والوجود لا يعتريها في هذا كلال أو نصب — ان المحافظة على النوع هي الغاية — وان الوظيفة الجنسية هي مصدر الغريزة . وعند المرأة كما عند الرجل تحرك الغريزة الجنسية جهاز الاتصاب ولكنها تخضع في هذه لتأثيرات مختلفة منها الانفعالية والعاطفية والحسية والنفسية وقد اثبتت الاكتشافات العلمية أهمية الدور الذي يلعبه في هذا كله الجهاز العصبي ، والهormونات والتأثيرات الشخصية ، وان أسباب التهييج المختلفة على تباين أنواعها مختلفة المراكز فمنها ما يصدر عن الأعضاء التناسلية نفسها ومنها ما يصدر عن مراكز اخرى بعيدة عن أعضاء الجنس كاللسان وغشاء الفم والشفتين والاذن والجفنين والرموش . وللثديين في هذا النظام مكان مختار ، إذ ينجم عن تهيجهما في بعض الأحيان تقلص أعضاء الاتصاب عند بعض النساء . انتهى

لقد سبق الامام هذين العالمين النفسانيين في بحثهما ، وسبق غيرها من أصحاب النظريات في معالجة هذا الموضوع الدقيق الحساس وأبدى رأيه بصراحة مينة باختصار فسلجة هذه العملية وتفسيرها العلمي وشروطها وأهمية اثاره الشهوة في كلا الجنسين . وقبل البدء بهذا بين أحسن الاوقات وأصلحها بالنسبة للفصول وبالنسبة لليل والنهار للحالة الصحية البدنية ، واشترط ان يكون الشخص مرتاحاً لا تعباً ولا ممتلئ المعدة ، ثم شرح الشروط الصحية ما قبل العملية وما بعدها والأمراض والعلل التي تتسبب إذا اهملت هذه الشروط الصحية .

وحذر ﴿ع﴾ من مجامعة النساء وهن في فترة الحيض لما في ذلك من أخطار على الطرفين ، وأوصى بعدم الاقتراب بهن إلا أن يكن طاهرات وبين آداب التنظيف والاعتسال بعد العملية ملمحاً الى بعض فوائدها الصحية . قال ﴿ع﴾ : ﴿ ولا تجامع امرأة حتى تلاعبها وتمكث ملاعبتها وتغمر ندييها فانك إذا فعلت ذلك غابت شهوتها واجتمع ماؤها لأن مائها يخرج من ندييها والشهوة تظهر من

وجها وعينيها واشتهت منك مثل الذي تشتهي منها . . . الخ ﴿
توضح هذه الفقرة ان غريزة المرأة لا يمكن أن تستكمل أسبابها الأساسية
ما لم يقابلها جهاز تشريحي تام التركيب يعتبر المحرك الطبيعي للحياة الجنسية ،
ولا بد لوظيفة المرأة الجنسية لكي تأخذ شكلاً طبيعياً من مقومات ضرورية أهمها
الجهاز العصبي والهرمونات الغددية والعاطفة والتأثر . وتكون هذه العناصر في عملها
الطبيعي سلسلة تماسك حلقاتها بشكل يصعب معه تفريقها في معظم الأحيان .

الظواهر الطبية

في الأحاديث النبوية

الاسلام يحافظ على بقاء الانسان ويعمل على أن يكون افراده في أتم صحة وأكمل عافية ، إذ بمجموعهم تزيد شوكته وتقوى ملته ، ولذلك حرم القتل ووأد البنات وحرم أيضاً الانتحار . قال رسول الله (ص) : « من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تحصى سماً فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » .

ينهى هذا الحديث الشريف عن الانتحار بأية وسيلة كانت وبين جزاء المنتحر وماله في الآخرة تخويفاً وتهديداً وزجراً ووعيداً حتى لا يلجأ مؤمن إلى الخلاص من حياته والقضاء على نفسه والسعي الى حتفه بظلفه إن صادف عقبة في دنياه يعجز عن تذليلها أو حلت به مصيبة ينوء كاهله عن حملها .

يجهل ذلك المسكين انه لو صبر قليلا لفرج الله ضيقه ومهد طريقه وأبدله بعد الخوف أمناً وبعد الحزن بشراً وبعد الفشل نصراً « فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا » ولن يغلب عسر يسرين .

أما ما ورد في القرآن الكريم عن فوائد الصبر وما خص به صاحبه من عظيم الأجر فكثير اكتفي بالإشارة إليه جباً في الإيجاز ولكن اسمحوا أن نلقي نظرة على قوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً » (١) لن يتصف امرؤ بصادق التقوى لمولاه فيفوز بما تضمنته هذه الآية الكريمة إلا بامتنال أمره واجتناب نهيه وحسن التوكل عليه والتسليم له أولاً وآخراً باطناً وظاهراً والاعتقاد بصحة ما نزل من الآيات ، وهل في الاتجار أي شيء من ذلك كلا إنما الاتجار أوله اليأس وقطع الرجاء ، ووسطه محاربة الخالق بعدم الرضا ، وآخره الحسران وسوء الجزاء .

وبمناسبة الاتجار وإن مآل مقترفه النار أذكر لكم القصة الآتية الواردة في كتب الحديث .

قاتل رجل مع رسول الله «ص» في إحدى الغزوات وأبلى بلاءً حسناً فأخبر رسول الله «ص» أصحابه أن ذلك الرجل من أهل النار ، فعجبوا كثيراً وما لبثوا غير قليل حتى جرح الرجل جراحاً بليغة فتسرب اليأس إلى قلبه ووسوس إليه الشيطان الإجهاز على نفسه فأطاعه وطعنها طعنة نجلاء كانت القاضية وقد غلب عليه القدر فكان من أهل النار .

ومن الاتجار البطيء المشاهد في هذه الأيام تعاطي الخدراوات والأصل في اكتشافها في الطب الحاجة إلى خواصها المسكنة الآلام بعض الأمراض ولكن الناس أساءوا استعمالها فانقلبت عليهم خطراً كبيراً وشرراً مستطيراً ، وأصبحت معولاً لهدم الإنسانية وانتزاع المروءة واقتلاع زهرة الشباب ومنجلاً لحصد الرؤوس وازهاق النفوس .

معلوم أن الاسلام نص على تحريم الخمر لتأثيرها السيء والمضار التي تنجم عنها ، وهو أيضاً نص على تحريم المخدرات لأنها مغية للعقل مثل المسكرات بل ان أضرار المخدرات أدهى وأمر .

وإن كنتم في ريب من قولي فأطعموا على تقارير الشرطة ومصلحة السجون لتعلموا عدد من يدخلها ممن وقعوا فريسة المخدرات ، وعدد من يهلك منهم في المستشفيات ثم ولوا وجوهكم شطر بيوتهم الخاوية إلا من فقر مدقع وهم دائماً تجدوا بها أرامل باكية وأطفالاً ضاوية في أطمار بالية تحتها عظام نخرة وأعصاب منهكة . اما الوجوه فذايلة شاحبة والصحة عنهم مولية ذاهبة .

الاسلام يأمر بالجد والعمل ، والمخدرات تشل الأيدي وتقودها الى البطالة والكسل وتجعل مدمنها كلاً على غيره جانياً على نفسه ثم على نسله وعلى وطنه بمساوئه ومفاسده .

فيجدد بالعاقل ألا يصدق ما يزعمه تجار المخدرات من واهي الخزعبلات وافتراء الاغراء ، إذ لا هم لهم إلا اكتساب الأموال مهما كانت الوسيلة ومهما جرت أيديهم الشريفة من الويل والثبور بقاتل سمومهم وكاذب أباطيلهم وخادع حيلهم « ألا ساء ما يزرعون » .

أحاديث بها نصائح طيبة

قال رسول الله «ص» : « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا باحدى ثلاث : النفس بالنفس والثيب الزاني . والمارق من دينه التارك للجماعة » .

والمراد من هذا الحديث الشريف تحريم قتل المؤمن فيما عدا الأصناف الثلاثة المذكورة به وهم قاتل النفس والمتزوج الزاني أو المتزوجة الزانية والمتردد عن دين الاسلام المفارق للجماعة المسلمين . فهؤلاء وحدهم يحل قتلهم .

والغرض المنشود من هذا القول الحكيم أولاً التشريع ، ثانياً التخويف حتى ينتهي من سولت له نفسه ارتكاب إحدى هذه المعاصي القبيحة متى علم أن جزاءه سيكون الاعدام .

وهناك مغزاً ساهي يفهم من الحديث ، فقد كانت القبائل في الجاهلية إذا قتل أحد رجالها طالبت بثأره ودب الشقاق والنفار والتباغض بينها ونشبت الحروب وسفكت الدماء وضاعت الأرواح ، كما حصل في حرب البسوس المشهورة عند مقتل كليب .

فنعماً لتلسم النتائج الوخيمة والحسائر الفادحة أبان الرسول «ص» الأحوال الثلاثة التي يحل فيها القتل ويحرم في سواها .

أما السبب في وجوب قتل المنافق الذي يخرج عن الاسلام فهو لئلا يضل غيره . فما أشبهه بالعضو الفاسد في البدن ، يجمع الأطباء على قطعه حفظاً لنيجة باقي الأعضاء وسلامتها .

وأما الحكمة في تشديد عقاب الزناة كما نص وسط الحديث فلا أنهم تركوا ما عندهم من حلال وابتغوا ما وراءه عابثين بالشرف متهكين الاعراض فإذا نفذ القتل في هؤلاء ارعوى غيرهم وعم العمران وانتشر السلام .

ومن نتائج الزنا الاجتماعية اختلاط الأنساب فضلاً عن أن الدعي يكون بطبعه ميالاً الى الفجور والشرور .

وبهذه المناسبة أخذك عن الحكمة في تحريم الزنا من الناحية الطبية ، فإن كثيراً من الزناة الذين يزجون بأنفسهم بين أحضان ساقطات النساء لقضاء الشهوة البهيمية يصابون وسط لذتهم بسهام مسمومة من الأمراض الوبيلة التي تنغص حياتهم بل وحياة غيرهم ، فقد تصاب الزوجة البريئة بالعدوى من زوجها الذي تلوث جسمه وكثيراً ما تنتقل آفات تلك الأمراض الى النساء فيموت الجنين ، ولو تم الحمل

والوضع لرأيت الطفل المولود ضعيفاً به آثار المرض وربما تأخر ظهورها الى وقت آخر . وقد تصل العدوى الى الاحفاد أيضاً . وأشهر الأمراض التي اشير اليها : السيلان . والزهرى . والسل ، التي تقشعر عند ذكرها الأجسام وتحار في هول أخطارها الأفهام .

فاما السيلان : فهو التهاب صديدي في مجرى البول يكثر زمناً طويلاً ويزداد خطره إذا أزم . ومن نتائج السيئة ومضاعفاته الوحشية الرمد الصديدي . وكمن ضحايا لا حصر لهم فقدوا بصرهم بسببه ، والتهاب الخصيتين وانسداد القنوات المنوية والروماتيزم السيلاني والتهابات في النخاع الشوكي قد تفضي الى الموت . وأما الزهري فهو أشد الأمراض التناسلية خطراً وأسوأها عاقبة وأروعها المأساً وأصعبها شفاء ، وتظهر أعراض هذا المرض الخبيث في فترات مختلفة حسب استعداد المريض وسيره في العلاج .

ألا انبئكم بأعراض الزهري في دوره الأخير وأضراره البليغة فما أهولها وما أبشعها ، فكم من عقول اندثرت وكم من أنوف انهارت وكم من ألسن قطعت وكم من أذرع شلت وكم من أعصاب انحلت وكم بغير ما سبب سوى الزهري اللعين . وأما السل فهو ادران في الرئة وجرائم تقتك بها الى أن تصيرها مجموعة بشور وكهوف فتصبح عاجزة عن أداء وظيفتها الهامة التي هي امتداد الجسم بغاز الاوكسجين الضروري للحياة .

واعراضه باختصار . فقد الشبهة والسعال والاصفرار والهزل ، وهو نتيجة لازمة للاجتهاد والافراط ، وهو من الأمراض العضالة التي يندر الشفاء منها ، فهل بعد ذلك يرتدع الزناة ويشوبون الى رشدهم ويقلعون عن غيهم .

قال رسول الله «ص» : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن الى آخر الحديث » .

المراد سلب كمال الايمان الرادع له عن اقتراف المعاصي لاسلب أصل الايمان خلافاً للمعتزلة القائمين بتكفيره وخلوده في النار . قال تعالى : « ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم » « ١ » ، وقال تعالى أيضاً : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » « ٢ » .

وحيث أن الزنا من أدهم الأدواء وأخطرها في المجتمع فالواجب يحتم علينا أن نستوفي البحث عنه ونلم به المامة وافية ثم نعود الى أصل المطلب ، وأرى من الضروري في المقام أن أذكر كلمة عن وظيفة أعضاء التناسل وغايتها التي خلقت من أجلها فأقول :

خلق الله في الانسان جملة أعضاء : أعضاء للحركة ، أعضاء للتغذية والهضم ، أعضاء للتنفس ، أعضاء للحس ، أعضاء للنسل . وجعل لكل عضو منها عملاً ووظيفة خاصة به . فلا أعضاء التناسل غاية واحدة هي الغاية المطلوبة من سائر الحيوانات وهي النسل والاتاج لضرورة بقاء النوع بدليل قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » « ٣ » ، وقوله تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء » « ٤ » وقوله تعالى : « ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » « ٥ » .

أشار الله سبحانه وتعالى في الآيتين الأولى والثانية الى الغرض من أعضاء التناسل ووظيفتها وهي الزواج . وأشار في الآية الثالثة الى نعمة الزواج الجميلة وانه داعية المودة والرحمة ومجلبة للالفة والوفاق لا داعية الخلاف والشقاق . كما

« ١ » سورة الزمر الآية ٥٣ . « ٢ » سورة النساء الآية ٤٨ .

« ٣ » سورة الحجرات الآية ١٢ . « ٤ » سورة النساء الآية ١ .

« ٥ » سورة الروم الآية ٢٠ .

أشار الى أن المرأة ليست كالمتاع تقصد لمجرد قضاء الشهوة وتطلب للعبث واللذة إنما جعلت ليسكن اليها الرجل ويستأنس بها ويجد منها مسلياً لسكره ومفرجاً لغمومه ومعيناً على تدبير شؤونه ، فيقوم لها بما تطلبه المعاشرة وتفرضه الموازنة وتحتمه الصداقة والمودة ثم مع ذلك يستمتع بها ويقضي منها وطره .

وليس القصد من الاستمتاع بالزوجة مجرد قضاء الشهوة البهيمية فان ذلك من مقاصد البهائم العجماوات بل القصد منه ما قصده الشارع الحكيم وهو الولد والنسل ولذا قال الله تعالى : (فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم) « ١ » أي ابتغوا ما أَرَادَهُ اللهُ لَكُمْ وهو النسل وقال رسول الله « ص » تأييداً لقول ربه : « تناكحوا وتناسلوا فإني مباه بكم الاعم يوم القيامة » وذلك لحكمة بالغة هي :

أن الله سبحانه وتعالى لما خلق هذا العالم وقدر بقاءه الى أجل مسمى رأى أن بقاءه يتوقف على بقاء النوع الانساني المتوقف على الازدواج والتناسل - فشرع لنا الزواج - لأن هذا التناسل لا يتم ولا يفي بالغرض منه إلا بعقد الزواج الشرعي وذلك أمر بديهي الثبوت لا يحتاج الى برهان .

ورب معترض يقول انه لا داعي لعقد الزواج الشرعي لان الزواج يحصل بين الذكور والاناث بمقتضى الجيلة الخلقية والطبيعة البشرية ، إذ كل منهما تدعوه شهوته الى ذلك فيحصل التناسل بدون عقد زواج شرعي . ولكن بالتأمل والروية يعلم جلياً أن التناسل متوقف على عقد الزواج لعدم اختلاط الانساب ، إذ لو ترك الناس عبید شهواتهم تسوقهم كالحوانات الى حيث تشاء لكان الغرض قضاءها للرجال والنساء على حد سواء فضلاً عن جلب المنافع لهم أيضاً فيعملن كل ما في وسعهن للحصول على الفائدة التي يقصدونها فيمنعن أنفسهن من الحمل ليرغبن الرجال فيهن ويحصلن على رغباتهن وقضاء شهواتهن ، بخلاف ما إذا حصل الازدواج بعقد

شرعي وصار كل منهما مرتبطاً بشروط هذا العقد قاصراً على صاحبه لا يتعداه الى غيره فلا يكون الغرض حينئذ مجرد قضاء الشهوة ، بل النسل الذي يبقى للانسان ذكراً باقياً وأثراً خالداً في الحياة الدنيا .

ومن ذا الذي يستطيع أن يقدّر الغبطة والسرور عند ما يرزق الانسان بمولود ولو كان مشوه الخلقة ؟ ذلك هو السر ، بل هو السحر الحلال الذي يحول أنظار الانسان العاقل الى الزواج ويحبب اليه الحياة الزوجية ، تلك الحياة التي على ما فيها من تعب ونصب ومزارة تضع الرجل موضع السكّال الانساني وتهديه الى الأخلاق الفاضلة وتأخذ بيد المرأة وتجلسها على عرش الامومة المقدسة يحف بها الاجلال والاحترام .

فأي إنسان عاقل لا يرغب في أن يكون له خلف وولد ولذا نرى الرجل الذي لم يرزق ولداً ولا بنتاً يتكدر كثيراً ، كما أن الزوجة العاقر التي لم تلد تتألم لذلك وتسعى جهدها للحمل حتى ترزق ولداً . ولهذا لما قل النسل في بعض الامم المتقدمة بحثوا عن السبب فوجدوه ناشئاً في الغالب من ازدواج الذكور والاناث بلا عقد شرعي ، وهذا ما يعبر عنه بعضهم بالزواج الغير الشرعي ، وهذه العلاقة الغير الشرعية بين الرجل والمرأة تعرف بالفسق ، وهي سيئة كبيرة ضد العقل والفضيلة بل هي جريمة تحط من شأن الانسان وسبب من أسباب الدمار والخراب . نعم ان الفسوق جريمة من أكبر الجرائم التي تقضي على الانسانية والحضارة والعمران . فيستنتج مما ذكر أن استعمال أعضاء التناسل فيما خلقت لأجله بالطرق المشروعة يفيد المجتمع الانساني لانها تنتج ذرية صالحة سليمة العقل صحيحة الجسم أما استخدامها في غير الطرق الشرعية يجر الويلات على الانسانية ويكون سبباً في شقاء الانسان وخراب العمران .

فليعلم كل إنسان — شاباً كان أو رجلاً — أن أعضاء التناسل لم تخلق

الله والذلة إنما خلقت لحكمة ماسة سامية وهي الاتاج والنسل والرجل في قيامه بهذه الواجبات المقدسة إنما يؤدي عملاً شريفاً يبرهن به من انه لا يقوم بعمل شهواني محض كالبهايم ، وليعتقد اعتقاداً جازماً بأن هذا العمل إنما هو لعمارة الكون وبقائه كما يريد المولى جل وعلا لا لفنائه .

قال أحد الشعراء :

لولا الزواج لما كننا ولا كانت هذي البلاد ولا شيدت مبانيها

إن الزواج يصون النفس يعصمها عما يحط بعليها ويزريها

عرفنا الآن وظيفة أعضاء التناسل وغايتها والحكمة من الزواج . فلتتكم عن الزنا ومنشئه وأسبابه ومضاره وعلاجه وتحريمه وعقوبته لأن الانسان يجب عليه أن يعرف كل العلل والامراض ليأخذ حذره منها ويقي نفسه من شرها عملاً بنصيحة الطبيب « الوقاية خير من العلاج » وأن يعرف الخير والشر لعدم الوقوع في الشر وقد أمرنا الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا ما دفعنا وحفزنا لتدوين هذا البحث قياماً بالواجب الديني وخدمة للانسانية وحباً في نشر الفضيلة ورفع لواء العفة والشرف ومحاربة للفسق والفاسقين .

✂ الزنا ✂

الزنا — وقانا الله وإياكم شره — يقال له الفحشاء هو مخالطة الجنسين الذكر والاتي ببعضهما بدون وجه شرعي . وبعبارة أوضح هو الفعل الفاضح الذي يقع من شاب أو رجل مجرم لفتاة أو امرأة كرهاً أو طوعاً لهتك عرضها وسلب عفافها وضياع شرفها ومالها .

أسباب الزنا : إن الأسباب التي تدعو الانسان الى الوقوع في هذا المرض الاجتماعي الخطير كثيرة .

أولها النظر الى النساء فهو يريد الزنا ورائد الفتنة ورسول المنكرات لما فيه

من المضار الدنيوية والدينية ولذا أمر الله بغض البصر فقال تعالى : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها » ... الخ « ١ »

والسبب في نزول هذه الآية ما ورد عن علي « ع » قال : (مر رجل على عهد رسول الله (ص) في طريق من طرق المدينة فنظر الى امرأة ونظرت اليه فوسوس لها الشيطان انه لم ينظر أحدها للآخر إلا إعجاباً ، فبينما الرجل يمشي إلى جنب حائط وهو ينظر إليها إذا استقبله الحائط فشق أنفه فقال والله لا أغسل الدم حتى آتي رسول الله (ص) فأخبره أمري ، فأتاه فقص عليه قصته فقال النبي (ص) « هذا عقوبة ذنبك » .

وأَنزل الله تعالى هذه الآية للنصح والتحذير فأمر الرجال بغض الأبصار وبحفظ الفروج وأمر النساء بذلك أيضاً وبشيء آخر أزيد منه وهو ستر الزينة والمحاسن وعدم ابدائها حتى لا يعود أحد يفتن بهن .

وقال « ص » : (النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن تركها خوفاً من الله تعالى أعطاه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه) ، وقال (ص) : من ملأ عينيه من امرأة حراماً حشاها الله يوم القيامة بمسارين من نار وحشاها ناراً حتى يقضى بين الناس ثم يؤمر به الى النار .

وقال داود (ع) لابنه : « يا بني امش خلف الأسد والاسود ولا تمش خلف المرأة » .

وقالت فاطمة بنت رسول الله « ص » : « أصلح شيء للمرأة أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل » .

وقال العلاء بن زياد : « لا تتبع بصرك رداء المرأة فإن النظر يزرع في القلوب شهوة » .

وقالت ام سلمة : « استأذن ابن ام مكتوم الأعمى على رسول الله «ص» وأنا وميمونة جالستان عنده فقال «ص» : احتجبا ، فقلنا : أو ليس بأعمى لا يبصرنا ؟ فقال «ص» : « أفعميا وان انما ألسما تبصرانه » .
ففي هذا دليل واضح على أن مجالسة الأعمى وتحديق النظر فيه لغير حاجة محرّم قال الشاعر

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
والمرء ما دام ذا عين يقلبها في أعين الغيد موقوف على الخطر
يسر مقلته ما ساء مهيجته لا مرحباً بانتفاع جاء بالضرر
ويقول شوقي

نظرة فابتسامة فسلام فسكلام فوعد فلقاء

وقال الآخر

لا تأمنن على النساء ولو أخا ما في الرجال على النساء أمين
كل الرجال وإن تعفف جهده لا بد أن بنظرة سيخون
وفضلاً عن ذلك فإن من نظر الى امرأة نظر شهوة فكأنما زنى بها ، وهذا يعرف عند العلماء بزنا العين .

ثانياً اختلاط الرجال بالنساء والخلوة بهن فهي الداء العضال لكل مجتمع إنساني والسبب المباشر للزنا وكثرة اللقطاء من أولاد الزنا . فقد جاء في الأثر :
ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما ، وقال «ص» : « ما تركت بعدي فتنة أضرم على الرجال من النساء » ، وقال أيضاً : « اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فان أول فتنة بني إسرائيل كانت من قبل النساء » .

وإني أقول العفة حجاب يمزقه الاختلاط . وفي الآية الشريفة السالفة الذكر في غض البصر دليل كاف على عدم اختلاط الرجال بالنساء وتباعدهن عند الحضور معهم في المجتمعات وغيرها . ولذا حضر الاسلام على المرء أن يخلو بامرأة أجنبية حيث لا محرم لها بدليل قوله (ص) : (لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم) وقال أيضاً : ﴿ لأن يطعن أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل ﴾ .

كانت امرأة عربية من ذوات الخدر الرفيع والحجاب المنيع وقعت في حبائل الزنا فلما سئلت عن السبب في ذلك قالت : « قرب الوساد وكثرة السواد » تريد أن مخالطتها بخادمها وكثرة الكلام معه هما السبب المباشر في وقوعها في حماة الزنا . وهل يعقل أن يجمع بين جسمين متجاذبين دون أن يلتقيا أو أن نلقي بهما في نار الشهوة دون أن يحترقا ؟ إن ذلك غير معقول .

وناهيك بما حصل بين الخدم وأسيادهن في بعض المنازل مما لا تحمد سيرته وعقباه ، وكثيراً ما نسمع بأن خادمة حملت سفاحاً من سيدها أو ابن سيدها وهذا نتيجة الاختلاط ولا شك .

ثالثاً مخالطة قرناء السوء ومروجي الفسق والفجور بما يفتخرون به أمامهن بما احلوا من أنواع المذات التي لم يروها إلا في مخيلاتهم .

رابعاً تهتك النساء وتبرجهن وخروجهن يتبخرن في الشوارع والأسواق والمحال العامة سافرات الوجوه عاريات الذراعين والنهدين والساقين متعطرات بحالة تثير العواطف والشهوات وتهيج الشباب وتحرك الجامد وتفتن العابد وتعين على الفساد بين العباد .

قال رسول الله «ص» : « أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية » .

وقال (ص) : « يا أيها الناس انهموا نساءكم عن لبس الزينة والتبخر فان بني إسرائيل لم يلعنوا حتى لبس نساؤهم الزينة وتبخرن » .

وقال «ص» : (إنما المرأة عورة فإذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان وأقرب ما تكون من رحمة ربها وهي في قعر بيتها) . وقال «ص» : « ليس للنساء نصيب في الخروج إلا مضطرة » .

وقال علي (ع) على منبر الكوفة : « يا أهل الكوفة بلغني أن نساءكم يخرجن فيزاحمن العروج في الأسواق أما تستحون أما تغارون » .

على أن الشرع المقدس قد صرح للنساء بالخروج في أحوال مخصوصة عند الضرورة كخروجهن للمسجد والحج وزيارة الوالدين وعيادة المرضى وتعزية الأقارب وغير ذلك بشروط مخصوصة . والمراد أن لا تكون النساء طوافات في الطرق والأسواق ويوت الناس بدون ضرورة ، وهذا لا ينافي خروجهن لمافيه من مصلحة دينية ، وأن يخرجن لحاجتهن مع التستر وعدم الابتذال برضا أزواجهن .

قالت عائشة : (لو علم النبي (ص) ما أحدث النساء بعده لمنعهن من الخروج) فإذا كان هذا حال النساء في ذلك الوقت فكيف حالهن اليوم الذي كثرت فيه المفاسد والخمازي بفضل الحرية الواسعة والمدنية الحديثة والابتذال ، ولا رادع من حاكم ولا وازع من دين . اللهم الظف بعبادك فانك على ما تشاء قدير .

خامساً انتشار الخمر بين الجمهور في المقاهي والحانات بل وفي الدور والقصور وهي كما لا يخفى أم الحباث والشرور وداعية الفسق والفجور ولها علاقة متينة بالزنا بل هي من أكبر عوامل الزنا .

سادساً انتشار محال الرقص والغناء والتمثيل الهزلي الساقط ومسارح السينما فانها جميعها بؤر فساد تجمع أنواع الموبقات وتحرض على الشهوات وارتكاب المعاصي والمحرمات وانتشار الزنا بين العائلات .

سابعاً تدهور أخلاق الشبان بل والرجال وعدم تعليمهم الدين الصحيح الذي هو أساس الأخلاق بل هو الضابط الوحيد لحفظ الانسان من الشر والعدوان في كل زمان ومكان .

ثامناً مطالعة الكتب الروائية والروايات الغرامية التي وضعها مؤلفوها ليغتتموا من أميال الفتيان والفتيات ما يضمن لهم رواجاً في سوق الفساد ، فإن مطالعتها والوقوف على ما فيها من حوادث العشق والفسق والغرام مما يبعث في نفوس الشبان والشابات الميل الى ارتكاب الفحشاء ويزين لهم الشيطان من خلالها حب الشهوات وارتكاب المحرمات .

تاسعاً فقد الحياء من النساء والغيرة من الرجال فهما الداعيان المباشرين للزنا وبفقدتهما ضاعت العفة واختلط الحابل بالنابل .

وقد جاء في الأثر انه : « إذا فقد الحياء من النساء والغيرة من الرجال فقل على الدنيا العفاء » . هذه هي أهم الأسباب الداعية لارتكاب جريمة الزنا .

وما دامت هذه الأسباب قائمة ومادام لا يوجد بين طبقات الامة وازع ديني ولا وازع خلقي ولا وازع قانوني فلا يمكن - والحالة هذه - منع هذا المرض الاجتماعي الخطير إلا بعد محاربه ومعالجته لان المرض لا يزول إلا بإزالة أسبابه وعوامله

مضار الزنا من الوجهة الصحية

لو نظرنا الى هذا الفعل الفاضح من الوجهة الصحية لرأينا أنه يوجد فرق عظيم بين اجتماع الزوجين اجتماعاً طاهراً شريفاً يكون عماده الحب الطاهر المتبادل بينهما وبين اجتماع غير شريف تكون غايته قضاء الشهوة البهيمية فقط .

هذه حقيقة مسلم بها لدى علماء حفظ الصحة حيث ثبت بالدليل العقلي والدليل العلمي الطبي أن الزوجة ترد لزوجها في مدة الحياة الزوجية بعض القوى التي يصرفها في اجتماعها بخلاف الشبان الذين يترددون على المومسات يخسرون

في كل مرة ما يتجدد فيهم من قوى الحيوية ثم لا يستردون شيئاً منها ولو يسيراً .
إنهم يظنون في تلك الساعة أو تلك الدقائق التي يأتون فيها الفاحشة أن لديهم
فضل قوة تتدفق في عروقهم من ماء الحياة فينفقونها بغير حساب زاعمين أن الهياج
الذي يدفعهم الى ارتكاب هذا الاثم العظيم هو دليل على غليان الدم وعلى قوى
تجددت فيهم ، ولكنهم لو تدبروا في الأمر لعلوا أن هذه الثورة كالنار المشتعلة
في الهشيم لا تلبث أن تطفأ بمجرد صب كمية من الماء ولو قليلة أو بمجرد بصقة تلتقي
في مرحاض أو مبوله .

فلا يغتر الشبان أو الرجال بقوتهم المزعومة فما من غني مسرف إلا ولحقه
الافلاس وخذت منه الأنفاس وليعلموا أن الافراط في فعل الفاحشة يزداد خطره
مع حداثة سن الباغي ، وكفى بسلوكه هذا المسلك مخالفة لسنة الطبيعة ونقضاً لعهد
الانسانية وخروجاً عن حدود رب البرية . وأول ما يجني هذا الافراط على الزاني
أن يهد أعضاء الشاب مع اقتارها الى قوى يتم بها كيانها ويكمل نموها .

إن من يدعي أن الزنا ضروري للشباب لأسباب صحية كتصرف الطبيعة كما
يدعون خصوصاً لمن لا يستطيع الزواج فلا يمكنه أن يقيم دليلاً على ذلك . فكم من
شاب أصبح أصفر الوجه واهي العزيمة كأنه مصاب بمرض السل وقد قال أحد
الاطباء : « على الشاب أن يملك هواه الطبيعي أكثر من سائر الهواء فإنه أصعبها
قياداً وأسرعها تقصيراً للأجل وأشدّها خطراً على الحياة يقود صاحبه الى العناء
والفناء ويبعد عنه الشفاء » .

ولو تدبر الشاب وعلم أن النساء البغايا يسلمن أنفسهن غالباً الى عدة رجال
دون اختبار واحد منهم سليماً كان أو مصاباً بقصد الحصول على ماله ، لو تدبر ذلك
وعرف نتيجة العلاقة الغير الشرعية بين البغايا وهؤلاء المجرمين لادرك الخطر الذي
ينتج من هذا المرض الاجتماعي الويل واجتهد في الابتعاد عنه ابتعاد السليم من

الأجرب . هذا ولقد انتشرت الامراض الناجمة من جريمة الزنا انتشاراً مريعاً في جميع أقطار الارض لا سيما بين الشيبية وهي تنحصر في السيلان والزهرى وملحقاتها ، ونحن لا نريد أن نشرحها شرحاً طبياً في كتابنا هذا لانها تحتاج إلى كتاب أضخم ومجلد أوسع فضلاً عن كونها من اختصاص كتب الطب فمن شاء العلم والاحاطة بها فليطلع عليها في كتب الامراض التناسلية ففيها الشرح الوافي والبيان الكافي . ونكتفي هنا بأن نقول :

إن هذه الامراض قد فشلت ليس فقط في العراق بل وفي البلاد الاجنبية أيضاً حتى أنه اقيمت في « بروكسل » عاصمة بلاد البلجيك جمعية دولية لمحاربة هذه الامراض وايقاف سيلها الجارف وقد وافقت باجماع الآراء على ما اقترحه الدكتور (لسار) الالماني وهو أن يُطلب الى أولياء الامور أن ينهزوا الفرص لينبهوا الامة رجالها وشبانها الى الاخطار الداهية المحدقة بهم من انتشار الزنا وما ينتجم عن الامراض الزهرية من العواقب الوخيمة والمتاعب الجسيمة ، وأن الوسيلة الوحيدة لاتقاء العدوى هي عدم التعرض لها بمنع الشبان من ارتكابها .

علاج الزنا

زد على ما تقدم أن الابطاء في الزواج يزيد في كثرة الفتيات العانسات ويفوت عليهن زمن نضارتهن وجني ثمارهن في إبانته وليس هن القوة على مدافعة الشهوة كالرجال فتظفر بهن وتجرهن الى سلوك طريق الفواية الشيطانية والفساد ، وهناك الطامة الكبرى والمصيبة العظمى من انتهاك حرمة الاعراض وتمزيق ثوب العفة والحياء . ويمعجني قول الشاعر في هذا المقام .

البتت إن تك في زمان صباها فسفينة أوقف شرع هواها
فاذا ازدهى فيها الشباب فروضة أحرزتها فأقطف لذيد جناها
ولدى السكولة فهي هم ناصب حملته فأصبر علي بلواها

ومثل الرجل المتزوج الصالح الطيب كمثل شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، ومثل الزاني الحديث كمثل شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، وقد وصف الرسول (ص) العلاج السكافي الشافي لغير القادر على الزواج ، فقال : (من لم يستطع فعله بالصوم فإنه له وجاء) والصوم كما هو معلوم يكسر الشهوة ويقتل الميل والرغبة في النساء لأنه يضعف البدن وينقص من الدم الذي يبعث الحرارة والقوة فتقتل بذلك دوافع الشهوة وتضمحل شدتها وقال أيضاً (ص) : « من تزوج فقد احرز شطر دينه فليتيق الله في الشطر الثاني » . ولقد فطن بعض الدول الأجنبية الى ضرورة مكافحة الزنا وحمل الشبان على الزواج .

ويعالج الزنا أيضاً بالعفة وهي السلاح الذي به تدافع المرأة عن شرفها وكرامتها وهو عندها بمثابة القوة عند الرجل . والعفة فضيلة أدبية غايتها قمع الاهواء المختلفة التي تثيرها شهوات الجسد ، فإذا كانت المرأة عفيفة بطبعها وإرادتها استطاعت أن تقي نفسها طيش الاهواء وعمى الحب . وهذا وان شرف المرأة كشرف الرجل متعلق - كما لا يخفى - بطهارة العرض إلا أن شرف المرأة هو الأهم لشدة ارتباطها بالنوع . فشرف الفتاة في العفاف ، وشرف المرأة في وفائها لزوجها وعدم خيانتها . وخير موعظة لمن أن يرفض نباتاً كل اتصال غير شرعي بالرجل لملحه على الزواج الذي هو أكبر امتياز لمن بل هو فخرهن . وكل فتاة تشد عن هذه القاعدة تعتبر حائنة لجميع جنسها ، فتطرد على الفور من البلد التي تقيم فيها وتبتعد كل امرأة عنها كما يبتعد السليم من الأجرب ، كما أنه يجب أن تعامل الزوجة إذا خانت زوجها بأقصى من ذلك لأنها تكون قد اخلت بشروط الزوجية وأضررت بجميع النوع وبذلك تصير عظة لكثير من الرجال وعبرة لمثيلاتها من النساء .

وما تقدم يتضح أن العفة أمر ضروري للجنسين وبدونها يختل نظام الاسر

وتدنس الاعراض ، وتهاون الشباب في صيانة عفتهم في الصبا يحول دون صيانتها في السكبر كالوعاء إذا انشعب عسر اصلاحه وكالزجاج إذا كسر استحال جبره . ولنضرب في المقام أمثلة في بيان فضيلة العفة عند الرجل والمرأة من قديم الزمن

عناية الفراعنة بعفاف المرأة

الزنا - وقام الله شره - كان منتشرأ عند بعض الطوائف اليهودية الذين كانوا مهبطاً للجهر بفساد الأخلاق حتى حقت عليهم لعنة الله ولعنات الأنبياء واستوجبوا نقمة الله كما جاءت بذلك نصوص التوراة المتعددة ، ثم انتشر عند اليونان بافراطهم في محبة الجمال وتجاوزهم في ذلك حدود العقل حيث تقننوا في استهواء النساء لشهواتهم واستعانوا في ذلك بأناشيد وأغاني الشراء التي كانوا يلقونها للعاهرات تقانياً واسترسالاً في الاغواء . وبمادى الوقت اقتدى بهم في ذاك فريق من الرومان الأشداء وتوسعوا في الأساليب حتى خصصوا له بعض الأماكن في أقسام معينة من مدائنهم ليكون فريق الملتحقين به آمناً من فريق الناقين عليه .

وأما الفراعنة الأقدمون في مصر فكانوا بطبيعة الحياء والاحتشام يوجهون عنايتهم ويقظتهم الى المحافظة على الأخلاق القويمة حتى لا يتطرق الفساد الى الشعب إذا تهاونوا في هذه الوجهة . فكانت شعوبهم تدرك منهم اليقظة والغيرة في المحافظة على الآداب وفي اجتناب المعاييب الأخلاقية وتدرك منهم العناية التامة بصيانة عفة النساء لأنهن أقرب الى التأثر إن لم تحفظهن عناية الحاكم من أي مساس يؤدي بهن الى السقوط في المهالك .

واشتهر « رعمسيس الثالث » أحد الملوك العظام بأنه كان يعد نفسه كجندي أو محام ويجاهر على الدوام بأنه يخصص كل عنايته ومجهوداته للاحتفاظ بعفة النساء وكرامتهن وغرس الاحتشام في نفوسهن حتى يكون سليقة متينة لا تتجاوزها الرياح بسهولة ، وكثيراً ما كان يصريح لرجاله وقواده في جميع الحفلات بأنه لا يبيح أن

تحس المرأة باضطهاد أو بامتهان وأنه يفتخر باطمئنانها الأدبي في عهده فتذهب كيف شاءت وتجتاز الطرق الى المقاصد الشريفة والرغائب التي تستدعيها شؤون الحياة القويمة آمنة من أن تمس بسوء حتى ولو من عيون الطير المحلق في الهواء . فمن ذلك يتضح أن صلاح النساء متوقف على صلاح الرجال وأن فساد النساء يرجع الى فساد الرجال . وهذا هو رأيي ولا زلت أكرر وأقول « إذا عف الرجل لم تجد المرأة من يزي بها » . فانقشوا هذه الجملة الذهبية على صفحات قلوبكم بقلم من نور اليقين والحق لتهديكم الى الصراط المستقيم وتحفظكم من غواية الشياطين الضالين .

كان للمرأة بهذه العناية عز القومية وشحم الالباء ووقار الصيانة ، بينما كانت النساء في الشعوب الاخرى يحجر عليها في الخدور ويستبد بها الآباء والأقارب كما كان يستعبدها الزوج ويقسوا عليها أبنائها بعد موته كأنها من متاع البيت وأجزاء الموارث أو بعض الدواب المحصورة في محتويات التركة غير متمتعة بشيء من حقوقها الشرعية ، فكان في هذا الافتخار الأتم بهذيب البنات وتعليمهن علماً نافعاً شاملاً للآداب والعقائد الدينية ، ويهيئها لأن تكون ربة بيت تديره بالخبرة والأمانة والعطف على بيتها وحسن المعاشرة بين اسرتها وإحكام الالفة بينها وبين زوجها ، فتزداد رابطتها متانة وقوة بتقادم العهد لتشبعها منذ صباها بالتعاليم القويمة ووجودها في بيئة صالحة تذكرها دائماً بالاعتدال والتمسك بأهداب العفة والكمال . فلماذا نشأت المرأة على فضيلة العفاف والتقوى والأمانة والميل الى الخيرات والمبادئ الصحيحة يؤلمها أن تقع في عصمة زوج غير عفيف وغير متصل مثلها بهذه الصفات ولا تسمح لها كرامتها بتدنيس جسمها أو تلويث تاريخها بشيء من المحرمات والمنكرات ومن نظر الى حالتها الآن بأسف ويبكي على ما وصلت اليه من الانحطاط الأدبي والديني . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

حديث حرمة وطء الحائض

قال رسول الله ﷺ : « الحائض يتجنب منها زوجها مكان دم وله ما وراءه .

من الاشياء التي حرّمها الرسول محمد (ص) - كذلك - للوقاية من الامراض وطء الحائض . وقد اكتشف الطب حديثاً فلسفة تحريم وطء الحائض . ذلك ان افرازات الجسم على نوعين : نوع له فائدة في الجسم مثل الافرازات التي تساعد الهضم أو التناسل ، أو افرازات داخلية تنظم أجهزة الجسم ، وهذا النوع ضروري للحياة وليس فيه ضرر . ونوع ليس له فائدة ، بل هو بالعكس يجب طرده من الجسم الى الخارج وهو مكون من مواد سامة إذا بقيت في الجسم أضرت به ، وذلك مثل البول والبراز والعرق والحيض . . . الخ .

وهذا الحديث معجزة علمية للإسلام لأنه علم الإنسان قبل أن يعرف شيئاً من أنواع الافرازات ان الحيض أذى وأنه لا يفيد الجسم . وقد منع الطب مخالطة المرأة في زمن الحيض لأنه ضار بالزوج والزوجة كليهما . فهذا الدم الفاسد يحوي ميكروبات عديدة وجراثيم متنوعة لا تلبث أن تصيب الرجل فتحدث له الالتهابات كما أنه في زمن الحيض تحتقن أغشية المرأة الداخلية وفي المخالطة قد يحدث لها التمزيق فتتشر العدوى من الميكروبات الموجودة وتنتقل من مكان الرحم الى أماكنها أبعد مما يؤثر في صحة المرأة ويضرها ، كما أن الاختلاط ربما منع نزول الحيض كما يسبب كثيراً من الاضطراب العصبي . فانظر أيها القارئ كيف يسير الطب خلف الدين الاسلامي مهتدياً بهديه .

في الصوم

قال رسول الله ﷺ : « الصوم جنة » أي وقاية . كيف لا وهو حبس النفس عن الشهوات وغطاها عن المألوفات ، أما من الوجهة الطبية فانه يحفظ أعضاء

الجسم ظاهرها وباطنها من الامراض لأنه يحميها من التخليط الذي يضرها فضلاً عن أن نظام الأكل في وقتي الافطار والسحور لأكبر منشط للمعدة وواق لها من الادواء المختلفة .

واما من الوجهة الرياضية يكاد يكون خاصاً بالجهاز الهضمي وما يتعلق به من غدد وغيرها . وقد ظهر أن الصيام يفيد في حالات كثيرة وهو أهم علاج إن لم يكن العلاج الوحيد للوقاية من أمراض كثيرة ، فهو العلاج المستعمل للأمراض الآتية :
١ - اضطرابات الامعاء المزمنة والمصحوبة بتخمر في المواد الزلالية والنشوية وهنا ينجح الصيام وخصوصاً عدم شرب الماء بين الأكلتين ، وأن تكون بين الأكلة والاخرى مدة طويلة كما في صيام رمضان ، ويمكن أخذ الغذاء المناسب حسب حالة التخمر . وهذه الطريقة هي أنجع طريقة لتطهير الامعاء .

٢ - زيادة الوزن الناشئة من كثرة الغذاء وقلة الحركة ، فالصيام هنا أنجع من كل علاج ، مع الاعتدال وقت الافطار في الطعام والاكتفاء بالماء في السحور .
٣ - زيادة الضغط الذاتي ، وهو آخذ في الانتشار بازدياد الترف والانفعالات النفسية ، ففي هذه الحالة يكون شهر رمضان نعمة وبركة ، خصوصاً إذا كان وزن الشخص أكثر من الوزن الطبيعي لمثله .

٤ - البول السكري ، وهو منتشر انتشار الضغط ، ويكون في مدته الاولى وقبل ظهوره مصحوباً غالباً بزيادة في الوزن ، فهنا يكون الصيام علاجاً نافعاً ، إذ أن السكر يهبط مع قلة السمن ، ويهبط السكر في الدم بعد الأكل بخمس ساعات الى اقل من الحد الطبيعي في حالات البول السكري الخفيف ، وبعد عشر ساعات في اقل من الحد الطبيعي بكثير . ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات في الغذاء أهم علاج في هذا المرض حتى بعد ظهور « الانسولين » ، خصوصاً إذا كان الشخص يزيد عن الوزن الطبيعي ولم يكن هناك علاج لهذا المرض قبل (الانسولين) غير الصيام

- ٥ - التهاب الكلى الحاد والمزمن المصحوب بارتشاح وتورم .
 - ٦ - أمراض القلب المصحوبة بتورم .
 - ٧ - التهاب المفاصل المزمنة ، خصوصاً إذا كانت مصحوبة بسمن كما يحصل عند النساء غالباً بعد سن الأربعين . . .
- ورب سائل يقول : ولكن الصيام في كل هذه الحالات يحتاج الى إرشاد طبيب في كل مرض على حدته ، والصيام الذي كتب على المسلمين إنما كتب على الأصحاء . وهذا صحيح ، ولكن فائدة الصيام للأصحاء هي الوقاية من هذه الأمراض وخصوصاً الأمراض التي مر ذكرها . . . وهذه الأمراض كلها تبتدىء في الانسان تدريجياً بحيث لا يمكن الجزم بأول المرض . ومن المؤكد طبيباً أن الوقاية من كل هذه الأمراض هي في الصيام ، بل إن الوقاية فعالة جداً قبل ظهور اعراض المرض بوضوح ، وقد ظهر باحصاءات لا تقبل الشك أن زيادة السمن يصحبها استعداد للبول السكري وزيادة ضغط الدم الذاتي والتهاب المفاصل المزمن وغير ذلك ومع قلة الوزن يقل الاستعداد لهذه الأمراض بالنسبة نفسها .

في آداب الأكل

قال رسول الله «ص» : « لا آكل وأنا متكئ » . عند علماء اللغة كل من استوى قاعداً متمكناً . ويكون معنى الحديث أنه «ص» إذا أكل لم يجلس متمكناً كمن يريد الاستكثار من الطعام بل لا يأكل إلا ما يقتات به .

وعامة الناس تعرف المتكئ بمن مال في قعوده على أحد جانبيه ، فيكون المعنى إذا مال الانسان وقت الأكل لا يسهل انحدار الطعام في مجاريه ولا يسيغه هنيئاً .

كان بعض أصحاب رسول الله «ص» لا يأكل حتى يؤتى له بمسكين يأكل معه ، فأُتي يوماً برجل يأكل معه فأكل كثيراً فقال لحادمه لا تدخل هذا علي مرة

اخرى فقد سمعت رسول الله «ص» يقول : « المؤمن يأكل في معي واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء » .

يشير الى أن المؤمن من شأنه الزهد في الدنيا والاكتفاء بما يسد رمقه ويبلغ مقاصد الحياة فكأنه يأكل في معي واحد . أما الكافر فانه لشهره ونزوعه الى الاستئثار وحرصه على الاستكثار فكأنه يأكل في سبعة أمعاء . فكما ان الايمان حاجز عن مجارة الكافر في تكالبه على حطام الدنيا ، فهو بلا ريب وصف يتنزه عنه المؤمنون ويعافه المقربون قال تعالى : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام » . وقال عز وجل « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » . وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه . حسب ابن آدم لقيات يقمن صلبه فان كان ولا بد فاعلا فثلك لطعامه وثلك لشرا به وثلك لنفسه » وهذا لعمرى هو المبدأ الأساسي لعلم قانون الصحة .

في النظافة

سأورد هنا بعض الأحاديث الشريفة الحاثثة على النظافة شارحاً حكمها والنظافة - كما تعلمون - عماد الصحة وعنوان الرقي ، كما أن القذارة مطية الامراض وعلامة الانحطاط . قال رسول الله «ص» : « حق على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يوماً يغتسل فيه رأسه وجسده » . ولا شك أن الاغتسال من ضروريات الحياة لأن الغرض منه إزالة ما يعلق بالجسم من الافرازات الجلدية والمواد الدهنية التي تترسب بفنار الهواء وتلتصق بالبدن فتمنع التنفس الجلدي ، وإماطة تلك الاوساخ تجعل الانسان بمأمن تام من الامراض الجلدية ، بل وفي حصن منيع من العدوى بأي وباء لأن الادران هي محط رحال الجراثيم سواء كانت بنفسها أم بنقل الذباب لها . ومن فوائد الطهارة أيضاً انها تمنع الجسم فأيك لا يشعر بالنشاط بعدها .

ولغسل كل عضو فائدة خاصة به وبمجموعها تم الفائدة للجسم كله ، فمن ذا

الذي ينكر أن نظافة العين أس جمالها وسلامتها من الامراض التي قد تفقدها غالي البصر . أو من ذا الذي يجادل في أن نظافة الانف وقاية ضد أمراضه وأمراض التنفس ؟ كما أن نظافة الفم تساعد على انتظام عملية الهضم وتمنع أمراض المعدة والامعاء . ومن ذلك تظهر الحكمة في النص الاخير للحديث : « يغسل فيه رأسه » وأيضاً السبب في فرض الوضوء عدة مرات يومياً ، والوضوء نظافة لأعضاء الجسم الرئيسية .

لهذا ولأن المجتمعات العامة كصلاة الجمعة تقتضي النظافة التامة ، فقد طالب المرشد الحكيم «ص» في هذا الحديث بالاعتسال بنوع من التأكد .

وقال المولى جل وعلا : « إن الله يحب المتوازين ويحب المتطهرين » فقرن سبحانه وتعالى المتطهرين بحبه وخصهم بذلك الفضل الكبير إعلاءً للنظافة وتعظيماً لشأنها ليقبل الناس عليها .

فعليكم بالنظافة امثالاً لأمر دينكم الحنيف وقياماً بواجب المحافظة على الصحة التي هي أثمن مرتجى .

وقال رسول الله «ص» : « الغسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم وأن يستن وأن يمس طيباً إن وجد » . أما الغسل فقد سبق الكلام عليه ، وأما مس الطيب فقد قرن بشرط الوجود للتسهيل والتيسير ، وأما الاستن فهو ذلك الأسنان بالسواك وفيه قال رسول الله «ص» : أيضاً « لولا أن أشق على امتي لأمرتهم بالسواك بعد كل صلاة » .

والسواك عود من خشب شجر الاراك له ألياف دقيقة تستعمل لتنظيف الأسنان من فضلات الطعام التي تسبب العفونة والتسويس ، فيتسنى للأسنان على الدوام أداء وظيفتها التي خلقت لها من المضغ واسالة اللعاب فتبتدىء عملية الهضم بانتظام ، ويمنح الفم أيضاً نكهة طيبة . ولو نظرنا اليه من الناحية الطبية لوجدنا هذا

النبات يتكون كيميائياً من ألياف السيليلوز وبعض الزيوت الطيارة ، وبه راتنج عطري وأملاح معدنية أهمها « كلوريد الصوديوم » وهو ملح الطعام وكلورين البوتاسيوم و (اكسالات الحجير) .

فالسواك فرشاة طبيعية زودت بأملاح معدنية ومواد عطرية تساعد على تنظيف الاسنان . فزى النبي (ص) وأصحابه قد استعملوا فرشاة الاسنان الطبيعية منذ قرون حينما استعمل الناس الفرشات لتنظيف أسنانهم لأول مرة حوالي سنة « ١٨٠٠ » م . هذا وإن الانسان إذا أهمل تنظيف أسنانه سرى فيها الفساد والتسوس وأفرزت السموم التي يمتصها الجسم وتسبب أمراضاً كثيرة . ذكرنا هذه النبذة عن السواك هنا استطراداً لتعلقها بالغرض وإلا فقد أسهبنا البحث عنه في الموضوع المتقدم تحت عنوان (الطب وأثره في الاسلام) فلاحاجة لاعادة ذكره قال الدكتور الحاج أحمد عارف الوديني في مدح السواك :

ومن السواك أجل غم يحتنى لمن استقر به عضال الداء
تتقى به الاسنان من ادراكها إن السواك لها أجل نقاء
وبه شذاً يغدو به الفم عطرأ كالزهر وسط الروضة الغناء
وتزيل عنها مادة حجرية كانت بها كالصخرة الصماء
لولا المشقة كان فرضاً لازماً اكرم بها من شرعة سمحاء

ويذكرني استعمال السواك بما حصل للعرب في فتح مصر كما هو مدون في التاريخ . لما حاصر المسلمون الاسكندرية مدة طويلة واستعصى عليهم دخولها كتب عمرو بن العاص يستشير عمر بن الخطاب في الامر ، فرد عليه قائلاً لعلمكم تركتم احدى السنن فتبصروا في الامر فوجدوا أنهم لا يستأكون فاستأكوا فجاءهم الفتح المبين وألقى الله الرعب والفرع في قلوب أعدائهم فسلموا اليهم صاغرين . ولنتقل الى قوله «ص» : « إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الاناء ، وإذا

أتى الخلاء فلا يمس ذكره يمينه ولا يمسح بيمينه » .

النهى عن التنفس في إناء الشرب للمبالغة في النظافة إذ قد يخرج مع النفس في الزفير ما يخالط الشراب من اللعاب أو من غاز ثاني أكسيد الكربون الذي هو سم مضمّن للجسم . وربما يغص الشارب عند تنفسه لامتزاج النفس والشراب وعدم وجود الهواء الكافي لعملية التنفس .

وكذلك كانت عادته «ص» في شرب الماء ، فانه كان إذا شرب تنفس ثلاثاً بأن يبين الاناء عن فمه ثم يتنفس خارجه ثم يعود ، فان ذلك أروى وأمرأ وأبرأ . نعم إن ذلك أقمع للعطش وأقوى على الهضم وأجل أثراً في تبريد المعدة وأضعاف الأعصاب .

وأما القسم الثاني من الحديث فيفهم منه وقت قضاء الحاجة اجتناب استعمال اليد اليمنى تشريعاً لها وصوناً عما به أذى ، إذ بها تتناول الطعام ونصافح الأحباب فهي جديرة بالعناية في المحافظة على نظافتها .

قال رسول الله (ص) : « إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله ثلاثاً أو لاهن بالتراب » . والمبالغة في الغسل من الوجهة الصحية لأنه ثبت بالفحص أن لعاب الكلب يحتوي على جراثيم - ميكروبات - لو امتزجت بما في الاناء من شراب أو طعام ووصلت الى باطن الانسان لتولد منها نوع من الديدان أو نجم عنها أحياناً داء الكلب والحكمة في استعمال التراب لأن مواده تحتوي على « النشادر » التي تبديد تلك الجراثيم وتستأصلها .

ألا تعلمون أن « النشادر » إذا دهن بها مكان لدغ العقرب سلم المصاب به من التسمم . ولنفس السبب يستعمل الفلاحون الطين يلطخون به موضع لدغ النحلة وغيرها .

الكلاب وأخطارها

قليل من الناس الذين يعرفون الأخطار التي تتعرض لها حياة الانسان من مساكنة الحيوانات الأليفة التي اعتادت عليه فأمن لها وأمنت له . والواقع الذي لا شك فيه هو أن ثلاثة أرباع الأمراض الحيثة التي يصاب بها الانسان تنشأ في جسمه من المكروبات القتالة التي تندس فيه من كلب أو سنور أو غيرها من الحيوانات التي يقترب منها وتقترب منه .

وقد أدركت الحكومات الراقية ما شرعه الاسلام وأوضحه من أخطار هذه الحيوانات فحذرت الانسان منها وعلمته كيف يتقي أخطارها بقدر الامكان إن لم يستطع الاستغناء عنها تماماً . وقد قرأنا في المجلات والصحف مرات عديدة أن على جدران الدوائر العمومية في اوربا وأميركا صور الحيوانات الأليفة وقد كُتب فوقها بخط عريض عبارات التحذير منها والابتعاد عنها ووصفها بكونها ألد أعداء الانسان وبلغ جهل أخطار هذه الحيوانات في الناس أنهم يسمحون لها - لا سيما للكلاب والقطط - بالنوم في أسرّتهم وبجانب أولادهم جاهلين أنهم بهذا العمل يضعون الموت بجانب أولادهم بما تنفثه هذه الحيوانات في وجوههم من المكروبات القتالة ربما يسري الى جسوم الأولاد من جسوم الحيوانات من الاوبئة الجلدية كالجرب وغيره بواسطة الاحتكاك وانتقال جراثيم الامراض السريعة العدوى . وأشد الحيوانات الأليفة خطراً على الانسان هي الكلاب والقطط . وبجنا هذا بنوع خاص في الكلاب وأخطارها وقد أخذنا هذه المعلومات الصحية عن اختبارات كبار رجال علم الطب في العالم الراقى الاميركي بعد أن ارتشفناها من نور الاسلام ، وهي ولا شك معجزة علمية للاسلام سبق بها الطب الحديث الذي اثبت أن الكلاب تنقل كثيراً من الامراض الى الانسان .

وإذا استنصب الانسان الحياة بدون كلب في بيته مثلاً . فليعلم أن حياته

أثمن وأُنفع له ولغيره من حياة كلب . ومن الجهل الفاضح أن يعرض الانسان حياته وحياة عائلته لخطر الموت من أجل سلواه بماشرة كلب أو أي حيوان آخر للكلاب مرض خاص حيث اسمه مرض الدود ، فإن الدود الصغير سريع النمو وكثير العدد في الكلاب ، وينشأ فيها من أكل الهوام والحشرات كالبراغيث والعت والعناكب والذباب . وهذه الهوام كلها سموم وجراثيم ، أو بثة خبيثة محمولة من الاقذار والجيف المنتنة التي تتغذى بها أحياناً كثيرة . وبرغوث واحد يأكله كلب كاف لامتلاء جسمه كله بمكروبات هذا المرض الخبيث ولجمل أمعائه وكل أعضائه الداخلية تعج بالدود الصغير الذي قلما يزول إلا بموت الكلب ودقنه في مكان لا تصل اليه بقية الحيوانات .

والكلب المصاب بمرض الجراثيم الدودية يعدي سواء حتى بأفأسه ، والناس عادة يقبلون الكلب في وجهه وفمه ويسمحون له بتقبيلهم ولحس وجوههم ووجوه صغارهم ، ومنهم من يطعمه بيده ويدخل أصابعه الى فمه ويسمح له بالنوم في فراشه غير عالم بأنه يعرض نفسه للموت السريع بهذا العمل الفظيع القذر .

ولو أن الحكومات تأمر الناس بالابتعاد عن الكلاب وتمنع تربيته وتقتلها كما تفعل في أحيان اشتباهاها بمرض الكلاب فيها لأحسن صنعاً وتوفر عليها وعلى شعبها أهم أسباب الموت الذي يجهل الناس أسبابه وزادت في رفاهيته وسعادته ، لأن السعادة تنتج أو ينتج أهم أسبابها من حسن الصحة العمومية وبمد الناس عن الامراض إن للأمراض الخبيثة في الكلاب اعراضاً لا تخفى على الناظر ، ولكن من الأمراض الخبيثة ما لا إعراض لها في بدايتها ولا يشبه بها أحد ، فتعدي أسيادها بدون أن يشعروا وقبل ظهور الاعراض عليها . ولهذا سواء ظهرت اعراض المرض في الكلب أو لم تظهر فخير لنا إبعاده عنا إذ لا فائدة لنا منه . والرجل الذي لا يستطيع أن يحرس مواشيه أو يته بنفسه فماذا تفيد الكلاب ؟ وإذا استغنى

الانسان عن الكلب يتحول قسم كبير من عناية الكلب وانتباهه اليه بدلاً من أن يتمكن في كل شأن وعمل على كلبه .

واعراض المرض في الكلب أنه يصاب بإسهال دائم وضعف عزيمة وخوار وفقد شهية الأكل وسوء هضم وفقد النعومة في الشعر .

وأجربة الكلاب التي تصاب بهذه الأمراض تصاب باضطرابات وضيق نفس وحك جلدها وتركض من مكان إلى آخر باضطراب وتصرخ بدون داع من الألم وأهم نقل هذه الأمراض إلى الانسان : أكل اللحوم غير الناضجة على النار لا سيما لحوم الخنازير التي تعيش على الأقدار والأوساخ والحشرات ، وجراثيم الدود تنتقل من الكلب إلى الخنزير والانسان بسهولة وسرعة غريبتين ، وتدخل إلى الانسان من فمه ومن عينيه بواسطة أنفاس الكلب ، ومتى تكاثرت تتجمع في الأمعاء .

وقد صوّرت هذه الجراثيم في أمعاء كلب فوجدوها تبيض بيوضاً صغيرة لا تكاد تُرى بالعين المجردة ويبلغ مجموعها أكثر من ٤٠ مليون بيضه كلها تنقف وتوالد وتكبر وتسمو حتى تقتل الجسم كله .

وللكلاب أيضاً مرض اسمه مرض الجرب وهو مشهور ينتج عن وفرة الأقدار والمكروبات على جسمه ، وتغلغل البراغيث والبق الجربي فيه . وهذا ما يشاهد كثيراً في الكلاب . فإذا أُصيب الكلب بمرض الجرب فقتله يقي العائلة كلها من عدوى هذا المرض وجراثيمه المنقولة عنه بواسطة البراغيث والبق والبرغش والقمل وللجرب جراثيم تتولد على سطح الجسم فتأكله وتسقط عنه الشعر وتفسده وتدخل إلى داخله فتقتله .

أما الادوية المستعملة لشفاء الكلاب من أمراض الدود فكثيرة منها المسهلات القاتلة لجراثيم الدود . وعندنا أن أفضل دواء لشفاء الكلب من أمراضه ومنع سرعان المرض إلى سائر أفراد العائلة هو قتله أو إبعاده عن البيت إلى حيث يموت

وحده وتموت معه كل جرائم مرضه .

وإتنا ندهش من الانسان الذي يعرف شدة أخطار الكلاب والقطط والحتاير عليه وعلى أفراد عائلته كيف يسمح لها أو لنفسه - بعد أن يعرف ذلك - أن تقترب منه أو يقترب منها وهو المعروف بأنه الحيوان الراقى الذي يمتاز عن أخيه الحيوان المنحط بسعة العقل والادراك والانتباه والحذر ، وإن لم يكن كذلك يفقد كل حق يدعيه للتفوق على الحيوان الذي يدب على أربع .

جاء في مجلة « كوسموس » الألمانية تحت عنوان « الاخطار التي تنشأ عن اقتناء الكلاب أو الاقتراب منها » للدكتور « جرار فنتسمر » قوله : « إن ازدياد شغف الناس باقتناء الكلاب في هذا العهد الاخير يضطرنا الى لفت الانظار للاخطار التي تنجم عن ذلك ، وخاصة إذا دفع اقتناؤها الى مداعبتها وتقبيلها والسماح لها بالاحس أيدي أصحابها وتركها تلعبها فضلات الطعام من اوانيها » .

« فكل ما ذكر مع نبوه عن الذوق السليم ، ومنافاته للآداب لا يتفق وقوانين الصحة . فان الاخطار التي تهدد صحة الانسان وحياته بسبب هذا التسامح مما لا يستهان به ، فان الكلاب تصاب بدودة شريطية تتعدها الى الانسان وتصيبه بأمراض عضالة قد تصل الى العدوان على حياته » . وقد ثبت أن جميع أجناس الكلاب حتى أصغرها حجماً لا تسلم من الإصابة بهذه الديدان الشريطية .

وأثبت الدكتور (نولر) من تشريح الجثث بألمانيا أن الاصابات الآدمية بقروح دودة الكلاب قد لا تقل عن واحد في كل مائة . « وقد رؤي في اقليم « فريزلند » بهولندة حيث تستخدم الكلاب في الجر أن في كل مائة منها ١٢ إصابة . ووجد في « اسلانده » شخص مصاب بهذه الآفة في كل ٤٣ شخصاً من أهاليها ، وشوهد أن هذه النسبة تزيد في استراليا إذ ثبت وجود شخص يصاب بها في كل ٣٩ شخصاً من سكانها ، وثبت كذلك أنها كانت سبباً مباشراً لكثير من

الامراض في الاقطار الاخرى .

« لذلك فيجب العناية بأمر الذبائح المنزلية فقد تكون مصابة بدودة الكلب ولا يعرفها صاحبها ولا القصاب المكلف بذبحها . » ثم يقول : « ومما يجب على الناس مراعاته عدم مداعبة الكلاب وتعويد الاطفال التوقي منها ، فلا تترك تلعب أيديهم ، ولا يجوز إبقاء الكلاب بمحال نزهة الاطفال وميادين رياضتهم ، ويجب أن لا تطعم الكلاب في الاواني المعدة لأكل الناس ، وأن لا يسمح لها بدخول متاجر المأكولات والاسواق العامة أو المطاعم ، وعلى وجه عام يجب إبعادها عن كل ماله صلة بما أكل الانسان ومشربه .

* * *

قال رسول الله (ص) : « الفطرة خمس . الحتان . والاستحداد . وقص الشارب . وتقليم الاظفار . وتنف الابط . »

المراد بالفطرة السنة التي اتبعها الانبياء وافتقت عليها الشرايع فكأنهم جبوا وفطروا عليها . والاستحداد استعمال الحديدية أي الموسي في حلق العانة . وفي التعبير به عن هذا المعنى مثال ناطق عن الادب والحياة وسلامة الذوق . وإذا تصفحنا هذا الحديث الشريف وجدناه جامعاً لكثير من وسائل تنظيف الجسم التي يتطلبها الاسلام من جميع نواحيها خفيها وظاهرها ، ووجدناه هادياً لما فيه منتهى كمال الانسان المميز عن الحيوان بالعقل ، فلو انك فصحت حشفة مختون وقت قطعها لرأيتها ملائياً يابس القاذورات التي لو بقيت وتراكت لسببت ألماً لصاحبها ، وربما تعوق مجرى البول أو تحدث به جروحاً . وفوائد باقي ما ذكر ظاهرة الحديث الآتي آخر ما أورده لكم في باب النظافة والحفاظة على الصحة والآداب العامة .

قال «ص» : « لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه . » الأصل في مشروعية النظافة إزالة الأقدار من الجسم فهل يليق بالعقل

أن يستعمل في اغتساله ماء تكدر بامتزاجه بالبول فيضيف النجس الى أرجاسه بدلاً من المتخلى عنها . فضلاً عن أن الاغتسال بالماء المبال فيه الموجود في حوض مثلاً ينتج كثيراً من الامراض الجلدية وغيرها ، لأن ذلك الوسط القذر مرتع خصب للجراثيم ومكان صالح لنموها زيادة عما به من كرية الرائحة وما يحصل للمغتسل فيه من الفتور والهبوط .

ألا تعلمون أن الحسكة (الجرب) وكذلك البول الدموي (البلهارزيا) المنتشر في بلادنا نتأج لمهوسة لاستعمال الماء القذر الملوث . فلو اننا اتبعنا أمر الرسول صلى الله عليه وآله وتباعدا عما نهانا عنه لتمتعتنا بالصحة وسلمنا من غائلة المرض .

* * *

والآن لتسكلم عن قوله (ص) « لا عدوى ولا طيرة . ولا صفر . وفر من المجذوم فرارك من الأسد » .

المراد به نفي ما كانت تعتقده الجاهلية من أن الامراض بطبعها لا بفعل الله تعالى . فنفى في أول الحديث العدوى بطبعها ونبه في آخره الى الاحتياط مما يحصل منه الضرر بفعل الله وإرادته .

والطيرة التشؤم والاستبشار برؤية الشيء والاعتقاد أن لذلك تأثيراً في القضاء والقدر . وكانت العرب في الجاهلية تنفر الطيور فإن سارت جهة اليمين تبركوا ومضوا في سفرهم . وإن أخذت ذات الشمال تشاءموا ورجعوا عن قصدهم فكانت تصدمهم في كثير من الاوقات عن مصالحهم . وذكرت الطيرة عند رسول الله «ص» فقال : (أحسنها الفأل ولا يرد مسلماً . فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت . ولا حول ولا قوة إلا بك .

وقوله «ص» : « ولا هامة » فيه تأويلان أحدهما التشاؤم إذا سقطت البومة على دار أحدكم زاعمين أنها بذلك تنعى موته أو بعض أهله . والتفسير الثاني أن

العرب كانت تعتقد أن عظام الميت أو روحه تنقلب هامة يطير فيفزع القوم لرؤيتها كما أنهم يرون شبح ميت .

وأحسن تفسير قرأته لقوله «ص» : « لاصفر » ان الجاهلية كانت تزعم أن في البطن دابة تهيج عند الجوع وربما قتلت صاحبها ، وأنها تنتقل بالعدوى من شخص الى آخر ، وجاء عن جابر وهو راوي الحديث ، وقيل أنه شهر صفر وكانوا يتشأمون بدخوله ولا يحاربون فيه متوهمين أن فيه تكثر الفتن فأبان (ص) خلال الجاهلية وفساد معتقداتها وبطلان عاداتها . الجذام مرض معد ، وتظهر اعراضه غالباً على الجلد وفي الأغشية المخاطية ويوجد ميكروبه في افرازات قروحه .

قال بعض الأطباء ان الجذام ينشأ عن أكل السمك غير الجيد ولا تبدو أعراضه إلا بعد التعرض للعدوى بشهور ، فيصاب المريض بحمى متردة تظهر بعدها بقع حمراء مرتفعة قليلاً ثم يزداد حجمها ، وأكثر ما تحدث هذه الارتفاعات في الوجه فتشوهه وتجعله يشابه ملاح الأسد ، ثم يصاب المريض بمضاعفات مختلفة نتيجة التعفن وتسبب الوفاة وقد يعيش المريض طويلاً .

وهناك نوع آخر من الجذام قد يؤدي الى شلل بعض الأعصاب وتقيص عضلات اليد وتصير كخلب الأسد . ومن ذلك يعلم حسن الاختيار للتشبيه في الحديث فكأن المجذوم يشبه الأسد في الخطر وفي الشكل أيضاً . وحمل الأمر باجتئاب المجذوم والفرار منه على الاستحباب والاحتياط لا للوجوب . فقد ورد عن جابر أن النبي صلى الله عليه وآله أكل مع المجذوم .

قال رسول الله «ص» : « الطاعون رجز ارسل على طائفة من بني إسرائيل - أو كان على من كان قبلكم - فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » .

الطاعون - نعوذ بالله منه - وباء يفسد الهواء فيفنى خلق كثير ، وهو ثلاثة

أنواع ، أكرثها شيعاً المسمى بالدملي . وأعراضه فتور وصداع وألم في الظهر ثم يظهر ورم في الفخذ أو الابط أو العنق ، وقد تظهر قروح في بعض البدن ، ثم تنتشر في سائر أجزائه ، فيتمكدر ما حول الورم باحمرار في اللون مائل الى السواد ويحصل معه خفقان القلب والقيء ، وقلما ينجو المصاب به .

ولم ينه «ص» عن الدخول على الطاعون والخروج منه مخافة أن يصيب الشخص غير المقدور ولكن مخافة الفتنة على الناس لئلا يظنوا أن هلاك القادم إنما حصل بقدومه وسلامة الفار إنما كانت بهروبه . فان كل ما يقع لا يكون إلا بقضاء الله وقدره السابق في علمه .

ولو علمت اوربا بهذا القانون الذي وضعه محمد (ص) وعملت به حين اجتاحتها الطاعون في أواسط القرن الرابع عشر الميلادي لحقت حينئذ الخسائر التي منيت بها في الأرواح . فقد قدر عدد الموتى الذين قضى عليهم هذا المرض بـ « ٢٥ » مليون نسمة .

وكان سبب انتشار المرض نقل التار له الى جنوب روسيا سنة (١٣٤٦) م وبدأ ينتشر حتى سنة (١٣٧٠) م - سنة (١٣٧٤) م فينما كان الطاعون يجتاح اوربا نفذت ميلانو والبندقية بعض قوانين صارمة نقلتها بعد ذلك جمهورية (راجوسا) وهذبتها فأنشأت المآوي بعيداً عن المدينة ليقم فيها القادمون المشتبه فيهم ، ليقوا معزولين لمدة ٣٠ يوماً ثم زيدت المدة بعد ذلك حتى صارت ٤٠ يوماً .

العين والرقية

يعتقد بعض الناس أن مسألة العين وهم بعيد عن الحقيقة وهذا اعتقاد فاسد لأن الأرواح خلقت فيها قوى وطبائع مختلفة وتأثيرها في الأجسام أمر مشاهد . ألسنت ترى احمرار وجه الرجل إذا صوبت اليه نظرة ممن هو أعلى منه مقاماً ؟ ، واصفراره عند نظر من يخافه ، ومهما تذرع الجرم برباطة الجأش فسرعان ما يظهر

على حيائه من علامات الاضطراب ما يتم على فعلته إذا فوجيء بمواجهة غريمه الى غير ذلك من الامثال التي تثبت تأثير الأرواح عند ما تتكيف النفس الرديئة برؤية ما تستحسنه لثبث جوهرها متخذة العين وسيلة لتنفيذ سيء اغراضها .

ولذلك أمر المولى سبحانه وتعالى رسوله الأمين أن يستعين به من شر الحاسد وقال «ص» : « العين حق » ، المراد به أن إصابة النفس عن طريق العين أمر قضت به الارادة الالهية بتحقيق لا يليق الظن ببطالانه مع العلم أن كل شيء متوقف في حصوله على مشيئة الله تعالى : « ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » . وقال «ص» : حين رأى جارية بوجهها سفعة في بيت ام سلمة : « استرقوا لها فان بها النظرة » .

السفعة صفرة في الوجه مائلة الى الاحمرار ، وقيل مس من الشيطان . ومعنى الحديث اطلبوا لها من يرقبها فان العين أصابتها . والمطلوب من الرقية ما كانت من كتاب الله تعالى أو أسمائه الحسنى أو صفاته المنزهة ، أو ما ورد على لسان المصطفى أو الأئمة الأطهار سلام الله عليهم أجمعين . كان «ص» إذا اشتكى رقا جبرئيل فقال : (باسم الله يبريك ومن كل داء يشفيك ومن شر حاسد وشر كل ذي عين) . وشكى عثمان بن أبي العاص الثقفي وجماً في جسده الى رسول الله «ص» فقال له «ص» : (ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل باسم الله ثلاثاً وقل سبع مرات أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد واحاذر) . وكان «ص» إذا أتى مريضاً قال : « أذهب البأس رب الناس . اشف وأنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك . شفاء لا يغادر سقماً » .

الحث على العلاج

قال «ص» : « ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً » حتى لا يتوانى مريض عن مداواة نفسه مهما اشتد به المرض ، وعليه أن يأخذ بالأسباب محسناً الظن بالمسبب

الحقيقي وأن الذي خلقه وسواه القادر على كشف ما به ابتلاه ، ويعزى عدم شفاء بعض المرضى الى واحد أو أكثر من الأمور الآتية .

« أ » إزمان المرض باهمال علاجه في بدء ظهوره .

« ب » التهاون في اتباع ارشادات الطبيب خصوصاً في الغذاء ومواعيد الدواء

« ج » خطأ الطبيب في تشخيص الداء أو اختبار الدواء .

« د » قرب انتهاء العمر ودنو الأجل .

يقول ابن الرومي :

والناس يلحون الطبيب وإنما غلط الطبيب إصابة الأقدار

قال تعالى : (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) . وجاء عن جابر أن رسول الله (ص) قال : (لكل داء دواء فإذا أصاب دواء الداء برأ باذن الله تعالى - أصاب أي تحققت معرفته في الكيفية والكمية . ويؤخذ منه أن التداوي لا ينافي التوكل وإنما يعتمد الانسان أن الداء لا يشفي بذاته بل باذن الله تعالى وتقديره .

بعض طرق العلاج

قال «ص» : (الحمى من قيسح جهنم فأبردوها بالماء) . والاطباء يسلمون بصحة ذلك لأن أغاب أنواع الحميات يداوى صاحبها بسقي الماء البارد لما يحدثه من الانعاش وادرار البول وغسل الانسجة مما يتجمع فيها من الافرازات السامة ، وتغسل أطراف المحموم بالماء وتعمل له الكمادات على جبهته أو حمام للجسم كله بالماء البارد

العلاج بالأدوية

كان رسول الله (ص) يداوي نفسه ويأمر بذلك لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه ، وقد كان غالب أدويته مفردة لا مركبة لأنه متى أمكن التداوي بالغذاء

فلا يعدل عنه الى الدواء ، ومتى أمكن بالبسيط فلا يعدل الى المركب ، ولا ينتفع بطب النبوة إلا من تلقاه بقبول حسن واعتقد الشفاء به ، ولكن الناس في هذه الايام أعرضوا عن طب النبوة اعراضهم عن الاستشفاء بالقرآن وليس ذلك لقصور في الدواء ولكن حبث الطباع وهو القلوب عما ينفعها بانشغالها وتعلقها بامور الدنيا

ال مداواة بالعسل

عن أبي سعيد أن رجلاً أتى النبي «ص» فقال : « ان أخي يشكي بطنه » فقال «ص» : ﴿ اسقه عسلاً ﴾ ، ثم أتاه الثانية فقال ﴿ص﴾ : ﴿ اسقه عسلاً ﴾ ثم أتاه الثالثة فقال ﴿ص﴾ : ﴿ اسقه عسلاً ﴾ ، ثم أتاه فقال : فعلت يا رسول الله ، وما زال فقال ﴿ص﴾ : ﴿ صدق الله وكذب بطن أخيك ، اسقه عسلاً ﴾ فسقاه فبرأ فدأوى الاسهال بالمسهل لطرد الاخلاط الفاسدة من المعدة والامعاء حسب أصول الطب .

أليس الزحار « الدوسنتاريا » يعالج بمزيج كبريتات الصوديوم المسهل . ونلاحظ أنه لما تكرر استعمال الدواء قاوم الداء فأزاله . واعتبار كميات الأدوية وكيفياتها من أكبر قواعد الطب . والعسل المقصود في الحديث هو عسل النحل الذي يجمعه من الازهار ثم يضعه في الخلايا التي يبنيها . وإذا ضربنا صفحاً عن المواد المختلطة به كالشمع والمواد التي تنكسب الرائحة والمواد الملوثة فهو عبارة عن محلول أنواع من السكر أشهرها سكر العنب ﴿ الجلوكوز ﴾ وسكر القصب وسكر المن . والموجود منها بمقدار أكبر في العسل هو سكر العنب الذي يحترق في الدم كبقاى أنواع السكر الى حمض « كربونيك وماء » . والكميات الكبيرة منه تزيد ضغط الدم والبول . وفي هذه الحالة ينفصل جزء من ﴿ الجلوكوز ﴾ على حالته بدون تغير . أما الآية الكريمة التي يعنيها صدر الحديث بقوله : ﴿ صدق الله ﴾ فهي قوله تعالى : ﴿ وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما

يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴿١﴾ .

العسل يقوي البدن ويحفظ الصحة ويسمن ويطرد البلغم لأنه يطهر ما بالرئة من أوساخ ، وإذا اخذ منه مقدار أوقيتين أحدث اسهالاً خفيفاً وغسل البطن فخرج ما في المعدة والامعاء من أذى ، وقيل إنه نافع للفالج وكل الأمراض الحادثة من الرطوبة لأنه يولد في الجسم حرارة . ويستعمل العسل سواغاً في تحضير بعض الأدوية مثل معسل بصل العنصل المفيد للسعال ، وأيضاً لتحلية الطعم وحفظ بعض المحضرات من الفساد كالغراغر ويستعمل من الظاهر مخلوطاً بالدقيق ك لصقة الدمامل وأورام الغدد خصوصاً في احتقان اللوز .

وقد يقال : وما أهمية هذه الآية القرآنية التي قررت أن (فيه شفاء للناس) مع أن كل أنواع الأغذية لها فوائد ، وقد ذكر العسل لأنه غذاء لذيذ الطعم وبطريق المصادفة . والجواب على ذلك : أن أنواع الغذاء الأخرى لا تستعمل كعلاج إلا فيما ندر من الأمراض الناشئة عن نقصها في الغذاء فقط . وهذه الفواكه التي تشبه العسل في الطعم فإن السكر الذي فيها هو سكر القصب أو أنواع أخرى ، ولكن ليس فيها إلا نسبة ضئيلة من « الجلو كوز » الذي هو أهم عناصر العسل . وإن القرآن لم يذكره بطريق المصادفة ولكنه معجزة من معجزات القرآن التي قررهما منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً عند ما كان لا يعرف شيء عن مركبات العسل ولا أن الجلو كوز سيستعمل دواء لكثير من الأمراض .

حديث الحجامة والعسل والكي

قال رسول الله «ص» : « إن كان في شيء من أدويتكم خير ففي شربة محجم أو شربة من عسل أو لذعة بنار . وما أحب أن أكتوي » ، وفي رواية

« أو لذعة بنار توافق الداء » . هذا تابع لاصول الطب لأن الامراض إما أن تكون دموية أو غير دموية . فان كانت من القسم الاول فشفافوها بإخراج الدم بالحجامة من جزء مناسب من الجسم مثل ابتداء الاصابة بالفالج أو ضغط الدم نتيجة امتلاء الشرايين به وما ينتج عنه من الاحتقان في المخ وغيره . وإن كان المرض غير دموي فعلاجه يكون باعطاء مسهل مثل العسل وقد تكلمت عن فوائده في الحديث السابق لأنه لا يستعمل إلا عند عدم نفع الادوية المشروبة ونحوها فأخر الطب الكي وقوله «ص» : « وما أحب أن أكتوي » إشارة الى تأخير العلاج بالكي حتى يضطر اليه لما فيه من استعمال الألم الشديد لطرد ألم قد يكون أقل من ألم الكي

حديث الحجامة والقسط

قال (ص) : « إن أمتل ما تداوitem به الحجامة والقسط البحري » .
أمتل : أي أفضل ، والحجامة أنجع طرق العلاج للعرب وسكان المناطق الحارة لأن إخراج الدم الى ظاهر البدن يفيدهم كثيراً .
لقد استعرضنا حديث الحجامة في رسالة الامام الرضا «ع» فراجعته في مظانه

وأما القُسط

وأما القُسط فقد بحثت عنه في كتاب عمدة المحتاج في علمي الادوية والعلاج وغيره من الكتب فعلمت أن للقسط فوائد قيمة ارتبها لكم ملخصة فيما يأتي :
أصل اسم القُسط سرياني نقل الى العربية وتثبت أكثر أنواعه في بلاد الهند وأحسنها المسمى بالعربي أو البحري . والسبب في تسميته بالعربي . أن العرب هم الذين كانوا مختصين بالتجارة واستحضاره من بلاد الهند الى الاقطار الاخرى فسمي باسمهم . والسبب في تسميته بالبحري انه ينبت أيضاً في بعض جزر الهند التي يحفها البحر من جميع الجهات .

طعم القسط : حريف كالتوابل لاذع قليلا للسان مصحوب بمرارة وتحذير قليلين
الرائحة : عطرية تجمع بين راحتي الزنجبيل والبنفسج .

استعماله وفوائده : كان القدماء يعتبرونه طارداً لجميع الجراثيم وبالأخص
في الحميات ، ولذلك جمّله في أغلب محضراتهم مثل الترياق وغيره ، ونظراً لرائحته
الزكية استعمله الرومان واليونان والهنود في تبخير معابدهم وهياكلهم لتجميل رائحة
الهواء وأيضاً لمنع عدوى الأمراض والأوبئة بين الجماهير المحتشدة للعبادة في تلك
الاماكن لأن فيه خاصية التطهير . ولكثرة منافعه اقسامها الى ثلاثة أقسام :

أولاً : الاستعمال الباطني مقوِّ عام وبالأخص للمعدة ، وإذا أُغلي بالماء فإنه
يفيد السيلان ويدر البول والطمث ، وإذا طبخ بالعسل المصق « بعد نزع رغوته »
فانه يطرد البلغم ويشفي ضيق النفس وأوجاع المعدة والكلى والكبد ، وقيل انه يفت
الحصاة وأيضاً يقوّي الباه .

ثانياً الاستعمال الظاهري : إذا ذر مسحوقه على الجروح جففها مع زيت
الزيتون مروحاً - دهاناً بالتدليك - في أمراض الصدر وأمراض الرحم ومرض
الفالج « الشال » وعرق النساء ، ومعجونه بالخل والعسل والقطران يذهب الكلف
والنمش ، وتقطير دهنه في الاذن يسكن ألمها ، ويحدث اجهاضاً للحامل إذا لبسته .
ثالثاً : استنشاق بخوره يقطع الرشح ويشفي الزكام ، ويسكن أوجاع المفاصل
وللسبب الأخير تبخر به النفساء عند العرب .

وفي جمعه «ص» بين الحجاماة والقسط سر لطيف لأنه إذا طلي به شرط
الحجاماة لم يتخلف في الجلد أثر لها ، ذلك الأثر الذي تنفر منه الطباع ويظن من
رآه أنه بهق .

وقال «ص» : « عليكم بهذا العود الهندي فإنه فيه سبعة أسقية . يسهط به
من العذرة ، ويلد به من ذات الحنّيب .

المراد بالعود الهندي . القسط . ويلد : أي يأخذ باليديين وهما جانباً الفم .
أما السبعة الأشفية فقد ذكرت لكم فوائد القسط في الحديث السابق ولم يذكر منها
في هذا الحديث سوى اثنتين . ولعل اختصاراً من الراوي أو لوجود هذين المرضين
وقته دون غيرها . والسعوط ما يسمى عند العامة « بالنشوق » والعذرة وجع في
الحلق تتأذى منه اللوزتان .

ذكر مسلم في صحيحه عن جابر أن رسول الله «ص» دخل على عائشة
وعندها صبي يسيل أنفه فقال : ما هذا ؟ قالوا : انها العذرة ، فأمر (ص) له بالقسط
يحك ويسعط به ففعلوا فشفي .

أما مرض ذات الجنب فهو نوعان حقيقي : وهو ما يسمى بالالتهاب البلوري ،
وغير حقيقي : وهو الالتم الذي يكون في الجانبين أو أحدهما من الخارج أو ما يسميه
الاطباء آلاماً روماتيزمية في العضلات .

وفي كتب الطب القديمة : أن العلاج في الحديث الشريف بالقسط إنما هو
لنوع الثاني إذا خلط بالزيت وذلك به أو أخذ لعوقاً كان أنفع شيء في ذلك .

حديث الحبة السوداء

قال رسول الله (ص) : (إن هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام)
السام : المرض الذي يكون فيه هلاك الجسم وهو الموت ، كما أن السم إذا احتسأه
امرؤ هلك . وذكر أغلب المحدثين في تفسير هذا الحديث ان المراد من كل داء بارد
فالعوم نوعي . والله ورسوله أعلم .

بقي علي أن أذكر شيئاً عن الحبة السوداء فأقول : اسمها أيضاً شونيز أو حبة
البركة ، وهي معروفة ذات رائحة خاصة وطعم حريف عطري ، وتنبت في بلاد
فارس والهند وصعيد مصر .

استعملها : تستعمل في بعض البلاد كأحد التوابل فتوضع بعد دقها في الفطائر

لتصير مقبولة وتكسبها طعماً عطرياً ويسهل هضمها في الأقاليم الحارة . واستعمال الحبة السوداء معروف قديماً لأنها مذكورة في بعض الكتب المقدسة .
فوائدها الطبية « باطنياً » :

« ١ » طاردة للبلغم شافية للنزلات الصدرية المزمنة وبالأخص إذا استخرج زيتها بالسحق واخذ منه قدر نصف ملعقة صغيرة على فتجان من القهوة صباحاً ومساءً ، ولا يؤخذ عقب ذلك طعام أو شراب إلا بعد مضي ساعتين على الأقل .
« ٢ » تحلل الاخلاط الضارة وتخرجها من الجسم ، ويحسن مزجها بالعسل الأبيض وزيت الزيتون .

« ٣ » وقيل ان شربت بماء وعسل تقطت الحصاة .

« ٤ » وإذا عجنت بماء الشيخ اخرجت الديدان من البطن .

« ٥ » وهي أيضاً ترياق الجراثيم كثيرة حتى أن دخانها يطرد الهوام .

« ٦ » كثرة استعمالها تدر البول والطمث والبلن .

« ٧ » وإذا شرب زيتها مع الكبد والزنجبيل تعيد الشهوة للكهول .

« ٨ » ويعمل معجون منها مع نباتات غيرها تستعمله النساء للتقوية وفتح الشهية

والسمن وبالأخص أيام النفاس .

وأما فوائدها إذا استعملت من الظاهر فهي كما يأتي :

« ١ » تستعمل مع غيرها من العقاقير في بعض الامراض الجلدية ولتحليل الاورام

« ٢ » وإذا قليت وصرت في خرقة وشمّت باستمرار شفت الزكام .

« ٣ » وإذا نقعت في الخل يوماً ثم سحقت واستنشقتها المريض سعوياً أبرأت

آلام الرأس المزمنة .

« ٤ » وإذا أغليت في الخل مع رؤوس الحشخاش والقرنفل واستعملت غسلاً

للأسنان « مضغطة » منعت وجعها الناشيء من البرد .

الحلبة

قال رسول الله «ص»: «استشفوا بالحلبة»، إذا أغليت الحلبة بالماء تلين البطن وتقوي الجسم وبالأخص المعدة وتطرد البلغم من الصدر وتسكن السعال، ومفيدة للكبد والقلب أيضاً وتحلل بعض الأورام - وما أحسن قول أحد الأطباء: «لو علم الناس منافع الحلبة لاشتروها بوزنها ذهباً».

زيت الزيتون

قال رسول الله (ص): «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة». أجود الزيت ما عصر من الزيتون الناضج، وكثيراً ما يغش بزيت أخرى بخسة الثمن كزيت بذر الفطن، ويمكن كشف ذلك بالتحليل الكيماوي، منافع زيت الزيتون: ملين لطيف ومطهر للأمعاء ومفيد للكبد ويزيل احتقانها، ويخفف الذبحة الصدرية ويغذي الجسم ويسمن، ويدخل في تحضير أغلب الدهون الطبية. فمثلاً يمزج بماء الجير لعلاج الحروق، وإذا اذيب الكافور في زيت الزيتون تـكوّن زيت الكافور الذي هو أحسن وأبسط دهان لحالات الرطوبة والرضوض.

ومن الأدوية النبوية التي كان يستعملها عليه الصلاة والسلام.

السناء والحناء

ورق السناء وأفضله المكي: مسهل يطرد ما في المعدة من أوساخ. ويمنع ما ينتج عن الامساك من الأمراض مثل الصداع وفقد الشهية والقيء والطفح الجلدي وأحسن استعمال له أن ينقع - بعد إزالة ذنبياته - في الماء المغلي ويصفى ثم يمزج بالعسل ويضاف إليه قليل من ماء النعناع لمنع المنعص.

الحناء

إذا وضع معجونها بالماء على الرأس أزال الصداع . وأيضاً تقوي أصول الشعر . وإذا خضبت بها الرجل سكنت آلامها ، وإذا ذرت على الجروح جففتها لأنها قابضة ، وتلطّف الحروق وتحلل بعض الأورام ، وإذا وضعت أزهارها بين طيات ثياب الصوف أكسبتها رائحة زكية وحفظتها من العثة .

هذه مجموعة صادقة وآيات ناطقة وحكم مروية عن خير البرية من بحر لا يسبر غوره . وحسبي أنني أدبت لكم بعض ما يجب علي نحو ديني وعلمي . فما أهدى امرؤ لأخيه أفضل من حكمة يزيده بها هدى أو يرده بها عن ردى . وأرجو أن تنفعوا بما سمعتم من القواعد الصحية التي كانت مشكاة للأمة العربية .



الخمرة ومضارها

وفلسفة تحريمها في شريعة الاسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيها إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ * « ١ » .

لفظ الخمر منقول من مصدر خمر الشيء بمعنى ستره وغطاه ، يقال خمرت الشيء إذا سترته ، وخمرت الجارية ألبستها الخمار وهو النصف الذي تغطي به وجهها وتخمرت هي واختمرت . والوجه في النقل ان هذا الشراب يستر العقل ويغطيه أو هو من خامره بمعنى خالطه ، يقال خامره الداء : أي خالطه ، ومثله خامر الشيء الشيء أو بمعنى التغير يقال خمر الشيء « كعلم » إذا تغير عما كان عليه ، والعصير يتغير فيكون خمرأ ، أو بمعنى الإدراك من خمر العجين ونحوه فاختمر : أي بلغ وقت ادراكه .

وقال ابن الأعرابي : إنه يقال سُميت الخمر خمرًا لأنها تركت حتى اختمرت واختارها تغير راحتها ، وجميع هذه المعاني ظاهرة في هذه الأشربة المسكرة كلها . والظاهر أن هذا الاطلاق حقيقي لا وجه للعدول عنه إلا أن يصح أن العرب كانت تسمي نوعاً خاصاً من المسكرات خمرًا لا تطلق اللفظ على مسكر سواء ، على أن الخمر ما اعتصر من ماء العنب إذا اشتد ، ويرده أن الصحابة وهم صميم العرب فهموا من تحريم الخمر تحريم كل مسكر ولم يفرقوا بين ما كان من العنب وما كان من غيره نزل تحريم الخمر يوم نزل وهو من خمسة : العنب والتمر والخنطة والشعير والذرة ، وكان هذا كل ما كان يعرف ، ولا شك أن غيره مثله ، وكذلك الأحاديث الصحيحة صريحة في ذلك منها ، قوله « ص » : « كل مسكر حرام » ، وقوله : « وكل خمر حرام » .

يقول المخصصون إن ما ورد في الحديث اصطلاح شرعي لا لغوي ، ونقول إن الذي انزل عليه الذكر ليعين للناس ما نزل عليهم قد بين لهم أن الخمر التي نهى الله عنها في كتابه هي كل مسكر فلا فرق في حكمها بين مسكر آخر ، وهذا البيان قطعي متواتر لأن العمل عليه . وفي الحديث : (ما أسكر كثيره فقليله حرام) .

قدم رسول الله (ص) المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر فسألوا رسول الله (ص) عنهما فأ نزل الله تعالى : ﴿ يسئلونك عن الخمر والميسر ﴾ الآية ، فقال الناس : ما حرم علينا وإنما قال : إثم كبير ، وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين أمّ أصحابه في المغرب فخلط في قراءته فأ نزل الله تعالى آية أغاظ منها : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان ﴾ « ١ » . إلى قوله فهل أنتم منتهون قالوا : ﴿ انتهينا ربنا ﴾ ، ولما نزلت شربها قوم وامتنع آخرون حتى نزلت آية المائدة .

قال رسول الله «ص» : اللهم بين لنا في الحمر بيانا شافيا فانها تذهب بالمال والعقل فنزلت هذه الآية ، ثم قال (ص) : اللهم بين لنا في الحمر بيانا شافيا فنزلت الآية التي في سورة النساء : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ (١) فكان ينادي رسول الله (ص) إذا قام الى الصلاة أن لا يقربن الصلاة سكران ، ثم قال «ص» : ﴿ اللهم بين لنا في الحمر بيانا شافيا ﴾ فنزلت الآية التي في المائدة فقرأها عليهم فلما بلغ الى قوله تعالى : ﴿ فهل أنتم متبهون ﴾ قالوا : انتهينا انتهينا . ويظهر من مجموع هذه الآيات أن القطع بتحريم الحمر والنهي عنها كان بعد تمهيد بالذم والنهي عنها في حال الصلاة ، وأوقات الصلوات متقاربة فن ينهي عن قرب الصلاة وهو سكران فلا بد أن يتجنب السكر في أكثر الأوقات لئلا تحضره الصلاة وهو سكران .

وفي هذا من الحكمة في التدرج بالتسليف ما لا يخفى ، والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب ان الله تعالى علم أن القوم كانوا قد ألفوا شرب الحمر وكان انتفاعهم بها كثيراً ، فعلم الله تعالى أنه لو منعهم دفعة واحدة لشق عليهم فلا جرم استعمل في التحريم هذا التدرج وهذا الرفق .

وقد ذهب بعض العلماء على أن الحمر حرمت بهذه الآية وأن ما أتى بعدها من قبيل التوكيد ، لأن لفظ الاثم يفيد المحرم قال تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبني بغير الحق ﴾ «٢» . ولكن ذهب الجمهور الى ان التحريم كان تدرجياً كما تقدم ، ولو فوجئوا بالتحريم مع ولع الكثيرين بها واعتقادهم منفعتها لحشي أن يخالفوا أو يستقلوا التسليف فكان من حكم الله تعالى أن رباهم على الاقتناع بأسرار التشريع وفوائده ليأخذوه بقوة وتقل

(١) سورة النساء الآية ٤٢ .

«٢» سورة الاعراف الآية ٣٣ .

﴿ قل فيها إثم كبير ﴾ قرأ حمزه والكسائي ﴿ كثير ﴾ من الكثرة ،
وقرأ الباقر ﴿ كبير ﴾ من الكبير . وإنما كان إثم الحمرة كبيراً لأن مضرتها كبيرة
ولا إثم إلا ما كان ضاراً ، والضرر يكون في البدن والنفس والعقل والمال ، ويكون
في التعامل وارتباط الناس بعضهم ببعض ، ولا يوجد إثم من الآثام يدخل ضرره
في كل شيء كالحمر وأنواع هذا الضرر كثيرة .

فمن مضرات الحمرة الصحية إفساد المعدة وفقد شهية الطعام وتغير الخلق .
فالسكارى يسرع اليهم التشوه فتجحظ أعينهم وتمتقع سحتهم وتعظم بطونهم ، بل
قال أحد أطباء الألمان : (إن السكران ابن الأربعين يكون نسيج جسمه كنسيج
جسم ابن السنين ويكون كاهرم جسماً وعقلاً . ومرض الكبد والكلى وداء السل
الذي يفتك في البلاد الاوربية فتسكماً ذريعاً على عناية أهلها بقوانين الصحة ولكن
لا وقاية من شرور السكر إلا بتركه ، وقد قيل أن نحو نصف الوفيات في بعض بلاد
اوربا بداء السل ، ولم يكن هذا الداء معروفاً أو منتشرأ في مثل هذه البلاد
- العراق - قبل شيوع السكر فيها فهو من الأدوية التي حملها اليها الاوريون وقد
كثر كثرة فاحشة في العراق على أن جوها لا يساعد على انتشاره .

ومن مضرات الحمرة في العقل فهو مسلم عند الناس وليس ضرره فيه خاصاً بما
يكون من فساد التصور والادراك عند السكر ، بل السكر يضعف القوة العاقلة وكثيراً
ما ينتهي بالجنون . وقد قال الأطباء : (ان المسكر لا يتحول الى دم كما تتحول
سائر الأغذية بعد الهضم بل يبقى على حاله فيزاحم الدم في مجاريه ، فتسرع حركة
الدم وتختل موازنة الجسم وتتعطل وظائف الاعضاء أو تضعف وتخرج عن وضعها
الطبيعي المعتدل . فمن تأثيره في اللسان إضعاف حاسة الذوق ، وفي الحلق الالتهاب
وفي المعدة ترشيع العصارة الفاعلة في الهضم حتى يغلظ نسيجها وتضعف حرقتها ،
وقد يحدث فيها احتقاناً والتهاباً ، وفي الامعاء التقرح وفي الكبد تمديده وتوليد

الشحم الذي يضعف عمله . وكل هذا يتعلق بما يسمونه الجهاز الهضمي .

ومن تأثيره في الدم : انه بمازجته له يعيق دورته وقد يوقفها أحياناً فيموت السكر فجأة ، ويضعف مرونة الشرايين فتتمدد وتغلظ حتى تنسد أحياناً فيفسد الدم ولو في بعض الأعضاء فتكون « الغنغرينا » التي تقضي بقطع العضو الذي تظهر فيه لئلا يسري الفساد الى الجسد كله فيكون هالكاً .

ومن تأثيره في جهاز التنفس : إضعاف مرونة الحنجرة وتهيج شعب التنفس وأهون ضرر ذلك بحجة الصوت والسعال ، وأعظمها تدرن الرئة — أي السل — الفاتك بالشبان والقاطع لجميع لذات الانسان .

وأما تأثيره في المجموع العصبي : فهو الذي يولد الجنون ويهلك النسل ، فولد السكر لا يكون نجياً ، وولد ولده يكون شراً من ولده وأضعف بدنًا وعقلًا وقد يؤدي تسلسل هذا الضعف الى انقطاع النسل بالمرّة لا سيما إذا جرى الأبناء على طريق الآباء كما هو الغالب .

ومن مضرات الخمر في التعامل وقوع النزاع في الخصام بين السكارى بعضهم مع بعض وبينهم وبين من يعاشرهم ويعاملهم تثير ذلك أدنى بادرة فيوغلون فيه حتى تكون عداوة وبغضاء . وهذه العلة في التحريم من أكبر العلل في نظر الدين ، ولذلك ورد بها النص في سورة المائدة « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر » .

ومنها إفشاء السر وهو ضرر يتولد منه مضرات كثيرة لا سيما إذا كان السر يتعلق بالحكومة . ومنها الخسة والمهانة في أعين الناس ، فإن السكران يكون في هيئته وكلامه وحركاته بحيث يضحك منه ويستخف به كل من يراه حتى الصبيان لأنه يكون أقل منهم عقلًا وأبعد عن التوازن في حركاته وأعماله والضبط في أفكاره وأقواله ، وينقلون عن السكارى من النوادر الغريبة ما يكفي في ردع من له شرف

وعقل عن الحمر فليراجع ذلك في كتب الأدب والمحاضرة .
ومما ذكر عن المحدثين أن ابن أبي الدنيا مر بسكران وهو يبول في يده
ويمسح به وجهه كهيئة المتوضئ ويقول : « الحمد لله الذي جعل الاسلام نوراً
والماء طهوراً » .

ومنها أن جريمة السكر يفري بجميع الجرائم التي تعرض للسكران وتجري
عليها ، ولذلك سميت الحمر أم الحبائث كما ورد في الحديث . فهذه إشارة الى مضرتها
في النفس من حيث الأخلاق والآداب .

ومن مضراتها المالية : أنها تستهلك المال وتقضي الثروة كما قال عنتره : (فإذا
شربت فأني مستهلك مالي) البيت . ولم تكن الحمرة مذهبة للثروة في زمن من
الأزمنة كزماننا هذا لا سيما في هذا القطر وهو العراق فإن أنواع الحمر كثرت فيه
ومنها ما هو غالي الثمن جداً ثم ان المتعجلين بها كثيراً ما يقرنون بينها وبين القيادة
الى الزنا . ومن المؤسف أن تكون في بعض العواصم الاسلامية بيوت للفسق تجمع
بين الحمر والنساء الراقصات والمومسات يدخلها الرجال زرافات وأفراداً ويتبادلون
ثم في النفقة حتى ليخسر الرجل في ليلته المئتين والالوف ، وان الحمار ليفتح في
احدى القرى والمزارع حانة صغيرة ، فلا تزال تتسع بما تبتلع من ثروة الأهالي
وغلات أرضهم حتى تبتلع القرية كلها فتسكون أموالها وغلاتها وتجارتها في يد
الحواجة صاحب الحانة ، وقد عم البلاء بالحمر هذا القطر بما لا أهله من الاستعداد
للتقليد حتى قيل إن ما يصرف في العراق على الحمر يعدل أو يقارب ما يصرف في
بعض البلدان الأجنبية .

ومن مضرات الحمر في الدين من حيث روحه ووجهة العبد الى الله تعالى ان
السكران لا تتأتى منه عبادة من العبادات لا سيما الصلاة التي هي عماد الدين ولذلك
قال الله تعالى في آية المائدة بعد ما تقدم آنفاً (ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة)

فهذا شيء من البيان لكون إثم الخمر كبيراً بمعنى أن كبره بكبر ضرره أو كونه كثيراً لكثرة أنواعه ، وقد يشبهه بعض المبتلين بشرب الخمر في بعض تلك المضرات الصحية أو يتوهمون أنه يسهل عليهم التوقي منها وهيئات هيات لما يتوهمون فإن المزاج الذي يتحمل سم الخمر - الذي يسمى الكحول زمنياً طويلاً بحيث يفتّر الناس بحسن صحة صاحبه - قليل في الناس ولكن هؤلاء المبتلين يقيسون على النادر ويجهلون الأصل الغالب ، وهو انه لا يكاد يسلم مدمن السكر من ضرره في جسمه أو عقله ومداركه أو ولده وذريته .

وأما المضرات المعنوية فيقل في معتادي السكر من يحفل بها على أن منهم من يرى أنه يسهل عليه تجنبها .

أما المنافع في الخمر فأهمها التجارة ، فقد كانت ولا تزال مورداً كبيراً للأثوة ومادة عظيمة للتجارة ، ولو لا ذلك لغلب عقلاء الافرنج على جهلائهم وأبطلوا عمل الخمر ويبيعها حتى لا يبقى منها إلا ما يعمل سراً كما هو شأن الناس في اللذات الممنوعة وقد كانت العرب تسخوا في شراء الخمر مالا تسخوا في غيرها ، وكانوا يعدون ترك الماكسة فيها مكرومة وفضيلة فيكثر ربح محتلبها وبائعها . ومنها انها قد تكون علاجاً لبعض الامراض ككثير من السموم والنبات الضار بالمزاج المعتدل ولكن الدواء يؤخذ بمقدار . فالتداوي بالخمر لا يتفق مع شربها للنشوة واللذة .

ومنها أنها تسلي الحزين على أن ما يكون بعدها من رد الفعل يزيد في الحزن والكآبة .

ومنها أنها تسخي البخيل ، ولكن هذا السخاء قد صار ضرراً كاله لأنه يذهب بثروة البلاد فيضعها في أيدي شرار الأجانب وقد كان في الجاهلية نافعاً لأن الرجل كان يبذل ماله في قومه .

ومنها أنها تثير النخوة وتشجع الجبان ، وقد كان هذا أعظم منافعها عند

العرب في الجاهلية ، وهو من أكبر مضراتها في هذا الزمان لا سيما في مثل هذا القطر لأن هذه الخمية هي السبب فيما يكون بين السكارى من التنازع والتخاصم والاعتداء ، ولا حاجة اليها في الحرب الآن بل هي ضارة فيها لأن الحرب صارت صناعة دقيقة وفناً من العلم لا بد فيها من حضور العقل وجودة النظر ، قرب غلطة من قائد تذهب بجيشه وتظفر به عدوه . فالضباط مدبرون والجنود آلات عاقلة في أيديهم لا نجاح لها إلا بالسمع والطاعة مع الفهم ، والسكر قد يحول دون حسن التدبير من العقلاء وسرعة الامتثال من الجنود . ويمدون من منافع بعض الخمر القليلة التأثير كالبيرة : التغذية والتحليل ، ويعجبني جواب سؤال في ذلك ذكر في مجلة عربية وهو : ان لقمة من الخبز أكثر تغذية من كوب من البيرة ، وأن كوباً من الماء أشد تحليلاً من كوب منها على أنه ليس في الخبز والماء ضررٌ ما .

ومضرة الخمر لا يجلبها أحد ولذلك كان في الجاهلية من حرّمها على نفسه ومنهم العباس بن مرداس ، قيل له في الجاهلية ألا تشرب الخمر فانها تزيد في حرارتك ؟ فقال : ما أنا بأخذ جهلي بيدي فأدخله جوفي ولا أرضى أن أصبح سيد القوم وامسي سفيهم .

وأجمل من هذا قول نصيب الشاعر لعبد الملك بن مروان وقد دعاه للشراب معه ، فقال : تؤمني ؟ ففعل ، فقال : لوني حائل وشعري مفلفل وخلقتي مشوهة ولم أبلغ ما بلغت من إكرامك إياي بشرف أب أو أم أو عشيرة وإنما بلغته بعقلي ولساني فأشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تحول بيني وبين ما بلغت به هذه المنزلة منك فأعفاه يالها من كلمة كان قائلاً أجدر به أن يكون ملكاً وخليفة على المسلمين لأنه بعقله الرصين أحق برعاية الرعية من عبد الملك حليف الخمر لأن صاحب العقل الحصيف يكون عارفاً بتدبير أمر الأمة وحسن رعايتها والخمر لا يؤمن شره ولا يرجى خيره .

والطف من هذا أن بعض الامراء دعى مجنوناً أن يشرب معه فامتنع وقال له أنت إذا شربت تصير مثلي مجنوناً وأنا إذا شربت فتل من أصير ؟ .

وأطباء الافرنج وعلماءهم يجمعون على أن ضرر الخمر وكذلك الميسر بالاولى أكبر من نفعها ، وقد ألفت جمعيات في اوربا وأمريكا للسعي في إبطال المسكرات فهم يتعاهدون على عدم الشرب وعلى الدعوة الى ذلك والسعي لدى الحكومات بالتشديد على بائعي الخمر . فالأيام والأجيال كلما تقدمت وارتقت تؤيد قول القرآن بأن إثم الخمر والميسر أكبر من نفعها . فان أطباء هذا العصر يصفون من مضرات الخمر ما لم يكن معروفاً عند الأطباء المتقدمين وهو ما أطلقه الله تعالى لعباده ليعتدوا فيه ويتبينوا صدقه بأنفسهم لتكون عقولهم مؤيدة لكتابته بوجوب اجتنابه .

والكن لدينا من أهل الذكاء والفطنة وأدعياء العلم والمدنية من استعبدهم سلطان اللذة فصرفهم عن النظر والبحث في هذه المضرات كما صرفهم عن هداية الدين وصرف آباءهم عن تربيتهم عليه فأسرفوا في معاقرة الخمر حتى غيض معين حياة بعض الشبان وانكسفت شمس عقول آخرين قبل الاكتهال ، فخرموا من سعادة الحياة وحرمت بيوتهم وامتهم مما كانت ترجوه من ذكائهم واستعدادهم . بدت فتنة السكر في طائفة من الكبراء والمتعلمين وسرت عدواها الى غيرهم من المقلدين حتى قد شيوخ القرى وعمد البلاد . فكانوا شر قدوة للفلاحين والاجراء ، وعم خطر هذه الآفة التي تتبعها آفة الزنا حيث سارت ، ويتبع الزنا داء الزهري الذي هو من أسباب انقطاع النسل ، فأية منفعة توازي هذه الآفات القاتلة والجوائح المصطلمة وأما الميسر : فهو القمار ، واشتقاقه من يسر إذا وجب ، أو من اليسر بمعنى السهولة لأنه كسب بلا مشقة ولا كمد ، أو من اليسار وهو الغنى لأنه سببه للارباح ، أو من اليسر : بمعنى التجزئة والاقسام . يقال : يسروا الشيء إذا اقسموه ، قال الأزهري : الميسر الجزور « الجمل » كانوا يتقامرون عليه سمي ميسراً لأنه يجزأ

أجزاء فكأنه موضع التجزئة وكل شيء جزأته فقد يسرته والياسر الجازر أي لأنه يجرىء لحلم الجزور ، ثم صار يقال للمقامرين جازرون ، لأنهم سبب الجزر والتجزئة هذا هو الأصل .

وأما كيفيته عند العرب فهي أنه كان لهم عشرة قدام وهي « الازلام والاقلام » وهي الفذ والتوأم والرقب والحلس والمسبل والمعلّى والنافس والمئيج والسفيح والوعد ، لكل واحد من السبعة الاولى نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويحزونها عشرة أجزاء أو ثمانية وعشرين جزءاً وليس للثلاثة الاخيرة شيء .

فللفذ سهم ، وللتوأم سهان ، والرقب ثلاثة ، وللحلس أربعة ، والنافس خمسة ، والمسبل ستة ، والمعلّى سبعة وهو أعلاها ، وكانوا يجعلون هذه الازلام في الرابطة وهي « الخريطة » ويضعونها على يد عدل يجلبها ويدخل يده فيخرج منها واحداً باسم رجل ثم واحداً باسم رجل آخر . . . الخ . فمن خرج له قدام من ذوات الانصاء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدام ، ومن خرج له قدام لا نصيب له لم يأخذ شيئاً وغرم ثمن الجزور كله ، وكانوا يدفعون تلك الانصاء الى الفقراء ولا يأكلون منها ، ويشتركون بذلك ويذمون من لم يدخل فيه ويسمونهم البرم وهو في الاصل ثمرة العضاة لا ينتفع به . وقد نظم بعضهم هذه الاسماء فقال :

كل سهام الياسرين عشرة	فأودعوها صحفاً منشرة
لها فروض ولها نصيب	الفذ والتوأم والرقب
والحلس يتلوهم ثم النافس	وبعده مسبلهن السادس
ثم المعلّى كاسمه المعلّى	صاحبه في الياسرين الاعلى
والوعد والسفيح والمئيج	غفل فما فيها يرى ريح

ثم اختلفوا هل الميسر ذلك النوع من القمار بعينه أم يطلق على كل مقامرة ولكن لا خلاف في أن كل قمار محرم قطعاً .

وأما كون إثمه كبيراً أو كثيراً فقد جاء فيه ما جاء في الحظر من كونه يورث العداوة والبغضاء ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهذا ظاهر لا مشاحة فيه ، ثم انه طريق لأكل أموال الناس بالباطل : أي بغير عوض حقيقي من عين أو منفعة وهذا محرم بنص القرآن كما تقدم في محله .

ومن مضراته إفساد التربية بتعويد النفس على الكسل وانتظار الرزق من الطرق الوهمية وإضعاف القوة العقلية بترك الاعمال المفيدة في طرق الكسب الطبيعية وإهمال الياسرين « المقامرين » للزراعة والصناعة والتجارة التي هي أركان العمران ومنها وهو أشهرها : تخريب البيوت فجأة بالاتقال من الغنى الى الفقر في ساعة واحدة . فكم من عشيرة كبيرة نشأت في الغنى والعز وانحصرت ثروتها في رجل اضاعها عليها في ليلة واحدة فأصبحت غنية وأمست فقيرة لا قدرة لها على أن تعيش ما تعودت من السعة .

ومن منافع الميسر مواساة الفقراء كما علمت من عادة العرب التي لا وجود لها الآن . ومنها سرور الراجح وأريحته . ومنها أن يصير الفقير غنياً من غير تعب ولا نصب . وزعم بعض الناس أن المنافع التي كانت في الحظر والميسر قد سلبها الله تعالى منها بعد التحريم وهو قول غير معقول ولا دليل عليه ، بل الحس ينبذه ولا حاجة اليه في التنفير عن الجريمتين بعد ما بين الله تعالى الاصل في التنفير بقوله : (وإثمها أكبر من نفعها) . وهذا القول إرشاد للمؤمنين الى طريق الاستدلال فكان عليهم أن يهتدوا منه الى القاعدتين اللتين تقررتا بعد في الاسلام ، قاعدة درء المفساد مقدم على جلب المصالح ، وقاعدة ارتكاب أخف الضررين إذا كان ترك أي منفعة ضرراً ، ولكن لم يهتد الى جميعهم إذ ورد أن بعضهم ترك الحظر بعد نزول الآية : وبعضهم لم يترك كما تقدم .

وأما كون إثم الميسر أكبر من نفعه فهو أظهر مما تقدم في الحظر لا سيما في

هذا العصر الذي كثرت فيه أنواع القمار وعم ضررها ، حتى أن الحكومات الحرة التي تبيح تجارة الحمر تمنع أكثر أنواع القمار وتعاقب عليها على احترامها للحرية الشخصية في جميع ضروب التصرف التي لا تضر بغير العامل . فمنفعة القمار وهمية ومضراتها حقيقية فإن المقامر يبذل ماله المملوك له حقيقة على وجه اليقين لأجل ربح موهوم ليس عنده وزن ذرة لترجيحه على خطر الخسران والضياع ، والمسترسل في اضاءة المحقق طلباً للتعوهم يفسد فكره ويضعف عقله ولذلك ينتهي الامر بكثير من المقامرين الى قتل أنفسهم غماً أو الرضى بعيشة الذل والمهانة .

إني أعرف رجلاً من بين هؤلاء الرجال المقامرين كانت له ثروة طائلة فما زال شيطان القمار يغريه باللعب فيه حتى فقد ثروته كلها ، وعاش بقية حياته فقيراً معدماً حتى مات جائعاً . هكذا شأن أكثر المقامرين يغترون بالربح الذي يكون لهم أو لغيرهم أحياناً ، فيسترسلون في المقامرة حتى لا يبقى لهم شيء .

يحكى ان رجلاً عاقلاً رأى من ولده ميلاً الى المقامرة لمعاشرته بعض أهلها ، فلما حانت وفاته وخاف أن يضيع ولده ما يرثه عنه وعلم أن النهي لا يكون إلا اغراء قال له : يا بني اوصيك إذا شئت أن تقامر بأن تبحث عن أقدم مقامر في البلد وتلعب معه ، فطفق الولد بعده يبحث ويسأل وكما دل على واحد علم منه أن هناك من هو أقدم منه حتى انتهى به البحث الى شيخ رث الثياب ظاهر الاكتمتآب فعلم من حاله ومقاله أن مآل المقامر الى أسوأ مآب ، وأن والده قد اجتهد بنصيحته فأصاب وأنه اوتى الحكمة وفصل الخطاب ، ورجع الى رشده وأتاب فلم يدخل بيت المقامرة من طاق ولا باب .

ويشترك الميسر مع الحمر في أن متعاطيهما قلما يقدر على تركهما والسلامة من بلائهما لأن للخمر تأثيراً في العصب يدعو الى العود الى شربها والاكتثار منها ، فان ما تحدثه من التنبه يعقبه خمود وفتور بمقتضى قاعدة رد الفعل فيشعر السكران

بعد الصحو أنه مضطر الى الاعادة ليزول عنه ما حل به فاذا هو عاد قويت الداعية وأما الميسر فإن صاحبه كلما ربح طمع في الزيادة ، وكلما خسر طمع في تعويض الخسارة ويضعف الادراك حتى تعز مقاومة هذا الطمع الوهمي ، وهذا شر ما في هاتين الجريمتين . وحجة القول ان الله تعالى قد هدانا لان نعلم مضرات الخمر والميسر ببصيرة لنكون على بصيرة من تحريمهما علينا ، وإننا نرى الامم التي لا تدين بالاسلام ولم تخاطب من الله تعالى بهذه الهداية قد اهدت الى ما لم نهتد اليه من تلك المضار وأنشأت تؤلف الجمعيات السعي في إبطال هاتين الجريمتين ، ونحن الذين منحنا تلك الهداية منذ ثلاثة عشر قرناً أنشأنا نأخذ عن تلك الامم ما أنشأت هي تقاومه وتنميه حتى أن السكر قد غلب في رؤساء دنيانا والميسر قد انتشر في امرائنا وكبرائنا ثم فشا فيمن دونهم تقليداً لهم .

ثم قال تعالى ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ .

إن نقراً من الصحابة حين أمروا بالنفقة في سبيل الله أتوا النبي (ص) فقالوا : « يا رسول الله إنا لا ندري ما هذه النفقة التي امرنا بها في أموالنا فما تنفق منها ؟ فأ نزل الله تعالى : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ . وليس المعنى أن السؤال الاول عن الخمر والميسر نزل وحده ثم نزل هذا السؤال بعده ، بل المراد أن هذه الاسئلة كانت مما يقع من الصحابة ، فأ نزل الله هذه الآيات بياناً لهذه الاحكام واجابة للسائلين عند ما استعدوا للأخذ بها . وما ورد يدل على أن المراد أي جزء من أموالهم ينفقون وأي جزء منها يسكنون ليكونوا ممثلين لقوله : (وأنفقوا في سبيل الله) ومتحققين بقوله : (ومما رزقناهم ينفقون) ، وما في معنى ذلك من الآيات التي تنطق بأن الانفاق في سبيل الله من آيات الايمان وشعبه اللازمة له على الاطلاق الذي يشعر بأن على المؤمن أن ينفق كل ما يملك في سبيل الله ،

وقد قضت الحكمة بهذا الاطلاق في أول الاسلام وبمدح الايثار على النفس لأن المسلمين كانوا فئة قليلة في امم وشعوب وقبائل تناصبهم العداوة وتبذل في ذلك الاموال والأرواح فإذا لم يتحدوا حتى يكونوا كشيخص واحد ويبدل كل واحد ما بيده لمصلحتهم العامة لا تستقيم لهم حال ولا تقوم لهم قائمة . وهذه هي السنة العامة في كل دين عند ابتداء ظهوره وأول نشأته . ثم بعد أن تعزز الملة وتكثر الامة ويصير يكفي لحفظ مصلحتها ما يبذله كل ذي غنى من بعض ماله ، ويفرغ الجمهور للأعمال الخاصة بحيث يتمكن ذو العمل أن يفيض به على أهله وولده بعد أن كان مستغرقاً في السعي لتعزيز دينه ووقايته من الحو والزوال . بعد هذا كله تختلف الحال فلا يسهل على كل واحد أن يؤثر كل محتاج على نفسه وأهله وولده ، ولذلك توجهت النفوس بعد استقرار الاسلام الى تقييد تلك الاطلاقات في الاتفاق فسألوا ماذا ينفقون ؟ فأجيبوا بأن ينفقوا العفو وهو الفضل والزيادة عن الحاجة . وقالوا أيضاً ينفقون ماسهل عليهم وتيسر لهم مما يكون فاضلاً عن حاجتهم وحاجة من يعولون إن القرآن أطلق العفو والحكمة في ذلك ليقدره كل قوم في كل عصر بحسب ما يليق بمجآلهم لأنه خطاب عام ليس خاصاً بأهل جزيرة العرب ولا بحال الناس في زمن البعثة . والمراد بهذا الاتفاق ما وراء الزكاة المفروضة المحدودة كصدقة التطوع على الافراد وعلى المصالح العامة وإن كان لفظ العفو يصدق على الزكاة لأنها لا تكون إلا من الزائد على الحاجة الذي لا جهد ولا مشقة فيه . وقد ورد في الأحاديث الصحيحة ما يؤيد هذا قال «ص» : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول » ، وقال (ص) : « خير الصدقة ما أبقت غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول تقول المرأة : انفق علي أو طلقني ويقول مملوكك : انفق علي أو بعني ، ويقول ولدك : الى من تسكني ؟ » .

وهذا الاتفاق يرجع الى حفظ مصالح الامة وأعمالها الخيرية لأن الامة المؤلفة

من مليون واحد إذا كانت تبذل من فضل مالها في مصالحها العامة كاعداد القوة وتربية النابتة على ما يؤهلها لاستعمالها ويقرر الفضيلة في أنفسها تكون أعز وأقوى من أمة مؤلفة من مئة مليون لا يبذلون شيئاً من فضول أموالهم في مثل ذلك . ذلك بان الواحد من الأمة الاولى يعدُّ بأمة لأن أُمته عون له تعدد جزءاً منها ويعدها كلاً له والأمة الثانية كلها لا تعدُّ بواحد لأن كل جزء من أجزائها (أي افرادها) يخذل الآخر ويرى أن حياته بموته فيكون كل واحد منها في حكم الميت . وفي الحقيقة أن مثل هذا الجمع لا يسمى أمة ، لأن كل واحد من أفرادها يعيش وحده وان كان في جانبه أهل الأرض فهو لا يتصل بمن معه ليدعم ويستمد منهم ويتعاون الجميع على حفظ الوحدة الجامعة لهم التي تحقق معنى الأمة فيهم ، وانه لم تنهض أمة ولا ملة إلا بمثل هذا التعاون وهو مساعدة الغني للفقير وإعانة القوي للضعيف وبذل المال والعناية في حفظ المصلحة العامة . بهذا ظهر القليل على الكثير وكانت لهم السيادة ، وبترك هذا انحلت الأمم الكبيرة وفقدت الملك والسعادة .

إن النكتة في الجمع بين السؤال عن الحر والميسر عن الاتفاق في آية واحدة هي المقارنة بين حال فريقين من الناس ، فريق ينفق المال بغير حساب في سبيل الاثم ، اما للتفاخر والتباهي فيما لا خرف فيه ولا شرف في الحقيقة ، واما لمجرد اللذة وإن ساءت عواقبها ، وفريق ينفقه في سبيل الله يزيل به ضرورة اخوانه المساكين والضعفاء ويرفع به من شأن أُمته بما يجعله للمصالح العامة وأعمال الخير ، وأعظم المصالح والأعمال في هذا العصر التعليم والتربية . ولو بذل العراقيون عشر ما ينفقون في الحر والميسر على التعليم لتيسر لهم تعميم المدارس الدينية في بلادهم وتوجيه التعليم فيها الى ما يجدد نوعهم ويعيد اليهم ما فقدوا من كرامتهم .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يبين الله لكم الآيات ﴾ معناه مثل هذا النحو وعلى هذه الطريقة من البيان قد قضت حكمة الله بأن يبين لكم آياته في الاحكام المتعلقة

بمصلحكم ومنافعكم ، وذلك بأن يلفت عقولكم الى ما في الاشياء من المضار والمنافع « لعلكم تتفكرون » ، فيظهر لكم ضرر الضر منها أو الراجح ضرره فتعلموا أنه جدير بالترك فتركوه على بصيرة واقتناع بأنكم فعلتم ما فيه المصلحة كما يظهر لكم النافع فتطلبوه . فمن رحمته بكم لم يرد أن يعنتكم ويكلفكم ما لا تعقلون له فائدة إرغاماً لارداتكم وعقلكم ، بل أراد بكم اليسر فعلمكم حكم الاحكام وأسرارها وهداكم الى استعمال عقولكم فيها لترققوا بهدايته عقولاً وأرواحاً لا لتنفقوه سبحانه أو تدفعوا عنه الضر ، فإنه غني عنكم بنفسه حميد بذاته عزيز بقدرته . ثم بين جل شأنه أن هذا البيان المعد للتفكير ليس خاصاً بمصالح الدنيا وحدها ولا بطلب الآخرة على انفرادها ، وإنما هو متعلق بها جميعاً ولذلك قال تعالى : « في الدنيا والآخرة » أي تتفكرون في امورها معاً فتجتمع لكم مصالح الجسد والروح فتكونون أمة وسطاً ونامي كاملين لا كالذين حسبوا أن الآخرة لا تنال إلا بترك الدنيا وإهمال منافعها ومصالحها بالمرّة نخسروها وخسروا الآخرة معها لأن الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا كالذين انصرفوا الى اللذات الجسدية كالبهايم ففسدت أخلاقهم واطلمت أرواحهم وكانوا بلاء على الناس وعلى أنفسهم نخسروا الآخرة والدنيا معها وهذا الارشاد الى التفكير في مصالح الدنيا والآخرة جميعاً هو معنى ما جاء في الدعاء بقوله تعالى : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة » . فآله يبين في مثل هذه الآيات أن الاسلام هاد ومرشد الى توسيع دائرة الفكر واستعمال العقل في مصالح الدارين ، وقدم الدنيا لانها مقدمة وجوداً وطبعاً ، وكل ما أمرنا الله تعالى به وهدانا اليه فهو من ديننا ، ولذلك قال علماؤنا : إن جميع الفنون والصناعات التي يحتاج اليها الناس في معاشهم من الفروض الدينية إذا أهملت الامة شيئاً منها ولم يقيم به من أفرادها من يكفئها ضرر الحاجة كانت كلها عاصية لله تعالى مخالفة لدينه إلا من كان عاجزاً عن دفع ضرر الحاجة وعن الأمر به للقادر عليه فاولئك هم المعذورون

بالنقصير . على هذا قام صرح مجد الاسلام عدة قرون كان المسلمون كلما عرض لهم شيء بسبب التوسع في العمران يتوقف عليه حفظه وتعميم دعوته النافعة قاموا به حق القيام وعدوا به من الدين ، عملاً بمثل هذه الآية وغيرها من الآيات ، ومضوا على ذلك قرونًا الى أن غلا أقوام في الدين واتبعوا سنن من قبلهم في إهمال مصالح الدنيا زعمًا أن ذلك من الزهد المطلوب أو التوكل المحبوب وما هو منهما في شيء . وكان من أثر ذلك أن أهملت الشريعة فلا توجد حكومة اسلامية على وجه الارض تقيمها لأنه لا يوجد من أهلها من يصلح لحكم الناس في هذه الفصور التي اتسعت فيها مصالح الامم والحكومات بالتوسع في العلوم والصنائع وارتباط العالم ببعضه ببعض ، ثم صار علماء المسلمين أنفسهم يعدون الاشتغال بالعلوم والفنون التي تتوقف عليها مصالح الدنيا صادة عن الدين مبعدة عنه ، بل يوجد فيهم من يقول إنها مفسدة لعقائده مفضية الى الخروج منه . وهذا هو دخول حجر الضب الذي دخله من كان قبلنا ، وهو كما ترى خروج عن هدي القرآن . وقد يقال إذا كان المنقطع لعلوم الدين لا يأمن على عقيدته أن تذهب ودينه أن يفسد إذا هو تفكر في مصالح الدنيا وعرف العلوم التي لا تقوم هذه المصالح بدونها ، فكيف يكون حال من يدرسون هذه العلوم الدنيوية من المسلمين وليسوا على شيء يعتد به من العلوم الدينية ؟ لاجرم ان هذا قضاء على الاسلام وآفة العمران وعدو العلم والنظام ، وهو قضاء جائر يطله القرآن وتناقضه سيرة السلف الصالحين الذين سبقونا بالايمان .

ولكن أين من يتبعهما الآن وقد قام فريق من الذين لم ينظروا في كتاب الله - مرة - نظرة معتبر ولم يتلوا منه آية تلاوة مفكر متدبر يقسمون المسلمين الى قسمين : قسم لا تجب المبالاة بدينه ولا يهتم به في شك أو يقينه فله أن يتعلم ما يشاء صحت عقيدته أو فسدت صلحت أعماله أو خسرت . وقسم آخر يجب أن يسان عقله عن كل فكر ويحاط بجميع الوسائل التي تمنعه من النظر فيما عليه الناس من خير

وشر ، وما يعرض في الكون من نفع وضر كيلا يفسد النظر عقيدته ويضل الفكر
 السليم بصيرته . وهذا القسم هو الذي تفوض اليه الرئاسة الدينية ويعهد اليه بقيادة
 الامة في صلاح الاعمال وانتظام الاحوال ، وأعظم قسم في الامة هو القسم الأول
 بحكم الضرورة بل الامة كلها بالتقريب ، فكيف يتيسر لهذا القسم الثاني وهو خلو
 من العلم بحالها ودون كل واحد منها في العقل وفوقه في الغباوة والجهل أن يقود
 واحداً منها فله قيادتها كلها فهل يتفق مثل هذا الخرف مع شيء من سنة السلف .
 ألا عاقل يقول لهؤلاء المشموذين كيف ساغ في عقولكم أن يسلم الى الجاهل
 قيادة العاقل وكيف يتيسر حفظ الدين بالعدول عن سنن المرسلين ومخالفة سير
 السلف الصالحين ؟



مضار الخمر الاجتماعية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ «١»

اليكم أيها الشباب الانجاب يا نخبة العراق وأساطين العلم والطب ، يا زهرة الشبيبة العراقية أنتم قدوة الامة وعيونها المبصرة وآذانها السامعة ورؤوسها المفكرة أنتم قادتها وسادتها ، أنتم الرأي العام اوجه خطابي هذا راجياً أن تصغوا الي قليلا لا تلو عليكم ما جاش بقلبي وما أملاه علي وجداني ودلّ عليه اختباري مدة الحياة في هذا الموضوع الخطر وهو الخمر .

تعلمون أن الاعم اليوم قد تنبّهت من غفلتها وقامت من سباتها ، والعلم يعدو حثيثاً بالاعم الي العلا والانسان اليوم غيره بالأمس . هذه حركة فكرية عامة للتطور الاجتماعي الانساني العام ، والعراق الذي شهد له التاريخ بالتقدم على سائر الاعم أجدر أن يدلي دلوه في الدلاء وأن يبحث مع ذوي الآراء في الامور الهامة والمسائل العامة ويحذو حذو الاعم الرافعة للعلم حتى لا يسبقنا خلفنا بالسنة حديد

ويقول أبناؤنا : لقد قصر آباؤنا الأولون ونام علماءنا السابقون ، فوجب علينا أن نتقي مجتمعنا من بعض المفاسد والمضار التي أهمها مسألة الخمر .

حرّم القرآن الخمر تحريماً قاطعاً ولم يستثن حالاً من الأحوال ولا أباحه ولا أجاز لهضم الطعام ولا رضيه لتقوية الشهوة ولا لاكثرار الدم في الجسم بل عمم التحريم فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ (١) «
أرى تحت الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام

فان النار بالعودين تذكو وإن الحرب أولها كلام

فان كانت أمة في سبات فقل قوموا فقد حان القيام

هجمت المدينة في الشرق وأخذت تسرع في أسباب الرقي ففضت الخمر وعمت الامصار والقرى وشاعت بين الخاصة والعامة ، ويقول القرآن : ﴿ رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ .

كان أسلافنا يقيمون الحدود ويحصدون الشارب فكان ذلك مخففاً من سطوة الخمر ومانعاً لطغيانها . فقد حد الخليفة عمر بن الخطاب ولده عبيد الله بعد أن حده عمرو بن العاص بمصر ، فلما قدم على عمر المدينة جلده حداً آخر علانية . وحد أيضاً ولده عبد الرحمن المعروف بأبي شحمة في الشراب ، وعاصم بن عمر بن الخطاب حده بمض ولاية المدينة ، وحد علي بن أبي طالب أمير المؤمنين «ع» الوليد بن عقبة ابن أبي معيط أخو عثمان بن عفان لأمه وهو إذ ذاك والي الكوفة ، شهد أهل الكوفة عليه أنه صلى بهم الصبح ثلاث ركعات وهو سكران ثم التفت اليهم فقال : إن شئتم زدكم جلده علي «ع» بين يدي عثمان بعد أن امتنع عثمان من حده وانكر عليه علي ذلك .

كان لرجال الدين سطوة وبأس وكان الملوك والحكام أقوى معاضدين للفضيلة ومنع الخمر امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ فهل أنتم متبهون ﴾ .

جاءت المدنية الحديثة بخيلها ورجلها وشاركتنا في الاولاد والاموال وهجمت علينا ولم تبق للدين سطوته ، فأنحسر عن المسدن الى القرى ثم انحاز الى أطراف البلاد وهي تطارد الدين .

والمدنية كما تعلمون بلا علم ضلال ، والعلم الناقص وبال ، والبلاهة خير من الفطنة البتراء ، والجهلاء أفضل من الأذكاء المغرورين . فأما الدين كله وأما العلم كله ، ونحن أخذنا من الديانات أسماءها ومن العلوم قشورها فخرنا الصفقتين وربحنا الرزيتين وسبقنا المتمدنون وفاقنا من الفرنجة العلماء العاملون . فويل ثم ويل لمن لا دين له ولا علم اولئك الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴿ ١ ﴾ .

فحق علينا أن نبحث في موضوع الخمر بحثاً علمياً طيباً حتى نكون أتينا البيت من بابه وأرجعنا الامر الى نصابه . فالعلم اليوم هو السلاح الذي به تصول الفضيلة وبه تحارب النقيصة . فبهذا السلاح وبهتكم اقاتل معكم جيوش الجهل بين أبناء امتي العراقية . فلا أقص عليكم أنباء ما عثرت عليه في هذا الموضوع .

الخمر وما أدراك ما الخمر : هو السم الزعاف الذي اعيانطس الأطباء شفاؤه ، والداء العضال الذي أسقم مدمنه فدام بلاؤه وطال شقاؤه ، وهو السيف المسلول على رقاب متعاطيه ووسيلة من وسائل الخراب لمعاقره ومحتسيه ، جعله الانسان لأخيه ليخلي من الاموال خزائنه ويذهب من جسمه مواهبه فاذا اقترب منه غي أقره وإذا نزل بساحته سليم أضغفه ، وإذا آدمى عليه شاب قتله ، وهو المبذر للأموال والمذهب للمقول المزهق للأرواح ، وهو باب القبور ومفتاح الشرور .

إن الرعش الذي يعتري السكر أول برهان على أن الخمر أهدت أثيرها السمي المزمّن يظهر على الجهاز العصبي ، وفضلاً عن ذلك يؤثر على الكبد ذلك المعمل الكيمياوي ، ودليل ذلك أن الموتى من مدمني الخمر وجدت أكبادهم متفتة ، وكثيراً ما يصاب السكر بالسكتة القلبية والبول السكري وتسمم الدم السريع والسيل الرئوي .

انظروا إتنا لو وضعنا دودة من ديدان الأرض أو سمكة في وعاء يحتوي على ماء ممزوج بجزء واحد من الكحول في مائة جزء من الماء ماتت سريعاً ، ولو أخذنا زلال بيضة وصببنا عليه قليلاً من « الويسكو » أو أي مشروب روحي قوي فإنه يجمدها حالاً وبغير لونها كما لو كنا نضعها في ماء مغلي أو فوق حديد محمي ، ولو وضعنا شيئاً من النباتات فيها أمتها سريعاً ، وإذا غمست العلقمة فيها ماتت بعد دقيقتين أو ثلاث ، وكذلك الضفادع والحياة فكيف بدم الانسان وأعصابه ؟ .
ولأحد أطباء ألمانيا كلمة اشتهرت كالأمثال وهي : « اقفولي نصف الحانات أكفل لكم الاستغناء عن نصف المستشفيات والسجون » .

على أتنا لو تتبعنا سلسلة الحوادث الجرمية لألفينا أغلب ينابيع شرها المستطير قد انبعث من الخمر أم الجبائث ، فلذا أصبح فلاسفة الأمم وعقلاء الانام من أهل الفطر السليمة والآراء المستقيمة ينفرون من كل ما يزيل جوهر العقل ونوره .
والأمل بالله أنهم سيكتثون بتمادي الزمان فيدور البشر دورته ويرجمون الى دين العقل الى دين الفطرة الى شرع محمد «ص» . فدين الفطرة هو دين المستقبل الذي لا يحيص للبشر عنه .

يقول الآلوسي : « رأيت في بعض الصحف العربية المطبوعة في دار السلطنة العثمانية مانصه : قد قرأنا في البشير تحت عنوان (نتائج المشروبات المسكرة) كتب في التقاويم الأخيرة أن المشروبات المسكرة كانت قبل الحرب العالمية تقتل في

ألمانيا في السنة أربعين ألفاً ، وفي روسيا عشرة آلاف ، وفي بلجيكا أربعة آلاف وفي فرنسا ألف وخمسمائة ، وأما في أمريكا فقد مات ثلثمائة ألف نفس في الولايات المتحدة في مدة ثمان سنوات . فيكون عدد الذين تقتلهم الخمر في أمريكا سنوياً تسعة وثلاثين ألفاً وخمسمائة نسمة ، وقتلى الخمر في الممالك المذكورة في كل سنة ثلاثاً وتسعين ألف .

تنبهت الدول الغربية الى هذا الخطر الداهم فأخذت تكافح الخمر بتمام جهدها وشددت النكير على من يتعاطاها . كانت أمريكا قبل ذلك مفرطة في تناول المشروبات الروحية فلما اشتركت في الحرب العالمية أصدرت هي وانكارتا أوامر مشددة تحرم الاتجار بالخمر في جميع الثغور والمعسكرات والجهات المجاورة لها وأندية الضباط والجنود وحرمت الخمر بالخصوص على الضباط والجنود في البر والبحر تناول أي نوع منها حتى الانبذة والبيرة ، لأنهم وجدوا أن المسؤولية التي على عاتق الجندي في ساحة القتال عظيمة جداً ، فإن سمح له مع ذلك بتناول المسكرات صار عاجزاً عن القيام بابعاء مهمته الخطيرة كما ينبغي ، لأنه اتضح بالتجارب أن شارب الخمر أقل من غيره اقتداراً وكفاءة على الاستمرار على العمل لما يعتريه من الخمول والانحطاط في القوى والميل الى التشرذم ومخالفة الأوامر وعدم الاكتراث لها .

اتخذت الولايات المتحدة وسائل شتى لتخفيف وطأة الخمر من بلادها خوفاً من وقوع الامة في مهاوي الهلاك والفناء . فقد قاومت المشروبات الروحية مقاومة عنيفة واجتازت كل العقبات التي اعترضتها وهي عقبات في غاية القوة والمنعة لسببين عظيمين ، أولاً لأن السواد الأعظم هناك معتاد تناول الكحول من زمن بعيد ، ثانياً أن أصحاب المعامل والنزل الذين يربحون من الكحول القناطير المقنطرة من الذهب كانوا يتذمرون ويتبرمون ويبدون مقاومة شديدة ضد الحركة ، إلا أن إرادة الامة وتنبيه عقلائها حملا الولايات المتحدة على اصدار قانون المنع نهائياً . فيا لها من خطوة شريفة هادية الى الأخلاق حافظة للصحة محافظة على المال أن يذهب ضياعاً

أفلا ينظر العقلاء من هذه الامة ويعجبوا كيف كانت امريكا النصرانية أول من نادى بمنع الخمر وتحريمه فنالت بذلك سعة في الرزق وأمناً في البلاد وزادت مجالس العلم فيها وكثر الداخلون في المعاهد العلمية وقل القتل والسرقة وازدادت الأموال بنسبة مطردة . هذا هو سر الاسلام وتحريمه للخمر . وأعجب من هذا أن المسلمين الذين يحرم دينهم الخمر ويقول : ﴿ رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ﴾ يعاقرونها ليلاً ونهاراً وتباع في أسواقهم سرّاً وجهاراً .

وفي عام ١٩١٦ م تألفت جمعية في انكلترا اسمها ﴿ قوة الحركة البريطانية ﴾ وقدمت عريضة الى الحكومة الانكليزية تطالبها بإبطال الخمر بعد أن بينت بالتفصيل المضار العظيمة التي تنجم عن إباحة تناول المشروبات الروحية . تسعى الحكومة الانكليزية سعياً حثيثاً لتحريم المسكرات وقد تكونت لجنة لدراسة هذا الموضوع وأصدرت تقريرها وضمنته طائفة من المعلومات الطريفة عن كميات المشروبات الروحية التي تستهلك والمحال التي تستهلك فيها ، ويفهم من هذا التقرير أن السمية التي يستهلكها الانكليز من المشروبات الروحية قد نقصت كثيراً ولعل السبب في ذلك ارتفاع المستوى الأخلاقي وشعور الشبان بالمسؤوليات وانصرافهم الى الألعاب الرياضية وفداحة أثمان المشروبات . فالأسباب إذن اجتماعية وأخلاقية واقتصادية وصحية .

وفي عام ١٩٢١ م صدر قانون من المجلس الوطني الكبير في أنقرة يقضي بتحريم الخمر وتحريم صنعها وشربها لأن الاناضول اعتبر نفسه أحق باتباع هذه السنة وهي السنة الاسلامية من حكومات الولايات المتحدة . وتدل الحوادث على أن تنفيذ هذا القانون سائر بهمة زائدة ، وإن النجاح ظاهر فيها ظهوراً محسوساً وإن كانت الخمر لم ينقطع دابرها بالكلية لأن مداخل البلاد من بلائها منذ عشرات الأعوام لا يمكن اقتلاعها بسهولة في عشرات الأسابيع . ويقدر نسبة ما نزل من

عدد الشاربين الى نحو ٥٠ بالمئة رغماً من يقظة الحكومة وتشديدها لا تزال توجد خمر يتاجر بها الحمارون خلسة بأسعار باهضة ، وهي التي كانت العائق الأكبر في إبعاد الناس عن تعاطيها . هذا مثل من مجهود الائم ضد الخمر .

فيا أيها المسلمون الضعفاء أفيقوا من رقدتكم وانتهوا من سباتكم إن ما فات مضي وانقضى وإن الزمان قد استدار إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون المعاد فكونوا أحراراً في بلادكم إن هؤلاء الذين جاؤكم بالخمر لا يريدون اعزازكم بل يريدون أن يوقعوا بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر فهل أنتم منتهون ؟ فإن لم ينتهوا فقل اندرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود وقد بدت بوادرها من طيارات قاذفات في الاجواء ودبابات مهلكات في الصحراء فويل ثم ويل لمن يعيش عيشة هنيئة اجتماعية ثم يموت ميتة جاهلية .

حافظوا على صحتكم المطلوبة التي هي الحياة التامة فإن الخمر لها التأثير الكبير في فقدان الصحة كما سمعتم ، وأزيدكم بياناً في الموضوع عسى أن تستيقضوا من هذه الرقدة وتشملوا أنفسكم من حضيض هذه الوهدة يا أرباب العزائم والنجدة .

خطب طبيب قد مارس مهنة الطب خمساً وثلاثين سنة في عدة مستشفيات في موضوع الخمر وأضرارها وقد شوهد هذا الطبيب قائلاً : « إني لم أر في جميع أدوار حياتي واختباراتي الطبية عاهة أفتك بالإنسان من بنت الحان « أي الخمر » فهي والحق يقال السم الزعاف والبلاء المهلك لكل من يتعاطاها بلا خلاف ، وقد شرحت في مدة خدمتي الطبية مئات من الجثث التي فتك بها هذا العدو الألد فاسمحوا لي بأن أقص عليكم ما شاهدته بعيني ولمسته بيدي » .

دخل المستشفى رجل سكير عمره بين ٤٥ و ٥٠ سنة تقريباً وكان يشكو من ألم في ظهره وسعال شديد وبعد مكثه عندنا ٢٤ ساعة وجدناه ميتاً في سريريه في اليوم التالي لدخوله فالتزمنا أن نشرح جثته لنتأكد سبب الوفاة ، فوجدنا أن الرئتين

قد تهرتا وزايتا وأن شرايين القلب قد ضعفت واضمحلت الى أن صارت أوهى من نسيج العنكبوت ، ووجدنا الكبد قد تحرق كالاسفنجية الذائبة التي لم تعد تصلح للاستعمال أو كخرقة بالية جداً لا يمكننا تمييزه من بيت النحل في خروقه الواضحة الكثيرة ، ووجدنا الامعاء يابسة خلوها من مادتها المائية . والخلاصة ان جهاز ذلك التعيس كان قد بلى من كثرة الخمور التي امتصها جسمه .

هذا وصف وجيز لحالة السكير المدمن بعد تشريحه وبعد تشريح كثيرين غيره من الذين شرعناهم بعد وفاتهم ووجدوا على هذا النمط وما اختبرته بنفسى وما قرأته من تقارير زملائي الاطباء أن أربعين بالمئة يموتون من شرب الكحول قبل وصولهم الى متوسط الاجل المعتاد .

وأما المعتدلون في الشرب المدعون أنهم محافظون على صحتهم ولا يتعدى الواحد منهم عن رشف كأس أو كأسين في اليوم فدعواهم باطلة وهم في اعتدالهم المزعوم واهمون . فلنفرض أقل اعتدال هو رشف كأس واحدة يومياً فهذه الكمية القليلة في ظاهرها لا بد أن يبقى أثرها الى اليوم الثاني ، وكأس اليوم الثاني يبقى مع أثر الاولى الى اليوم الثالث وهكذا تتجمع الآثار الصغيرة يوماً فيوماً الى أن تصير في الجسم أثراً كبيراً . مع أن الاثر البسيط الناشئ عن الكأس الواحدة لا يشعر به في بادئ الامر بل بالعكس يشعر صاحبه في الحال بشيء من الحرارة والقابلية للطعام مع التفرج والسكن في الوقت نفسه بتبدى أجهزته تفقد قوتها شيئاً فشيئاً وتضعف رويداً رويداً عن العمل وعن أداء وظائفها ، ومتى أصاب هذا الجسم المعتدل أي مرض لا يقوى على احتماله ولا على مكافحته لضعف أجهزته فيستحيل الداء ويندر الدواء فيبيت - حضرة المعتدل - ويصبح من كأسه الواحدة وهو على حافة القبر يطلب الدواء فلا يناله ويتمنى الحياة فلا يجدها ، فيذهب تاركاً وراءه جيشاً من ذريته في عرى وجوع .

النزاهة والاستراكية الصحيحة

والتعاون في الاسلام

لما قضت العناية الأزلية والحكمة البليغة لبقاء هذا النوع (البشر) أن يكونوا مختلفين غير متساويين في القوى والملكات والافهام والذكاء ، كاختلافهم في الاخلاق والصفات والخلق والهيئات ، كاختلافهم في الغنى والفقر والسعادة والشقاء ، ولو كانوا جميعاً في رتبة واحدة من الذكاء والفقر والغنى والسعادة والعناء لهلكوا جميعاً . وإلى هذا أشار الامام الجواد «ع» في كلمة موجزة من أبلغ الكلمات القصار حيث يقول : ﴿ لو تساويتم لهلكتم ﴾ . وهذا جلي واضح لا حاجة الى إيضاحه . ولكن لازم هذا الاختلاف الواسع ، والتباين الشاسع لحفظ بقاء النوع هو التعاون مع رعاية التوازن . والتعاون ضرورة من ضرورات الحياة . وهو في الجملة غريزة وطبيعة قضت به حاجة بعضهم الى بعض وتبادل المنفعة وتكافؤ المصالح ، وبه يتم النظام وتحفظ الهيئة الاجتماعية .

وهذا التعاون التي تدفع اليه وتدعوله الضرورة هو في غنى عن الحث والبعث اليه . وإنما الذي يحتاج الى التشريع والبعث اليه هو التعاون بلا عوض ، وعمل الخير

والاحسان وصنع المعروف لوجهه الله وفي سبيل الله لجميع عباد الله ، للفقير والغني والعاجز والقوي ، للمؤمن والكافر .

وهذه الفضيلة هي فضيلة الجود والسخاء التي يقابلها رذيلة الشح والبخل .
فالكرم عطاء بلا عوض ، وبذل من دون نظر الى الاستحقاق . والاولى هي بمرتبتها العليا هي صفة الحق جل شأنه والأمثل فالأمثل من الأنبياء والمرسلين والاولياء والصديقين ، واعلمها في بعض البشر من الغريزة . والمواهب لا تحصل بالطلب والكسب كصفاء اللؤلؤة وإشراق الشمس وفيض الينابيع ومثلها رذيلة البخل قد تكون طبيعة في بعض البشر وغريزة .

وهناك أوساط ونفوس ساذجة ليس في جبلتها هذا ولا ذاك فيؤثر فيها المحيط والتربية والافران فضيلة أو رذيلة .

وما من شريعة من الشرايع ولا دين من الأديان ولا كتاب من الكتب قد حث وبث وبالغ في الدعوة الى الاحسان والمعروف وبذل المال في سبيل الخير مجاناً ولووجه الله تعالى كشرعية الاسلام وكتايبها المجيد ، وقلمنا تجد سورة من سور القرآن لم يتكرر فيها طلب الانفاق والوعد بالأجر العظيم له .

خذ أول سورة بعد الفاتحة وهي أوسع سورة تضمنت التشريع الاسلامي وعامة فرائضه من الصلاة والصوم ، والزكاة والحج ، والنكاح والرضاع ، والطلاق والمعاملات ، والديون والرهن ، والقصاص والديات ، وغير ذلك .

افتتح الباري جل شأنه هذه السورة بالانفاق وقرنه بالايمان بالله وبأهم دعائم الاسلام وهي الصلاة فقال : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلوة وما رزقناهم ينفقون ﴾ « ١ » .

ثم قال جل شأنه فيها بعد جملة آيات : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم

الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين ﴿١﴾ ثم قال بعد فصول طويلة وبيان أحكام كثيرة : ﴿يا أيها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾ ﴿٢﴾ ولم يكتف بهذا كله في هذه السورة المباركة حتى أفاض في فضل الاتفاق وأجره العظيم ، وأنه يعود باضاعاف المضاعفة . وجاء بأبلغ الأمثال وأبدع المقال فندب الى البذل والاحسان وحرمة الربا الذي فيه قطع سبيل المعروف وأكل المال بالباطل ، وجعل من يصر على استعماله محارباً لله العظيم والله محارب له ، كل ذلك في ضمن أكثر من ثلاثة عشر آية مطولة بدأها عز شأنه بقوله : ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾ ﴿٣﴾ الى قوله تعالى : ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ ﴿٤﴾ ثم بعد أربعة عشر آية في فضل الاتفاق ألحقها بتحريم الربا وفطاعة شأنه وتهويل جريمته وبيان جملة من أحكامه فقال : ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ ﴿٥﴾ .

وهذا تصوير بديع لحال المراءين وعظيم جشعهم وحرصهم على جمع المال وادخاره وتوفيره ، فهو كالذي فيه مس من الجنون يذهب ويحيى ويقوم ويقعد ويأخذ ويعطي ، فهو في حركة دائبة وعمل متواصل لا يقر له قرار ولا يستريح من التفكير والتوفير والادخار في ليل ولا نهار ، وإذا اعترضه معترض قال مبرراً عمله إنما البيع مثل الربا والبيع حلال فالربا مثله ، وهو قياس فاسد ويعرف فساد من

«١» سورة البقرة الآية ١٧٧ . «٢» سورة البقرة الآية ٢٥٤ .

«٣» سورة البقرة الآية ٢٦١ . «٤» سورة البقرة الآية ٢٧٤ .

«٥» سورة البقرة الآية ٢٧٥ .

القاعدة الشرعية المباركة « الغنم بالغرم » . فشكل معاملة فيها غنم بلا غرم فهي أكل مال بالباطل . والبيع غنم بغرم ومبادلة مال بمال بخلاف الربا فإنه لا أخذ غنم بلا غرم وللدافع غرم بلا غنم . فإذا أعطى العشرة باثنتي عشر من جنس واحد فقد أخذ اثنين بلا عوض فهو أكل مال بالباطل ، ولذا اختص الربا بالمتجانسين - أي أن يكون العوضان من جنس واحد ويكون من المكييل والموزون إذ المعاملة بالمعدود والمشاهدة نادرة والنادر ملحق بالعدم ، ومدار المعاملات في العالم على الكيل والوزن مضافاً الى جهات اخرى .

وما أبدع وأروع تعقيب آيات الحث على الانفاق احساناً وكرماً بآيات تحريم الربا فإن ذلك فضل واحسان ، وهذا جور وعدوان .

وهذه الفصول في آخر هذه السورة التي هي أطول أو أفضل سور القرآن من حيث بيان النواميس الاسلامية بمحبوكة كالسرد الوضين . فإنه عز شأنه ذكر فضل الانفاق في سبيل الله والعطاء المجاني وربط به حرمة الربا وهو الأخذ العدواني ثم اردفه بالدين والرهن وأحكامهما والأمر بانظار المعسر : ﴿ وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة ﴾ .

انظر واعجب لهذه الرحمة الواسعة وهذا التشريع الرفيع وهل يبقى لك شك في أن هذا القرآن من الوحي المعجز والذكر المبين نزل به الروح الأمين من رب العالمين ! ! ؟ .

وهل تجد شيئاً من هذه الأساليب في شيء من التوراة والانجيل والزبور وغيرها وهي أكبر حجماً وأكثر ألفاظاً ورقماً . أرايت كيف تنازل العظيم من أوج عظمتة الى مخلوقه العاجز الضعيف فصار يستقرضه ويقول : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم ﴾ « ١ » . ثم لم يكف بهذا

كله في الدعوة الى التعاون وتعاطف البشر بعضهم على بعض بالاحسان والمعروف .
نعم لم يكتف بما ندب اليه من المعروف على سبيل النذب والاستحباب وإن
كان واجباً أخلاقياً .

نعم لم يكتف بذلك العموم والاطلاق والترغيب الى الاتفاق والاحسان
لكل ذي روح حتى البهائم والحوام بل وحتى للكلب العقور . فاذا رأيت كلباً يلثث
من العطش استحب لك في الشريعة الاسلامية أن تسقيه الماء « فان لكل كبدأ
حراً أجر » كما في الحديث .

أما الرفق بالحيوان والجمولة والدواب فقد عنيت الآداب الاسلامية برعايتها
والرحمة لها عناية بالغة . وفي الحديث ما مضمونه : ﴿ إذا وصلت المنزل فأبدأ بستي
دابتك وعلفها وراحتها قبل نفسك ، ولا تتخذوا ظهور دوابكم منابر ولا تحملوا
عليها فوق طاقتها ولا تجهدوها ولا تضربوا وجوهها ﴾ الى كثير من أمثال ذلك مما
لا مجال لاحصائه في هذا البيان .

أما الفقراء والضعفاء والعجزة فلم يكتف لهم الشارع المقدس ورحمته الواسعة
بهذه العمومات والمطلقات ، بل جعل لهم مزيد عناية تخصهم وفرض لهم في أموال
الأغنياء نصيباً مفروضاً وصيرهم شركاء لهم فيما بأيديهم ولكن من دون اجحاف
واعتساف بأموالهم ، بل قال الشارع الاقدس في كتابه المقدس : « يسئلونك ماذا
ينفقون قل العفو » يعني الزائد من المال على حاجته حسب شأنه في سنة أو سنوات
وقال المبلغ عنه : « من فضول أموال أغنيائكم ترد على فقرائكم » .

وفي الحديث ما مؤداه : « لما علم الله أن نسبة الفقراء من الاغنياء العشر
فرض لهم العشر في أموالهم وما جاع فقير إلا بما منعه الغني من حقه » .

نعم فرض للفقراء الحق على الاغنياء ولكن جعل السلطة للأغنياء وأعطاهم
الحرية الواسعة والاختيار العام فيما يدفعون من نقود أو عروض ، ولأي فقير

يدفعون . وبأي وقت يشاءون . والفقر وإن صار شريكاً ولكن لا سلطة له على الأخذ ، وإنما سلطة الدفع والتعيين لرب المال .

وعدت الشريعة الاسلامية هذه القضية حذراً من تفشي داء الكسل والالتكال في النفوس وترك الناس السعي والعمل وتغلب البطالة والكسالة على المجتمع فخص ذلك الحق بالفقر الذي لا يستطيع العمل لعذر من الاعذار ، أو كان عمله لا يفي بمؤنة عياله . ثم حث الناس على الكسب والسعي في توفير المال وأوجبه لتحصيل الرزق له وللعيال ، كما أوجب للعمال دفع حقوقهم مؤفرة من أرباب الأموال وعدم بخس ما يستحقونه من الأجر ، وأن يدفع للعامل أجرته فوراً قبل أن يحف عرقه وهذه هي الاشتراكية الصحيحة العادلة السمحاء التي وقعت وسطا بين افراط الاشتراكية الحمراء وتفريط الرأسمالية القاسية السوداء ، فلم تسلب الغني حريته فيما بيده وما استحصله بجهدده كما تسلبه الشيوعية الظالمة التي تسلب بعنفها وظلمها أفضل نعم الله على العبد وهو الحرية ، ولا سلبت العامل ما يستحقه بعمله من الاجرة ولم تبخس حقه كالرأسمالية « وكذلك جعلناكم امة وسطاً » .

انظر سعة نظر التشريع الاسلامي وعنايته بسد الحاجة وتدارك مواضع الضعف في الامة فيما فرض من الزكاة وتعيين مصرفها ومستحقيها ، فجعل الفقراء والمساكين في الدرجة الاولى . ثم للعاملين في جياتها ، ثم للمدينين الذين لا يستطيعون وفاء دينهم ، ثم الاسراء والعبيد وعنتهم ، ثم أبناء السبيل المنقطعين في الغربة ، والمؤلفة قلوبهم وفي سبيل الله - أي المصالح العامة كبناء القناطر والمدارس والمعاهد والمعابد وتعميد الطرق وأمثال ذلك .

فرض الله للفقراء العاجزين عن تحصيل ما يموتهم وعيالهم لنقص في أبدانهم من مرض ونحوه وعدم مواتاة الحظ لهم « ان صح أن شيئاً يسمى الحظ له شيء من التأثير في المقادير » .

نعم فرض الله الزكاة وقرنها بالصلاة اهتماماً بها في زهاء عشرين آية متفرقة ﴿أقيموا الصلوة وآتوا الزكاة﴾ «١»، أربع منها في سورة البقرة، ثم تكررت في عامة سورة الطوال . والمفصل والقصار وآخرها في سورة البينة آخر القرآن ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلوة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾ «٢»، وفي الجميع قدمت الصلاة على الزكاة إلا في آية واحدة ﴿قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى﴾ «٣»، لنسكتة معلومة، ولكن في الحديث ما يشير الى أنه تعالى ربط الزكاة بالصلاة للدلالة على أن من لا زكاة له لا صلاة له . يعني أن من وجبت عليه زكاة في أمواله ولم يدفعها لمستحقها لم تقبل صلاته وإن أتى بها على أصح وجوها .

ومن سعة رحمته وعنايته بخلقه جعلها في أهم الأشياء وأعمها وألزمها في حياة البشر ومقومات العيش وهي الأجناس التسعة : النقدان ، والغلات الأربع ، والانعام الثلاثة ، وهو عز شأنه وإن فرض فيها النزر اليسير وهو العشر ونصفه أو رבעه ، ولكن الحاصل من مجموعه الشيء الكثير .

وليست فوائد هذا التشريع وهذه الاشتراكية العادلة الحرة مقصورة على الناحية المادية فقط ، بل فيها من الفوائد الاجتماعية والتأليف بين الطبقات وتعاطف الناس بعضهم على بعض وقطع دابر الفساد والشغب فيما بينهم ما هو أوسع وأنفع وأجل وأجمع ، ثم أردف الزكاة بالحنس توفيراً لحق الفقراء وتكريماً للعترة الطاهرة عن تلك الفضول التي هي صدقات ونوع من الاستجداء ، ثم رعاية شبه الجزاء والأجر لجدهم الاعظم فيما تحمل من عناء التبليغ واعباء أداء الرسالة ، وبعد ذلك الحث على

«١» سورة البقرة الآية ٤٢ .

«٢» سورة البينة الآية ٤ .

«٣» سورة الأعلى الآية ١٣ - ١٤ .

الاتفاق عموماً ، وتشريع الزكاة والخمس خصوصاً . هل قنعت واستكفنت سعة تلك الرحمة وبلغ هاتيك الحكمة ؟ هل اكتفت للفقراء والعناية بهم بكل ذلك ؟ كلا ، بل فتحت في التشريع الاسلامي باب « الكفارات » وهو باب واسع يدخل في أكثر العبادات وغير العبادات من المحرمات وغير المحرمات . فقد مشت وفشت فريضة هذه الضريبة حتى في الصلاة وتسكثرت في الصوم والاعتكاف والحج والايلاء والظهار والنذر واليمين وقتل الخطأ بل والعمد ، وغير ذلك مما يجده المتبع في أكثر أبواب الفقه ، وهو اطعام الفقراء تارة وكسوة اخرى وعتق ثالثة .

جمعت الشريعة الاسلامية بسعة رحمتها وعظيم حكمتها بين رعاية الفضل والعدل ، وأقامت قواعد الاتصاف والاعتدال في بذل الاموال ، ولما نذبت وبالغت في الحث على الاتفاق في سبيل الله وتدرجت فيه الى أبعد غاية الاتفاق من فاضل المال وحواشيه أولاً لآمن صلبه ثم المواساة والمشاطرة من صميمه ثانياً : ﴿ والذين في أمـوالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾ « ١ » . ثم الايثار على النفس ثالثاً : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ « ٢ » .

وهذا أقصى ما يتصور من السخاء والكرم والردع عن رذيلة البخل والشح وحذراً من أن تطنى هذه العاطفة فتجحف بالمال وتضر بالاهل والعيال ويضطرب بها جبل المعيشة والعائلة وتداركت الشريعة ذلك وعدت هذا الميل على المال فقالت ﴿ لا صدقة وذو رحم محتاج ﴾ ، فقد سبق ذلك كتاب الله المجيد ، فانه جلت عظمتة لما بالغ في دعوة الناس عموماً والمسلمين خصوصاً الى البذل والاحسان واتفاق المال على الفقراء والمساكين فيما يزيد على سبعين آية بأساليب مختلفة وتراكيب عجيبة توجه الكتاب الكريم الى تعديل ذلك فأمر بالاقتصاد والتدبير والاعتدال ومجانبة التبذير فقال جل وعلا : ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر

تذكيرا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ﴿١﴾ بل زاد فقال : ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا﴾ ﴿٢﴾ أي لا تسرفوا في العطاء ، بل أوضح ذلك في سورة الاسراء وسورة الفرقان فقال في الاولى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » ﴿٣﴾ . وفي الثانية : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » ﴿٤﴾ . الى كثير من أمثالها .

ومن هنا كانت الشريعة الاسلامية شريعة العدل والفضل (وكذلك جعلناكم امة وسطا) ﴿٥﴾ . لا تدعو الى فضيلة إلا وتقرنها بالاعتدال والعقل والتوسط « وخير الامور أوسطها » .

فله شريعة الاسلام المقدسة ما أوسعها وأجمعها وأمنعها وأنعمها . أفلا قائل يقول لهذا الشباب الطائش الخدوع بتلك الشيوعية الحمراء والبلشفية السوداء أتطلبون اشتراكية أعلى وأصح من هذه الاشتراكية المنظمة العادلة التي توسع على الفقراء والمحاويج ما يرفع حاجتهم ويحفظ لأرباب الاموال والاغنياء مكائدهم وحرثهم ، ولا تضايقيهم ولا ترهقهم ولا تحرم العاملين ثمرة أتعابهم ولا تجعلهم كالة ميكانيكية أو كالبهاائم ليس لها إلا علفها ومعلفها ؟

نعم انك لا تهدي من أحبيت ولكن الله يهدي من يشاء بل الشيطان سول لهم وأملى لهم ، ولعل العناية تدركهم فتدفعهم الى صوب الصواب والمنهج القويم إن شاء الله تعالى

«١» سورة الاسراء الآية ٢٥ - ٢٦ . «٢» سورة الانعام الآية ١٤٠ .

«٣» سورة الاسراء الآية ٢٨ .

«٤» سورة الفرقان الآية ٦٦ . «٥» سورة البقرة الآية ١٤٢ .

المبشرون

يطلق المسيحيون هذا اللفظ على الدعاة الى ملتهم

الدعوة للدين من مبتكرات المسيحيين ولم تعرف قبل تاريخهم ، فلا أثر لها في الاديان القديمة ، وإنا لموجزون تأريخ التبشير لديهم في كلمات فنقول : يصعد تاريخ التبشير الى حوارى عيسى عليه السلام الذين يعبرون عنهم بالرسل فقد انتشروا بعسد عيسى «ع» في الارض يدعون الناس الى ملتهم مؤتمرين بقوله الوارد في إنجيل يوحنا ومتى ما ترجمته عن النص الفرنسي : « كما أرسلني أبي أنا أرسلتكم » اذهبوا فاعلموا الامم قاطبة وعمدوهم باسم الاب والابن والروح القدس وسأكون معكم مدى الدهر » .

ذهب رسل عيسى وكان مجاهلهم الذي ظهرت فيه غيرتهم بلاد « يهوذا » فاتحدوا هناك مع المتنبيين الذين كانوا يخبرون بمجيء عيسى فكانت الطرق ممهدة أمامهم لبث دعوتهم .

وقد دلتنا أعمال الرسل من كتبهم المقدس عن النجاح الذي صادفوه في آسيا الصغرى وبلاد الاغريق . ويستدل أيضاً من كتاب « بلين » الروماني الى الامبراطور « تارجان » أن المسيحية انتشرت في تلك الاصقاع في أواخر القرن الاول المسيحي ، على ان بطرس وبولس لم يتجاوزا روما الى جهة الغرب .

أرسل (بطرس) تلميذه « سان مارك » الى مصر ليهدي أهلها الى المسيحية فنجحت دعوته هناك نجاحاً عظيماً ، ومن أول القرن الخامس انتشرت المسيحية في كثير من جهات افريقيا ، ثم اجتاز المبشرون الاوقيانوس ونزلوا الى اسبانيا فأرسل اليها البابا « غريغوار » السابع سبعة مطارنة .

أما بلاد الغول فقامت المبشرين مقابلة حسنة فانتشرت فيها دعوتهم ولا سيما جهتها الجنوبية . وفي تلك الأثناء كانت المسيحية تنتشر في اوربا الشرقية بواسطة العلاقات التجارية التي كانت بينها وبين آسيا وبلاد الاغريق .

جاء في القرن الثاني « سان بوتان » مع جمهور من اخوانه فأسسوا على شواطئ نهر « الرون » كنيسة « فينا ، وليون » . وجاء « سان دينس » في القرن الثالث فأسس كنيسة باريس ومنها انتشر المبشرون في الضواحي ونشروا الانجيل بين أهلها .

وجاء « سان مرتان » في القرن الخامس فترك المدن لتلاميذه وتجهل في القرى والقلوات بنشر الدين فيها إذ كانت بمعزل عنه لبعدها عن العمران . يرى الرأي مما مر أن جمعيات التبشير اليوم لها تاريخ بعيد يتصل بالقرن الأول من المسيحية . ولقد حفظ التاريخ للمبشرين الأولين من آثار الغيرة على الدين والتفاني في سبيله ما يصح أن يتخذ دليلاً على صدق العزم وجميل الصبر . فقد كانوا يقتلون ويضربون ويلقون في النار ويمثل بأجسادهم أقبح تمثيل فيحتملون ذلك صابرين ويقبلون التضحية حامدين . وهكذا أوائل عصور الاديان ملأى بمثل هذه الآثار المدهشة .

دام عمل المبشرين عملاً أهلياً حتى دخل امبراطرة الرومان في المسيحية ، فانقلب عملهم رسمياً من ذلك الحين فكان أولئك الامبراطرة يرسلون المبشرين سفراء لدى الملوك المتوحشين ليدعوهم للتبشير باسم الامبراطور الروماني واسم المسيح معاً .

وبهذه الوسيلة توصل الامبراطور « كونسانس » الى تنصير أهل سبأ من بلاد العرب . ونجح الامبراطور بعض النجاح في ادخال بعض الفرس في المسيحية وكانوا أشد الشعوب استعصاءً على النصرانية وأكثر اضطهاداً لدعاتها ، لأن المبشرين في أول عهدهم كانوا مبعثرين لا تجمعهم جامعة ، كل طائفة منهم تتبع كنيسة تنتمي اليها ، ولكنهم في القرن العاشر اجتمعوا الى رئيس عام هو بابا الكنيسة الرومانية والحروب الصليبية التي شنها المسيحيون على المسلمين في القرون الوسطى لم تكن إلا دعوة الى النصرانية بقوة النار والحديد ، وكان الذي انتدب لتنصير المسلمين طائفتان يقال لأحدهما « الدومنيكان » والآخر « الفرنسيسكان » . فانتشر رجالها في آسيا وافريقيا ، وتحصل رجال الطائفة الاولى منها على امتياز سداية بيت المقدس سنة ١٣٣٦ م ، ولكن حدث بين هاتين الطائفتين شقاق أدى لتدخل الكنيسة في شأنه ، فلما لم تفلح الوسائل السلمية عمد البابوات الى القوة فأحدثوا من التعذيب ما لا يبلغه الوصف ، وسافر في تلك العصور دعاة الى التبت والصين والتتار لتوسيع نطاق المسيحية فوجدوا هنالك من شدة الشكيمة ما اقمهم بوجوب الاقلاع عن التبشير في تلك الاصقاع . فلما اكتشفت امريكا انفتح المبشرين مجال جديد فهرعت طوائف الدومنيكان والفرنسيسكان ولاجوستان اليها لبث الدعوة المسيحية هنالك عقب الحروب التي كانت تشنها اسبانيا على شعوبها الوطنية ، وقد عدي الدعاة للدين هناك بداء الشره والجشع فشابوا دعوتهم بأعمال مادية القصد ، منها الحصول على الثروة واستخدموا أحياناً في سبيل ذلك كل أنواع القسوة .

فقد كتب القس « جيتيه » عنهم يقول كما نقلته دائرة معارف القرن التاسع عشر : « ان حب الاثراء قد استولى على أكثر اولئك القسوس ، فكان أكثر انصرافهم الى نيل المال لا السعي في كسب الأرواح للمسيح . فقد كان مثال الفاتحين الذين مهدوا لهم السبيل مؤثراً عليهم بحيث أن الذين كانوا ذهبوا الى تلك الاصقاع

بأسلحة نقية وإنجيلية صاروا رجالاً ظاهراً للكسب ، تأكل قلوبهم المطاعم وقد تغالوا في طريقهم حتى أصبحوا يقولون على تلك المظالم التي كانت يصبها الأسبانيون والبرتغاليون على الوطنيين مما لم يسمع به في تاريخ البشر .

نعم إن بعضاً من الرجال المسيحيين قد رفعوا أصواتهم بالاحتجاج ضد هذه الأعمال ، فليس في الناس من تخفى عليه معارضات « لاس كازاس » . ولكن هؤلاء الرسل كانوا من الندرة بحيث خنقت أصواتهم خنقاً « انتهى » .

اتجهت بعثات المبشرين لآسيا ووضعوا نصب أعينهم الهند وفي هذا العهد كانت قد تكونت فرقة « الجيزويت » فسافر إليها المبشر « فرنسو اكسافيه » الذي له أغلاط مشهورة في وظيفة التبشير فلم يحجم عن تأسيس محكمة للتفتيش في الهند ، وقد نجحت هذه الوسائل القاسية ودخل في النصرانية عدد لا يحصى من الهنود فانتقلت وظيفة المبشرين من الهند الى اليابان وهناك وجدت أشد أنواع الاستعصاء فصبر المبشرون هنالك مجاهدين ثلاثين عاماً ثم تركوها لأهلها وقفلوا راجعين . وقد توصل القس « ركسي » مع بعض رفاقه من الوصول الى « بكين » عاصمة الصين وتحصل على إذن من ابن السماء بتأليف طائفة ، ثم حدث خلاف بين جماعات المبشرين أدى الى تلاشي ما عملوه في الصين .

في أوائل القرن السابع عشر رأت الكنيسة أن تنشط في أمر التبشير لتعوض ما خسرته من النفوذ من جهة « البروتستانتية » . فأعطى البابا خطة منتظمة وجاء البابا « غريغوار » الخامس عشر فأسس لها مدرسة خاصة يدخلها الشبان من مختلف الأمم ليتعلموا على صناعة الدعوة الى الدين ، وأسس لهم مطبعة تطبع بنحسين لغة وكان ذلك سنة ١٦٢٢ م . ومن ذلك الحين توزع الدعاة على أرجاء الأرض بواسطة أربع طوائف رئيسية وهي : الدومينيكان ، والفرنسيسكان ، والجيزويت ، وآباء البعثات الأجنبية . ثم قسموها الى بعثة الشرق وهي تشمل مصر وجزائر

الارخبيل اليوناني وتركية اوربا وتركية آسيا والفرس ، تم بعثة الصين وتشمل الكونشنشين ، واليابان والنونكين التي كان فيها قبل الاضطهادات الأخيرة (٨٧) محلاً دينياً ونحو (٧٠٠) كنيسة . ثم يلي هذه بعثة الهند وتشمل جزائر الافيانوسية الى مانيلا والفلبين الجديدة . وأخيراً بعثات امريكا التي تمتد على الأمريكتين الشمالية والجنوبية الى جزائر الاتيل .

قالت دائرة معارف القرن التاسع عشر التي نعتمد عليها بنوع أخص في إيراد هذا التاريخ . قالت بعد أن ذكرت عناية المبشرين بنشر دعوتهم وتوزعهم في الآفاق ما ترجمته : ومع هذا رغماً من المجهودات العظيمة التي بذلها المبشرون فان أعمالهم لعدم ارتكانها على شيء جدي ارتكنت الى ضد ما وضعت له ، فخرمت اليابان الديانة النصرانية على رعاياها سنة « ١٦١٥ » وطردت سيام المبشرين من ممالكها سنة « ١٦٨٨ » ، وزالت المسيحية من الصين عقب المناقشات التي ثار ثائرها بين « الجيزويت والدومينيكان » وطرد المبشرون منها مراراً .

فما هو يا ترى سبب انهيار عمل المبشرين في العالمين ؟ نأخذ الجواب عن مؤرخ ديني ولكنه خال من الغرض فقد قال : « إن المبشرين وخصوصاً الجيزويت يعاملون الوطنيين بنخشونة تبعدهم عن الدين الذي يدعونهم اليه . وزيادة عن هذا فان هذه الجماعات « الجيزويتية » كان أكثرها يشتغل بالتجارة والمضاربات ويحتمد في الحصول على المال ، فكان لجماعتهم مستودع عظيم في جزائر الفلبين خاص بتجاريتها مع امريكا والهند ، فكانت تصدر لأسبانيا وروما منها كنوز عظيمة من المال ومع هذا فكانت تنشر نشرات تحت عنوان (خطابات معللة وعجيبة) بين (كاثوليك) اوربا بقصد امداد البعثات الدينية بشيء من مكارمهم ، وكانوا يحترسون أن يذكروا فيها شيئاً عن تجارتهم ومضارباتهم الصناعية ، وكانت تلك النشرات تصور البعثات الجيزويتية مركبة من رجال الله الذين يلتهبون شوقاً الى نيل درجة الشهادة

معرضين أنفسهم لجميع الأخطار لكسب الأرواح للإنجيل . وكانت تسجيل لهم نجاحاً باهراً في أداء مهمتهم فكان يتوهم من يقرأ تلك الخطابات أن المسيحية في أمريكا والشرق أزهر منها في أوربا ذاتها . وكانت البعثات من الطوائف المسيحية الأخرى يشهدون أن الخطابات المعلمة التي ينشرها الجيزويت لا تحكي إلا حكايات مختلفة تؤلف بقصد جر المنفعة المادية من أتقياء الكاثوليك لا غناء شركتهم التجارية وكانوا يشنون على البعثات الأخرى حرباً عواناً ليستخلصوا من شهاداتها على مختلفاتهم فمن المحقق أن النتائج التي يطنطن بها الجيزويت في خطاباتهم لا وجود لها في الواقع وغاية ما في الأمر أن البعثات الدينية توصلت بعد جهد جهيد لاستهواء عدد من رجال تختلف درجاتهم في المدارك ، ولكن ليس بصحيح أن المسيحيين كثر عددهم في البلاد التي أقامت بها تلك البعثات .

ونرى اليوم أن تلك البعثات رغمًا من جهادها المتواصل في الجهات الشرقية من أمريكا لم تتوصل إلا إلى تنصير عدد قليل من أهل أمريكا الأصليين . ولدنيا سبب آخر يدلنا على أن الحال يستحيل أن يكون على غير هذا المنوال وذلك أن البعثات الدينية لا تستطيع أن تثبت في جهة من الجهات إلا تحت حماية قوية تحميها من الاضطهادات أن تتسرب إليها على أثر فاتح من الفاتحين . وعليه فقد وجد ضدهم حذر لا يقاوم ويستحيل ملامته .

وهذا أمر لا يحتاج لبيان ، ولذلك نعفي أنفسنا من إيراد أرقام الاحصاءات المختلفة التي تنشرها نشرات بث الدعوة إلى الدين وهي تثبت أن هذه الدعوة لم تكن في حين من الأحيان زاهرة كما يدعون ، ويجب عدم الثقة بهذه الاحصاءات وعدم النسيان بأنها تحرر بكثرة في « باريس وليون » وتنصح بوجود مقارنتها بالمؤلفات التي تنشر ضدها . نذكر منها مذكرات الأب « نويرمكابومان » ومؤلفات « الدومنيكال اورفائل » و « نافاريت » وغيرها ، والمذكرات المقدمة لمعهد البابوية

بروما بواسطة قسموس دير البعثات الاجنبية وأخبار السياح المختلفة ، وكذلك بالجزء الثاني من تاريخ الجزويت للقس حيتيه . انتهى كلام المؤرخ الديني نقلاً عن دائرة معارف القرن التاسع عشر .

أما علاقة المبشرين بالامم التي يدعونها لدينهم مع أن أكثرها على درجة منحة في العلم والمدارك ففيها عبرة لمن اعتبر .

فقد كتبت « مادموازيل فولان » سنة (١٧٦٥) كما نقله عنها « ديدرو » في دائرة معارفه قالت : « إن للانجليز كلفاً كما لنا بتنصير الناس فقد يتغلغل مبشروهم في أحشاء الغابات يحملون للمتوحشين العقيدة ، وقد حدث أن أحد رؤساء تلك القبائل قال لأحد اولئك المبشرين : أخي انظر الى رأسي وقد اشتملت شيئا أترى نشدتك الله انه من المستطاع أن يقع أحد من كان في سني هذا باعتقاد كل هذه الحماقات ؟ ولكن لي ثلاثة أبناء فأبعد عن أكبرهم فسيضحك ، تقول ، واستول على الأصغر فانك تستطيع أن تقنعه بكل ما تقول .

ولبت مبشر آخر يدعو بعض المتوحشين بواسطة ترجمان فبعد أن سمعوا ساعة ما يقال لهم ، سألوا المبشر وماذا لنا أن اعتقدنا ما تقول ؟ فقال المبشر للترجمان قل لهم انكم تكونون عباد الله ، فأجابه الترجمان كلا انهم لا يريدون أن يكونوا عبيداً لأحد . فقال المبشر : إذا كان الأمر كذلك فقل لهم إنهم يكونون أبناء الله . فأجاب الترجمان هذا حسن ، وسر المتوحشون من هذا الجواب .

قالت دائرة معارف القرن التاسع عشر التي نودر عنها هذه الفكاهات : وإليك حادثة أخرى تريك ماذا يجب أن يفهم عن التنصير « السكانيالي » أو (الهوروني) المزعوم فقد توهم أحد رجال المبشرين انه آتي عملاً جليلاً في هذا الباب وأراد أن يعرض أحد الذين هدهم على الناس فآتي به الى « لوندره » فكان المتفرجون يسألون الهوروني الصغير وهو يحجب ويحسن الجواب فقادوه الى الكنيسة وبعد

أداء الصلاة سأله المبشر قائلاً : ألا تحس يا بني انك أكثر شعوراً بحب الله ؟
أما أحسست بأثر الصلاة فيك . أليست روحك قد صارت أكثر حرارة ؟ .
فأجاب الهوروني الصغير : نعم لقد أحدث النبيل علي أثراً حسناً ، وأظن
لو كنت أعطيت من العرق كان التأثير أكثر حسناً .

البعثات البروتستانتية

أول بعثة بروتستانتية أرسلها الى لا بونيا جوستاف وارا سنة « ١٥٥٩ »
ولم يتأخر عن أن يحذو حذوه الانكليز ، وكانت بعثاتهم أكثر نشاطاً وأكبر غير
وأجل نتائج وأصبر على الشدائد ، فقد قرر البرلمان الانكليزي سنة ﴿ ١٦٤٧ ﴾
أن تنشأ بعثات دينية وترسل الى الجهات القصية لنشر الدين فتألفت تلك البعثات
وانتشرت في الارض .

وكذلك سار الدانماركيون سيرة الانكليز فألفوا كثيراً من البعثات الدينية
الى الهند من سنة (١٧٠٤) . ولم تلبث هولاندا جامدة بأزاء هذه الحركات ، فقد
تألف فيها بعثات بروتستانتية كثيرة وجهت الى أقصى الجهات .
واليوم نشطت الولايات المتحدة لهذا العمل فترى بعثاتها تناظر البعثات
الانكليزية في كل مكان .

يكتفي المبشرون البروتستانت بتوزيع الكتاب المقدس وكثيراً ما يخاطبون
الأعمال التجارية بوظيفتهم الدينية كما كان يفعل الجيزويت . انتهى . ملخصاً من
دائرة القرن التاسع عشر .

المبشرون والاسلام

أشد ما يلاقيه المبشرون في طريقهم من الخصوم دين الاسلام ، فإن هذا
الدين السمح ينتشر بلا دعوة بل محمولاً على السنة التجار الى اقصى بلاد العالم حتى شهد
(الكاردينال لا فيجري) الفرنسي الذي كان يقول (لأن يكون الانسان بلا دين خير

من أن يكون مسلماً بأنه قد اعتنق الاسلام في افريقيا نحو الستين مليوناً من النفوس وكما ينتشر الاسلام في افريقيا فهو ينتشر في الهند والصين ، فقد حسب أن مسلمي الصين قد بلغوا ثمانين مليوناً ، ومسلمي الهند خمسة وسبعين مليوناً) .

جاء في « مجلة المبشرين » التي تطبع في (نيويورك) بمددها الصادر في شهر اكتوبر تحت عنوان (انتشار الاسلام) ما ترجمته بالحرف الواحد (إن القس (اوتارانيان) الذي كان من سلالة النبي الكاذب وكان مولوداً ثم اهتدى وتعمد سنة (١٨٨٥) وصار مديراً للمدرسة الألمانية في (بوتسدام) التي ينشأ منها المبشرون المسيحيون ويرسلون الى البلاد الاسلامية . هذا القس لفت نظر الرؤساء الانجيليين الى تعدي الاسلام ، وظهر الخطر المحدق من انتشاره ، وتكلم عن الصحف الاسلامية . وقال إن الانتشار السريع الذي يلاقيه الاسلام في افريقيا وآسيا يجعل هذه الصحف تتخيل وتكتب عن مستقبل الاسلام وتعلق الآمال بانه سيصير يوماً ما الدين الحاكم في كل العالم) .

وقالت أيضاً تحت عنوان (الحركة العدائية على المسيحيين في افريقية) (إن أكبر مناظر للمسيح في افريقية هو محمد وليس المسلمون فقط هم الذين يقاومون المسيحية هناك ، بل الدول الاوربية أيضاً مثل انكلترا وفرنسا وألمانيا وغيرها من الدول المستعمرة كما يقول الدكتور (زويمر) : تعمل على ذلك . في (كلية غردون) في الخرطوم مثلاً يدرس القرآن ولا يدرس الانجيل ، وتفتح المدرسة يوم الأحد وتعطل يوم الجمعة ، ويلاحظ الكثير من الموظفين الاوربيين الاعياد والمواسم الاسلامية ويحترمون العوائد الدينية ، حتى أن حاكم (تيازا) السابق منع قرس الجرس في احدى الكنائس لأن المسلمين اعترضوا على ذلك ، ووزع موظف انكليزي نسخاً من القرآن ، وأصبحت قبيلة (ياوا) الآن تابعة للاسلام) .

وقالت أيضاً تحت عنوان « الاسلام في اوربا وامريكا » : « إن دليل تقدم

الاسلام ونجاحه في « لغربول » هو المسجد الجميل الذي اقيم منذ مدة قريبة ويؤمه الكثيرون من الانكليز المسلمين حتى جعلوه مجتمعاً لهم ، ويتعبد فيه المسلمون الموجودون في تلك المدينة . ويلاحظ أن هؤلاء الانكليز يحافظون على أوامر دينهم الجديد إلا في تعدد الزوجات ، لأن قانون انكلترا لا يسمح به ، ويسمون أبناءهم بأسماء عربية وتركية وفارسية ، ويقدر عددهم بنحو ألف نسمة في تلك المدينة . أما المسجد فجعل البناء الى جانبه مدرسة للبنين والبنات ومكتبة ومتحف ومستشفى ومخزن للكتب ومتنبي للخطابة في اللغات الشرقية ومواضيع اخرى .

المبشرون في مصر والهند والعراق

كثّر المبشرون في الهند ومصر والعراق عقب الفتح والاحتلال الانكليزي . ولسنا نقول إنهم أخطأوا في السعي وراء بث دعوتهم ، بل نمدحهم على غيرتهم وتتمنى أن لو استطاعوا أن نجاريهم في هذا المضمار ، ولكننا نلاحظ عليهم أموراً لا ندرك كيف لم يحترزوا من الوقوع فيها . ولا كيف اعتبروها وسائل منتجة في الهند ومصر والعراق !! ؟ .

« الأمر الأول » محاولتهم الخط من كرامة الدين الاسلامي في نظر أهله لا بدليل ناهض وحجة دامغة ، بل باختلاق الأباطيل وابتكار الأحاييل مما يدرك بطلانه أقل المسلمين علما .

« الأمر الثاني » محاولتهم إثبات تحريف القرآن بالزيادة والنقص مع تحقيقهم وتحقيق كل متأمل في كيفية حفظه أنه لو كان كتاب في الدنيا حفظ من تبديل وتحريف في أصغر نقطة فيه فلا يكون غير القرآن .

« الأمر الثالث » غلوهم في الطعن على أخلاق رسول الله محمد (ص) وسيرته مع تضامن المصادر التاريخية كلها على أنه كان مثلاً في الكمال الانساني . لم تحفظ عليه خطيئة ولم توصم حياته بنقيصة . كل هذا في حين أن كتبهم لم تدع نبياً كريماً

ولا رسولا عظيما جاء قبل عيسى عليه الصلاة والسلام إلا ألصقت به من الكبراء ما يتزده عنه أقل فاضل من عامة الناس . فنسبت لبعضهم الزنا ببنتيه ، وبعضهم السكر وبعضهم عبادة الاصنام . . . الخ

« الأمر الرابع » تلاميهم على الناس في الطرق والمنزهات وتهجمهم على السابلة بأساليب يأبأها العرف .

« الأمر الخامس » تحاييلهم على ادخال الاطفال في مدارسهم وتغفلهم بعض الآباء في إبعاد أبنائهم عنهم وتنصيرهم .

لا جرم أن كل أمر من هذه الامور قد أتيح نتائج لا تتفق مع مصالحهم ولا تلائم محاولاتهم .

فأنتج الامر الاول شعور المسلمين بأن القوم مثير شعب لا دعاة حق . فان من يخلق الاباطيل لترويج بضاعته وخصوصاً فيما هو من عداد البديهيات يحط من قيمة دعوته ، ويدعو الى الشك في حقيقته . فهب المسلمون لا لمقارعة حجة بحجة ولا نقضيل دين على دين ، بل لدفع فريات وتمكذيب مختلفات . وكفى بهذا سقوطاً لهم في نظر من يدعونهم الى ملتهم .

وأنتج الامر الثاني خفوف المسلمين لتأييد برهان القرآن وإثبات تحريف كتب خصومهم ، وقد هدام البحث للوقوف على أدلة ذلك التحريف من نفس كتبهم وعن السنة كتبهم ، فيمكن مصابهم بهذا الامر مزدوجاً .

وأنتج الامر الثالث زيادة تعلق المسلمين برسولهم ، فان اهتمام مؤلفيهم بإيراد شهادات علماء الاقرنج على كمال أخلاقه «ص» أوجد في المسلمين مادة جديدة للتعلق بحب رسولهم .

وأنتج الامر الرابع اعتقاد المسلمين بثقل وطأتهم ، ونشأت لهم من تهافت خصومهم عليهم بثلاث الاساليب عاطفة استخفاف بهم ، فان كل معروض مهان .

فما بالك إذا كان الغرض بتلك الدرجة من التهافت .

وأنتج الامر الخامس عقيدة راسخة في أفئدة عامة المسلمين وخاصتهم بأن القوم ليسوا على شيء ، وغاية ما يتذرعون به لنشر دعوتهم الاعتماد على هذه الصغريات كل هذه النتائج تألبت على اسقاط حجة المبشرين في الهند ومصر والعراق فهان أمرهم على العامة والخاصة ، وجنوا من مجموع محاولتهم الفشل التام . ولا غرو فان أمثال هذه الامور كافية لاسقاط أكبر حجة في العالم .

يظهر لي أن السبب في حدوث هذه الصغريات من دعاة النصرانية هو إسناد أمر الدعوة لشبان يلتقطونهم من هنا وهناك . فمن مبلغ عني قادة المبشرين أن قوة الدين الذاتية تكفل انتشاره بقليل من المجهودات ، بل وبدون مجهودات ؟ .

ألا يرون أنه مع ضعف المسلمين وانصرافهم عن التفكير في أقدم واجباتهم يدخل في دينهم من أهل المذاهب الاخرى في كل بلد وبتمام الحرية ما لو أحصى لخرج عن الحصر سنوياً حتى يكاد لا يمر في أكثر الممالك يوم لا نسمع فيه بإسلام رجل أو امرأة بلا دعوة .

لسنا بصدد إظهار قوة الاسلام وضعف النصرانية في هذه المقالة . وإنما الذي نريد أن نقوله ان المبشرين قد أضروا بدينهم من حيث يريدون له الانتشار بما استخدموه من الاساليب التي لا تتفق مع دعوة جدية . لا أريد بقولي هذا انه من الممكن أن يقتصر بعض المسلمين لو اتبع المبشرون خطة مثلى في بث دعوتهم ، فان المسلمين أبعد الاعم عن تغيير دينهم بعد ما شهد الوجود بإسلامه اصوله من المغامر ، وإنما أريد - منه - أن ابين لهم أن طريقهم التي يتبعونها ليست عقيدة فقط . بل هي تضر بدعوتهم ضرراً لا حد له .

يشكو المبشرون من سرعة انتشار الاسلام وقوة تأثيره على النفوس ، ومن أنه سيلتهم افريقيا وآسيا بأجمعهما ، فتراهم بدلاً من أن يدرسوا مصدر هذه القوة

وذلك التأثير ليعطوا الحقيقة قسطها من الاحترام يتألبون على اطفاء نورها بنشر المطاعن فيها وبث المغامر عليها بمقالات لو انبرى لها أقل المسلمين علماً لما أبقى لها عيناً ولا أثراً . ولا ندري من أين أخذوا هذا الاسلوب لوقف تيار المبادئ القوية وصد تأثيرها الغالب ؟ .

إن لكل مبدأ من المبادئ قوة ذاتية معينة ومجال تأثير محدود ونفوس متهيئة لقبوله ، فلا المطاعن تضعف من قوته ولا الشتائم تضيق من مجاله ، بل الذي يؤثر فيه أن يسلط عليه مبدأ أرق منه ينازعـه السلطة على النفوس ، وأصل أعرق منه يجاذبه السطوة بمكانات الاذعان من القلوب ، فإن فقد خصومه هذا السلاح كانوا بتخبطهم في دفعه من أقوى عوامل انتشاره وأكبر مهيئات سلطانه :

هذا هو الأثر الذي نجم من مجهودات المبشرين بمصر والهند والعراق . بل وافريقيا وآسيا معاً . قابلو الاسلام بهذه الأسلحة المغلولة فزاد عدد اشياعه وقويت شدة تياره ، فجرف أمامه كل ما سواه فلم يبق ولم يذر مـ



الاسلام والمسيحية

ما عجت لشيء في حياتي عجبي لهؤلاء الذين يعجبون كثيراً مما كتبه « اللورد كرومر » عن الاسلام . كأنما كانوا يتوقعون من رجل يدين بدين غير دين الاسلام ويضن به ضنه بنفسه وماله أن يؤمن بالواحدانية ويصدق الرسالة الحمديّة ، ويقم الصلاة ويؤتي الزكاة ويحج البيت ما استطاع اليه سبيلا .

إن اللورد كرومر يعتقد كما يعتقد كل مسيحي مستمسك يسوعيته أن الاسلام دين موضوع ابتدعه رجل عربي بدوي امي ما قرأ في حياته صحيفة ، ولا دخل مدرسة ، ولا سمع حكمة اليونان ، ولا رأى مدينة الرومان ، ولا تلقى شيئاً من علوم الشرايع والعمران .

هذا مبلغ معتقده في ذلك الرجل ، فكيف يرى نفسه بين يديه أصغر من أن يناقشه وينظره ويخطئه فيما وضعه للناس من الشرايع والاحكام ! ! وكيف يسمح لنفسه أن ينظر اليه بالعين التي ينظر بها المسلم اليه من حيث كونه نبياً مرسلًا موحى اليه من عند الله تعالى بكتاب كريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أما ما نقرؤه أحياناً لبعض علماء الغرب المسيحيين من الثناء على الاسلام وإطراء أحكامه وآياته فهو مكتوب بأقلام قوم مؤرخين قد أدوا للتاريخ حق الامانة والصدق ، فلم يعثب التعصب الديني بكتاباتهم ولا تمشت الروح المسيحية في أقلامهم

ولا ريب في أن « اللورد كرومر » ليس واحداً منهم ، فإن من قرأ كتابه « مصر الحديثة » خيل إليه أنه يسمع صوت راهب في صومعته قد لبس قلنسوته ومسوحه وعلق صليبه في زناره .

فهل يحق بعد ذلك لأحد من المسلمين أن يندهش أو يذهب به العجب كل مذهب إذا رأى في كتاب « اللورد كرومر » ما يراه كل يوم في كتب المبشرين الأنجليكان وجرائدهم ومجلاتهم من الطعن على الاسلام وعقائده وشرايعه ! ؟

بلغ التعصب الديني بجماعة المبشرين ان حكموا بوجود اللحن في القرآن بعد اعترافهم بأنه كتاب عربي نظمه على حسب معتقدهم رجل هو في نظرهم أفصح العرب وليست مسألة الاعراب واللحن مسألة عقلية يكون للبحث العقلي فيه مجال ، وإنما الاعراب ما نطق به العرب واللحن ما لم ينطقوا به ، فلو أنهم اصطاحوا على نصب الفاعل ورفع المفعول مثلاً لكان رفع الأول ونصب الثاني لحناً ، ولكن المبشرين لم يدركوا شيئاً من هذه المسلمات واستدلوا على وجود اللحن في القرآن بقواعد النحو التي ما دونها مدونهاها إلا بعد أن نظروا في كلام العرب وتبعوا تراكيبه وأساليبه . وأكبر ما اعتمدوا عليه في ذلك هو القرآن المجيد .

فالقرآن حجة على النحاة ، وليست النحاة حجة على القرآن ، فإذا وجد في بعض تراكيب القرآن أو غيره من الكلام العربي ما يخالف قواعد النحاة حكمنا بأنهم مقصرون في التبع والاستقراء ، على أنهم ما قصرُوا في شيء من ذلك وما تركوا كثيراً ولا قليلاً ولا نادراً ولا شاذاً إلا دونوه في كتبهم ، فلا القرآن ملحون ولا النحاة مقصرون ولكن المبشرين جاهلون . فإذا كان التعصب الديني أنطق ألسنتهم بمثل هذه الخرافة المضحكة فليس بغريب أن نسمع من هذا الرجل المتشبه بهم هذا الطعن على الاسلام في عقائده وأحكامه .

إننا لا تنازع « اللورد كرومر » ولا أمثاله من الطاعنين على الاسلام

في معتقدهم ، ولكننا نحب منهم ألا ينازعونا في معتقدنا وأن يعطونا من الحرية في ذلك ما أعطوه لأنفسهم .

يقول « اللورد كرومر » : « إن الدين الاسلامي دين جامد لا يتسع صدره للمدينة الانسانية ولا يصلح للنظام الاجتماعي ، ويقول : إن ما لا يصلح له الدين الاسلامي يصلح له الدين المسيحي » . ويستدل على الاسلام بالمسلمين وعلى المسيحية بالمسيحيين .

فنقول له : في أي عصر من عصور التاريخ كانت الديانة المسيحية مبعث العلم ومطلع شمس المدينة والعمران ؟ أفي العصر الذي كانت تدور فيه رحى الحروب الدموية بين الارثوركس والكاثوليك تارة ، وبين الكاثوليك والبروتستانت اخرى بصورة وحشية فظيعة اسود لها لباس الانسانية وبكت الارض منها والسماء ؟ أم في العصر الذي كانت إرادة المسيحي فيه صورة من إرادة الكاهن الجاهل ، فلا يعلم إلا ما يُعلمه إياه ولا يفهم إلا ما يلقيه اليه ، فما كان يترك له الحرية حتى في الحكم على نفسه بكفر أو إيمان وبهيمية أو إنسانية ، فيكاد يتخيل في نفسه أن له ذنباً متحركاً وخيشوماً طويلاً ، وأنه يعيش على أربع إذا قال له الكاهن أنت كلب أو قال له : انك لست بانسان !! ؟ .

أم في العصر الذي كان يعتقد فيه المسيحي أن دخول الجمل في سُم الحياط أقرب من دخول الغني في ملكوت السموات ؟ .

أم في العصر الذي كان يحرم فيه الكاهن الاعظم على المسيحي أن ينظر في كتاب غير الكتاب المقدس ، وأن يتلقى علماً في مدرسة غير مدرسة الكنيسة !! ؟ .

أم في العصر الذي ظهرت فيه النجمة ذات الذنب فذُعر لرؤيتها المسيحيون ورفعوا الى البابا عرائض الشكوى فطردها في الجو فولت الأدبار !! ؟ .

أم في العصر الذي أهدى فيه الرشيد العباسي الساعة الدقاقة الى الملك شارلمان

فلما رآها الشعب المسيحي وسمع صوتها فر من وجهها ظناً منه أنها تشتعل على الجن والشياطين ! ! ؟ .

أم في العصر الذي ألقت فيه محكمة التفتيش محاكمة المتهمين بمزاولة العلوم فحكمت في وقت قصير على ثلاثمائة وأربعين ألفاً بالقتل حرقاً أو صلباً ! ! ؟ .
أم في العصر الذي أحرق فيه الشعب المسيحي فتناً حسناً بعد ما كسشط لحمها وحرق عظمها لأنها كانت تشتغل بعلوم الرياضة والحكمة ! ! ؟ .

هذا الذي نعرفه أيها الفيلسوف التاريخي من تاريخ العلم والعرفان والمدنية والعمران في العصور المسيحية ، ولا نعلم أكانت تلك المسيحية التي كان هذا شأنها وهذا مبلغ سعة صدرها صحيحة في نظرك أم باطلة ؟ .

وإنما نريد أن نستدل بالمسيحيين على المسيحية وإن لم نقف على حقيقتها كما فعلت أنت في استدلالك بالمسلمين على الاسلام وإن لم تعرف حقيقته وجوهره ، على أن استدلالنا صحيح واستدلالك باطل .

فإن المدنية الحديثة ما دخلت أوربا إلا بعد أن زحزحت المسيحية منها لتحل محلها كلماء الذي لا يدخل الكأس إلا بعد أن يطرد منه الهواء لأنه لا يتسع لها ، فإن كان قد بقي أثر من آثار المسيحية اليوم في أكواخ بعض العامة في أوربا فما بقي إلا بعد أن عفت عنه المدنية ورضيت بالابقاء عليه ، لا باعتبار أنه دين يجب إجلاله وإعظامه ، بل باعتبار أنه زاجر من الزواجر النفسية التي تستعين الحكومات بها وبقوتها على كسر شرّة النفوس الجاهلة ، فلا علاقة بين المسيحية والتمدين الغربي من حيث يستدل به عليها أو باعتبار أنه أثر من آثارها ونتيجة من نتائجها . ولو كان بينه وبينها علاقة ما افترقت عنه خمسة عشر قرناً كانت فيها أوربا وراء ما يتصوره العقل من الهمجية والوحشية والجهل ، فأنقذتها مسيحيتها ولا أغنى عنها (كهنوتها) أما المدنية الاسلامية فإنها طلعت مع الاسلام في سماء واحدة من مطلع

واحد في وقت واحد ، ثم سارت الى جانبه كمتفما لكتف ما ينكر من أمرها ولا تُنكر من أمره شيئاً .

فالمعبد في مسجده ، والفقيه في درسه ، والمعرب في خزانة كتبه ، والرياضي في مدرسته ، والكيميائي في معمله ، والقاضي في محكمته ، والخطيب في محفله ، والفلسفي أمام اسطرلابه ، والكااتب بين محابره وأوراقه . اخوة متصافون وأصدقاء متحابون ، لا يختصمون ولا يقتتلون ، ولا يكفر بعضهم بعضاً ، ولا يبغي أحد منهم على أحد .

أيها الفيلسوف التاريخي إن كان لا بد من الاستدلال بالأثر على المؤثر فالدنية الغربية اليوم أثر من آثار الاسلام بالأمس ، والانحطاط الاسلامي اليوم ضربة من ضربات المسيحية الاولى واليك البيان :

جاء الاسلام يحمل للنوع البشري جميع ما يحتاج اليه في معاده ومعاشه ودينه وآخرته ، وما يفيد منفرداً وما ينفعه مجتمعاً . هذب عقيدته بعد ما أفسدها الشرك بالله والاسفاف الى عبادة التماثيل والأوثان واحناء الرؤوس بين أيدي رؤساء الأديان ، وأرشده الى الايمان بالوهمية إله واحد لا يشرك به شيئاً . ثم أرشده الى تسريح عقله ونظره في ملكوت السماوات والارض ليقف على حقائق الكون وطبيعته ويزداد إيماناً بوجود الإله وقدرته وكمال تديره ، وليكون اقتناعه بذلك اقتناعاً نفسياً قلبياً ، فلا يكون آله صماء في يد الاهواء تفعل به ما تشاء . ثم ارشده الى مواقف تذكره بربه وتنبيهه من غفلته وتطرد الشرور والخواطر السيئة عن نفسه كلما ابتغت اليه سبيلاً وهي مواقف العبادات ، ثم اطلق له الحرية في القول والعمل ولم يمنعه إلا من الشرك بالله والاضرار بالناس ، وعرفه قيمة نفسه بعد ما كان يحبطها ، وعلمه الانسانية لا فرق بين فقيرها وغنيها ووضيعها ورفيعها وضعيفها وقويها ، وإن الملك والسوقة والشريف الهاشمي والعبد الزنجي أمام الله والحق سواء

وإن الأمر والنهي والتحليل والتحرير والنفع والضرر والثواب والعقاب والرحمة والغفران بيد الله وحده ، لا ينازعه فيها منازع ولا يملكها عليه أحد من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين . ثم نظر في أخلاقه فأرشده الى محاسنها ونفّرّه من مساوئها حتى علمه آداب الأكل والشرب والنوم والمشى والجلوس والكلام والتحية والسلام . ثم دخل معه منزله فعلمه كيف يبر الابن أباه ، ويرحم الوالد ولده ، ويعطف الأخ على أخيه ، ويكرم الزوج زوجته ، وتطيع الزوجة زوجها ، وكيف يكون التراحم والتواصل بين الأقرباء وذوي الرحم . ثم نظر في شؤونه الاجتماعية ففرض عليه الزكاة التي لو جمعت ووضعت في مواضعها المشروعة لما كان في الدنيا بائس ولا فقير ، وندبه الى الصدقة ومساعدة الأقوياء للضعفاء وعطف الأغنياء على الفقراء . ثم شرع له شرايع المعاملة الدنيوية ، ووضع له قوانين البيع والشراء والرهن والهبة ، والقرض والتجارة ، والاجارة والمزارعة ، والوقف والوصية والميراث ، ليعرف كل إنسان حقه فلا يغبن أحد أحداً . ثم قرر له عقوبات دنيوية تمنعه أن يغني بعضه على بعض بشتم أو سب ، أو قتل أو سرقة ، أو انتهاك حرمة ، أو مجاهرة بمعصية ، أو شروع في فتنه ، أو خروج على أمير أو سلطان . ثم نظر في شؤونه السياسية ، فقرر الخلافة وشروطها ، والقضاء وصفاته ، والامارة وحدودها ، وقرر كيف يعامل المسلمون مخالفينهم في الدين البعيدين عنهم والنازحين اليهم ، وذكر مواطن القتال معهم ومواضع المسالمة لهم .

وجملة القول إن الدين الاسلامي ما غادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وماترك الانسان يمشي في ميدان هذه الحياة خطوة من مهدد الى لحدّه إلا مديده اليه ، وأنار له مواقع أقدامه وأرشده الى سواء السبيل .

طلعت هذه الشمس المشرقة في سماء الغرب فلاّت السكون نوراً وإشراقاً ، واختلف الناس في شأنها ما بين معترف بها ومنكر لوجودها ، ولكنهم كانوا جميعاً

سواء في الارتفاع بنورها والاستنارة بضياءها على تفاوت في تلك الاستنارة وتوسع في ذلك الارتفاع . طلعت هذه الشمس المشرقة فتمشت أشعتها البيضاء الى اوربا من طريق اسبانيا وجنوب ايطاليا وفرنسا فأبصرها عدد قليل من أذكىاء الغربيين فانتبهوا من رقدهم واستيقظوا من سباتهم ، ورأوا من جمال الدين الاسلامي وشرايع الكون ونظاماته وقواعد الحرية والمساواة ما لفت نظرهم الى المقابلة بين المجتمع الغربي الخامل الضعيف والمجتمع الشرقي النابه اليقظ ، فقالوا أيمكن أن يعيش الانسان حراً على هذه المسكونة لا يستعبده ملك ولا يسترقه كاهن أيمكن أن يبيت المرء ليلة واحدة في حياته هادئاً في مضجعه مطمئناً في مرقد لا يروعه دولا ب العذاب ولا سيف الجلال ؟ أيمكن أن تملك النفس حريتها في النظر الى نظام العالم وطبائعه ودراسة العلوم الكونية ومزاولتها ، أيمكن أن يطلع فجر المدنية على هذا المجتمع الغربي فيمحو ظلمته التي طال عهدنا بها حتى غشيت أبصارنا فما يكاد يرى بمضنا بعضاً ؟ .

كانت هذه الخواطر المترددة في عقول اولئك الأذكىاء هي الخطوة الاولى التي مشتها اوربا في طريق المدنية والعمران بفضل الاسلام وشرايمه التي عرفها هؤلاء الافراد من مخالطة المسلمين في اوربا ومطالعة كتبهم ومناظرة حضاراتهم ومدنيتهم ثم أخذوا يعاملونها الناس سراً ويثنونها في نفوس تلاميذهم شيئاً فشيئاً ويلقون في سبيل نشرها عناءاً شديداً .

واستمر هذا النزاع بين العلم والجهل قروناً عدة حتى انتهى أمره بالثورة الفرنسية فكانت هي القضاء الاخير على الوحشية السالفة والهمجية القديمة .

أيها الفيلسوف التاريخي انك لا بد تعلم ذلك حق العلم لأنه أقل ما يجب على المؤرخ أن يعلمه كما تعلم أن المدنية الاسلامية إذا وسعت غيرها فأحرى بها أن تسع نفسها ، ولكن التعصب الديني قد بلغ من نفسك مبلغه فما كفاك إذ أنكرت فضل صاحب الفضل عليك حتى أنكرت عليه فضله في نفسه .

لا حاجة بي أن أشرح لك المدنية الاسلامية أو أسرد لك أسماء علمائها وحكائها ومؤلفاتهم في الطبعة والكيمياء والفلك والنبات والحيوان والمعادن والطب والحكمة والأخلاق والعمران ، أو أعدد لك مدارسها وجامعاتها ومراسدها في الشرق والغرب ، أو أصف لك مدنها الزاهرة وأمصارها الزاهرة وسعادتها وهناءها وعزتها وسطوتها فأنت تعرف ذلك كله إن كنت مؤرخاً كما تقول . غير اني لا أنكر ما لحق بالمسلمين في هذه القرون الأخيرة من الضعف والفتور ، وما أصاب جامعتهم من الوهن والانحلال ، ولكن ليس السبب في ذلك الاسلام كما تتوهم ، بل المسيحية التي سرت عدواها اليهم على أيدي قوم من المسيحيين أو أشباه المسيحيين لبسوا لباس الاسلام وتزيوا بزيه ودخلوا بلاده وتمكنوا من نفوس ملوك الضعفاء وامرائه الجبناء ، فأمسدهم بشيء من السطوة والقوة تمكنوا به من نشر مذاهبهم السقيمة وعقائدهم الخرافية بين المسلمين ، حتى افسدوا عليهم مذاهبهم وعقائدهم ، وأوقعوا الفتنة فيهم وحالوا بينهم وبين الاستمداد من روح الاسلام وقوته فكان من أمرهم بعد ذلك ما كان .

أيها الفيلسوف التاريخي لا تقل ! ننا متعصبون تعصباً دينياً فانك قد أسأت اليينا والى ديننا . فلم نر بداً من الذب عنا وعننا بما نعلم أنه حق وصواب ، على أنه لا عار علينا فيما نقول ، وهل التعصب الديني إلا اتحاد المسلمين يداً واحدة على الذود عن أنفسهم والدفاع عن جامعتهم وإعلاء شأن دينهم ونصرتهم حتى يكون الدين كله لله .

إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي

البحث عن الآخرة

« الآخرة » هي الحياة التي وعد الله عباده بها في كتيبه المنزلة على رسله .
وقد انقسم الناس قديماً وحديثاً بأزاء هذه العقيدة الى ثلاث رتب :
أولها رتبة أهل الله وخاصته ، وهؤلاء قد انفتق لهم حجاب المادة فرأوا
ما وراءها رأي العين فآمنوا بالمشاهدة والعيان . ومن هؤلاء النبيون والصديقون .
وقد تنال هذه الدرجة هبة من الله كما في النبوة ، أو بالكسب كما يحصل لأهل
الرياضات ورجال المجاهدات .

ثانيها رتبة أهل البصائر الثابتة والفطر السليمة ، وهؤلاء يكفهم مجرد النظر
في ملكوت الله وما أودع فيه من أعلام بينة وأدلة قاطعة .
ثالثها رتبة الحسيين وهم الذين لا يرضيهم من العقائد إلا ما يؤثر في حسهم
ويدهش مشاعرهم . وهم غالب أهل هذا العصر ، فإن العلوم الطبيعية وتشدد أهلها
في رد العقائد الى النواميس المعروفة قد أحاط الأديان ومقرراتها بشبه كثيرة جعلت
الايان بعوالم الغيب فوق مقدور الآخذين بها والمتابعين لهم .
فاما الرتبتان الأولىان فقد هداها الله بنوره ودلهم على الطريق بتوفيقه .

وأما الرتبة الثالثة وهي الطالبة للبراهين المحسوسة ، فقد كشف الله لها عالم الروح
ما ينفع غلتها ويشفي علتها . ومن يتأمل في اجاث العلماء في التنويم المغناطيسي

واستحضار الأرواح تأخذه الدهشة فيتحقق أن الخالق الحكيم ما خلق في النفوس الحسية هذه النزعة إلا وقد كشف لها بازائها ما يبلغ حاجاتها . وقد حدث في عالم العلم الاوربي والامريكي انقلاب مدهش من هذه الجهة لا يزال أكثر كتاب الشرق في غفلة عنه ، ولا يزال بعض المؤلفين فيهم يتسمون طريق فلاسفة القرن التاسع عشر في الاحاد وتكرار عوالم الغيب ، فان القتهم الى ذلك الحادث الجلل قالوا هذه تدليسات بعض الدجالين مع أن مقرريها أئمة النهضة العلمية في اوربا وامريكا فتراهم يلقون هذا القول على عواهنه غير حاسبين للمسؤولية حسابا . والله يعلم أن إهمهم من تسميم عقول الناس لعظيم .

العقيدة بالآخرة قديمة كقدم الدين نفسه ولللام في تصورهما عقائد لا بد من الألمان بها هنا قبل الدخول في الأدلة المقررة على حقيقتها ، فنقول :

قال العلامة « هربرت سبنسر » في المجلد الأول من كتابه على « اصول علم الاجتماع » : « لما كان الانسان في عهده الأول غير قادر على التفكير وغير حاصل على لغة تسمح له بانعام النظر فقد أدرك عالم الآخرة على قدر استطاعته . ومن هنا نشأت هذه الفوضى في عقائده فيما يتعلق بحالة الأشخاص بعد موتهم » .

واننا لنصادف لدى القبائل التي تعتقد بان الموت هو الفناء المطلق عقائد اخرى لا تتفق مع مذهبها ، كاعتقاد بعض شعوب افريقية التي زارها (شوتقورث) في وجود أرواح مؤذية في بعض المغارات هي أرواح الهاربين الذين ماتوا فيها فتراهم يتجنبون المرور بها .

ويعتقد بعض الشعوب المتوحشة أن الحياة في دار بعد هذه الدار تتبع المعاملة التي كابدها الجسد . فان في وتلاشى فنت شخصية معه ، وإن سلم من هذا التلاشي وسكنت روحه في عالم الآخرة فقد تقى على أقسى الحالات إذا اتفق أن قريب الميت مات في احدى الحروب موة ثانية أو هلك في الطريق الموصل الى أرض

الأموات أو أكلته الآلهة . ويعتقد أهالي جزائر (توتجا) بأن لا خلود إلا للرؤساء . وهناك امم اخرى تعتقد أن لا خلود إلا للشجعان ، فهو مكافأة للشجاعة . وروى (برتون) أن في جو اتمالا من امريكا قبيلة هادئة مطمئنة تعتقد بأن لا حياة اخرى إلا لمن يموت موتاً طبيعياً . أما من عداهم فلا أمل في بقائهم في عالم بعد هذا العالم . وعليه فهم يدعون أجساد الذين يقتلون للحيونات تنهشهم نهشاً والآريون الافدمون كانوا يعتقدون أن الحياة الدنيا منحة من آلهتهم يهبونها لمن شأوا ويمنعونها من شأوا ، ولذلك يجب على من يريد لها أن يضحي لها الأضاحي ويقرب لها القرابين . وتعتقد أقوام اخر أن في الحياة الاخرى مorte اخرى وهي القاضية الى الأبد .

ومن القبائل من تعتقد أن الموتى الذين يظهرون لبعض الناس في موتهم هم الأحياء في الآخرة دون سواهم من لا يظهرون لأحد . قال العلامة هربرت سبنسر : إن الامم المتوحشة قد ترقق من إدراك عالم اخروي غير متناه .

وأما الحال الذي يكون عليه الميت في عالم الآخرة فهو لا يفرق في نظر المتوحشين عن حاله في هذا العالم ، فأعماله وميوله تلازمه هناك ، فيعتقد (الشيتوكيون) أنه متى جن الليل استيقظت أرواح الموتى وهبت تبحث عن الغذاء . ويعتقد سكان جزائر (فيجي) أن الموتى يزرعون ويحصدون ويعيشون في اسرة ، ويتقانون ويعملون ما يعمله الأحياء .

ومن هنا يعتقد (الابوينيون) أن الموتى يعملون ولائم من لحوم الابل . ويعتقد (السكريكون) أن موتاهم ينتقلون الى بقاع يكثر فيها الصيد ويرخص فيها ثمن الحبوب ، وتدوم فيها طول السنة ، وتنفع فيها عيون لا تنضب أبداً .

ويؤمل (الباجونيون) أن يتمتعوا بعد موتهم بسكر دائم . ويعتقد أهل (ابريد الجديدة) في الاوقيانوسية أنهم بعد موتهم يذهبون الى حيث يجدون

جوز الكوكو وثمر شجر الحبز على أجود ما يكون وبكمثرة ليس معها قلة . ويعتقد (التوديو) أن ابقارهم تتبعهم بعد موتهم لاعطائهم لبنا .

ويعتقد سكان (بشانيا) من جزر الاوقيانوسية أنهم بعد موتهم يتمتعون بقوة في الصيد لا تمك ولا ينجح لا يخب .

ويعتقد « الداكوتاهايون » أنهم بعد موتهم لا يكون من ذبح الفرائس ومن محاربة أعدائهم الاقدمين .

ولما كانت هذه عقائد الكثيرين من المتوحشين فقد اعتادوا أن يضعوا مع الميت أسلحته حتى يستخدمها لاغراضه الجديدة ، ومنهم من يضع مع النساء ادواتهن المنزلية ومع الاطفال ألعابهم .

ومن القبائل وهم (الايليوليون) من يعلق ملابس الميت على شجرة بجانبه ليلبسها إن أراد الخروج من القبر . ويضع السامويديون ، والاسترايليون الغربيون ، والداماريون ، وغيرهم من شعوب استراليا مع الميت كل ما يمتلكه لينتفع به بعد موته ولما دفن أهل جزيرة مدغشقر آخر مساكنهم لفوها في خسمائة رداء من الحرير ووضعوا في ثناياها عشرين ساعة ومائة سلسلة من الذهب وخواتم وحلي وأساور وجواهر اخرى ، ووضعوا معها بعد كل هذا خسمائة قطعة من الذهب .

ويدفن (الدياكيون) مع موتاهم غير أموالهم الخاصة أموالاً اخرى ، حتى ان الاب الذي يتتلى بموت عدة من أولاده يقع في الفاقة والمترية من بعدهم .

اعتاد (الكرجزيون) أن يدفنوا مع رئيسهم خيوله التي كان يحبها . وهذه عادة الكثيرين من المتوحشين ، وقد تغالى التوديون في هذه العادة ، حتى أنهم يدفنون مع الميت كل ما يملكه من الحيوانات . ويدفن متوحشو بيرو من امريكا مع موتاهم كيساً من الكوكو والذرة . . . الخ ليستخدمها في زراعة غيطة في الآخرة ومن المتوحشين من غلوا غلواً كبيراً في هذه العقائد حتى أنهم ليضحون مع

الميت نساءه وعبيده وبعض خاصة أصحابه ليأنس بهم في الآخرة . وهذه العادة توجد أيضاً عند الشعوب التي بلغت شيئاً من الحضارة ، فتصادف في بولينيزيا وأهل خالدونيا الجديدة ، وعند الفيجيين . والتونجانيين . والشينوكيين . والكرائبيين . والداكوتاهيين . وعند شعوب الكونغو وسود أواسط افريقية وسواحلهما ، وهي في غاية الانتشار بالداهومي . وفي مكسيكا من امريكا كانوا يذبحون مع كبيرهم كاهناً ليقوم له بالخدمة الدينية في العالم الآخر . وهنود فيرابار متى أشرف السيد لديهم على الموت يمدون الى قتل جميع عبيده ليهيئوا له محلاً في عالم الآخرة حتى إذا انتهى اليه وجده معداً له .

وكان أهل مكسيكا يقتلون مع ملكهم بعض الذين كانوا يتأهب بهم الملك من المضحكين ليتلهم بهم في عالم الآخرة . وكان عدد الضحايا عند المكسيكيين يجب أن يناسب قدر الميت . وقد روى المؤرخون أن من الموتي هنالك من يبلغ ضحاياهم المائتين . وروي أنه متى مات ملك البيرو كانوا يضجون له خدمه وسراريه المحظيات ممن يبلغ عددهم أحياناً ألف نسمة .

روى العلامة « جارسيلازو » أنه متى مات ملك البيرو كان نساؤه يتدافعن للحاق به ، وكان يزيد عددهن لدرجة أن رجال الحكومة يتدخلون في الامر ويقررون بأن من ذهب معه منهن يكفيه . وروي (سيرزا) أن من النساء هنالك من يتسابقن لقتل أنفسهن علامة على اخلاصهن للميت .

ولدى اليوروبانيين في افريقية : يعتمد أصحاب الميت لتعاطي السم ليلحقوا به هذا عدا نساؤه وجواريه اللاتي قتلن من أجله .

وفي الكونغو كان إذا مات الملك تصعد على قبره اثنتا عشر شابة لتدفن معه أحياء ، وقد كن يتزاحمن لنيل هذه الحظوة ، حتى أن بعضهن كان يقتل بعضاً من شدة المزاحمة .

ومن عادة الداهوميين انه متى مات الملك ابتداءً نساؤه بكسر جميع ما في بيته ثم يعمدون الى إتلاف أمتعتهم ، ثم يتولى بعضهن قتل بعض . وقد حدث مرة أن مائتين وخمسين امرأة قتل بعضهن بعضاً لهذه الغاية قبل أن يتوصل الملك الجديد لمنعهن . وروي (كان) أنه إذا مات ولد عزيز لأحد الناس في (اينتون) ذبحت له امه أو عمته أو جدته لتصحبه في العالم الآخر .

إثبات الآخرة

إثبات الدار الآخرة من أهم أغراض الفلسفة القديمة والحديثة . وإنا هنا موردون طرفاً من كلتا الفلسفتين وأحسن مصدر ننقل عنه أدلة الفلسفة القديمة : هي كتب العرب الذين أجادوا النقل عن الحكمة اليونانية وزادوا عليها ما أثمره لهم نظرهم في السكون وتأملهم في كائناته .

قال العلامة نظام الدين الحسن النيسابوري في تفسيره : اعلم أن للعلماء في إثبات المعاد طريقين : الاولى طريقة القائلين بالحسن والقبح العقليين ، والثانية طريقة من يقول لا يجب على الله شيء أصلاً ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

أما الفريق الأول فلهم على وجوب المعاد حجج عقلية ، منها أنه تعالى خلق الخلق وأعطاهم عقولاً وقدرأ ، فيجب في حكمته أن يرغبهم في الخيرات ويزجرهم عن السيئات . وهذا الترغيب والزجر لا يمكن إلا بربط الثواب على الفعل والعقاب المرهب غير حاصل في الدنيا ، فلا بد من دار اخرى هي دار الآخرة ليحصل فيها ذلك وإلا لزم أن يكون الله تعالى كاذباً في قوله : ليجزي . . . الخ

فان قيل لم لا يكفي في الترغيب والردع ما أودع الله في العقول من تحسين الخيرات وتقييح المنكرات فلا يحتاج الى الوعد والوعيد ؟ ولئن سلم فلم لا يجوز أن يكون الغرض من الترغيب والترهيب نظام العالم لأنه يفعل ذلك ولا يلزم منه الكذب على الله . سلمنا أنه يفعل ، لكن لم لا يجوز أن يكون الثواب والعقاب

هو ما يصل الى الانسان في دار الدنيا من الراحة والآلام .

فالجواب : إن العقل وإن كان يدعو الى فعل الخير وترك الشر إلا أن الهوى والنفس يدعوان الى الانهماك في الشهوات الجسدية ، وإذا حصل هذا التعارض فلا بد من مرجح وما ذاك إلا ترتيب الوعد والوعيد على الأعمال ، وتجويز الخلف في ذلك منافع للغرض . وأخذ الاجرة إنما يكون بعد الفراغ من العمل ، والعبد ما دام في الدنيا فهو في العمل . وقد نرى أزهد الناس وأعلمهم مبتلى بالآفات والبليات ، وأفسقهم وأجهلهم في أتم اللذات والمسرات .

ومنها أن صريح العقل يوجب في الحكيم أن يفرق بين المحسن والمسيء والمظلوم والظالم ، وأن لا يجعل من كفر به وعصاه كمن آمن به وأطاعه ، وليس هذه التفرقة في الدنيا . كما قيل :

كم عالم عالم أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

فلا بد من دار اخرى يظهر فيها التفاوت .

ومنها أنه كلف عبده بأن يعبده ، والحكيم إذا أمر عبده بشيء فلا بد أن يجعله فارغ البال منتظم الأحوال ، حتى يمكنه الاشتغال بأداء تكليفه ، والناس جيلوا على طلب اللذات والتبادر الى تحصيل أسباب الراحة ، فلو لم يكن زاجر من خوف المعاد لوقع الهرج والمرج والفتن وحينئذ لا يتفرغ المكلف لأداء ما أمر به . فان قيل لم لا يكفي في نظام العالم مهابة الملوك وسياستهم .

(قلنا) إن لم يكن السلطان قادراً قاهراً على الرعية فلا فائدة فيه وإن كان قاهراً غالباً ولا خوف له من المعاد فينبذ يقدم على أنواع الظلم والايذاء لان الداعية النفسانية قائمة ولا وازع له في الدنيا ولا في الآخرة .

ومنها أنه تعالى خلق هذا العالم وخلق فيه الناس ، والعبث لا يليق بالحكيم الرحيم . فوجب أن يقال أنه خلقهم لمقصود ومصلحة وخير ، وليس ذلك في الدنيا

لأن لذات هذا العالم جثمانية لا حقيقة لها إلا إزالة الألم ، وإزالة الألم أمر عديم . وكان هذا حاصلًا قبل الوجود ، فلا يبقى للتخليق فائدة . وأيضًا ان لذات الدنيا مشوبة بالألام بل اللذة في الدنيا كالقطرة من البحر . فعلمنا أن للراحة داراً أخرى فان قيل أليس أنه يعذب أهل النار لا لمصلحة ولا فائدة لهم .

(قلنا) الفرق ان ذلك الألم استحقوه على أعمالهم ، وهذا الألم الحاصل في الدنيا غير مستحق . فوجب أن يعقبه خيرات عظيمة . وإلا فينافي أنه أرحم الراحمين ومنها أنه لو لم يحصل للانسان معاد لكان أخس من جميع الحيوانات لأنها لا تشاركه في اللذات الحسية ، لان الروث في مذاق الجمل كاللوز في فم الانسان ، والانسان يزيد عليها بعقل وهو سبب تألمه وتأذيه في أغلب الاحوال يتفكر في الأحوال الماضية فيتأسف ويتأمل في الأحوال الآتية فيخاف ، فلو لم يكن للانسان معاد به يكمل حاله وتظهر سعادته كان عقله سبباً لشقائه وخسسته دون شرفه ومزيته ومنها أن ايصال النعم اما أن يكون مشوباً بالآفات أو خالصاً عنها . فلما أنعم الله علينا في الدنيا بالمرتبة الاولى وجب أن ينعم علينا بالمرتبة الثانية في دار أخرى إظهاراً لكمال القدرة والرافة والحكمة . فهناك ينعم على المطيعين ويعفو عن المذنبين ويزيل الغموم والهموم والآفات والخافات .

ومما يقوي هذا الكلام أن الانسان دائماً في الترقى من حين كونه جنيناً في بطن امه الى أن يخلص من ذلك السجن ، ويخرج الى فضاء الدنيا ، والى أن ينتقل من تناول اللبن والشهد الوثيق في المهد الى تناول الأطعمة اللذيذة والمشي والعدو الى أن يصير أميراً نافذ الحكم على الخلق ، أو عالماً مشرفاً على حقائق الأشياء فوجب بحكم هذا الاستقراء أن يكون حاله بعد الموت أشرف وأبهى من اللذات العاجلة المشوبة بالألام .

ومنها طريقة الاحتياط ، فإذا آمننا بالمعاد وتأهبنا له فان كان هذا المذهب حقاً

فقد نجونا وهلك المنكر ، وان كان باطلاً لم يضرنا هذا الاعتقاد . غاية ذلك فوات بعض الذات الزائلة المشوبة بالمنغصات .

ومنها أن أحوال الانسان من صباه الى هرمه تضاهي حال الأرض من الربيع الى الشتاء . ثم إنا نرى الأرض في الربيع الثاني تعود الى تلك الحالة . فلم لا يعقل مثل ذلك في الانسان ؟ .

ومنها أن الانسان إنما يتولد من نطفة تولدت من الأغذية الكامنة في الاجزاء العنصرية المنفردة في مشارق الارض ومغاربها فإذا مات وتفرقت تلك الاجزاء فكيف يمتنع أن تجتمع مرة اخرى على مثال الاجتماع الاول .

ومنها أن النظر في تغيرات العالم أدى الى إثبات صانع حكيم قادر قاهر ، والعقل يحكم بأن هذا الحكيم لا يليق به أن يترك عبده هملاً يكذبون عليه ويجورون فلا بد من أن يكون له أمر ونهي ووعد ووعيد من غير تجويز خلف فيها كما مر ، ولا يتحقق جميع ذلك إلا في دار الجزاء .

وأما الفريق الآخر الذين لا يعللون أفعال الله تعالى برعاية المصالح فانهم يقولون المعاد أمر جائز الوجود ، لان تعلق النفس بالبدن لما كان في المرة الاولى جائزاً فالمرة الثانية أيضاً جائز .

ثم إن إله العالم قادر مختار عالم بجميع المعلومات المكليات والجزئيات فلا يعجزه تمييز جزء بدن زيدوان اختلط بأجزاء التراب والبخار عن أجزاء بدن عمرو . وإذا ثبت هذا الامكان وقد دل الدليل على صدق الانبياء عليهم السلام وعلى أن القرآن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ثم إنهم قطعوا بوقوع هذا الممكن والقرآن مشحون بآيات البعث والجزاء فوجب علينا القطع بالمعاد الجسماني .

شبهة المنكرين الأقدمين

اما شبهة المنكرين فمن ذلك أنهم قالوا الدار الآخرة إن كانت شراً من هذه فالتبديل سفه ، وإن كانت مثلها عبث ، وإن كانت خيراً منها فاما أن يقال إله قادر على خلق ذلك الوجود أولاً ثم تركه وفعل الارذل فذلك سفه ، أو يقال أنه ما كان قادراً ثم حدثت له القدرة فذلك انتقال من العجز الى القدرة ومن الجهل الى الحكمة فهو محال على القديم .

والجواب : أن كلاً من الدارين خير في وقتها فالأولى لتحصيل الكمالات النفسانية الممكنة للنوع الانساني من قبيل العلم والعمل ، والاخرى للرحمة والجزاء . ومن ذلك أنهم قالوا حركات الافلاك مستديرة والمستدير لا ضده ، وما لا ضد له لا يقبل الفساد .

والجواب : أن كل جسم مركب ، وكل مركب ينحل لا محالة ، ولئن سلمنا انها ازلية فحركاتها غير ازلية ، لأن الحركة عباره عن الانتقال من حال الى حال . وهذه الهيئة تقتضي المسبوقية بالغير ، فكان الجمع بين الازل والحركة محالاً . ولئن سلم أن الحركة ازلية فلم لا يجوز أن يكون بعض أوضاع الافلاك مقتضياً لاعادة المعدومات من الاشخاص الانسانية ومن ذلك (أي من شبههم) أنهم قالوا « إن الانسان عبارة عن هذا البدن ذي الاجزاء لا كيف كانت بل بشرط وقوعها على تأليف مخصوص . لأن أجزاء البدن كانت موجودة قبل هذا الانسان ، والموجود مغاير للمعدوم . فاذا مات الانسان وتفرقت أجزاؤه فقد عدمت تلك الصورة والاعراض ، وعود المعدوم محال .

وأجيب بأن الانسان ليس عبارة عن هذا الجسد ، وإنما هو النفس سواء كانت جوهرًا مجرداً مفارقاً أو جسماً مخصوصاً لطيفاً باقياً في جميع أحوال البدن من الصبا الى الهرم مصوناً عن التحلل والتبدل ، وهو الذي يسميه المتكلمون

الاجزاء الاصلية ومن ذلك أنهم قالوا : إذا قتل إنسان واغتذى به إنسان آخر
لزم بقاء تلك الاجزاء في بدن واحد من الشخصين وذلك محال .
وأجيب بعين ما مر : وهي أن الاجزاء الاصلية لا تصير جزءاً من إنسان
آخر . انتهى ما نقلناه عن التيسابوري .

ويرى القارىء مما مر أنه خلاصة ما استطاع أهل التعبير الوصول اليه في
الدلالة على الآخرة وهو مقنع لطائفة معينة من الناس ، ولكنه بالنسبة لطائفة
اخرى مما لا ييل غلة ولا يشفي علة لانها لتأثرها بفلسفة العصر الحاضر تتطلب دليلاً
محسوساً وشاهداً عياناً .

شبهة العصريين على الآخرة

كان القرن التاسع عشر عصر شكوك وإلحاد في الدين والروح والآخرة لانه
كان بمثابة رد فعل ضد عصر سبقه كان الناس فيه يعتقدون الاباطيل ويجسمون الخيالات
صاحت الفلسفة الحسية لا فرق بين الانسان والحيوان فكلاهما فرعاً شجرة
واحدة . وعليه فلا حياة له بعد هذه الحياة ، وكيف يعقل أن تكون حياة اخرى
بعد أن ينحل الجسد ويزول تركيبه وتلاشى صورته !! ؟ .

نعم إنكم معشر الاعتقاديين تزعمون أن للانسان روحاً خالدة لا تزول
بزوال الجسد ، فهل رأيتم تلك الروح ؟ هل تحققت من وجودها بالتجربة ؟ أم نحن
فقد شراً حتماً الاجساد فلم نثر على شيء من ذلك ، وما كان لنا أن تثبت شيئاً لم نره
ولم يقم لنا دليل محسوس على وجوده .

نعم إن الحيوان ليس كالجماد ، فانه يحس ويتحرك ويعقل ويريد ، ولكن
ذلك كله مقتضى تركيبه العضوي والانسان في هذا وسائر الحيوانات سواء . فمتى
انحل هذا التركيب بطلت الحياة وتلاشى وجود الشخص ومحى من لوح العالم
الحيواني . فادعواكم معشر الاعتقاديين وجود الروح في الجسد ما هو إلا عالة

تعملون بها لتبرروا سلوككم جادة البطالة ولتعزيزوا بهذا الخيال في هذا العالم الفاني فاعتقدوا بها أولاً فاعتقدوا سواء عليكم لقد آن للعالم الانساني أن يطلق هذه الخيالات الطفلية ويدرك حقيقة الوجود على ماهو ، ليعمل مدفوعاً برادته واختياره لا بخوف عقاب أو رجاء ثواب . فان فاته بفوات هذه العقيدة الامل في الخلود ، فانه يستعيض عنه بما يحصله له اعتقاد الحقائق من قوة الارادة وثبات العزيمة والخضوع للنواميس بنفس مطمئنة .

هذه شبهة العصرين وهي أقوى شبهة يمكن أن تقوم على عقيدة إذ هي تطالب بالحس ، ومجال الحس كما لا يخفى أضيق المجالات بالنسبة للاستدلال على المعقولات . غير أن الخالق الحكيم الذي قال : ﴿ كُتِبَ لِلَّهِ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِي عَزِيزٌ ﴾ . قد حقق وعده فأرسل للناس من طريق الحس آيتين ظلت أعناقهم لها خاضعين وهما : النوم المغناطيسي ، واستحضار الأرواح .

الشرقيون معذورون إذا تعجبوا من قولنا انهما آيتان من آيات الله في هذا العصر ، ويزيدهم عجباً أن في بلادهم كتباً بأشرفين تصدروا لتعالم الناس إذا سئلوا عن هاتين الآيتين سخروا من السائلين وعدوهم من الهاذين . والله يشهد انهم لجاهلون .

إن مسدهشات النوم المغناطيسي أصبحت اليوم من مقررات العلوم الرسمية ، ومذهب مناجاة الأرواح صار له من الاتباع ما لا يقل عن الاربعين مليوناً وجلهم من العلماء والحكماء ورجال الفضل . وسنريك ذلك تفصيلاً في محله من هذا الكتاب النوم المغناطيسي عبارة عن نوم صناعي يحدثه إنسان على آخر بواسطة اشارات محدودة ووسائل مقررة ، فاذا نام الشخص صار إنساناً جديداً يعلم ما يجول في نفسه وما يخطر في ذهنك وما يحويه جيبك من كتب وخطابات فيقرؤها ولم يرها . هذه أول درجة . وهناك درجة ثانية يظهر المنوم فيها أرقى حالا وأكبر

مواهب . فان قلت له لتذهب روحك الى بيت فلان ولتظهر لهم عياناً فعل ، فظهرت روحه لأهل الدار فدعروا منها وظنوها عفريتاً . وكل هذه حقائق ثابتة قررها العلماء في كتبهم .

ومن مدهشات النوم المغناطيسي وهو من أقوى الأدلة على أن الانسان لا ينظر ولا يعقل بجسده بل بروحه . انك لو أمنت جاهلاً بحتاً ثم أقيت عليه أعوص مسائل الفلسفة والرياضيات أجابك عنها بما يحسبك بها أدق عالم فيها . وقد ذكروا أن جمهوراً من العلماء أناموا فلاحاً عمره ثمانية عشر عاماً فالتقوا عليه أعوص مسائل الفزيولوجيا والبكتريولوجيا فأجاب عنها بما لا يحسنه واحد منهم والأغرب من ذلك أنهم ألقوا اليه مسائل رياضية لا يحلها في العالم إلا أربعة من كبار العلماء أو خمسة ، طلبوا اليه حلها على طريقة « نيوتن » فأجابهم عن الحل في الحال ولم يعتمد على قلم ولا قرطاس بل ولا جدول « اللوغاريتمات » الضروري في هذه الحال .

لهذا قال العلامة الكبير الاستاذ (شاركو) أكبر أعلام الطب العصبي في فرنسا : « إن النوم المغناطيسي عالم مدهش ، تجد فيه بجانب المشاهدات المحسوسة المادية التي تنطبق على علم الفزيولوجيا أشياء أخرى فوق الطبيعة لم يستطع أحد أن يفسرها إلا أن ولا تنطبق على أي قانون تشريحي) .

وقال عنها العلامة « بيو » في كتابه المذاكرات على المغناطيسي الحيوي : « النوم المغناطيسي يثبت وجود الروح وخلودها ويبرهن على إمكان اختلاط أرواح متجردة عن المادة بأخرى لم تزل مكتسبة بها » .

وكتب عنها الكاتب الطائر الصيت « جول بوا » في جريدة الطان الشهيرة في ٣١ يونيو من سنة ١٩٠٥ م يقول : « إن ما حدث من أنواع الشفاء بواسطة التنويم المغناطيسي مما يكاد يعد معجزة ، وما حصل من الفوائد من فن التلقين

بالاستهواء وما يشاهد من مزايا الاعتقاد وثبات الارادة والمحاورات المدهشة بواسطة (التلباتيا) ومسائل الأخبار بالمستقبل وقراءة الافكار وظهور شبح الانسان في مكان بينما يكون هو في محله لم يتحرك واستخراج القوة الحيوية من الجسد (وقد توصلوا الى رسمها وقياسها) . وما يراه الانسان من الغيوب في النوم والانباء بالامور المستقبلية ، والخوارق الحاصلة من الوسطاء والفقراء الهنود التي هي في أكثر الأحوال صحيحة صادقة . كل هذا يتكوّن منه مجموع عظيم من حوادث ومشاهدات يستحيل على الانسان أن يزدريها أو أن يعبأ بها انتهى .

هذا قليل من كثير من أقاويل العلماء في أمر النوم المغناطيسي والعلوم الانسانية الحديثة ومبلغ دلائلها بالحس على وجود الروح الانسانية . ولكن بعض كتاب الشرق لا يجدون في أنفسهم حرجاً من الازدراء بهذه المسائل ، والسخرية منها وتسميم فطر الناس بتعاليم إلحادية حيوانية في قوالب فلسفية جامدة .

اما مبلغ تأثير فن مناجاة الأرواح على علماء اوربا من جهة التصديق بالروح والدار الآخرة فما لا تستقل به هذه المادة . والمتتبع يجد في محله من كتب علماء القرن ما ينفع غلته ، ولكننا نجتزئ هنا بالشيء اليسير إيدلاً على مبلغ ذلك التأثير العظيم .

قال العلامة الكبير « ولیم کروکس » أحد رؤساء الجمعية العلمية الملكية بـ (لوندرة) في كتاب نشره في إثبات صحة مناجاة الأرواح قال : « وبما أنني متحقق من صحة هذه الحوادث فمن الجين الأدبي أن أرفض شهادتي لها بحجة أن كتاباتي قد استهزأ بها المنتقدون وغيرهم ممن لا يعلمون شيئاً في هذا الشأن ولا يستطيعون بما علقوه من الأوهام أن يحكموا عليها بأنفسهم . أما أنا فأسرد بغاية الصراحة ما رأيته بعيني وحققته بالتجارب المتكررة » .

وقال العلامة الألماني (كارل دوبل) في مجلة (ذوكنت) وقد تكلم في

إثبات مذهب مناجاة الأرواح قال : « إن العلوم الطبيعية قد تجارت على نكران خلود النفس فعاقبها الله بأن حكم عليها بأن تكون هي نفسها التي تقيم على ذلك الخلود البرهان القاطع » .

وقال الكاتب الكبير (جبريل دولان) في كتابه (الظاهرة الروحية) في طبعته الخامسة : « إنما نقارع أعداءنا بنفس أسلحتهم لارغامهم على الهزيمة فبنفس اسلوبهم نعلن على رؤوس الاشهاد خلود الروح بعد الموت » .

وكل النظريات المادية تزعم أن الانسان آلة مادية بسيطة مجردة عن الروح وكل العلماء الذين اتخذوا العلم المادي سلاحاً لاثبات مادية الانسان وعدم روحانيته قد كذبوا أشد التكذيب وظهر ضلالهم بالمشاهدات الحسية الروحية ... الى أن قال : « إن قوة مذهب مناجاة الأرواح وسيطرته على العقول آتية اليه من تركه حرية البحث لذويه ، فإن كل اصوله يمكن بحثها والمناقشة فيها وامتحانها ولكن ما وضعت للامتحان إلا خربت أقوى مما كانت قبلاً » انتهى .

هذا نزر يسير من أمر هذه الآلية المدهشة التي أرسلها الله الى اوربا في النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، ولا تزال الى اليوم تفتح الاعين العمي وتكشف القلوب الغلف وتسمع الآذان الصم .

فأين هؤلاء الكتاب الذين يتعاضمون على الرأي العام الشرقي بكلمات نقلوها عن العلم المادي ولم يكملوا معارفهم بما فتحه الله على الناس من هذه الوجهة الحسية للنفوس المطهرة للقلوب ؟ .

إننا لا تعرض في هذا الفصل لمناقشة هؤلاء العلماء الاوربيين في أن الذين يناجونهم هم الارواح حقيقة أم أنهم من الجن . ذلك بحث ندعه لفصل الروح . ولكننا نكتفي بأن نقول للقارئ أنه سواء كانت هذه الارواح ارواح الموتى أو من عالم الجن فقد حصل ما نرجوه من الدليل على وجود عالم وراء هذا العالم ، وأن المادة ليست شرطاً في قيام الحياة .

ولم يبق علينا بعد هذا كله إلا أن نثبت للقراء أن الذين يبحثون في هذه الحوارات هم رجال النهضة الأوروبية وأراكين العلم فيها ، لا كما يدعيه ملحدو الكتاب الشرقيين أنهم من الممخريين .

فقد روت مجلة المجلات الفرنسية الصادرة في سنة ١٨٩٥ م نقلا عن كتاب الاستاذ (روسل ولاس) : « إن عدد اشباع هذا المذهب بلغ عشرين مليوناً . ثم أضافت المجلة الى ذلك قولها : ولنصف الى هذا صفة اشباع هذا المذهب فهم إماماء أو أساتذة في الصناعة أو أطباء أو مهندسون . ثم قالت : ولا يصح أن نفرض أن هؤلاء الرجال يستعملون الغش والتدليس لانجاح الخرافات التي أثرت كثيراً على كرامة المباحث الروحية ، كما انه من الصعب أن تتهم هؤلاء العلماء بالسذاجة فان دقتهم الشديدة في التجارب العلمية أشهر من أن تذكر » . انتهى كلام المجلة الفرنسية ولقد ذكرنا الاستاذ (روسل ولاس) في هذا الفصل فوجب أن نعرفه للقراء بأنه أكبر علماء (الفزيولوجيا) في انكلترا ، وقد اكتشف ناموس الانتخاب الطبيعي الذي هو أحد أركان مذهب (داروين) ، وقد بحث في مذهب مناجاة الأرواح بروح علمية دقيقة سنين عديدة ، ثم ألف كتاباً أودعه مشاهداته العلمية أسماء (معجزات العصر الحاضر) قال في مقدمته : « لقد كنت مادياً صرفاً مقتنعاً بمذهبي تمام الاقناع ولم يكن في ذهني أدنى محل للتصديق بحياة روحية ، ولا بوجود عامل في هذا الكون كله غير المادة وقوتها ، ولكني رأيت أن المشاهدات الحسية لا تغالب ، فانها قهرتني وأجبرتني على اعتبارها أشياء مثبتة قبل أن أعتقد نسبتها الى الأرواح بمدة طويلة . ثم أخذت هذه المشاهدات مكاناً من عقلي شيئاً فشيئاً ، ولم يكن ذلك بطريقة نظرية تصورية ، ولكن بتأثير المشاهدات التي كان يتلو بعضها بعضاً بطريقة لا يمكن التخلص منها بوسيلة أخرى : (أي بغير نسبتها الى أرواح الموتى) . انتهى كلامه .

نقول إذا تقرر هذا فقد قام الدليل الحسي في هذا العهد على وجود الروح وعلى الحياة الآخرة ، وكان هذا الحال مصداقاً لقوله تعالى : « سنبهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » « ١ » .

علم استحضار أرواح الموتى

يقول اشياعه إن الحد الفاصل بين الأحياء والأموات ليس على ما يظنه الناس من الخطورة . فإن الموت ليس في ذاته إلا انتقالاً من حال مادي جسدي الى حال مادي آخر ولكن أرق منه وألطف بكثير . فأنهم يعتقدون ان للروح جسماً مادياً شفافاً لطيفاً ألطف من هذه المادة كثيراً ولذلك لا تسري عليه قوانينها .

ويقولون : إن الموتى بعد الموت مباشرة يكونون في عالمنا هذا بين أيدينا وعن إيماننا وشمائنا ولا يزالون كذلك مدة تختلف باختلاف درجاتهم الروحية ، ثم ينتقلون الى حال أرق من هذا وإن كانوا لا يبرحون العالم ، فإن العوالم في نظرهم اختلاف حالات ومقامات لا اختلاف جهات ومكانات .

ويقولون : إن الروح وهي في حالها الأول بعد خروجها من الجسد يمكن مكائتها بل ورؤيتها مجسمة بواسطة شخص يكون فيه الاستعداد لأن يقع في خدر عام عند إرادته تحضير الروح فتستفيد الروح من استعداده فيكلم الناس بفمه بلغات يجلبها كل الجهل ، وتنبئ عن أمور للحاضرين من أقاربها وخاصتها لا يدري الوسطة منها شيئاً بل وتكشف من أسرار العلم والفلسفة والرياضيات العويصة ما يجلبه الوسطة والسماع ولا يدركه من الناس إلا نفر يسير . وقد تستولي على يده فتكتب وعينه مغمضة صحفاً ورسائل . وقد تظهر بجسم مادي محسوس بينما يكون الوسطة ملق أمام الجريين مكتوفاً على كرسيه .

وسبب ربطه هكذا إن الذين يبحثون في هذه الأمور المدهشة من العلماء
 ماحدون ماديون لا يعتقدون بشيء لأجل أن يشقوا من صدق مشاهداتهم التي تهدم
 لهم كل مقررات فلسفتهم لا يرضون في حالة تجسّد الروح إلا أن تكون الغرفة
 مغلقة والفرش مفتشة والواسطة موثقا على كرسيه بأربطة متينة مسمرة أطرافها
 بالأرض ، ولا يكتفون بذلك أيضاً بل منهم من وضعه في قفص حديدي ووضع
 كرسيه على سطح مائي وأوصل بيده سلكاً كهربائياً متصلاً (بجلو اتومتر) ليسجل
 عليه كل حركة وكل نفس ، ولم يكتف بذلك بل أرصد له من يراقبه من اخوانه
 العلماء ، ورغمما عن ذلك كله تظهر الروح مجسمة بتبدىء أولاً بشكل سحابة منيرة ثم
 تأخذ في التشكل شيئاً فشيئاً حتى تصبح على شكل إنسان منير . ثم تتكاثف حتى تصبح
 دماً ولحماً وعظماً أمام أعينهم فقط أمامهم وتطوف حولهم عالية بقدميها عن الأرض
 قليلاً لا بسة هيئة عريّة بدوية متمثلة بشراً سوياً . ولكن شهود أن جسمها يكون
 ليناً لدرجة أن الانسان لو ضغط يدها بين أصبعيه تنبعج بينهما حتى يتلاقيا كأنها عجينة
 ذو قوام متماسك ، لكن شهود أن لها نبضاً وقلباً وتنفساً وكل ما للجسم الحي .

فلما نسأل أنى لها هذا الجسد ؟ تقول إنها استعارته من الواسطة ، وفي
 الواقع إذا وزنت الواسطة وجد أن جسمها قد نقص نصف وزنه وقد شهود أن
 الجزء الأسفل من الواسطة تلاشى بالمرة وصار لا وجود له فلما ذهبت الروح عاد إليها
 هذه الأمور جربت في كل عاصمة وتولى شأنها العلماء الأعلام من كل قبيل
 فلم تزد على مرّ الأيام إلا انتشاراً وثبوتاً . وقد بلغ عدد اشيعائها كما روته مجلة
 المجلات الفرنسية نقلاً عن الاستاذ (روسل ولاس) أكبر (الفزيولوجيين)
 الانكليز الى عشرين مليوناً قالت المجلة : « ولنضيف الى هذا صفة اشيع هذا المذهب
 فهم إما علماء أو أساتذة فنيون أو أطباء أو مهندسون » . ثم قالت : « لا يصح أن
 نفرض أن هؤلاء الرجال يتذرعون بالغش والتدليس لانجاح الحرافات التي أثرت

كثيراً على سمعة المباحث الروحية ، كما أن من الصعب أن نتهم هؤلاء العلماء بالسذاجة فإن دقتهم في التجارب العلمية أشهر من أن تذكر . انتهى .

لما انتشر هذا المذهب بين علماء أوربا تألفت سنة ١٨٦٩ م جمعية من أكابر علماء (لوندرة) لفحص هذه الخوارق فحصاً دقيقاً علمياً ، وكانت هذه الجمعية مؤلفة من العلامة (جون لبوك) وهو اللورد افبري رئيساً لها ، ومن « كروكس » أكبر علماء انكلترا الطبيعيين و « لويس » الفزيولوجي الشهير وكيلين لها ، ومن الفريد « روسل ولاس » الفزيولوجي الكبير ومكتشف ناموس الانتخاب الطبيعي وهو نند « داروين » ومن « دومرجان » رئيس الجمعية الرياضية ، و « فارلي » رئيس مهندسي قومبا نيات التلغراف ، و (جان كوكس) الاصولي الفيلسوف ، و (اكسون) استاذ في كلية اكسفورد . . . الخ

فلما تكونت هذه الجمعية اشترأب الناس من سائر أقطار الأرض لسماع حكمها الفصل الذي لا يقبل استثناءً ، فاستمرت في البحث المتواصل ثمانية عشر شهراً وكانت النتيجة تأكيدها صحة تلك المشاهدات الخارقة للعادة وكتبت بذلك تقريراً مطولاً منه هذه الجملة .

« إن الجمعية اقتصررت في تقريرها على المشاهدات التي رآها كل الأعضاء ابتدأوا البحث وهم في أشد درجات الجحد لهذه الأشياء ومعتقدون قلباً وقالباً انها ليست إلا نتيجة الغش أو الوهم أو بالأقل نتيجة عمل اضطراري للأعصاب ، ولكن بعد أن وضحت لهم هذه الحوادث وضوحاً تاماً في شروط نفت كل تلك الفروض وبعد تجارب دقيقة جداً تكررت مراراً لم ير هؤلاء الأعضاء المنكرون بداً من اعتقاد هذه الخوارق حقيقة رغم أنوفهم . انتهى .

هنا يحسن بنا أن نعطي جدولاً من أسماء مشاهير رجال العلم الذين يعتقدون بهذه الخوارق ممن لا يستطيع أحد جحود فضلهم وإنا نستخرج هذا الجدول كما يجبيء لا باستقصاء فإن الاستقصاء يوصلنا الى ذكر الالوف فإليك :

من علماء انكلترا

- ١ - دو مرجان
- ٢ - ولیم کروکس
- ٣ - لودج
- ٤ - میرس
- ٥ - فارلي
- ٦ - اكسن
- ٧ - تشامبرس
- ٨ - هودسن
- ٩ - موزس
- ١٠ - بلغور
- ١١ - روسل ولاس
- ١٢ - باريت
- ١٣ - جون لبوك
- ١٤ - لويس
- ١٥ - نجون كوكس
- ١٦ - جوسكستون
- ١٧ - جوجلي
- ١٨ - باركس ١٠٠٠ الخ

من علماء فرنسا

- ١٩ - دكتور دوزار
- ٢٠ - موتنيه

- ٢١ - كاميل فلا مريون
- ٢٢ - اولفقيه
- ٢٣ - ساردو
- ٢٤ - جول بواء
- ٢٥ - اوجين تو
- ٢٦ - دوروشاس
- ٢٧ - داربيكس
- ٢٨ - ريشيه
- ٢٩ - شارل فوفتي
- ٣٠ - جان فينو
- ٣١ - فيكتوهوجو
- ٣٢ - جريمار... الخ

من علماء امريكا

- ٣٣ - مايس
- ٣٤ - هارس
- ٣٥ - اليوت
- ٣٦ - ادمون
- ٣٧ - هيزلوب... الخ

من علماء ألمانيا

- ٣٨ - زولز
- ٣٩ - فيشنز
- ٤٠ - اولتريسي

٤١ - ونير

٤٢ - سبنسر

٤٣ - وندت . . . الخ

من علماء إيطاليا

٤٤ - لومبروزو

٤٥ - كيايا

٤٦ - مورسلي

٤٧ - كيابارلي . . . الخ

ابتداء اكتشاف هذا العلم كان سنة ١٨٤٦ م وذلك أنه كان رجل اسمه « فيكان » ساكناً في قرية « هيدسفيل » من مقاطعة نيويورك بأمريكا فسمع ذات ليلة طرقات متعددة على أرض بيته فذهب ليكتشف الفاعل فأعيتة الحيلة فصبر على مضض . ولكنه قام ذات ليلة مذعوراً من صراخ ابنة صغيرة له فسأها عما نأبها فزعمت بانها أحست بيد مرت على جسدها وهي في سريرها ، فلم ير الرجل بداً من هجر منزله خلفه فيه رجل منور يقال له « جون فوكس » فحصل لأسرته ما حصل لسابقتها من الأصوات التي لا تجعل للنوم مساعاً الى الجفون . فكانت مدام فوكس تنادي جيرانها وتستهين بهم في البحث عن الفاعل فلم يهتموا اليه فتجاسرت هذه المرأة ليلة وقالت لذلك الطارق : أحدث عشر طرقات ، ففعل ، فقالت له : كم عمر ابنتي « كاترينه ؟ » فطرق طرقات على قدر عدد سني عمرها ، ثم قالت له : إن كنت روحاً فأحدث طرقتين ففعل ، ثم قالت : إن كنت اوديت من شيء فأحدث طرقتين أيضاً فأحدثهما . ولم تزل به هذه المرأة حتى علمت بواسطة الطرق انها روح رجل كان ساكناً في ذلك البيت فقتله جاره ليسرق ماله ودفنه فيه .

فلم يسع « مدام فوكس » إلا استحضار الجيران واستجواب الروح أمامهم فأجابت بما جعلهم دهشين مقتنعين في آن واحد . فكان الحال كما اخبرت الروح

وضبطت الحكومة الواقعة وأجرتها مجراها القانوني ، فشاع أمر هذه الحادثة في كل اصقاع امريكا وكثر ظهور مثلها في كل جهة ، لأن أمثالها كان يظهر في كل حين فلا يلتفت له أحد ، فكلّف الخاصة بالتدقيق فيها علمياً وعملياً . بحثها القانوني الشهير (ادموندس) الذي كان رئيس مجلس الأعيان في الولايات المتحدة فاعتقد صحتها وألف فيها كتاباً ضخماً سنة ١٨٦٥ م وتبعه الاستاذ (مابس) استاذ الكيمياء في المجمع العلمي الأمريكي فنسب حصولها لأرواح الموتى ، ولكن الأمر الذي أحدث الدوي الكبير هو اعتقاد الاستاذ الشهير (روبرهار) بهذا المذهب وتأليفه فيه كتاباً سماه (الابحاث التجريبية على الظواهر الروحية) .

نشبت القتال من ذلك اليوم بين المصدقين والمكذّبين ولم يبق عالم ولا كاتب ولا كاهن إلا وألقى بنفسه في تلك الممعة العلمية . فانتقل المذهب من امريكا الى انكلترا وصادف فيها نصراء من الطبقة العليا ولكن بعد قتال عنيف ولم يمتنع أكابر العلماء من الدخول فيه مقتدين بالاستاذ الطائر الصيت أحد رؤساء الجمعية الملكية الانجليزية (كروكس) حيث يقول في كتابه (الابحاث على الحوادث النفسية) .

« وبما أنني متحقق من صحة هذه الحوادث فمن الجبن الأدبي أن أرفض شهادتي لها بحجة أن كتاباتي قد استهزأ بها المنتقدون وغيرهم ممن لا يعلمون شيئاً في هذا الشأن ولا يستطيعون بما علقوه من الأوهام أن يحكموا عليها بأنفسهم . أما أنا فسأسرد بغاية الصراحة ما رأيته بعيني وحققته بالتجارب المتكررة » . انتهى .

أخذ هذا المذهب من ذلك الحين في الانتشار حتى وصل الى ما هو عليه الآن له ملايين من المعضدين وأكثر من ٢٠٠ مجلة تدافع عنه وتنشره ، وقد طعن مذهب الماديين طعنة لا براء له منها الى يوم الدين .

كان علماء المادة يصيحبون في وجوه المتدينين انكم ضالون مفتونون تعتقدون الأوهام والظنون وتعبدون أنفسكم لما وضعه الأقدمون وسطره منهم الممخرقون

ما الروح ما الخلود ما الملائكة ما الجن ما الحساب ما العقاب . كل هذه توليدات الخيال وتزيينات الاماني .

والحقيقة ألا وجود لغير المادة ولا بقاء للانسان إلا في هذا العالم ولا روح له إلا مثل ما للحيوان ، ولا حساب عليه إلا مثل ما يؤاخذ به القانون والرأي العام ، ولا مكافأة إلا ما يناله من حسن سيرته بين اخوانه الارضيين . وإلا فهل لديكم دليل محسوس على وجود الروح وهل رأيتم عالم ما وراء الطبيعة ؟ .

كان علماء المادة في اوربا يصيحون صيحات مزعجة بأمثال هذه الجمل وكتبهم شاهدة بما نقول فلم يكادوا يرددونها قليلاً ويفرحون بما هم فيه من السلطة المادية حتى غشيتهم من قبل حسهم ماغشيتهم فظهرت هذه الآيات تثبت لهم بالحس أن لهم روحاً وأن هنالك عالماً آخر ، وأن المادة ومظاهرها ليست إلا غلافاً غليظاً لعالم نوراني بديع باهر ، فكان الحال كما يقول العلامة الألماني الشهير (كارل دوبل) في مجلة (ذو كمنفت) قال : « إن العلوم الطبيعية قد تجرأت على تنكران خلود النفس فعاقبتها الله بان حكم عليها بأن تكون هي نفسها التي تقيم على ذلك الخلود البرهان القاطع » .

هذا المذهب أخذ على عهده إثبات وجود الروح بالبرهان المحسوس في عصر لا يصدق بنوه إلا ما يروونه بأعينهم ، فما عذر الكافر فيه الذي يكذب ويشدد النكير على المعتقدين ؟ إلا أن يكون من الجمود وخمود الحرارة الانسانية بالدرك الاسفل أما الذين يودون الجمود مع نظريات الملحددين البائدين بعد ما ظهر في عالم العلم ما يؤيد الحق وينصره بالاسلوب العصري البالغ حسد الدقة والمهارة فهم في غي ليس بعده غي نفوذ بالله من قنمة الطين الاصم .

إليك في هذا الشأن ما كتبه الكاتب « ج دولن » في كتابه « الحادثة الروحية » في طبعته الخامسة . وفيها من كسر أسلحة الماديين وإحالتهم للتسليم ما فيها قال في صفحة ٢٨٣ منه : « كان الماديون قبل قليل من الزمن يستطيعون أن يطرحوا

براهين الفلاسفة المملين قائلين لهم إنها ليست على اسلوب يوصل الى حقيقة ولكن باتباع اسلوب الروحانيين لا يخشى من الماديين العود الى مثل هذا الرفض . فانا لا نقول للناس يجب عليكم أن تعتقدوا ما افوض علينا بالتسليم وعدم الدليل ، ولم نحرّم حرية البحث على أحد من العالمين . بل بالعكس نقول لهم : هلموا اقرأوا وجربوا واجتثوا كلما يؤكد لكم صحة الحوادث التي ظهر نورها للناس أجمعين وكونوا بمجائين مدققين ولا تسلموا بصدق مشاهدة إلا إذا استطعتم أن تكررورها بأنفسكم كثيراً وفي شروط مختلفة .

وبالاختصار نقول لكم : تقدموا والحذر ملاء أفدتكم في سبيل الوقوف على هذه الجاهيل لان الذي يحشم نفسه بناء اصول جديدة يكون معرضاً للغلط والضلال متى درست حادثة من تلك الحوادث تجدها تحذرك بذاتها على كنه طبيعتها ومقدار خطورتها .

أليست هذه الطريقة هي اسلوب الفلسفة العلمية عينها ؟ بماذا يستطيع أن يلاحظ أشد الماديين شكيمة على أمثال « روبرهارس » والاستاذ « مابس » والمستر « اكسون » ؟ .

إنما إنما نقارع أعداءنا بنفس أسلحتهم لارغامهم على الهزيمة ، فبنفس اسلوبهم نعلن على رؤوس الاشهاد خلود الروح بعد الموت .

« كل النظريات المادية تزعم أن الانسان آلة مادية بسيطة مجردة عن الروح وكل العلماء الذين اتخذوا العلم المادي سلاحاً لا ثبات مادية الانسان وعدم روحانيته قد كذبوا أشد التكذيب وبأن ضلالهم بالمشاهدات الحسية الروحية . . . الخ الى أن قال : إن قوة علم استحضار أرواح الموتى وسيطرته على العقول آتية اليه من تركه حرية البحث لذويه ، فان اصوله يمكن بحثها والمناقشة فيها وامتحانها ولكنها ما وضعت للامتحان مرة إلا خرجت أقوى مما كانت قبلاً » . انتهى .

نقول : جمهور العلماء المشتغلين بهذه المباحث مجمعون على صحة الحوادث الروحية ومعتقدون انها آتية على موجب نواميس أرقى من عالم المادة وان منتجها عقل اسمى من عقل الانسان ولكنهم مختلفون في جنس تلك العوامل العاقلة فمال الأكثرون الى تصديقها في التأكيد انها أرواح الموتى بعد ما رأوا من الأدلة على ذلك ما يعد بالالوف وهم بعد أن رأوا ظهور الروح مجسدة بشكل الميت وهيئته وصورته وكيفية تحيته واسلوبه في كلامه وعلمه تمام العلم بحالة أسرته وجزئياتها بل وتذكيره لأهله أشياء كانت غائبة عن ذاكرتهم . بعد أن رأوا هذا سلموا بأن تلك الأرواح التي تجسدت هي أرواح الموتى حقيقة .

وأما القسم الثاني فقد اعتقد كما قلنا ظهور تلك الأجساد حقيقة ولكن علق حكمه عليها من حيث انها أرواح الموتى أو أشخاص عالم آخر . وما يعلم جنود ربك إلا هو . ونحن مع هذا القسم نعلق حكماً عليها حتى نزداد بها علماً . والله يهدينا الى سواء السبيل .

إنما الأمر الذي لا مرية فيه هو أن هذه المباحث قد أقامت أقوى الأدلة المحسوسة على بطلان قول الماديين ومن بقي منهم بعد الآن فسلحه مغلول وعلمه مدخول ولا يعبأ بقوله إلا ضعفاء العقول



وليكن هذا آخر الجزء الاول . ويتلوه الثاني

إنشاء الله تعالى ونسأل الله التوفيق

الى الهدى والسداد والصلاح

لنا ولجميع البشر . والحمد لله

أولاً وآخرأوله

المجد والعظمة

محتويات الكتاب

الاستهلال

الاهداء . كلمة المؤلف

تقديم الكتاب

الصفحة

الموضوع

١	القرآن منهاج السعادة
٣	معاملة السلف للقرآن
٧	محفل مصر وخطبة جمال الدين الأفغاني
٩	خطبة السيد الأفغاني
١٢	مقررات المحفل المصري
١٧	الدعوة الى العمل بالقرآن
١٨	الآيات المشوقة لطلب الدنيا
١٩	الروايات المشوقة على طلب الدنيا
١٩	عتاب رسول الله (ص) لعثمان بن مظعون لما تخلى عن الدنيا
١٩	عتاب علي (ع) لعاصم بن زياد لما ترك الدنيا
٢٠	دفع اعتراض مع وصف شرح الدنيا مذمومة وممدوحة
٢١	خطبة لأمير المؤمنين «ع» في مدح الدنيا وذم من ذمها
٢٤	الدنيا في نظر الانجيل الفعلي للمسيحيين
٢٦	الكتاب السماوي هو منهج الحياة وقانون الاصلاح

الموضوع	الصفحة
خطبة لأمر المؤمنين «ع» في وصف القرآن ونعته	٢٧
حكاية تُسمع	٢٩
اسمعوا ولا تسمعوه خلافاً	٣٠
المتجددون الطائشون والتفرنج الفاسد ، الاسلام هو الجامع بين الدين .	
الصحيح والحياة العملية ، نصيحة المسيوتونون الى المتفرنجين في الشرق	٣١
حقيقة التجدد ومعناه	٣٤
أبيات للرحوم السيد مهدي الأعرجي حول التجدد	٣٥
التوحيد أساس الرقي	٣٦
فلسفة أهمية التوحيد	٣٩
تنزيه القرآن لله عن مشابهة الممكنات	٤٠
حكمة معادلة سورة التوحيد لثلث القرآن	٤٤
صفات الله في نظر القرآن	٤٥
الله قديم أبدي « هو الأول والآخر »	٤٩
الله حي « الله لا إله إلا هو الحي القيوم »	٥٠
الله هو المرید « إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون »	٥١
الله قادر « وكان الله على كل شيء قديراً »	٥٢
مقايسة تعاليم القرآن المجيد في ذات الله وصفاته مع تعاليم العهدين	
عند المسيحيين	٥٣
الله في نظر التوراة مع ملكين ظهر لآبراهيم (ع) يأكل الخبز والزبد	
والعجل المشوي	٥٥
اعتراض مسيحي	٥٦

الموضوع	الصفحة
جواب مجدي	٥٧
الله في توراة مسيحي هذا العصر جاهل كذاب خائف من العباد .	٦٠
عشق الله ومغازلته النساء حسب كتابة التوراة	٦٢
القرآن دستور الدين الاسلامي	٦٤
شهادات علماء الغرب . بعض الآيات الدالة على فعل الخير والمبرة التي لم توجد في غيره من الكتب السماوية . الحكمة في نزوله منجأ أول آية نزلت منه ، آخر آية نزلت منه ، غدير خم والقول فيه .	
تعليم القرآن بالاضواء الفاضلة	٧٧
ضرر الزنا وما ينتجم منه من الأمراض المعدية ، الافرنجي ، السيلان ، القرحة اللينة	٨٣
القرآن ومعارف المعارضين	٨٧
تعريف الفصاحة والبلاغة ، الآيات الدالة على إعجاز القرآن وفصاحته ، قرآن مسيئة الكذاب ، قرآن أبي الطيب المتنبي ، قرآن أبي العلاء المعري ، قرآن علي بن محمد الباقي ، معارضة ما جاء به علي بن محمد من أباطيل وخرافات ، مقارنة القرآن مع هذه الكتب صورة أخرى لاسلوب القرآن ، ترتكز على العقل تتضمن بعض معجزاته العلمية	١٠٢
الوجهة الاسلامية في تعرف الأحوال النفسية	١١٢
التمرة القومية ، والفكرة الاسلامية	١١٨
مضار السينما وانها مفسدة للمجتمع	١٢٢
القضاء والقدر ، بحث علمي دقيق	١٢٤

الاسلام دينه الفطرة

١٣٤

نقاط علمية في هذا الموضوع . لا قياس للدين الاسلامي مع غيره من سائر الأديان
اعتراضات على بعض نقاطه العرضية ودحضها . تعدد الزوجات ، دحض شبه المعترضين
السلام على تعدد الزوجات بين المسلمين ١٤٠

الزواج

١٥٠

وحدة الزوجة وتعدد الزوجات ، تعدد الزوجات في الاسلام ، الزواج عند الامم
المختلفة ، التزوج بالحرام ، الزواج عند اليونانيين ، الزواج عند الرومانيين ، الزواج
عند المسيحيين ، الزواج في الاسلام ، ازمة الزواج في العصر الحاضر .

محجبات النساء

١٧٧

الحجاب في الاسلام ، تدمير رجال الفكر في اوربا من تحرير المرأة ، من يزعم
أن الحجاب صاد للمرأة عن العلم ، دحض هذا الزعم ، ادعائهم أن الحجاب مفسد
للأخلاق ، دحض هذا الادعاء ، قولهم كثرة الطلاق من رزايا الحجاب ، دحض
هذا القول ، خداع الرجال للنساء .

المرأة في الاسلام

١٨٩

حفظ حقوق المرأة في شريعة الاسلام ، تربية الامهات للاولاد قديماً ، لا يصلح
للمرأة أن تكون حاكمة إدارية أو مديرة ناحية ، استنهاد للحرائر النجيبات من
النساء ، حركة عائشة وأول معركة في الاسلام العداء بين المسلمين بواسطة هذه
الحركة ، قتل أعظم الصحابة وقواد المسلمين بسبب هذه الحركة ، مواقف بعض
الحرائر دفاعاً عن الحق وثورتهم على الظلم ، موقف فاطمة بنت الرسول محمد (ص)
موقف زينب الكبرى بنت علي (ع) .

٢٠٢

مهربت الزباب ووقوفه في الزناء

الحديث آية من آيات النبوة ، ومعجزة من معجزات الدين الاسلامي ، سؤال
الاستاذ الجليل الشيخ يوسف الدجوي عن فلسفة الحديث ، الجواب على ذلك ،
تمهيد مقدمة ترتبط بالمقصود ، الشواهد والأمثلة ، الطب الحديث وما يقوله في
الموضوع بخصوصه ، كلمة ختامية لا بد منها .

٢١١

معرفة الانسان نفسه

معرفة الانسان تتوقف على عدة امور ، خلافة الله في الارض ، تعليم الاسماء
لآدم ، معرفة فضل العلم والعلماء ، آراء ونظريات في العلم والعلماء . .

٢٣٥

العلم وتطوره

القصص في القرآن يراد بها بعث الهمم وشحذ الازهان ، موسى بن عمران والنار
والشجرة ، الاسلام دين علم وعمل ، عقوبة الله لمن عادى العلم والعلماء ، المتوكل وعداؤه
العلم وقتله العلماء ، عز العلم في ظل الدولة البويهية ، عز العلم في ظل الدولة السامانية
في تركستان ، رقي العلم بالاندلس في عصر الدولة المروانية ، رقي العلم في الدولة
الفاطمية بمصر ، مطاردة صلاح الدين الايوبي للفاطميين أولاد علي وفاطمة حتى
أبادهم وحى أثرهم .

٢٤٦

الطب وأثره في الاسلام

آراء العلماء في من وضع الطب ، بناؤهم على أن الطب لا يعدو ثلاثة أحوال ،
التجربة ، الالهام ، المصادفة ، النوادر التي وقعت في هذه الحالات ، من بدائع
وعجائب الاسلام في الطب ﴿ السواك ﴾ .

عناية الاسلام بصحة الانسان

٢٥٩

تحريم الاسلام لجملة من المأكولات نظراً لما فيها من الميكروبات المضرة بالصحة ،
 الميتة وفلسفة تحريم أكلها ، فلسفة تحريم ما أكل السبع ، فلسفة تحريم شرب الدم ،
 فلسفة تحريم أكل الغدد والطحال والاثني عشر والقضيب والمثانة ، فلسفة تحريم
 أكل لحم الخنزير ، آيات الدكتور أحمد عارف ، فلسفة تحريم أكل ما لم يذكر اسم
 الله عليه ، فلسفة تحريم أكل ما أهلك به غير الله ، فلسفة تحريم شرب الخمر ولعب
 القمار ، آية تحريم شرب الخمر وهي قوله تعالى ، ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر
 والميسر الخ ﴾ . دالة على تحريم شرب الخمر والميسر من وجوه .

الطب والرسول محمد ٢٧٦

الطب والامام علي «ع» ٢٧٩

نواذر لعلي «ع» في الموضوع .

الطب والامام الرضا «ع» ٢٨٤

الرسالة الذهبية لامام الرضا

الفلسفة والتشريح في رسالة الامام ، شرح الدكتور زيني لرسالة الامام ، قوله :
 خذ من الطعام ما يوافقك ، ذكره «ع» لفصول السنة ، وصفه للشراب ، خلق
 الانسان من مرتين ودم وبلغم ، قوله «ع» في السواك ، نصائح طبية متفرقة ،
 الشباب والكهولة والهرم ، ومن نعيمه تنكسه ، قوله «ع» في الحجامة ، شرح
 الدكتور زيني لهذا الفصل من قول الامام ، قوله (ع) في المأكول والمشرب وما يضر
 الجمع بينها ، عدم توافق التركيب ، قوله (ع) في الحمام ، صحة الجلد ، قوله (ع)
 في نصائح عامة ، قوله (ع) في صحة المسافرين ، قوله (ع) في آداب الجماع ، شرح
 الدكتور زيني لهذا الفصل من قول الامام .

الظواهر الطبية ، في الامايب النبوية

٣٣٢

فلسفة حرمة قتل النفس ، فلسفة تحريم الزنا ، وظيفة أعضاء التناسل وغايتها التي خلقت من أجلها ، أسباب الزنا ، ١ - النظر الى النساء ، ٢ - اختلاط الرجال بالنساء والحلوة بهن ، ٣ - مخالطة قرناء السوء ، ٤ - تهتك النساء وتبرجهن ، ٥ - انتشار الخمر بين الجمهور ، ٦ - انتشار محال الرقص والغناء ، ٧ - تدهور أخلاق الشبان ، ٨ - مطالعة الكتب الروائية والروايات الغرامية ، ٩ - فقد الحياء من النساء والغيرة من الرجال ، مضار الزنا من الوجهة الصحية ، علاج الزنا ، عناية الفراعنة بعفاف المرأة .

حديث حرمة وطء الحائض وفلسفته ٣٥١

الصوم وفوائده الصحية

آداب الأكل ٣٥٣

النظافة ٣٥٤

السواك وفوائده الصحية ، وأبيات الدكتور أحمد عارف ٣٥٦

الكلاب وأخطارها ٣٥٨

حديث - الفطرة خمس وفلسفته ٣٦٢

حديث - لا يبولن أحدكم في الماء الدائم وفلسفته الطبية

حديث - لا عدوى ، ولا طيره ، ولا صفر ٣٦٣

حديث - فر من المجذوم فرارك من الأسد وفلسفته الطبية

حديث - الطاعون زجر ارسل على طائفة من بني إسرائيل فاذا سمعتم به بأرض

فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه وفلسفته

الطبية ٣٦٤

العين والرقية ٣٦٥

الموضوع	الصفحة
الحث على العلاج	٣٦٦
بعض طرق العلاج	٣٦٧
العلاج بالأدوية	٣٦٧
المداداة بالاعسل	٣٦٨
حديث الحجاماة والاعسل والسكي	٣٦٩
حديث الحجاماة والاعسل	٣٧٠
حديث الحبة السوداء	٣٧٢
حديث الحلبة ، حديث زيت الزيتون ، السنا والحناء	٣٧٤
الخمرة ومضارها	٣٧٦
الخمرة في اللغة ، الخمرة في أول التحريم ، مضار الخمرة الصحية ، مضارها في العقل ، تأثيرها في الدم ، تأثيرها في جهاز التنفس ، تأثيرها في المجموع العصبي ، مضارها في التعامل ، مضارها المالية ، مضارها في الدين ، مضارها المعنوية ، منافع الخمرة ، الميسر وأقسامه ، مضار الميسر ، منافع الميسر ، إثم الميسر ، وصية بعض العقلاء لولده ، الانفاق وأثره في المجتمع ، النسكة في الجمع بين السؤال عن الخمر والميسر وعن الانفاق في آية واحدة ، إرشاد الله لعباده .	
مضار الخمرة الاجتماعية	٣٩٤
النداء الى الشباب العراقي ، اهتمام السلف باقامة الحدود الشرعية ، هجوم المدنية الغربية على الشرق ، مضار الخمرة لكل ذي روح ، سلسلة الحوادث الجرمية وينابيع شرها منبعث عن الخمرة ، احصائيات النفوس التي تفقد في المائات سنوياً بسبب الخمرة تنبه الدول الى هذا الخطر الويل ، اتخاذ الولايات المتحدة وسائل شتى لتخفيف وطأة الخمر ، تأليف جمعية في انكلترا لمكافحة الخمر ، اصدار قانون في المجلس	

الموضوع

الوطني في أقرة يقضي بتحريم الخمر ، خطبة طيبب اخصائي بالتشريح ، زعم المعتدلين في الشرب ، دفع هذا الزعم .

الزكاة والاشتراكية الصحيحة ٤٠٢

المبشرون ٤١١

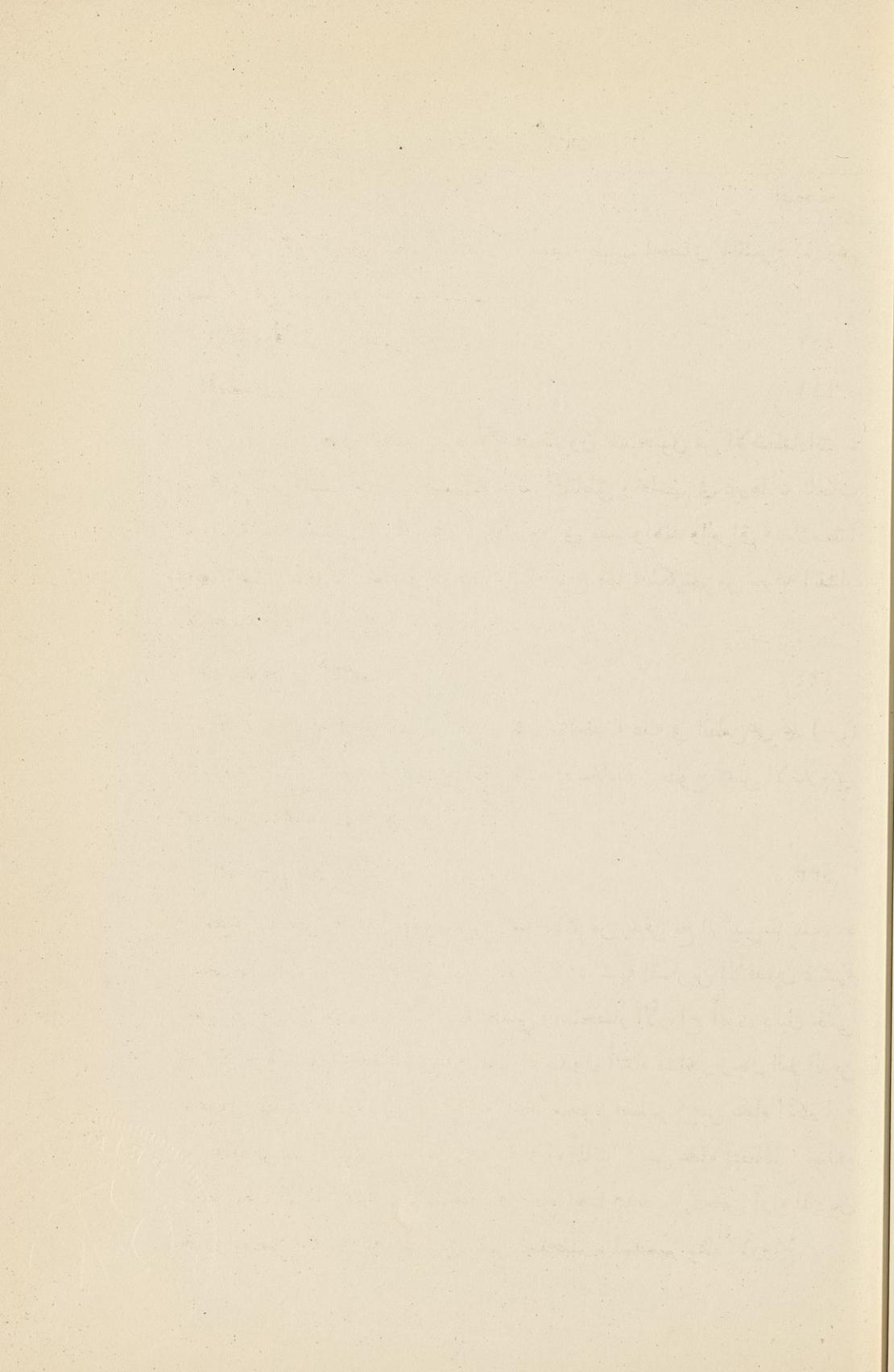
أول من سن اصول التبشير ، ما لاقاه المبشرون المسيحيون من الاضطهادات ، صبرهم وثباتهم المدهش ، فشلهم في بعض المناطق ونجاحهم في غيرها ، البعثات البروتستانتية ، المبشرون والاسلام ، المبشرون في مصر والهند والعراق ، ملاحظتنا عليهم اموراً نستغرب كيف لم يحترزوا من الوقوع فيها ، شكائتهم من سرعة انتشار الاسلام وقوة تأثيره على النفوس .

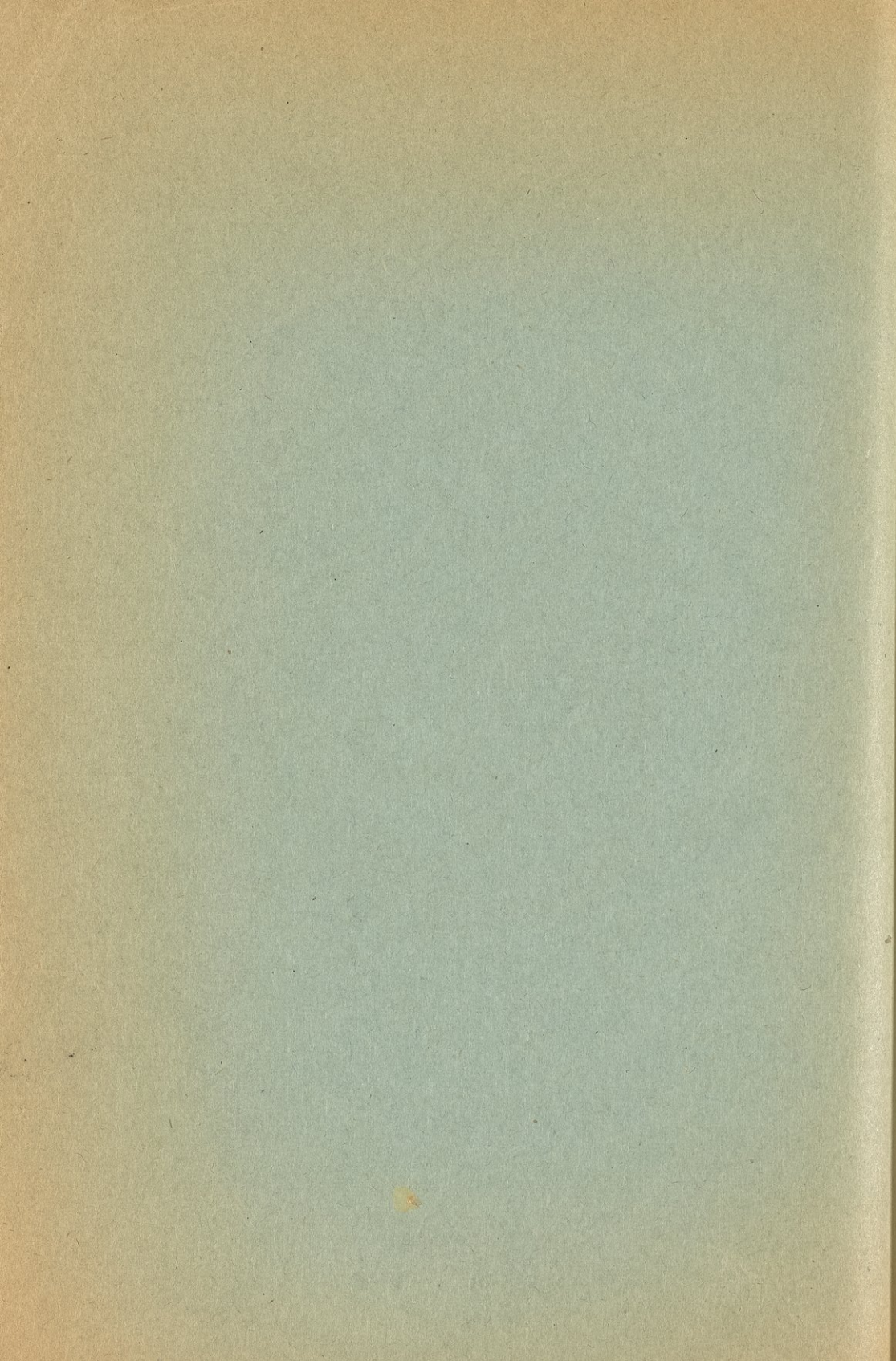
الاسلام والمسيحية ٤٢٤

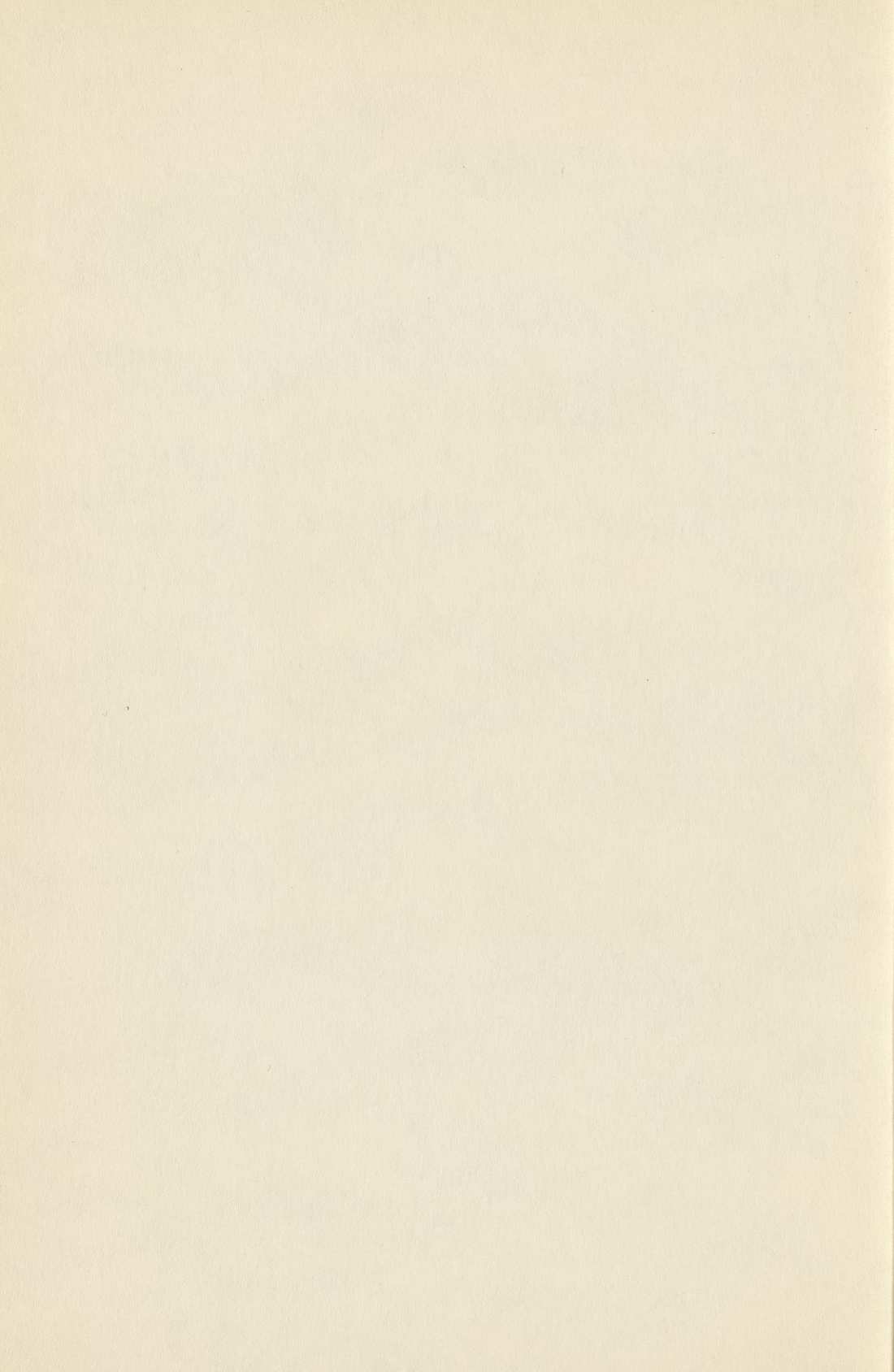
مناقشة مع الصحافي « اللورد كرومر » ، مؤاخذتنا عليه في الطعن على محمد (ص) وشريعته ، المدنية الحديثة الاوربية مع المدنية الاسلامية ، طلوع شمس الاسلام في سماء الغرب فلا ت كونه نوراً وإشراقاً .

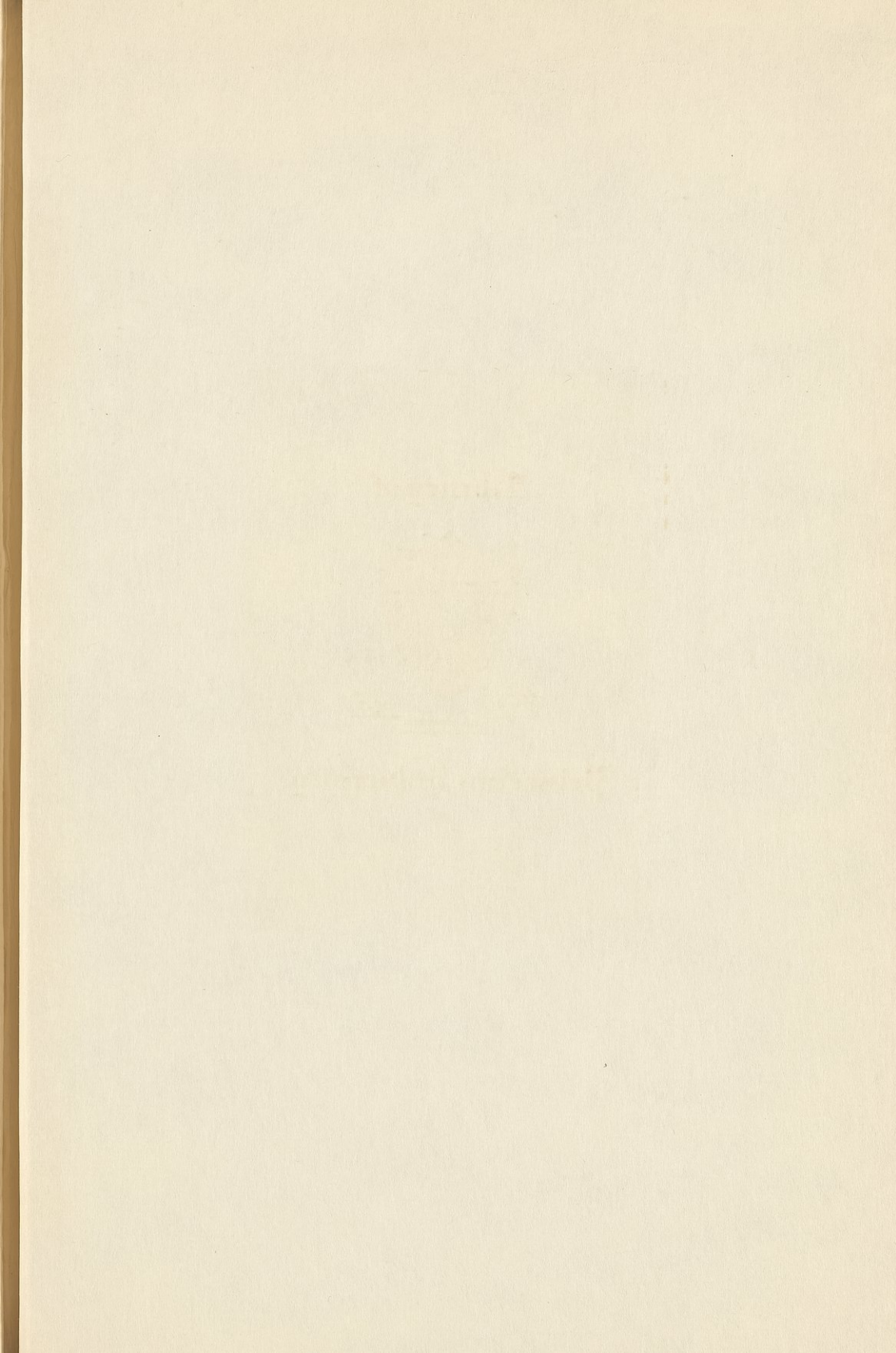
البحث عن الاسطورة ٤٣٣

العقيدة بالآخرة قديمة كقديم الدين ، من الامم من يدفن مع الرئيس ما يملكه ، ومنهم من يقتل معه من يحبه ، إثبات الآخرة ، شبهة المنكرين الاقدمين ، شبهة العصرين على الآخرة ، التنويم المغناطيسي واستحضار الأرواح أقوى دليل حسي على الآخرة ، علم استحضار أرواح الموتى ، جدول أسماء مشاهير رجال العلم الذين يعتقدون بهذه الخوارق ممن لا يستطيع أحد جود فضلمهم ، من علماء انكلترا ، من علماء فرنسا ، من علماء امريكا ، من علماء ألمانيا ، من علماء إيطاليا ، ابتداء كشف هذا العلم ، انتشار هذا المذهب ، أنصار هذا المذهب ، دحض آراء الماديين حول الموضوع ، مقارنة المنكرين بنفس أساليبهم ، تسليمهم ببقاء الأرواح .









Library of



Princeton University.

Princeton University Library



32101 074487768